

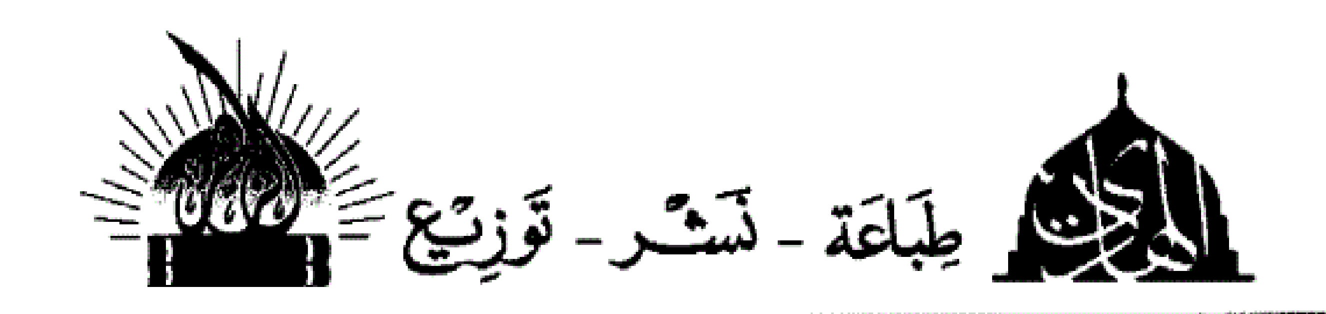

كتاب فتوح الغيب



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م





دمشق ـ سوريا ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الشلاح ـ ومجمع الحلبوني للمكتبات
مكتب ومكتبة / هاتف: ٢٤٥٢٢٩٦ ١١ ٩٦٣ + ـ ص ب: ١٢٤١٠ / دمشق
مكتب / فاكس: ٢٢٣٧٥٣٠ ١١ ٩٦٣+
جوال: ٣١٩٩٩٣ ٩٥٥ ٩٦٣+ ـ ٢٩٦٢٢٨ ٩٦٦ ٩٦٣ +
بيـروت ـ لبنـان: ص ب: ١١٣/٦٢٠١ بيروت

E-mail:hadi.za@mail.sy



تأليف

العارف بالله تعالى الشيخ الجليل

عبد القادر الجيلاني

رحمه الله تعالى

٤٧٠ - ٥٦١ هـ

مع تعليقات شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم
بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي

رحمه الله تعالى

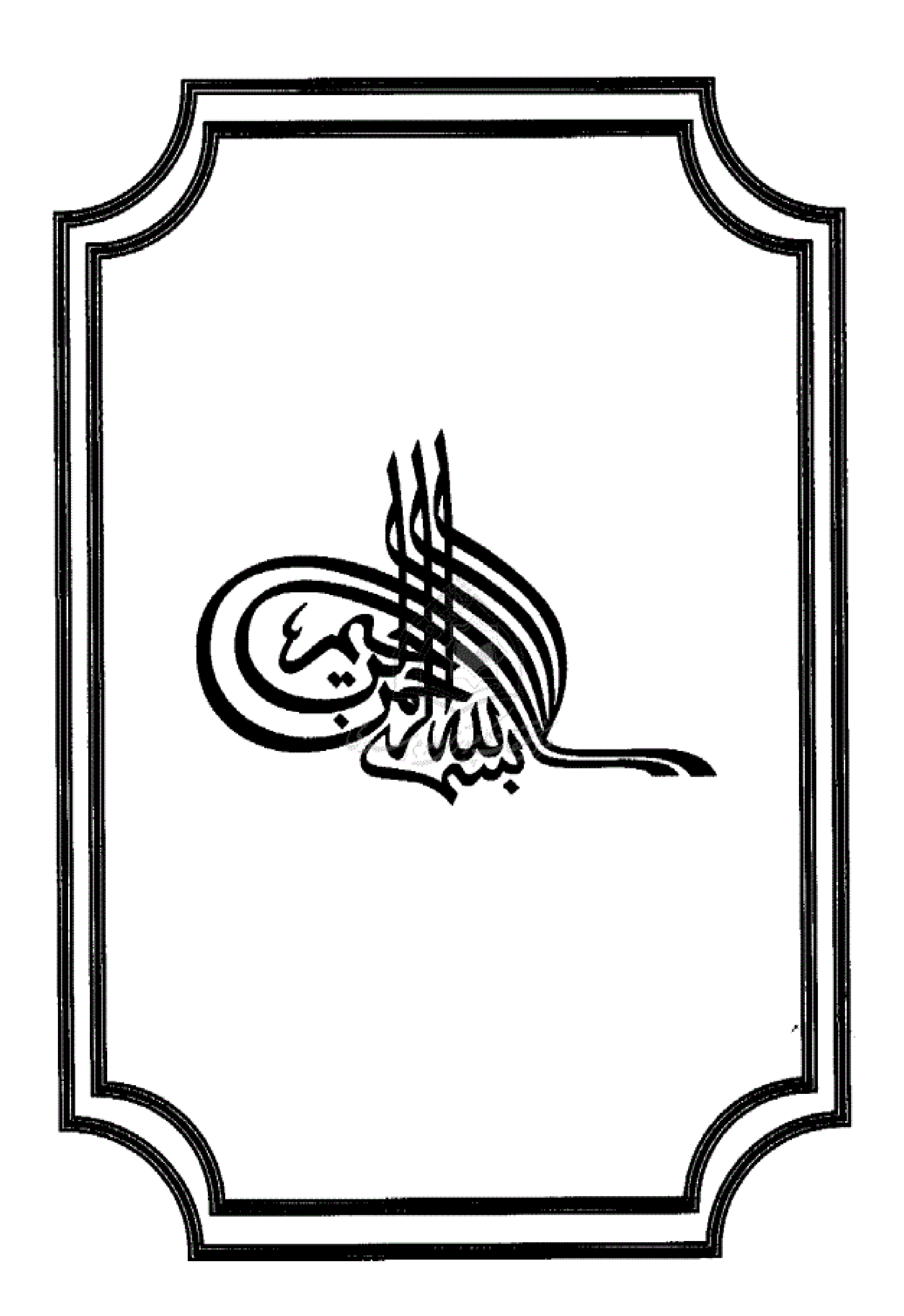
٦٦١ - ٧٢٨ هـ

حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه

عبد العليم محمد الدرويش



دار الهادي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَةُ المُحقّقِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ، حَمْداً يُوافِي نِعَمَهُ ، ويُكافِيء مَزِيْده ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وتَنْزِلُ البَرَكَاتُ ، وَالْصَّلاَةُ وَالْسَّلاَمُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِيْنَ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ له ، وأشهد أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُه ، شهادةً نَنْجُو بِهَا يَومَ القِيَامَةِ .

أَمَّا بَعْدُ :

تَهْذِيْبُ النُّفُوْسِ وَإِصْلاَحُهَا مَهَمَّةُ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ لِيَرْتَقُوا بِالإِنْسَانِ وَيَعْلُوا بِهِ فَوْقَ الشَّهَوَاتِ وَالدَّرَكَاتِ .

وَخَيْرُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ تَفَتَّحَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ دَقَائِقِ النُّفُوْسِ ، وَمَرَاتِبِهَا وَمَنَازِلِهَا ، بِحَيْثُ يُعْطُوْنَ الدَّوَاءَ الصَّحِيْحَ فِي مَكَانِهِ الْمُنَاسِبِ لَهُ .

وَهَؤُلاَءِ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِيْنَ وَقَلِيْلٌ مِنَ الآخِرِيْنَ .

إِنَّهُم اكْتَشَفُوا أَنَّ الالْتِزَامَ الصَّحِيْحَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ هُوَ السَّبِيْلُ القَوِيْمُ ، الَّذِي يَأْخُذُ بِأَيْدِيْهِمْ وَيَضَعُهُمْ عَلَى طَرِيْقِ المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ ، فَيَدْعُونَ إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ هُمْ وَتَابِعُوْهُمْ .

فَمَنْ وُجِدَ فِيْهِ هَذَا الالْتِزَامُ كَانَ إِمَاماً يُقْتَدى بِهِ ، وَيُعْتَمَدُ عَلَى سُلُوْكِهِ .

والشَّيْخُ الرَّبَّانِيُّ عَبْدُ القَادِرِ الْجِيْلاَنِيُّ مِمَّنْ تَفَتَّحَتْ بَصِيْرَتُهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَاهْتَدَى بِهِمَا ، وَسَارَ عَلَى دَرْبِهِمَا .

وَكَذَلِكَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيْمِ سَارَ عَلَى نَفْسِ النَّهْجِ فَنَافَحَ عَنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَلِكِنَّهُ كَانَ حَادّاً فِي خِطَابِهِ ، شَدِيْداً عَلَى مُخَالِفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيْفَةِ ، يَحْمِلُهُ

عَلَىٰ ذَٰلِكَ غَيْرَتُهُ الشَّدِيْدَةُ عَلَىٰ الحقِّ والدِّفَاعِ عَنْهُ ، لاَ تَأْخُذُهُ فِي ذَٰلِكَ لَوْمَةُ لاَئِمٍ .

وَلَقَدْ اهتَّم شيخُ الإسلام ـ رحمه الله ـ بشرح كَلِمَاتِ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ فَكَشَفَ عَنْ عَمِيْقِ فَهْمِهِ لِعَبارَاتِهِ وَإِشَارَاتِهِ .

فمثَّلَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ حَقِيْقَةَ التَّصوُّفِ السُّنِّي الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الشيخُ عَبْدُ القَادِرِ الْجِيْلاَنِي البَعِيْدِ عَنِ الشَّطَطِ وَالغُلُوِّ .

إِنَّهَا الوَسَطِيَّةُ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الإِسْلاَمُ وَحَثَّ عَلَيْهَا أَتْبَاعَهُ لِيَكُوْنُوا أُمَّةً وَسَطاً فِي كُلِّ شَيْءٍ .

فَمَا أَحْوَجَنَا أَنْ نَنْهَلَ مِنْ هَذَا النَّبْعِ الصَّافِي ، وَالْمَوْرِدِ الشَّافِي ، لِتَتَهَذَّبَ نُفُوْسُنَا ، وَتَتَقَوَّمَ أَخْلاَقُنَا ، وَتَسْتَنِيْرَ قُلُوْبُنَا .

*** عَمَلِي فِي هَذَا الْكِتَابِ :**

١ـ ضَبْطُ النَّصِّ .

٢ـ تَخْرِيْجُ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ الشَّرِيْفَةِ .



٣ـ تَخْرِيْجُ الأَحَادِيْثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيْفَةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلاَمِ .

٤ـ تَخْرِيْجُ آثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ رضي الله عنهم .

٥ـ تَجَنُّبُ الأَخْطَاءِ الكَثِيْرَةِ الوَاقِعَةِ فِي النُّسَخِ الْمَطْبُوْعَةِ قَبْلَ هَذِهِ فِي الآيَاتِ وَالأَحَادِيْثِ وَالْمُفْرَدَاتِ . وَأَرْجُو اللهَ عزَّ وجلَّ أَنْ أَكُوْنَ قَدْ تَجَاوَزْتُ كُلَّ أَخْطَائِهَا وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيْقِ .

٦ـ وَضْعُ بَعْضِ الفَوَائِدِ مِنْ كُتُبِ الأَئِمَّةِ الأَعْلاَمِ فِي الْهَامِشِ .

٧ـ تَرْجَمَةُ الْمُصَنِّفِ للأُسْتَاذِ أَبِي الْحَسَنِ النَّدْوِي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ .

*** نُسَخُ الكِتَابِ الْمَخْطُوْطَةِ :**

كان وقت تأليف هذا الكتاب في ليلة الأحد ، ثاني عشر ذي الحجة ، من سنة ٥١٦هـ كما في المقالة (٢١) .

وسُمِّيَ : فُتُوحَ الغَيْبِ فِي :

١ـ ظاهرية (٨٦٥٥) نسخها : سليمان بن محمد الحوّاط الحموي الشافعي الخلوتي ،

بتاريخ الأحد ٩ شوّال سنة ١٢٣٦هـ ، بخط نسخ مُعتاد . (٩٠ـ ١٤٩) ورقة .

٢ـ ظاهرية (٥٩٠٨) ، بخط نُسَخِي جميل ، عليها تملك باسم : محمد المبارك . (٦٨) ورقة .

٣ـ برلين (٣٨٣٧) .

٤ـ مكتبة الأوقاف العامّة ببغداد (١٩٦٧ و١٩٦٨) .

وَسُمِّي : الكَشْفَ وَفُتُوح الغَيْب في :

٥ـ ظاهرية (٨٣٣٧) ، نسخها : أحمد بن عبد السلام الحنفي ، يوم الثلاثاء ١٦ ذي الحجة ، سنة ٩٠٧هـ . بخط نسخ معتاد دقيق . (٦٥) ورقة .

وسُمِّيَ : آدابَ السُّلُوكِ وَالتَّوَصُّلِ إِلَى مَنَازِلِ الْمُلُوكِ في :

٦ـ ظاهرية (٦٢٢١) ، نسخها : محمد بن مصطفى المقيد بالمحكمة الكبرى بحلب سنة ١١٩١هـ . واستكتبه لنفسه إسماعيل المواهبي القادري المدرس بالمسجد الأموي بحلب ، بخط نسخ معتاد . (٨٧) ورقة .

* نُسَخُ الكِتَابِ الْمَطْبُوعَةِ :

١ـ الآستانة سنة ١٢٨١هـ بهامش الأسرار .

٢ـ مطبعة البابي الحلبي سنة ١٣٥٠هـ بهامش قلائد الجواهر .

رَحِمَ اللهُ الْمُصَنِّفَ رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَغَفَرَ اللهُ لَنَا وَلَهُ وَلِكُلِّ مَنْ قَرَأَ هَذَا الكِتَابَ أَوِ انْتَفَعَ بِهِ ، وَجَعَلَهُ اللهُ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِنَا الصَّالِحَةِ .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

خَادِمُ العِلْمِ الشَّرِيْف

عَبْدُ العَلِيْمِ مُحَمَّد الدَّرْوِيش


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تَرْجَمَةُ
الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ الْجِيلَانِيِّ
٤٧١ـ ٥٦١هـ

*** اسْمُهُ وَنَسَبُهُ :**

قال الذهبي(١) : الشَّيْخُ ، الإِمَامُ ، العَالِمُ ، الزَّاهِدُ ، العَارِفُ ، القُدْوَةُ ، شَيْخُ الإِسْلَامِ ، عَلَمُ الأَوْلِيَاءِ ، مُحْيِي الدِّينِ ، أَبُو مُحَمَّدٍ ، عَبْدُ القَادِرِ بْنُ أَبِي صَالِحٍ عَبْدُ اللهِ(٢) بْنُ جَنْكِي دُوْسْت(٣) الْجِيلِيُّ(٤) الْحَنْبَلِيُّ ، شَيْخُ بَغْدَادَ .

وقال ابن ناصر الدين الدِّمَشْقِيّ في توضيح الْمُشتبه(٥) : هو العَارِفُ الوَلِيُّ الكَبِيرُ ، السَّيِّدُ الشَّرِيفُ ، مُحْيِي الدِّينِ ، أَبُو مُحَمَّدٍ ، عَبْدُ القَادِرِ بْنُ أَبِي صَالِحٍ جَنْكِي دُوْسْت بْنِ عَبْدِ اللهِ(٦) بْنِ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ بْنِ مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَسَنِ الْمُثَنَّى بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْحَسَنِيُّ الْجِيلِيُّ ، صَاحِبُ الكَرَامَاتِ وَالْمَوَاعِظِ .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩) .

(٢) في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠ـ ٣١٠) : (عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله) . بزيادة لفظ : (ابن) . وفي شذرات الذهب : (عبد القادر بن أبي صالح عبد الله) . وفي تتمة المختصر (٢/ ١٠٧) : (عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست) .

(٣) أي : العظيم القدر .

(٤) هي بلاد متفرقة وراء طبرستان ، ويقال لها : كيل وكيلان ، والنسبة إليها : جيلي وجيلاني وكيلاني . الأنساب (٣/ ٤١٤) . وإلى قريةٍ تحت المدائن يُسَمُّونَهَا : الكيل ، وسمّاها ابن الدُّبَيْثي : الكال ، ذكرها بعضهم أنها قرية على شاطىء دجلة ، على مسيرة يوم من بغداد مما يلي طريق واسط . توضيح المشتبه (٢/ ١٩٧) .

(٥) (٢/ ١٩٧) .

(٦) في شذرات الذهب (٤/ ١٩٨) : (بن جنكي دوست بن أبي عبد الله عبد الله) . وذكره بنفس النسب . وكذلك الحافظ ابن رجب . وساق ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات (٢/ ٣٧٣) نَسَبَهُ إلى الحسين بن علي رضي الله عنه .

*** وِلَادَتُهُ :**

وُلِدَ بِجِيلَانَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ .

*** شُيُوخُهُ :**

قَدِمَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ بَغْدَادَ شَاباً سَنَةَ ٤٨٨هـ ، فَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَتَفَقَّهَ عَلَى العَلاَّمَةِ ، شَيْخِ الْحَنَابِلَةِ ، أَبِي سَعْدِ الْمُبَارَكِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْمُخَرِّمِيِّ البَغْدَادِيِّ الَّذِي كَانَتْ مَدْرَسَتُهُ بِبَابِ الأَزَجِ ، مَاتَ سَنَةَ ٥١٣هـ ، وَدُفِنَ إِلَى جَانِبِ أَبِي بَكْرٍ الْخَلاَّلِ عِنْدَ قَبْرِ الإِمَامِ أَحْمَدَ .

وقَدِ انْتَفَعَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ بِهِ كَثِيْراً ، حَيْثُ فَوَّضَ الْمَدْرَسَةَ إِلَيْهِ ، فَتَكَلَّمَ عَلَى النَّاسِ بِلِسَانِ الوَعْظِ ، وَظَهَرَ لَهُ صِيتٌ بِالزُّهْدِ ، وَبَعْدَ أَنْ مَاتَ الشَّيْخُ الْمُخَرِّمِيُّ وَسَّعَهَا الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ وَسَكَنَ بِهَا ، وَأَصْبَحَتْ تُعْرَفُ بِمَدْرَسَةِ الشَّيْخِ الْجِيلاَنِيِّ .

وسَمِعَ مِنَ كَثِيْرٍ ، كَالشَّيْخِ الصَّالِحِ الْمُحَدِّثِ أَبِي غَالِبٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ البَاقِلاَّنِيِّ البَغْدَادِيِّ ، مَاتَ سَنَةَ ٥٠٠هـ . وَكَانَ كَثِيْرَ البُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ .

والشَّيْخِ الصَّالِحِ الْمُعَمَّرِ الصَّدُوقِ أَبِي سَعْدٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الكَرِيْمِ بْنِ خُشَيْشٍ البَغْدَادِيِّ ، مَاتَ سَنَةَ ٥٠٢هـ .

والشَّيْخِ الْمُعَمَّرِ أَبِي بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنِ الْمُظَفَّرِ بْنِ سُوسَنَ التَّمَّارِ ، مَاتَ سَنَةَ ٥٠٣هـ .

وَالشَّيْخِ الأَمِيْنِ الثِّقَةِ العَالِمِ الْمُسْنِدِ أَبِي طَالِبٍ عَبْدِ القَادِرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ القَادِرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوْسُفَ البَغْدَادِيِّ اليُوسُفِيِّ الْحَنْبَلِيِّ ، مَاتَ سَنَةَ ٥١٦هـ .

*** تَلاَمِذَتُهُ :**

كَانَ الشَّيْخُ يُدَرِّسُ وَيَعِظُ فِي مَدْرَسَتِهِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ ، وَمِمَّنْ حَدَّثَ عَنْهُ : السَّمْعَانِيُّ ، وَعُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ القُرَشِيُّ ، وَالْحَافِظُ عَبْدُ الغَنِيِّ الْمَقْدِسِيُّ ، وَالشَّيْخُ مُوَفَّقُ الدِّيْنِ ابْنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيُّ ، وَوَلَدَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَمُوْسَى . . وَخَلْقٌ كَثِيْرٌ .

*** أَوْلاَدُهُ :**

عَبْدُ الوَهَّابِ ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ ، وَعَبْدُ العَزِيْزِ ، وَمُوْسَى ، وَيَحْيَى ، وَمُحَمَّد .

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ[١] : وُلِدَ لأَبِي تِسْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ وَلَداً ، سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ ذَكَراً ، وَالبَاقِي إِنَاثٌ .

* أَقْوَالُ العُلَمَاءِ عَنْهُ :

● قَالَ الشَّيْخُ مُوَفَّقُ الدِّينِ ابْنُ قُدَامَةَ[٢] : أَدْرَكْنَاهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ ، فَأَسْكَنَنَا فِي مَدْرَسَتِهِ ، وَكَانَ يُعْنَى بِنَا ، وَرُبَّمَا أَرْسَلَ إِلَيْنَا ابْنَهُ يَحْيَى فَيُسْرِجُ لَنَا السِّرَاجَ ، وَرُبَّمَا يُرْسِلُ إِلَيْنَا طَعَاماً مِنْ مَنْزِلِهِ ، وَكَانَ يُصَلِّي الفَرِيضَةَ بِنَا إِمَاماً ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِي مِنْ كِتَابِ الْخِرَقِيِّ غُدْوَةً ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ الْحَافِظُ عَبْدُ الغَنِيِّ مِنْ كِتَابِ الْهِدَايَةِ فِي الكِتَابِ ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ يَقْرَأُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ سِوَانَا ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ شَهْراً وَتِسْعَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ مَاتَ ، وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ لَيْلاً فِي مَدْرَسَتِهِ ، وَلَمْ أَسْمَعْ عَنْ أَحَدٍ يُحْكَى عَنْهُ مِنَ الكَرَامَاتِ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْكَى عَنْهُ ، وَلاَ رَأَيْتُ أَحَداً يُعَظِّمُهُ النَّاسُ لِلدِّينِ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَسَمِعْنَا عَلَيْهِ أَجْزَاءً يَسِيرَةً .

● وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ[٣] : سَمِعْتُ الشَّيْخَ عَبْدَ العَزِيزِ بْنَ عَبْدِ السَّلاَمِ الفَقِيهَ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ : مَا نُقِلَتْ إِلَيْنَا كَرَامَاتُ أَحَدٍ بِالتَّوَاتُرِ إِلاَّ الشَّيْخَ عَبْدَ القَادِرِ . فَقِيلَ لَهُ : هَذَا مَعَ اعْتِقَادِهِ ، فَكَيْفَ هَذَا ؟ . فَقَالَ : لاَزِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ .

● وقَالَ السَّمْعَانِيُّ[٤] : هُوَ إِمَامُ الْحَنَابِلَةِ وَشَيْخُهُمْ فِي عَصْرِهِ ، فَقِيهٌ صَالِحٌ دَيِّنٌ خَيِّرٌ ، كَثِيرُ الذِّكْرِ ، دَائِمُ الفِكْرِ ، سَرِيعُ الدَّمْعَةِ ، تَفَقَّهَ عَلَى الْمُخَرِّمِيِّ ، وَصَحِبَ الشَّيْخَ حَمَّاداً الدَّبَّاسَ ، وَكَانَ يَسْكُنُ بِبَابِ الأَزَجِ فِي مَدْرَسَةٍ بُنِيَتْ لَهُ ، مَضَيْنَا لِزِيَارَتِهِ ، فَخَرَجَ وَقَعَدَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، وَخَتَمُوا القُرْآنَ ، فَأَلْقَى دَرْساً مَا فَهِمْتُ مِنْهُ شَيئاً ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّ أَصْحَابَهُ قَامُوا وَأَعَادُوا الدَّرْسَ ، فَلَعَلَّهُمْ فَهِمُوا لإِلْفِهِمْ بِكَلاَمِهِ وَعِبَارَتِهِ .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٧) وشذرات الذهب (٤/ ٢٠٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٢) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٣) . وقال الذهبي : يُشِيرُ إلى إثباته صفةَ العُلُوِّ ونحو ذلك ، ومذهبُ الحنابلةِ في ذلك معلومٌ ، يمشُونَ خَلْفَ ما ثبت عن إمامهم رحمه الله إلاَّ مَنْ يَشِذُّ منهم ، وتوسَّع في العبارة .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩١) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٤١) وشذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٢٠٠) .

● وَقَالَ اليَافِعِيُّ(١) : كَانَ سُكُوتُ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ أَكْثَرَ مِنْ كَلاَمِهِ ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ عَلَى الْخَوَاطِرِ ، وَظَهَرَ لَهُ صِيتٌ عَظِيمٌ وَقَبُوْلٌ تَامٌّ ، وَمَا كَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَدْرَسَتِهِ إِلاَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ إِلَى الرِّبَاطِ ، وَتَابَ عَلَى يَدِهِ مُعْظَمُ أَهْلِ بَغْدَادَ ، وَأَسْلَمَ خَلْقٌ ، وَكَانَ يَصْدَعُ بِالْحَقِّ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَكَانَ لَهُ كَرَامَاتٌ ظَاهِرَةٌ .

● وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ(٢) : ظَهَرَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ لِلْوَعْظِ بَعْدَ العِشْرِيْنَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، وَحَصَلَ لَهُ القَبُولُ التَّامُّ مِنَ النَّاسِ ، وَاعْتَقَدُوا دِيَانَتَهُ وَصَلاَحَهُ ، وَانْتَفَعُوا بِكَلاَمِهِ ، وَانْتَصَرَ أَهْلُ السُّنَّةِ بِظُهُوْرِهِ ، وَاشْتَهَرَتْ أَحْوَالُهُ وَأَقْوَالُهُ وَكَرَامَاتُهُ وَمُكَاشَفَاتُهُ وَهَابَهُ الْمُلُوكُ فَمَنْ دُونَهُمْ ، وَصَنَّفَ الشَّطْنُوفِيُّ الْمِصْرِيُّ فِي أَخْبَارِ عَبْدِ القَادِرِ وَمَنَاقِبِهِ ثَلاَثَ مُجَلَّدَاتٍ .

● وَقَالَ الإِمَامُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ(٣) : لَيْسَ فِي كِبَارِ الْمَشَايِخِ مَنْ لَهُ أَحْوَالٌ وَكَرَامَاتٌ أَكْثَرُ مِنَ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ ، لَكِنَّ كَثِيْراً مِنْهَا لاَ يَصِحُّ ، وَفِي بَعْضِ ذَلِكَ أَشْيَاءُ مُسْتَحِيْلَةٌ . وقال(٤) : وَفِي الْجُمْلَةِ : الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ كَبِيْرُ الشَّأْنِ ، وَعَلَيْهِ مَآخِذُ فِي بَعْضِ أَقْوَالِهِ وَدَعَاوِيْهِ ، وَاللهُ الْمَوْعِدُ ، وَبَعْضُ ذَلِكَ مَكْذُوبٌ عَلَيْهِ .

● وَقَالَ الْحَافِظُ عِمَادُ الدِّيْنِ ابْنُ كَثِيْرٍ(٥) : انْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ انْتِفَاعاً كَثِيْراً ، وَكَانَ لَهُ سَمْتٌ حَسَنٌ وَصَمْتٌ ، غَيْرَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَكَانَ فِيْهِ تَزَهُّدٌ كَثِيْرٌ ، وَلَهُ أَحْوَالٌ صَالِحَةٌ وَمُكَاشَفَاتٌ ، وَلأَتْبَاعِهِ وَأَصْحَابِهِ فِيْهِ مَقَالاَتٌ ، وَيَذْكُرُونَ عَنْهُ أَقْوَالاً وَأَفْعَالاً وَمُكَاشَفَاتٍ أَكْثَرُهَا مُغَالاَةٌ ، وَقَدْ كَانَ صَالِحاً وَرِعاً ، وَقَدْ صَنَّفَ كِتَابَ الغُنْيَةِ وَفُتُوحِ الغَيْبِ ، وَفِيهِمَا أَشْيَاءُ حَسَنَةٌ ، وَذَكَرَ فِيهِمَا أَحَادِيْثَ ضَعِيْفَةً وَمَوْضُوعَةً ، وَبِالْجُمْلَةِ : كَانَ مِنْ سَادَاتِ الْمَشَايِخِ ، تُوُفِّيَ وَلَهُ تِسْعُوْنَ سَنَةً ، وَدُفِنَ بِالْمَدْرَسَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ .

---

(١) فِي مِرْآةِ الزَّمَانِ (٨/ ١٦٥) .
(٢) في ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٠ ـ) . وانظر شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٢٠٠) .
(٣) فِي سِيَرِ أَعْلاَمِ النُّبَلاَءِ (٢٠/ ٥٠٠) .
(٤) فِي سِيَرِ أَعْلاَمِ النُّبَلاَءِ (٢٠/ ٥٠١) .
(٥) فِي البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ (١٢/ ٢٥٢) .

* **نِتَاجُهُ الفِكْرِيُّ :**

لَهُ الكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الغَنِيَّةِ بِالْمَعَانِي السَّنِيَّةِ ، وَإِلَيْكَ ذِكْرَ مَا لَهُ مِنْ مَخْطُوطَاتٍ فِي الْمَكْتَبَةِ الظَّاهِرِيَّةِ مِمَّا ذَكَرَهُ شَيْخُنَا مُحَمَّد رِيَاض الْمَالِحُ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ فِي فَهْرَسِ مَخْطُوطَاتِ دارِ الكُتُبِ الظَّاهِرِيَّةِ ـ التَّصَوُّف ـ :

١ـ أوراد الأيام والأوقات . (١/ ١٤٠) .

٢ـ أوراد الجيلاني . (١/ ١٤٣) .

٣ـ التِّرْيَاقُ الْمُجَرَّب . (١/ ٢٨٤) .

٤ـ جَلاَءُ الْخَاطِرِ الرَّائِقِ فِي الوَعْظِ وَالتَّصَوُّفِ وَالرَّقَائِقِ . (١/ ٣٦٤) .

٥ـ الحزب الكبير . (١/ ٤٣٣) . والمعروف بِحِزْبِ الكيلانِي . (١/ ٤٣٤) .

٦ـ دعاء أوراد الفتحية . (١/ ٥٤٤) .

٧ـ دعاء البسملة . (١/ ٥٤٥) .

٨ـ رِسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله . (١/ ٦٥١) .

٩ـ سِرُّ الأَسْرَارِ وَمَظْهَرُ الأَنْوَارِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الأَبْرَارُ . (٢/ ٣٣ ـ ٣٤) . وباسم : الأسرار فيما يحتاج إليه الأبرار . (١/ ٧٥) . وهذا الكتاب منسوبٌ له وهو للكوراني واسمه : السلوك في باطن الأسرار . (٢/ ٥٩) .

١٠ـ الصلاة الكبرى . (٢/ ٢٥٠) .

١١ـ كِتَابُ الغُنْيَةِ لِطَالِبِي طَرِيْقِ الْحَقِّ . (٢/ ٣٢٦) .

١٢ـ الفَتْحُ الرَّبَّانِيّ وَالفَيْضُ الرَّحْمَانِيّ . (٢/ ٣٣٦) .

١٣ـ المسبعات في الأوراد والصلوات . (٢/ ٦٦١) .

١٤ـ ورد الجلالة . (٣/ ١١٦) .

١٥ـ ورد الشيخ عبد القادر الكيلاني. (٣/ ١٢٤) .

١٦ـ وصية الكيلاني . (٣/ ١٦٣) .

*** وَفَاتُهُ :**

عَاشَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ تِسْعِيْنَ سَنَةً ، وَانْتَقَلَ إِلَى اللهِ بَعْدَ عَتْمَةِ لَيْلَةِ السَّبْتِ فِي عَاشِرِ رَبِيْعِ الآخِرِ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّيْنَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ وَلَدُهُ عَبْدُ الوَهَّابِ ، وَشَيَّعَهُ خَلْقٌ لاَ يُحْصَوْنَ ، وَدُفِنَ بِرُوَاقِ مَدْرَسَتِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يُفْتَحْ بَابُ الْمَدْرَسَةِ حَتَّى عَلاَ النَّهَارُ وَأَهْرَعَ النَّاسُ لِلصَّلاَةِ عَلَى قَبْرِهِ وَزِيَارَتِهِ ، وَكَانَ يَوْماً مَشْهُوداً .

* * *



الإِمَامُ عَبْدُ القَادِرِ الْجِيلَانِيّ

عَصْرُهُ ، حَيَاتُهُ ، صِفَتُهُ ، تَأْثِيرُهُ

بِقَلَمِ : الأُسْتَاذِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيّ الْحَسَنِيّ النَّدْوِي

* الْحَاجَةُ إِلَى الدَّعْوَةِ الشَّعْبِيَّةِ وَالإِصْلَاحِ العَامِّ :

لَقَدْ قَامَ حُجَّةُ الإِسْلَامِ الغَزَالِيُّ ، بِشَخْصِيَّتِهِ الفَرِيدَةِ القَوِيَّةِ ، وَجِهَادِهِ العِلْمِيِّ وَالإِصْلَاحِيِّ ، بِدَوْرٍ عَظِيمٍ فِي تَارِيخِ الإِصْلَاحِ وَالتَّجْدِيدِ ، وَكَانَ الرَّجُلَ الْمَطْلُوبَ لِلْدِّفَاعِ عِنْدَ هُجُومِ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ ، وَإِلْحَادِ البَاطِنِيَّةِ وَانْحِرَافِ العُلَمَاءِ ، وَلَكِنْ ظَلَّ العَالَمُ الإِسْلَامِيُّ فِي حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى دَاعٍ شَعْبِيٍّ ، وَشَخْصِيَّةٍ رُوحِيَّةٍ رَفِيعَةٍ ، أَكْثَرَ اتِّصَالاً بِالشَّعْبِ وَطَبَقَاتِ الْجَمَاهِيرِ ، يَنْفُخُ فِي الْمُجْتَمَعِ ، بِدَعْوَتِهِ وَمَوَاعِظِهِ وَبِتَزْكِيَتِهِ لِلْنُّفُوسِ وَإِصْلَاحِهِ لِلأَخْلَاقِ ، رُوحاً دِينِيَّةً ، وَحَيَاةً إِيمَانِيَّةً .

وَقَدْ كَانَتْ الكَثْرَةُ الكَاثِرَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرِيسَةَ العِلَلِ الْخُلُقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَقَدِ انْتَشَرَ فِيهَا التَّعْطِيلُ وَالغَفْلَةُ وَالْجَهَالَةُ وَالنِّفَاقُ ، وَلَمْ تُؤَثِّرْ الْمُنَاقَشَاتُ العِلْمِيَّةُ وَالفَلْسَفَاتُ الْمُلْحِدَةُ إِلاَّ فِي الطَّبَقَةِ الْمُثَقَّفَةِ الرَّاقِيَةِ ، وَخَاصَّةِ الْخَاصَّةِ .

وَقَدْ ظَلَّتْ الْمَلَكِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ وَالْحُكُومَةُ الشَّخْصِيَّةُ ، تَعْمَلَانِ عَمَلَهُمَا فِي أَخْلَاقِ الشَّعْبِ طِيلَةَ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ ، وَقَدْ وُجِدَتْ بِتَأْثِيرِهِمَا طَبَقَةٌ كَثِيرَةٌ لَا هَمَّ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ إِلاَّ الْحُصُولَ عَلَى الثَّرْوَةِ وَالتَّرَفِ ، أَوْ نَيْلَ الْجَاهِ وَالشَّرَفِ ، وَقَدْ كَانَتْ لَا تَجْحَدُ بِاللهِ وَالآخِرَةِ كَعَقِيدَةٍ ، وَلَكِنَّهَا قَدْ نَسِيَتِ اللهَ بَتَاتاً ، وَكَانَتْ تَعِيشُ فِي ذُهُولٍ عَنِ الآخِرَةِ ، وَتَحْيَا حَيَاةً مُتْرَفَةً لَاهِيَةً .

وَقَدْ أَنْشَبَتْ الْحَضَارَةُ العَجَمِيَّةُ أَظْفَارَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ ، وَتَغَلْغَلَتِ العَادَاتُ العَجَمِيَّةُ وَالتَّقَالِيدُ الْجَاهِلِيَّةُ فِي نِظَامِ الْحَيَاةِ ، وَارْتَفَعَ مُسْتَوَى الْمَعِيشَةِ فِي الْحَوَاضِرِ الإِسْلَامِيَّةِ ارْتِفَاعاً عَظِيماً ، وَتَضَخَّمَتْ تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ وَضَرَائِبُ الْمُجْتَمَعِ ـ وَهُوَ مَا يَفْرِضُهُ مِنْ لِبَاسٍ وَمَظَاهِرَ وَآدَابٍ هِيَ أَقْسَى مِنْ ضَرَائِبِ الْحُكُومَةِ ـ وَوُجِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ رِجَالِ البَلَاطِ وَحَاشِيَةِ الأُمَرَاءِ ، وَنُدَمَاءِ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَعُبَّادِ الأَغْرَاضِ ، وَمُنْتَهِزِي الفُرَصِ النَّفْعِيِّينَ .

وَقَدْ كَانَتْ الطَّبَقَةُ الوُسْطَى عَلَى أَثَرِ الأُمَرَاءِ وَالأَغْنِيَاءِ ، وَكَانَ العَامَّةُ وَالعَمَلَةُ وَالفَلاَّحُونَ خَاضِعِينَ لأَخْلاَقِ الطَّبَقَةِ الوُسْطَى ، يَرَوْنَ الشَّرَفَ فِي تَقَلُّدِهَا وَالتَّشَبُّهِ بِهَا ، وَكَانَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَسَائِلَ الْحَيَاةِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَعِيشَةِ يَسْتَخْدِمُونَهَا فِي التَّمَتُّعِ بِالْحَيَاةِ وَإِرْضَاءِ الشَّهَوَاتِ . أَمَّا الَّذِينَ حُرِمُوهَا ، فَكَانُوا يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ فِي تَحَسُّرٍ وَتَوَجُّعٍ ، وَيَعْتَبِرُونَ نُفُوسَهُمْ ـ مَهْمَا أُوتُوا مِنَ العِلْمِ وَالنَّسَبِ وَالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ ـ أَذَلَّ مِنَ الدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ . وَكَانَ أَصْحَابُ اليَسَارِ وَالأَمْوَالِ لاَ يَعْرِفُونَ الإِيثَارَ وَالعَطْفَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالبِرَّ بِالفُقَرَاءِ ، وَالشُّكْرَ عَلَى مَا أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ سَعَةٍ وَرَخَاءٍ .

أَمَّا البُؤَسَاءُ وَالكَادِحُونَ ، فَكَانُوا لاَ يَعْرِفُونَ الصَّبْرَ وَالرِّضَا ، وَالأُلْفَةَ وَالإِبَاءَ ، وَهَكَذَا فَقَدَتِ الْحَيَاةُ اتِّزَانَهَا وَهُدُوءَهَا ، وَأُصِيبَتْ بِنَوْبَةٍ عَصَبِيَّةٍ عَنِيفَةٍ ، لاَ يَرَى إِلاَّ مَنْ سَيْطَرَ عَلَى أَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ ، وَتَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهَا وَاسْتِغْلاَلِهَا لِلْهَوَى وَالشَّبَابِ ، أَوِ الْجَاهِ وَالنُّفُوذِ ، وَإِلاَّ مَنْ يَحْسُدُ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَيَعِيشُ فِي هُمُومٍ وَغُمُومٍ لاَ أَرْجَاءَ لَهَا ، وَلاَ تَنْتَهِي إِلاَّ مَعَ الْحَيَاةِ ، فَلاَ دُنْيَا يَلْهُو بِهَا وَيَقْضِي وَطَرَهُ ، وَلاَ دِينَ يَلْتَجِىءُ إِلَيْهِ وَيَعْتَزُّ بِهِ .

كَانَ الْمُجْتَمَعُ الإِسْلاَمِيُّ ـ بِكُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ ـ فِي حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ إِلَى دَعْوَةٍ دِينِيَّةٍ ، تُخَفِّفُ غُلْوَاءَ حُبِّ الدُّنْيَا ، وَتَحُدُّ مِنْ شِدَّتِهِ وَحِدَّتِهِ ، وَتُوقِظُ فِي النُّفُوسِ الإِيمَانَ ، وَتُثِيرُ عَقِيدَةَ الآخِرَةِ ، وَتُحَرِّكُ فِي القُلُوبِ الْحُبَّ للهِ وَالْحَنِينَ إِلَيْهِ ، وَتَحُثُّ عَلَى الطُّمُوحِ وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي الْحُصُولِ عَلَى عِلْمِ اللهِ الصَّحِيحِ وَعِبَادَتِهِ ، وَنَيْلِ رِضْوَانِهِ وَالْمُسَابَقَةِ فِي سَبِيلِهِ ، وَتَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ الكَامِلِ ، وَالدِّينِ الْخَالِصِ ، دَعْوَةً صَرِيحَةً مَكْشُوفَةً ، وَتُبَيِّنَ ضَعْفَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَصْحَابِ الثَّرْوَةِ وَرِجَالِ الْحُكُومَةِ وَفَقْرَهُمْ ، فِي قُوَّةٍ وَوُضُوحٍ وَثِقَةٍ وَاعْتِدَادٍ بِالنَّفْسِ ، وَأَنَّ الأَسْبَابَ لاَ قُوَّةَ لَهَا وَلاَ تَأْثِيرَ ، وَأَنَّهَا مُسَخَّرَةٌ خَاضِعَةٌ لإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ فِيهَا ، وَيَمْلِكُهَا وَيَصْرِفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ .

*** مُؤَهِّلاَتُ الدَّاعِي العِلْمِيَّةُ :**

يَتَّسِمُ القَرْنُ الْخَامِسُ فِي تَارِيخِ الإِسْلاَمِ بِسَعَةٍ فِي العِلْمِ وَتَقَدُّمٍ فِي الآدَابِ ، وَقَدْ نَبَغَ فِيهِ عُلَمَاءُ كِبَارٌ وَمُؤَلِّفُونَ بَارِعُونَ . وَقَدْ كَانَ مِنْ رِجَالِ أَوَاخِرِ هَذَا القَرْنِ وَأَوَائِلِ القَرْنِ السَّابِعِ

العَلاَّمَةُ أَبُو إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٤٧٦هـ) ، وَحُجَّةُ الإِسْلاَمِ الغَزَالِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٥٠٥هـ) ، وَأَبُو الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيْلٍ (الْمُتَوَفَّى ٥١٣هـ) ، وَأَبُو زَكَرِيَّا التَّبْرِيزِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٥٠٢هـ) ، وَأَبُو القَاسِمِ الْحَرِيْرِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٥١٦هـ) ، وَجَارُ اللهِ الزَّمَخْشَرِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٥٣٨هـ) ، وَالقَاضِي عِيَاض الْمَالِكِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٥٤٤هـ) .

الَّذِيْنَ ظَلُّوا قُرُوناً مُسَيْطِرِيْنَ عَلَى العُقُوْلِ وَالاتِّجَاهَاتِ ، وَكَانُوا مَدَارِسَ أَدَبِيَّةً عِلْمِيَّةً ، لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِي هَذَا العَدَدِ الزَّاخِرِ بِالْحَيَاةِ العِلْمِيَّةِ وَنَوَابِغِ الفَنِّ كَالقَرْنِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ ، وَفِي بَلَدٍ زَاخِرٍ بِالْمَدَارِسِ وَحَلَقَاتِ الدُّرُوسِ كَبَغْدَادَ ، أَنْ يُؤَثِّرَ فِي مُجْتَمَعِهِ الَّذِي قَطَعَ شَوْطاً وَاسِعاً فِي العِلْمِ ، وَانْتَشَرَتْ الثَّقَافَةُ فِي طَبَقَاتِهِ انْتِشَاراً كَبِيْراً ؛ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُلْفِتَ إِلَيْهِ الأَنْظَارُ ، وَيَنْفُذُ إِلَى أَعْمَاقِ النُّفُوْسِ وَالقُلُوْبِ ، وَتَخْضَعُ لَهُ الطَّبَقَاتُ الْمُثَقَّفَةُ وَحَمَلَةُ لِوَاءِ العِلْمِ فِي عَصْرِهِ ، إِلاَّ إِذَا كَانَ عَالِيَ الكَعْبِ طَوِيْلَ البَاعِ فِي العُلُوْمِ السَّائِدَةِ ، مُتَضَلِّعاً مِنْ عُلُومِ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا ، قَدْ أَقَرَّ لَهُ مُعَاصِرُوهُ بِالفَضْلِ ، وَشَهِدَ لَهُ عُلَمَاءُ بَلَدِهِ بِغَزَارَةِ العِلْمِ وَسَعَةِ الْمَعَارِفِ .

وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ هَذَا الدَّاعِي صَاحِبَ بَيَانٍ وَلِسَانٍ ، يُخَاطِبُ العُلَمَاءَ وَالْمُثَقَّفِيْنَ فِي أُسْلُوبِهِمْ وَالعَامَّةَ فِي أُسْلُوْبِهَا ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ صَاحِبَ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ ، وَهِمَّةٍ قَوِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ ، وَعَلَى جَانِبٍ عَظِيْمٍ مِنَ الزُّهْدِ وَالقَنَاعَةِ وَالعُزُوفِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَكِبَرِ النَّفْسِ ، يَجِدُ ضِعَافُ الإِيْمَانِ وَضِعَافُ النُّفُوْسِ فِي مَجَالِسِهِ قُوَّةَ اليَقِيْنِ وَحَرَارَةَ الإِيْمَانَ ، وَيَجِدُ أَهْلُ الشَّكِّ وَالارْتِيَابِ السَّكِيْنَةَ وَالإِذْعَانَ ، وَيَجِدُ أَصْحَابُ النُّفُوْسِ القَلِقَةِ وَالقُلُوْبِ الْجَرِيْحَةِ الْمُنْكَسِرَةِ : الْهُدُوءَ وَالعَزَاءَ وَالسُّلْوَانَ ، وَيَجِدُ هُوَاةُ الْحَقَائِقِ وَالْمَعَارِفِ وَأَصْحَابُ الدِّرَاسَاتِ : العُلُوْمَ الدَّقِيْقَةَ وَالنُّكَتَ اللَّطِيْفَةَ . وَيَجِدُ أَصْحَابُ البَطَالَةِ وَالعَطَلَةِ وَأَصْحَابُ القُلُوْبِ الْخَامِدَةِ مَا يَمْلَؤُهُمْ حَمَاساً وَإِيْمَاناً ، وَمَا يُحَفِّزُهُمْ إِلَى العَمَلِ وَالْجِهَادِ ، وَيَجِدُ عُبَّادُ اللَّذَّاتِ وَالشَّهَواتِ وَالْمُتْرَفُوْنَ فِي الْحَيَاةِ ، الَّذِيْنَ تَجَرَّؤُوا عَلَى الْمَعَاصِي وَالْمَحَارِمِ ، مَا يَبْعَثُ فِيْهِمُ الإِقْلاَعَ وَالنَّدَامَةَ وَالتَّوْبَةَ وَالإِنَابَةَ .

وَبِالْجُمْلَةِ : يَجِدُ كُلُّ أَحَدٍ فِي مَجَالِسِهِ غِنَاءَهُ وَدَوَاءَهُ وَغِذَاءَهُ وَشِفَاءَهُ وَيَقِفُ كَمَنَارَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الإِيْمَانِ وَالعِلْمِ فِي بَحْرٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالْجَاهِلِيَّةِ ، يَأْوِي إِلَيْهَا الغَرْقَى وَيَهْتَدِي بِهَا الْحَائِرُونَ ، وَيَخْلُفُ الأَنْبِيَاءَ فِي دُعَاءِ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَيخلفون الأَنْبِيَاءَ فِي تَهْذِيبِ النُّفُوسِ وَتَجْدِيدِ الصِّلَةِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَالتَّذْكِيرِ بِالآخِرَةِ ، وَإِيْثَارِهَا عَلَى الدُّنْيَا ، وَتَجْرِيْدِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلاَصِ الدِّيْنِ للهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِ بِعْثَةِ الأَنْبِيَاءِ وَمِنْ مُعْظَمِ أَهْدَافِهِمْ ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَبْقَى الإِسْلاَمُ كَدِيْنٍ وَنِظَامٍ خُلُقِيٍّ وَأُسْلُوبٍ لِلْحَيَاةِ وَدَعْوَةٍ مُؤَثِّرَةٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ دُعَاةٌ مُجَدِّدُونَ مِنْ هَذَا الطِّرَازِ .

لَقَدْ كَانَتْ وَطْأَةُ الْحُكُومَةِ الَّتِي كَانَ عَلَى رَأْسِهَا الْمُلُوكُ وَالْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَتَسَمَّوْنَ بِالْخُلَفَاءِ شَدِيْدَةً عَلَى الْمُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ ، وَلَقَدْ كَانَ لِلْمُسْلِمِيْنَ انْدِفَاعٌ قَوِيٌّ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الأَوْضَاعُ خَطَراً كَبِيْراً عَلَى الإِسْلاَمِ وَعَلَى الْمِزَاجِ الإِسْلاَمِيِّ ، فَكَانَ الْمُجْتَمَعُ الإِسْلاَمِيُّ الْمُحَاطُ بِهَذِهِ الأَخْطَارِ فِي حَاجَةٍ شَدِيْدَةٍ إِلَى مُصْلِحٍ دِيْنِيٍّ وَمُجَدِّدٍ إِسْلاَمِيٍّ مِنَ الطَّبَقَةِ الأُوْلَى ، يُحَارِبُ الْجَاهِلِيَّةَ الَّتِي تَسَرَّبَتْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، فِي عَاصِمَتِهَا ، وَفِي أَوْجِهَا ، وَيَنْفُخُ رُوحاً إِيْمَانِيَّةً جَدِيْدَةً فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمُنْهَارِ .

لَقَدْ وُجِدَ هَذَا الْمُصْلِحُ فِي شَخْصِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلاَنِيِّ ، الَّذِي ظَهَرَ فِي بَغْدَادَ فِي آخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ ، وَتَسَلَّمَ الزَّعَامَةَ الدِّيْنِيَّةَ ، وَعَاشَ نَحْوَ قَرْنٍ فَرْداً فَرِيْداً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ، وَالْتَفَّ حَوْلَهُ الْعَالَمُ الإِسْلاَمِيُّ ، وَأَثَّرَ فِيهِ تَأْثِيراً لَمْ يُؤَثِّرْ مِثْلَهُ عَالِمٌ أَوْ مُصْلِحٌ مِنْ مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ .

* **دِرَاسَتُهُ وَنُبُوغُهُ :**

وُلِدَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ سَنَةَ ٤٧٠ هـ فِي جِيْلاَنَ ، يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ـ .

دَخَلَ بَغْدَادَ سَنَةَ ٤٨٨هـ ، وَلَهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي خَرَجَ فِيْهَا أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ مِنْ بَغْدَادَ تَارِكاً لِتَدْرِيْسِ النِّظَامِيَّةِ ، زَاهِداً فِي الدُّنْيَا طَالِباً لِلْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِيْنِ[١] ، وَأَقْبَلَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَجِدٍّ وَحِرْصٍ ، وَلَمْ يُعِقْهُ شَغَفُهُ بِالْعِبَادَةِ وَالاشْتِغَالِ بِاللهِ عَنِ الاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ ، وَلَمْ يَرْضَ بِالْقَنَاعَةِ فِي الْعِلْمِ وَالاقْتِصَارِ عَلَى الْقَلِيلِ الَّذِي لاَ بُدَّ مِنْهُ .

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ١٤٩) .

قَرَأَ العُلُوْمَ السَّائِدَةَ فِي عَصْرِهِ عَلَى أَسَاتِذَتِهَا الكِبَارِ وَالْمُبْرِزِيْنَ فِيْهَا وَأَتْقَنَهَا وَمَهَرَ فِيْهَا، وَحَصَلَتْ لَهُ فِيْهَا اليَدُ الطُّوْلَى.

*** وَمِنْ شُيُوْخِهِ :**

أَبُوْ الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيْلٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ البَاقِلاَّنِيُّ، وَأَبُو زَكَرِيَّا التَّبْرِيْزِيُّ.

وَأَخَذَ الطَّرِيْقَةَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي الْخَيْرِ حَمَّادِ بْنِ مُسْلِمٍ الدَّبَّاس[1]، وَأَكْمَلَهَا عِنْدَ القَاضِي أَبِي سَعْدٍ[2] الْمُخَرِّمِيِّ، وَحَصَلَتْ لَهُ الإِجَازَةُ عَنْهُ.

*** الإِصْلاَحُ وَالإِرْشَادُ :**

عُنِيَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ ـ بَعْدَمَا أَتَمَّ دِرَاسَتَهُ العِلْمِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ ـ بِالإِصْلاَحِ وَإِرْشَادِ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ، وَجَمَعَ بَيْنَ الرِّيَاسَةِ الدِّيْنِيَّةِ وَالرِّئَاسَةِ العِلْمِيَّةِ، وَكَانَ أَبُو سَعْدٍ قَدْ بَنَى مَدْرَسَةً لَطِيْفَةً بِبَابِ الأَزَجِ، فَفُوِّضَتْ إِلَيْهِ، وَتَكَلَّمَ مَعَ النَّاسِ بِلِسَانِ الوَعْظِ، وَظَهَرَ لَهُ صِيْتٌ، فَضَاقَتْ مَدْرَسَتُهُ بِالنَّاسِ مِنِ ازْدِحَامِهِمْ: فَجَلَسَ لِلنَّاسِ عِنْدَ السُّوْرِ أَيَّاماً، ثُمَّ وُسِّعَتْ بِمَا أُضِيْفَتْ إِلَيْهَا مِنَ الْمَنَازِلِ وَالأَمْكِنَةِ الَّتِي حَوْلَهَا، وَبَذَلَ الأَغْنِيَاءُ فِي عِمَارَتِهَا أَمْوَالَهُمْ، وَعَمِلَ الفُقَرَاءُ فِيْهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَاكْتَمَلَتْ الْمَدْرَسَةُ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِيْنَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، وَصَارَتْ مَنْسُوْبَةً إِلَيْهِ وَتَصَدَّرَ بِهَا لِلتَّدْرِيْسِ وَالفَتْوَى وَالوَعْظِ، مَعَ الاجْتِهَادِ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَجَمَعَ اللهُ قُلُوْبَ عِبَادِهِ عَلَى حُبِّهِ، وَأَلْهَجَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ رِئَاسَةُ العِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالإِصْلاَحِ وَالإِرْشَادِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِالعِرَاقِ، وَقَصَدَهُ النَّاسُ مِنَ الآفَاقِ، وَرَزَقَهُ اللهُ مِنَ الوَجَاهَةِ وَالقَبُوْلِ مَا أَزْرَى بِوَجَاهَةِ الْمُلُوْكِ وَالسَّلاَطِيْنِ، وَهَابَهُ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوْكُ وَالْوُزَرَاءُ فَمَنْ دُوْنَهُمْ.

---

(١) قال الشعراني: انتهت إليه رياسة تربية المريدين، وانتهى إليه معظم مشايخ بغداد وصوفيتهم في وقته، توفي سنة ٥٢٥هـ.

(٢) في المطبوع: (سعيد). خطأ. وهو المبارك بن علي بن الحسين، قال عنه ابن كثير: سمع الحديث، وتفقه على مذهب أحمد، وناظر وأفتى ودرس، وكان حسن السيرة، جميل الطريقة، سديد الأقضية، توفي سنة ٥١١هـ.

قَالَ الشَّيْخُ مُوَفَّقُ ابْنُ قُدَامَةَ صَاحِبُ الْمُغْنِي : لَمْ أَرَ أَحَداً يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِ الدِّيْنِ أَكْثَرَ مِنْهُ .

وكَانَ يَحْضُرُ مَجَالِسَهُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ الْخَلِيْفَةُ وَالْمُلُوْكُ وَالوُزَرَاءُ ، فَيَجْلِسُوْنَ مُتَأَدِّبِيْنَ خَاشِعِيْنَ .

أَمَّا الْعُلَمَاءُ وَالفُقَهَاءُ فَلاَ يَأْتِي عَلَيْهِمْ حَصْرٌ ، وَقَدْ عُدَّ فِي بَعْضِ مَجَالِسِهِ أَرْبَعُ مِئَةِ مَحْبَرَةٍ[١] .

*** صِفَتُهُ وَأَخْلاَقُهُ :**

كَانَ مِنْ أَخْلاَقِهِ أَنْ يَقِفَ مَعَ جَلاَلَةِ قَدْرِهِ مَعَ الصَّغِيْرِ وَالْجَارِيَةِ ، وَيُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ وَيُفَلِّي لَهُمْ ثِيَابَهُمْ ، وَكَانَ لاَ يَقُوْمُ قَطُّ لأَحَدٍ مِنَ الْعُظَمَاءِ وَأَعْيَانِ الدَّوْلَةِ ، وَلَمْ يَلُمَّ قَطُّ بِبَابِ وَزِيْرٍ وَلاَ سُلْطَانٍ[٢] .

وَكَانَ إِذَا جَاءَهُ خَلِيْفَةٌ أَوْ وَزِيْرٌ يَدْخُلُ الدَّارَ ثُمَّ يَخْرُجُ حَتَّى لاَ يَقُوْمَ لَهُ[٣] .

وَقَد اتَّفَقَتِ الأَلْسِنَةُ وشَهَادَاتُ الْمُعَاصِرِيْنَ عَلَى حُسْنِ خُلُقِهِ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَتَوَاضُعِهِ للهِ تَعَالَى ، وَسَخَائِهِ وَإِيْثَارِهِ لِغَيْرِهِ ، قَدْ وَصَفَهُ أَحَدُ رِجَالِ عَصْرِهِ « حرادة »[٤] وَقَدْ عَاشَ طَوِيلاً ، وَصَحِبَ مِنَ الشُّيُوْخِ الكِبَارِ ، فَقَالَ : « مَا رَأَتْ عَيْنَايَ أَحْسَنَ خُلُقاً ، وَلاَ أَوْسَعَ صَدْراً ، وَلاَ أَكْرَمَ نَفْساً ، وَلاَ أَلْطَفَ قَلْباً ، وَلاَ أَحْفَظَ عَهْداً وَوِدّاً مِنْ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ ، وَلَقَدْ كَانَ - مَعَ جَلاَلَةِ قَدْرِهِ ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ - يَقِفُ مَعَ الصَّغِيْرِ ، وَيُوَقِّرُ الكَبِيْرَ ، وَيَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ ، وَيُجَالِسُ الضُّعَفَاءَ ، وَيَتَوَاضَعُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَمَا قَامَ لأَحَدٍ مِنَ العُظَمَاءِ وَلاَ الأَعْيَانِ ، وَلاَ أَلَمَّ بِبَابِ وَزِيْرٍ وَلاَ سُلْطَانٍ »[٥] .

وَقَالَ الإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ البِرْزَالِيُّ الأَشْبِيْلِيُّ : « كَانَ مُجَابَ

---

(١) ملخصاً من المنتظم والهداية وذيل طبقات الحنابلة والطبقات الكبرى .
(٢) الطبقات الكبرى للشعراني (ص١٢٧) .
(٣) الطبقات الكبرى للشعراني (ص١٢٨) .
(٤) أقول : لم أجد له ترجمة .
(٥) قلائد الجواهر .

الدَّعْوَةِ ، سَرِيْعَ الدَّمْعَةِ ، دَائِمَ الذِّكْرِ ، كَثِيْرَ الفِكْرِ ، رَقِيْقَ القَلْبِ ، دَائِمَ البِشْرِ ، كَرِيْمَ النَّفْسِ ، سَخِيَّ اليَدِ ، غَزِيْرَ العِلْمِ ، شَرِيْفَ الأَخْلاَقِ ، طَيِّبَ الأَعْرَافِ ، مَعَ قَدَمٍ رَاسِخٍ فِي العِبَادَةِ وَالاجْتِهَادِ »(١) .

وَقَالَ مُفْتِي العِرَاقِ ، مُحْيِي الدِّيْنِ ، أَبُوْ عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَامِدٍ البَغْدَادِيُّ : « كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ الفُحْشِ ، أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ ، شَدِيْدَ البَأْسِ إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَارِمُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لاَ يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ ، وَلاَ يَنْتَصِرُ لِغَيْرِ اللهِ » .

كَانَ لَهُ غَرَامٌ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ ، وَالإِنْفَاقِ عَلَى ذَوِي الْحَاجَةِ وَالعَاهَةِ ، قَالَ العَلاَّمَةُ النَّجَّارُ فِي تَارِيْخِهِ : قَالَ الْجِبَائِي : قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ : « فَتَّشْتُ الأَعْمَالَ كُلَّهَا ، فَمَا وَجَدْتُ فِيْهَا أَفْضَلَ مِنْ إِطْعَامِ الطَّعَامِ ، وَلاَ أَشْرَفَ مِنَ الْخُلُقِ الْحَسَنِ ، أَوَدُّ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِيَدِي أَطْعَمْتُهَا الْجَائِعَ » . وَقَالَ : قَالَ لِي : « كَفِّي مَثْقُوْبَةٌ لاَ تَضْبُطُ شَيْئاً ، لَوْ جَاءَنِي أَلْفُ دِيْنَارٍ لَمْ تَبِتْ عِنْدِي »(٢) .

وَقَالَ صَاحِبُ قَلاَئِدِ الْجَوَاهِرِ : « كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَأْمُرُ كُلَّ لَيْلَةٍ بِمَدِّ البِسَاطِ ، وَيَأْكُلُ مَعَ الأَضْيَافِ ، وَيُجَالِسُ الضُّعَفَاءَ ، وَيَصْبِرُ عَلَى طَلَبَةِ العِلْمِ ، لاَ يَظُنُّ جَلِيْسُهُ أَنَّ أَحَداً أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَيَفْتَقِدُ مَنْ غَابَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَيَسْأَلُ عَنْ شَأْنِهِمْ ، وَيَحْفَظُ وِدَّهُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَيُصَدِّقُ مَنْ حَلَفَ لَهُ ، وَيُخْفِي عِلْمَهُ فِيْهِ »(٣) .

*** إِحْيَاءُ القُلُوْبِ الْمَيِّتَةِ :**

اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُوْنَ عَلَى كَثْرَةِ كَرَامَاتِ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ .

قَالَ الشَّيْخُ مُوَفَّقُ الدِّيْنِ صَاحِبُ الْمُغْنِي : « لَمْ أَسْمَعْ عَنْ أَحَدٍ يُحْكَى عَنْهُ مِنَ الكَرَامَاتِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يُحْكَى عَنِ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ » .

---

(١) قلائد الجواهر (ص٩) .

(٢) قلائد الجواهر (ص١٠) .

(٣) قلائد الجواهر (ص٩) .

وَذَكَرَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ ابْنُ عَبْدِ السَّلاَمِ : « أَنَّهُ لَمْ تَتَوَفَّرْ كَرَامَاتُ أَحَدٍ مِنَ الْمَشَايِخِ إِلاَّ الشَّيْخَ عَبْدُ القَادِرِ ، فَإِنَّ كَرَامَاتِهِ نُقِلَتْ بِالتَّوَاتُرِ »[١] .

وَكَذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ[٢] .

وَلَكِنْ مِنْ أَجَلِّ كَرَامَاتِهِ إِحْيَاءُ مَوَاتِ النُّفُوسِ وَالقُلُوبِ ، وَزَرْعُ الإِيْمَانِ وَخَشْيَةِ اللهِ وَحُبِّهِ فِيهَا ، وَإِشْعَالُ مَجَامِرِ القُلُوبِ الَّتِي انْطَفَأَتْ مِنْ جَدِيْدٍ ، فَقَدْ أَعَادَ اللهُ بِهِ إِلَى قُلُوبٍ لاَ يُحْصِيهَا إِلاَّ اللهُ حَيَاةً وَإِيْمَاناً ، وَهَبَّتْ بِمَوَاعِظِهِ وَتَرْبِيَتِهِ رِيَاحٌ مِنَ الإِيْمَانِ عَاشَتْ بِهَا قُلُوبٌ مَيِّتَةٌ ، وَنَشَطَتْ بِهَا نُفُوسٌ خَامِدَةٌ ، وَانْطَلَقَتْ فِي العَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ مَوْجَةٌ مِنَ الإِيْمَانِ الْجَدِيْدِ ، وَالرُّوحَانِيَّةِ القَوِيَّةِ ، وَالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ ، وَالتَّقْوَى .

وَقَدْ هَيَّأَ اللهُ لَهُ الزَّعَامَةَ الدِّيْنِيَّةَ وَالرُّوْحِيَّةَ فِي العَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ ، فَاخْتَارَ لَهُ بَغْدَادَ ـ عَاصِمَةَ الْمَمْلَكَةِ العَبَّاسِيَّةِ وَقَلْبُ العَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ ـ وَجَاءَتْهُ بَغْدَادُ ـ وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ مُدُنِ العَالَمِ ـ تَسْعَى ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ ازْدِحَاماً كَبِيْراً ، قَالَ : « كَانَ يَجْلِسُ عِنْدِي رَجُلاَنِ وَثَلاَثَةٌ يَسْمَعُوْنَ كَلاَمِي ، ثُمَّ تَسَامَعَ بِي النَّاسُ وَازْدَحَمَ عَلَيَّ الْخَلْقُ ، فَكُنْتُ أَجْلِسُ فِي الْمُصَلَّى بِبَابِ الْحَلْبَةِ ، ثُمَّ ضَاقَ عَلَيَّ النَّاسُ فَأَخْرَجُوا الكُرْسِيَّ إِلَى دَاخِلِ السُّوْرِ بَيْنَ التَّنَانِيْرِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَجِيْؤُونَ فِي اللَّيْلِ عَلَى الشَّمْعِ وَالْمَشَاعِلِ ، يَأْخُذُوْنَ لَهُمْ مَوَاضِعَ ، ثُمَّ ضَاقَ عَلَى النَّاسِ الْمَوْضِعُ ، فَحُمِلَ الكُرْسِيُّ إِلَى خَارِجِ البَلَدِ ، وَجُعِلَ فِي الْمُصَلَّى ، وَكَانُوا يَجِيْؤُونَ عَلَى الْخَيْلِ وَالبِغَالِ وَالْحَمِيْرِ وَالْجِمَالِ ، وَيَقِفُوْنَ مَا دَارَ الْمَجْلِسُ كَالسُّوْرِ ، وَكَانَ يَحْضُرُ الْمَجْلِسَ نَحْوٌ مِنْ سَبْعِيْنَ أَلْفاً »[٣] .

وَكَانَ لِمَجَالِسِهِ تَأْثِيْرٌ عَظِيْمٌ وَنَفْعٌ كَثِيْرٌ ، قَالَ الشَّيْخُ عُمَر الكَيْسَانِيّ : « لَمْ تَكُنْ مَجَالِسُ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَخْلُو مِمَّنْ يُسْلِمُ مِنَ اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى ، وَلاَ مِمَّنْ يَتُوْبُ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيْقِ ، وَقَاتِلِي الأَنْفُسِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الفُسَّاقِ ، وَلاَ مِمَّنْ يَرْجِعُ عَنْ مُعْتَقَدٍ شَيءٍ »[٤] .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب .

(٢) جلاء العينين للألوسي .

(٣) قلائد الجواهر (ص١٥ـ١٦) .

(٤) قلائد الجواهر (ص٢٢) .

وَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِذَلِكَ وَيَحْمَدُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مَا كَانَ يَهْوَاهُ مِنَ الْخَلْوَةِ بِاللهِ ، وَالانْقِطَاعِ عَنِ الْخَلْقِ وَالاشْتِغَالِ بِالعِبَادَاتِ .

قَالَ الْجِبَائِيّ : قَالَ لِي سَيِّدُنَا الشَّيْخُ : « أَتَمَنَّى أَنْ أَكُوْنَ فِي الصَّحَارَى وَالبَرَارِي كَمَا كُنْتُ فِي الأَوَّلِ ، لاَ أَرَى فِي الْخَلْقِ وَلاَ يَرَوْنَنِي » ، ثُمَّ قَالَ : « أَرَادَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنِّي مَنْفَعَةَ الْخَلْقِ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى ، وَتَابَ عَلَى يَدَيَّ مِنَ العَيَّارِيْنَ وَالْمَسَالِحَة[1] أَكْثَرُ مِنْ مِئَةِ أَلْفٍ ، وَهَذَا خَيْرٌ كَثِيْرٌ »[2] .

وَكَانَ الشَّيْخُ يَعْتَقِدُ ـ بِحَقٍّ ـ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِذَلِكَ ، مَأْمُوْرٌ بِهِ ، يَقُوْلُ فِي الْمَجْلِسِ : « سُبْحَانَ مَنْ أَلْقَى فِي قَلْبِي نُصْحَ الْخَلْقِ ، وَجَعَلَهُ أَكْبَرَ هَمِّي ، إِنِّي أَنْصَحُ وَلاَ أُرِيْدُ عَلَى ذَلِكَ جَزَاءً ؛ أُجْرَتِي قَدْ حَصَلَتْ لِي عِنْدَ رَبِّي عزَّ وجلَّ ، مَا أَنَا طَالِبُ دُنْيَا ، مَا أَنَا عَبْدُ الدُّنْيَا وَلاَ الآخِرَةِ ، وَلاَ مَا سِوَى الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، مَا أَعْبُدُ إِلاَّ الْخَالِقَ الوَاحِدَ الأَحَدَ القَدِيْمَ ، فَرَحِي بِفَلاَحِكُمْ ، وَغَمِّي لِهَلاَكِكُمْ »[3] .

* اشْتِغَالُهُ بِالعِلْمِ وَنُصْرَتُهُ لِلْسُّنَّةِ :

وَلَمْ يَمْنَعْهُ اشْتِغَالُهُ بِالوَعْظِ وَالإِرْشَادِ وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ مِنَ الاشْتِغَالِ بِالتَّدْرِيْسِ ، وَنَشْرِ العِلْمِ وَنَصْرِ السُّنَّةِ وَالعَقِيْدَةِ الصَّحِيْحَةِ ، وَمُحَارَبَةِ البِدَعِ ، وَقَدْ كَانَ فِي العَقِيْدَةِ وَالفُرُوْعِ مُتَّبِعاً لِلإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْمُحَدِّثِيْنَ وَالسَّلَفِ . قَالَ ابْنُ رَجَبٍ : « كَانَ مُتَمَسِّكاً فِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ وَالقَدَرِ وَنَحْوِهِمَا بِالسُّنَّةِ ، مُبَالِغاً فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَهَا »[4] .

وَقَدْ كَانَ قَوِيَّ الاشْتِغَالِ بِالتَّدْرِيْسِ ، عَالِماً مُتَفَنِّناً . قَالُوا : كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي ثَلاَثَةَ عَشَرَ عِلْماً ، وَكَانُوا يَقْرَؤُوْنَ عَلَيْهِ فِي مَدْرَسَتِهِ دَرْساً مِنَ التَّفْسِيْرِ ، وَدَرْساً مِنَ الْحَدِيْثِ ، وَدَرْساً مِنَ الْمَذْهَبِ ، وَدَرْساً مِنَ الْخِلاَفِ ، وَكَانُوا يَقْرَؤُوْنَ عَلَيْهِ طَرَفَي النَّهَارِ : التَّفْسِيْرَ ، وَعُلُومَ الْحَدِيْثِ ، وَالْمَذْهَبِ ، وَالْخِلاَفِ ، وَالأُصُوْلِ ، وَالنَّحْوِ .

---

(١) المسالح : الجماعة ، أو القوم ذوو السلاح .

(٢) قلائد الجواهر (ص٢٢) .

(٣) الفتح الرباني (المجلس السادس) .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة .

وَكَانَ يَقْرأُ الْقُرْآنَ بِالقِرَاءَاتِ بَعْدَ الظُّهْرِ ، وكَانَ يُفْتِي عَلَى مَذْهَبِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَالإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ ، كَانَتْ فَتْوَاهُ تُعْرَضُ عَلَى العُلَمَاءِ بِالعِرَاقِ ، فَتُعْجِبُهُمْ أَشَدَّ الإِعْجَابِ[١] .

رُفِعَ إِلَيْهِ سُؤَالٌ فِي رَجُلٍ حَلَفَ بِالطَّلاَقِ الثَّلاَثِ ، أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ عزَّ وجلَّ عِبَادَةً يَتَفَرَّدُ بِهَا دُونَ جَمِيعِ النَّاسِ فِي وَقْتِ تَلَبُّسِهِ بِهَا ، فَمَاذَا يَفْعَلُ مِنَ العِبَادَاتِ ؟ فَأَجَابَ عَلَى الفَوْرِ : « يَأْتِي مَكَّةَ ، وَيُخْلَى لَهُ الْمَطَافُ ، وَيَطُوفُ سَبْعاً وَحْدَهُ ، وَيَنْحَلُّ يَمِينُهُ[٢] » . فَأُعْجِبَ عُلَمَاءُ العِرَاقِ ، وَكَانُوا قَدْ عَجَزُوا عَنِ الْجَوَابِ عَنْهَا[٣] .

*** الاسْتِقَامَةُ وَالتَّحْقِيقُ :**

وَقَدِ اتَّجَهَ التَّصَوُّفُ فِي القَرْنِ الْخَامِسِ اتِّجَاهاً فِيهِ الاسْتِقْلاَلُ الَّذِي قَدْ يَنْتَهِي إِلَى الانْفِصَالِ عَنِ الشَّرِيعَةِ ، وَأَصْبَحَ ـ أَوْ كَادَ يُصْبِحُ ـ مُؤَسَّسَةً أَوْ مَدْرَسَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا ، لاَ تَتَّصِلُ بِالشَّرِيعَةِ إِلاَّ اتِّصَالاً شَكْلِيّاً .

وَشَاعَتْ شَطَحَاتُ الصُّوفِيَّةِ ، وَدَعَاوَى الوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَالنِّهَايَةِ الَّتِي تَسْقُطُ فِيهَا الفَرَائِضُ وَالتَّكَالِيفُ الشَّرْعِيَّةُ ، وَظَهَرَتْ نَزْعَةُ « وَحْدَةِ الوُجُودِ » ، وَبَدَأَتِ الفَوْضَى فِي بَعْضِ زَوَايَا الصُّوفِيَّةِ ، فَكَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ مِنْ أَكْبَرِ الْمُعَارِضِيْنَ لِهَذَا الاتِّجَاهِ الثَّائِرِ ، وَمِنْ أَكْبَرِ الدُّعَاةِ إِلَى إِخْضَاعِ الطَّرِيقَةِ لِلشَّرِيعَةِ ، وَالتَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحْكِيمِهِمَا فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ وَالأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ .

وَقَدِ اسْتَطَاعَ بِقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهِ وَبِإِخْلاَصِهِ وَعِلْمِهِ القَوِيِّ ، أَنْ يَمْنَعَ هَذَا الاتِّجَاهَ الْخَطِيرَ ، وَيَرْجِعَ بِالتَّصَوُّفِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي العَصْرِ الأَوَّلِ .

قَالَ الشَّعْرَانِيُّ : « كَانَتْ طَرِيقَتُهُ التَّوْحِيدَ وَصْفاً وَحُكْماً وَحَالاً ، وَتَحْقِيقُهُ الشَّرْعَ ظَاهِراً

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (ص١٢٦) .

(٢) يعني : سبعة أشواط .

(٣) الطبقات الكبرى (ص١٢٧) .

وَبَاطِناً » . وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ : « اتَّبِعُوا وَلاَ تَبْتَدِعُوا ، وَأَطِيعُوا وَلاَ تُخَالِفُوا »(١) .

وَمِنْ قَوْلِهِ رَحِمَهُ اللهُ : « إِنِ انْخَرَمَ فِيكَ شَيءٌ مِنَ الْحُدُودِ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَفْتُونٌ ، قَدْ لَعِبَ بِكَ الشَّيْطَانُ ؛ فَارْجِعْ إِلَى حُكْمِ الشَّرْعِ وَالزَمْهُ ، وَدَعْ عَنْكَ الْهَوَى ؛ لأَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي لاَ تَشْهَدُ لَهَا الشَّرِيعَةُ فَهِيَ بَاطِلَةٌ »(٢) .

وَيَقُولُ حَاثّاً عَلَى التَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالتِزَامِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ : « كُلُّ حَقِيقَةٍ لاَ تَشْهَدُ لَهَا الشَّرِيعَةُ فَهِيَ زَنْدَقَةٌ ، طِرْ إِلَى الْحَقِّ عزّ وجلّ بِجَنَاحَي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ ادْخُلْ عَلَيْهِ وَيَدُكَ فِي يَدِ الرَّسُولِ ﷺ ، اجْعَلْهُ وَزِيرَكَ وَمُعَلِّمَكَ ، دَعْ يَدَهُ تُزَيِّنُكَ وَتَمْشُطُكَ وَتَعْرِضُكَ عَلَيْهِ! »(٣) .

وَيَقُولُ مُنْكِراً عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ تَسْقُطُ عَنِ السَّالِكِ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ : « تَرْكُ العِبَادَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ زَنْدَقَةٌ ، وَارْتِكَابُ الْمَحْظُورَاتِ مَعْصِيَةٌ ، لاَ تَسْقُطُ الفَرَائِضُ عَنْ أَحَدٍ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ »(٤) .

وَقَدْ كَانَ جَبَلاً رَاسِياً فِي الاسْتِقَامَةِ عَلَى الشَّرِيعَةِ ، وَقَدْ وَصَلَ بِكَمَالِ اتِّبَاعِهِ وَعِلْمِهِ الرَّاسِخِ ، وَتَأْيِيدِ اللهِ سبحانه وتعالى ، حَيْثُ صَارَ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالبَاطِلِ ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ ، وَالْمَوَارِدِ الإِلَهِيَّةِ وَالطَّوَارِقِ الشَّيْطَانِيَّةِ . وَقَدْ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ إِيمَاناً ـ كَمَا قَدَّمْنَا ـ بِأَنَّ الأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لاَ تَتَبَدَّلُ ، وَلاَ نَاسِخَ لَهَا بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ ، وَأَنَّ مَنِ ادَّعَى نَسْخَهَا أَوْ تَعْطِيلَهَا فَقَدْ كَفَرَ وَكَانَ مَطِيَّةَ الشَّيْطَانِ ، وَقَدْ عُرِضَتْ لَهُ مِحَنٌ ثَبَتَ فِيهَا ؛ لِعِلْمِهِ الرَّاسِخِ وَبَصِيرَتِهِ النَّافِذَةِ ، يَقُولُ :

« تَرَاءَى لِي نُورٌ عَظِيمٌ مَلأَ الأُفُقَ ، ثُمَّ فِيهِ صُورَةٌ تُنَادِينِي : يَا عَبْدَ القَادِرِ ، أَنَا رَبُّكَ ، وَقَدْ حَلَّلْتُ لَكَ الْمُحَرَّمَاتِ! . فَقُلْتُ : اخْسَأْ يَا لَعِينُ ، فَإِذَا ذَلِكَ النُّورُ ظَلاَمٌ ، وَتِلْكَ الصُّورَةُ

---

(١) الطبقات الكبرى (ص١٢٩) .
(٢) أيضاً (ص١٣١) .
(٣) الفتح الرباني (المجلس الرابع والأربعون) .
(٤) الفتح الرباني (المجلس الحادي عشر) .

دُخَانٌ ، ثُمَّ خَاطَبَنِي ، يَا عَبْدَ القَادِرِ ، نَجَوْتَ بِعِلْمِكَ بِأَمْرِ رَبِّكَ وَفِقْهِكَ فِي أَحْوَالِ مُنَازَلَاتِكَ ، وَلَقَدْ أَضْلَلْتُ بِمِثْلِ هَذِهِ الوَاقِعَةِ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقِ ، فَقُلْتُ : للهِ الفَضْلُ ، فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ ؟ قَالَ : بِقَوْلِهِ : قَدْ حَلَّلْتُ لَكَ الْمُحَرَّمَاتِ »[(١)] .

*** التَّفْوِيضُ وَالتَّوْحِيدُ :**

كَانَتْ قَدَمُهُ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى التَّفْوِيضِ وَالْمُوَافَقَةِ مَعَ التَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالقُوَّةِ .

كَانَ الشَّيْخُ عَدِيُّ بْنُ مُسَافِرٍ[(٢)] يَقُولُ : « وَكَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طَرِيقَتُهُ الدُّخُولُ تَحْتَ مَجَارِي الأَقْدَارِ بِمُوَافَقَةِ القَلْبِ وَالرُّوحِ » .

وَقَدْ جَاهَدَ فِي ذَلِكَ نَفْسَهُ مُجَاهَدَةً شَدِيدَةً ، يَقُولُ فِي مَقَالَةٍ : « جَاهَدْتُ نَفْسِي فِي تَرْكِ الاخْتِيَارِ وَالإِرَادَةِ ، حَتَّى حَصَلَ لِي ذَلِكَ ، فَصَارَ القَدَرُ يَقُودُنِي ، وَالْمِنَّةُ تَنْصُرُنِي ، وَالفِعْلُ يُحَرِّكُنِي ، وَالغَيْرَةُ تَعْصِمُنِي ، وَالإِرَادَةُ تُطِيعُنِي ، وَالسَّابِقَةُ تُقَدِّمُنِي ، وَاللهُ عَزَّ وجَلَّ يَرْفَعُنِي »[(٣)] .

وَقَدْ تَجَلَّى هَذَا الذَّوْقُ وَهَذِهِ الاتِّجَاهُ فِي كَلَامِهِ وَاضِحاً قَوِيّاً ، وَقَدْ وَصَفَ رَجُلاً تَجَرَّدَ عَنْ إِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، وَاسْتَسْلَمَ لِلْقَضَاءِ وَإِرَادَةِ اللهِ سبحانه وتعالى ، ـ وَإِنَّمَا يَعْنِي : نَفْسَهُ ـ يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ :

« إِذَا ابْتُلِيَ الْعَبْدُ بِبَلِيَّةٍ تَحَرَّكَ أَوَّلاً فِي نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهَا اسْتَعَانَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ : كَالسَّلَاطِينِ ، وَأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ ، وَأَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، وَأَصْحَابِ الأَمْوَالِ ، وَأَهْلِ الطِّبِّ فِي الأَمْرَاضِ وَالأَوْجَاعِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي ذَلِكَ خَلَاصَهُ ، رَجَعَ حِينَئِذٍ إِلَى رَبِّهِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالثَّنَاءِ .

فَمَا دَامَ يَجِدُ عِنْدَ نَفْسِهِ نُصْرَةً لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْخَلْقِ .

ثُمَّ مَا دَامَ يَجِدُ عِنْدَ الْخَلْقِ نُصْرَةً لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْخَالِقِ .

---

(١) الطبقات الكبرى (ص١٢٧) .

(٢) الطبقات الكبرى (ص١٢٧) .

(٣) الفتح الرباني (المجلس الثالث والأربعون) .

ثُمَّ إذَا لَمْ يَجِدْ عِنْدَ الخالِقِ نُصْرَةً ، اسْتَطْرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُدِيماً لِلسُّؤَالِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالثَّنَاءِ ، وَالافْتِقَارِ مَعَ الْخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ .

ثُمَّ يُعجِزُهُ الْخَالِقُ عزَّ وجلَّ عَنِ الدُّعَاءِ وَلَمْ يُجِبْهُ ، حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنْ جَمِيعِ الأَسْبَابِ ، فَحِينَئِذٍ يَنْفُذُ فِيهِ القَدَرُ ، وَيَفْعَلُ الفِعْلُ ، فَيَفْنَى العَبْدُ عَنْ جَمِيعِ الأَسْبَابِ وَالْحَرَكَاتِ ، فَيَبْقَى رُوْحاً فَقَطْ ، فَلاَ يَرَى إلاَّ فِعْلَ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، فَيَصِيرُ مُوْقِناً مُوَحِّداً ضَرُوْرَةً ، وَيَقْطَعُ أَنْ لاَ فَاعِلَ فِي الْحَقِيقَةِ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ مُحَرِّكَ وَلاَ مُسَكِّنَ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ خَيْرَ وَلاَ شَرَّ ، وَلاَ ضَرَّ وَلاَ نَفْعَ ، وَلاَ عَطَاءَ وَلاَ مَنْعَ ، وَلاَ فَتْحَ وَلاَ غَلْقَ ، وَلاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ ، وَلاَ عِزَّ وَلا ذُلَّ ، وَلاَ غِنًى وَلاَ فَقْرَ ، إلاَّ بِيَدِ اللهِ . فَيَصِيرُ حِيْنَئِذٍ كَالطِّفْلِ الرَّضِيْعِ فِي يَدِ الظِّئْرِ ، والْمَيْتِ الغَسِيْلِ فِي يَدِ الغَاسِلِ ، وَالكُرَةِ فِي صَوْلَجَانِ الفَارِسِ ، يُقَلَّبُ وَيُغَيَّرُ وَيُبَدَّلُ وَيُكَوَّنُ ، وَلاَ حَرَاكَ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَلاَ فِي غَيْرِهِ ، هُوَ غَائِبٌ عَنْ نَفْسِهِ فِي فِعْلِ مَوْلاَهُ ، فَلاَ يَرَى غَيْرَ مَوْلاَهُ وَفِعْلَهُ ، وَلاَ يَرَى سِوَاهُ ، وَلاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَعْقِلُ مِنْ غَيْرِهِ ، إنْ أَبْصَرَ فَلِصَنْعَتِهِ أَبْصَرَ ، وَإِنْ سَمِعَ وَعَلِمَ فَلِكَلاَمِهِ سَمِعَ ، وَلِعِلْمِهِ عَلِمَ ، وَبِنِعْمَتِهِ تَنَعَّمَ ، وَبِقُرْبِهِ سَعِدَ ، وَبِتَقْرِيْبِهِ تَزَيَّنَ وَتَشَرَّفَ ، وَبِوَعْدِهِ طَابَ وَسَكَنَ ، وَبِهِ اطْمَأَنَّ ، وَبِحَدِيْثِهِ أَنِسَ ، وَعَنْ غَيْرِهِ اسْتَوْحَشَ وَنَفَرَ ، وَإِلَى ذِكْرِهِ التَجَأَ وَرَكَنَ ، وَبِهِ عزَّ وجلَّ وَثِقَ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلَ ، وَبِنُورِ مَعْرِفَتِهِ اهْتَدَى وَتَقَمَّصَ ، وَتَسَرْبَلَ »[١] .

وَيَقُوْلُ فِي مَقَالَةٍ أُخْرَى : « العَبْدُ إذَا عَرَفَ اللهَ عزَّ وجلَّ سَقَطَ الْخَلْقُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَتَنَاثَرُوا عَنْهُ كَمَا يَتَنَاثَرُ الوَرَقُ اليَابِسُ مِنَ الشَّجَرِ ، فَيَبْقَى بِلاَ خَلْقٍ فِي الْجُمْلَةِ ، يَعْمَى عَنْ رُؤْيَتِهِمْ ، وَيَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ كَلاَمِهِمْ مِنْ حَيْثُ قَلْبُهُ وَسِرُّهُ »[٢] .

* شَفَقَتُهُ عَنِ الْخَلْقِ :

وَقَدْ كَانَ ـ رحْمَةُ اللهِ عليْهِ ـ عَطُوفاً ، شَفِيْقاً ، رَفِيْقاً بِالأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَعَامَّةِ النَّاسِ ، دَائِمَ الدَّعْوَةِ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ ، يَرِقُّ قَلْبُهُ ، وَيَرْثِي لِضُعَفَائِهِمْ وَالْمُشْتَغِلِيْنَ بِمَا لاَ يَنْفَعُهُمْ فِي الآخِرَةِ ،

---

(١) فتوح الغيب (المقالة الثالثة) .

(٢) الفتح الرباني (المجلس السادس والخمسون) .

نَاصِحاً لِكُلِّ طَبَقَةٍ ، مُحِبّاً لِلْخَيْرِ لَهَا ، يَحْرِصُ عَلَى إِسْعَادِهَا وَإِخْرَاجِهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ ، وَيَقُوْلُ مُخَاطِباً لِمُسْتَمِعِيْهِ :

« يَا خَلْقَ اللهِ ، إِنِّي أَطْلُبُ صَلاَحَكُمْ وَمَنْفَعَتَكُمْ فِي الْجُمْلَةِ ، أَتَمَنَّى غَلْقَ أَبْوَابِ النَّارِ وَعَدَمِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَأَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَفَتْحَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَأَنْ لاَ يُمْنَعَ مِنْ دُخُوْلِهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَإِنَّمَا تَمَنَّيْتُ هَذِهِ الأُمْنِيَةَ لاطِّلاَعِي عَلَى رَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَشَفَقَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ ، قُعُوْدِي لِمَصَالِحِ قُلُوْبِكُمْ بِتَهْذِيْبِهَا ، لاَ لِتَغْيِيْرِ الْكَلاَمِ وَتَهْذِيْبِهِ ، لاَ تَهْرُبُوا مِنْ خُشُوْنَةِ كَلاَمِي ، فَمَا رَبَّانِي إِلاَّ الْخَشِنُ فِي دِيْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، كَلاَمِي خَشِنٌ وَطَعَامِي خَشِنٌ ، فَمَنْ هَرَبَ مِنِّي وَمِنْ أَمْثَالِي لاَ يُفْلِحُ »[١] .

وَيَقُوْلُ فِي مُنَاسَبَةٍ أُخْرَى ، وَهُوَ يَصِفُ الدُّعَاةَ إِلَى اللهِ ، وَالْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّيْنَ ، وَرَحْمَتَهُمْ بِخَلْقِ اللهِ ، وَحِرْصَهُمْ عَلَى خَلاَصِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ :

« كَيْفَ لاَ يَرْحَمُوْنَ الْعُصَاةَ وَهُمْ مَوْضِعُ الرَّحْمَةِ ، مَقَامُ التَّوْبَةِ وَالاعْتِذَارِ ، الْعَارِفُ خُلُقُهُ مِنْ أَخْلاَقِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، فَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي تَخْلِيْصِ الْعَاصِي مِنْ يَدِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ وَالْهَوَى ، إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ وَلَدَهُ أَسِيْراً فِي يَدِ كَافِرٍ ، أَلَيْسَ يَجْتَهِدُ فِي تَخْلِيْصِهِ ، فَهَكَذَا الْعَارِفُ ، الْخَلْقُ كُلُّهُمْ كَالأَوْلاَدِ »[٢] .

وَيَحْكِي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ حَالَ مَنْ خَصَّهُ اللهُ بِهَذِهِ الشَّفَقَةِ الْعَامَّةِ وَالنُّصْحِ الدَّائِمِ ، وَيَدْخُلَ فِي سُوْقٍ ، وَإِنَّمَا يَصِفُ نَفْسَهُ الْكَرِيْمَةَ :

« مِنْهُمْ مَنْ إِذَا دَخَلَ السُّوْقَ ، امْتَلأَ قَلْبُهُ بِاللهِ لأَهْلِهِ ، فَتَشْغَلُهُ[٣] الرَّحْمَةُ لَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ ، فَهُوَ مِنْ حِيْنِ دُخُوْلِهِ إِلَى حِيْنِ خُرُوْجِهِ فِي دُعَاءٍ وَاسْتِغْفَارٍ ، وَشَفَاعَةٍ لأَهْلِهِ ، وَشَفَقَةٍ وَرَحْمَةٍ ، فَقَلْبُهُ مُحْتَرِقٌ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ ، وَعَيْنُهُ مَغْرُوْقَةٌ لأَجْلِهِمْ ، وَلِسَانُهُ فِي ثَنَاءٍ وَحَمْدٍ للهِ عزَّ وجلَّ بِمَا أَوْلَى الْكَافَّةَ مِنْ نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ »[٤] .

---

(١) الفتح الرباني (المجلس التاسع والأربعون) .
(٢) أيضاً (المجلس الثالث والخمسون) .
(٣) في المطبوع : (فتشغل) .
(٤) فتوح الغيب (المقالة الثانية والسبعون) .

* دَعْوَتُهُ لِلإِسْلاَمِ :

إِنَّ وُجُودَ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ الْجِيلاَنِيِّ فِي قُوَّةِ إِيمَانِهِ ، وَقُوَّةِ عَمَلِهِ ، وَقُوَّةِ دَعْوَتِهِ ، وَسُمُوِّ سِيْرَتِهِ وَأَخْلاَقِهِ ، وَزُهْدِهِ فِي الدُّنْيَا فِي عَصْرِ الْمَادِيَّةِ وَعَصْرِ الغَفْلَةِ وَالانحِطَاطِ ، كَانَ دَلِيْلاً عَلَى خُلُوْدِ الإِسْلاَمِ وَصَلاَحِيَّتِهِ لِلْبَقَاءِ . وَصَلاَحِيَّتِهِ لِلإِنْتَاجِ ، وَعَلَى أَنَّ شَجَرَتَهُ لَمْ تَنْقَطِعْ وَلَنْ تَنْقَطِعَ عَنِ الإِثْمَارِ وَالازْدِهَارِ ، فَإِذَا كَانَ الإِسْلاَمُ دِيْنَ عَقِيْدَةٍ وَإِيْمَانٍ ، وَعَمَلٍ وَجِهَادٍ ، وَدَعْوَةٍ وَإِصْلاَحٍ ، ـ وَهُوَ كَذَلِكَ ـ ، فَلاَ بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ فِي مُخْتَلَفِ أَعْصَارِهِ وَأَمْصَارِهِ رِجَالٌ عَبْقَرِيُّوْنَ ، أَقْوِيَاءُ فِي إِيْمَانِهِمْ ، أَقْوِيَاءُ فِي عَمَلِهِمْ ، أَقْوِيَاءُ فِي دَعْوَتِهِمْ ، يُمَثِّلُوْنَ سِيْرَةَ الأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَائِهِمْ بِالْحَقِّ فِي عَصْرِهِمْ ، وَكَانَ وُجُوْدُهُ ، وَوُجُوْدُ مَنْ تَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَنَشَأَ فِي تَرْبِيَتِهِ ـ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَحِ وَالتَّقْوَى ، وَالصِّدْقِ وَالإِخْلاَصِ ، وَالزُّهْدِ وَالقَنَاعَةِ ، وَالأَخْلاَقِ وَالفَضَائِلِ ـ دَعْوَةً إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَدَلِيْلاً عَلَى صِدْقِهِ وَفَضْلِهِ وَحَيَاتِهِ وَتَأْثِيرِهِ ، وَمَقْدِرَتِهِ ، عَلَى إِنْتَاجِ الرَّبَّانِيِّيْنَ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَعلَى أَنَّ مَعِيْنَهُ لاَ يَنْضَبُ ؛ لِذَلِكَ كَانَ سَبَباً لِدُخُوْلِ عَدَدٍ كَبِيْرٍ مِنَ اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الإِسْلاَمِ ، وَإِقْبَالِ عَدَدٍ كَبِيْرٍ هَائِلٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ إِلَى تَجْدِيْدِ الإِيْمَانِ ، وَإِصْلاَحِ الْحَالِ ، وَالإِقْلاَعِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَحَارِمِ ، وَحَيَاةِ الغَفْلَةِ وَاللَّهْوِ .

* وَفَاتُهُ :

وَاظَبَ الشَّيْخُ مُثَابِراً عَلَى دَعْوَتِهِ وَجِهَادِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لِلنُّفُوْسِ ، حَتَّى وَافَاهُ الأَجَلُ الْمَحْتُوْمُ سَنَةَ ٥٦١هـ ، وَقَدْ جَاوَزَ التِّسْعِيْنَ ، وَقَدْ وَصَفَ وَلَدُهُ شَرَفُ الدِّيْنِ عِيْسَى مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ ، وَكَيْفَ فَارَقَ الدُّنْيَا وَانْتَقَلَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، قَالَ :

لَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ ، قَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الوَهَّابِ : أَوْصِنِي يَا سَيِّدِي بِمَا أَعْمَلُ بِهِ بَعْدَكَ ؟! فَقَالَ : عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ تَخَفْ أَحَداً سِوَى اللهَ ، وَلاَ تَرْجُ أَحَداً سِوَى اللهَ ، وَكُلُّ الْحَوَائِجِ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ تَعْتَمِدْ إِلاَّ عَلَيْهِ ، وَاطْلُبْهَا جَمِيْعاً مِنْهُ ، وَلاَ تَثِقْ بِأَحَدٍ غَيْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، التَّوْحِيْدَ التَّوْحِيْدَ جِمَاعُ الكُلِّ .

وَقَالَ : إِذَا صَحَّ القَلْبُ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ لاَ يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَقَالَ : أَنَا لُبٌّ بِلاَ قُشُورٍ .

وَقَالَ لأَوْلاَدِهِ : أَبْعِدُوا مَنْ حَوْلِي ، فَإِنِّي مَعَكُمْ بِالظَّاهِرِ ، وَمَعَ غَيْرِكُمْ بِالبَاطِنِ .

وَقَالَ : قَدْ حَضَرَ عِنْدِي غَيْرُكُمْ فَأَوْسِعُوا لَهُمْ ، وَتَأَدَّبُوا مَعَهُمْ ، هَاهُنَا رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلاَ تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْمَكَانَ .

وَكَانَ يَقُولُ : وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ، وَتَابَ اللهُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، بِسْمِ اللهِ غَيْرُ مُوَدِّعِينَ . قَالَ ذَلِكَ يَوْماً وَلَيْلَةً .

وَقَالَ : وَيْلَكُمْ! أَنَا لاَ أُبَالِي بِشَيْءٍ لاَ بِمَلَكٍ وَلاَ بِمَلَكِ الْمَوْتِ . يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ، مَنَحَ لَنَا مَنْ يَتَوَلاَّنَا سِوَاكَ . وَصَاحَ صَيْحَةً عَظِيمَةً ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِي عَشِيَّتِهِ .

وَأَخْبَرَنِي وَلَدَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ومُوسَى : أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيَمُدُّهُمَا ، وَيَقُولُ : وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، تُوبُوا وَادْخُلُوا فِي الصَّفِّ ، هُوَ ذَا أَجِيءُ إِلَيْكُمْ .

وَكَانَ يَقُولُ : ارْفِقُوا ، ثُمَّ أَتَاهُ الْحَقُّ وَسَكْرَةُ الْمَوْتِ .

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلاَ تَقِيسُونِي بِأَحَدٍ ، وَلاَ تَقِيسُوا عَلَيَّ أَحَداً . ثُمَّ سَأَلَهُ وَلَدُهُ عَبْدُ العَزِيزِ عَنْ أَلَمِهِ وَحَالِهِ ؟ . فَقَالَ : لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ عَنْ شَيْءٍ ، هَا أَنَا أَتَقَلَّبُ فِي عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وَقَدْ سَأَلَهُ وَلَدُهُ عَنْ مَرَضِهِ ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ مَرَضِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ وَلاَ يَعْقِلُهُ أَحَدٌ : إِنْسِيٌّ ، وَلاَ جِنِّيٌّ ، وَلاَ مَلَكٌ ، وَمَا يُنْقِصُ عِلْمَ اللهِ بِحُكْمِ اللهِ ، الْحُكْمُ يَتَغَيَّرُ وَالعِلْمُ لاَ يَتَغَيَّرُ ، الْحُكْمُ يُنْسَخُ وَالعِلْمُ لاَ يُنْسَخُ : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾[الرعد : ٣٩] . وَ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء : ٢٣] . أَخْبَارُ الصِّفَاتِ تَمُرُّ كَمَا جَاءَتْ .

وَسَأَلَهُ وَلَدُهُ عَبْدُ الْجَبَّارِ : مَاذَا يُؤْلِمُكَ مِنْ جِسْمِكَ ؟ فَقَالَ : جَمِيعُ أَعْضَائِي تُؤْلِمُنِي إِلاَّ قَلْبِي ، فَمَا بِهِ أَلَمٌ ، وَهُوَ صَحِيحٌ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثُمَّ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَكَانَ يَقُولُ : اسْتَعَنْتُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ سبحانه وتعالى ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ ، وَلاَ يَخْشَى الفَوْتَ ، سُبْحَانَ مَنْ تَعَزَّزَ بِالْقُدْرَةِ وَقَهَرَ العِبَادَ بِالْمَوْتِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ . ثُمَّ خَرَجَتْ رُوحُهُ الكَرِيمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ[1] .

---

(١) آخر كتاب فتوح الغيب .

تَرْجَمَةُ
شَيْخِ الإِسْلاَمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ
٦٦١ ـ ٧٢٨هـ

* اسْمُهُ وَنَسَبُهُ :

تَقِيُّ الدِّيْنِ ، أَبُو العَبَّاسِ ، أَحْمَدُ بْنُ الْمُفْتِي شهاب الدين أَبِي الْمَحَاسِن عَبْدِ الْحَلِيْمِ بْنِ الإِمَامِ الْمُجْتَهِدِ شَيْخِ الإِسْلاَمِ مَجْدِ الدِّيْنِ أَبِي البَرَكَاتِ عَبْدِ السَّلاَمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيِّ الدِّمشقيِّ الْحَنْبَلِيُّ .

* شُيُوْخُهُ :

سَمِعَ مِنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الدَّائِمِ ، وَابْنِ أَبِي اليُسْرِ ، وَابْنِ الصَّيْرَفِيِّ ، وَابْنِ أَبِي الْخَيْرِ ، وَخَلْقٍ كَثِيْرٍ .

* تَلاَمِذَتُهُ :

وَمِنْ تَلاَمِذَتِهِ الْمَعْرُوفِيْنَ : ابْنُ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ، وَالذَّهَبِيُّ ، وَالعِمَادُ ابْنُ كَثِيْرٍ ، وَغَيْرُهُمْ كَثِيْرٌ .

* الثَّنَاءُ عَلَيْهِ :

قال الذهبي في معجم الشيوخ(١) : شَيْخُنَا ، الإِمَامُ ، فَرِيْدُ العَصْرِ عِلْماً وَمَعْرِفَةً وَذَكَاءً وَحِفْظاً وَكَرَماً وَزُهْدَاً ، وَفَرْطَ شَجَاعَةٍ وَكَثْرَةَ تَآلِيْفٍ ، وَاللهُ يُصْلِحُهُ وَيُسَدِّدُهُ ، فَلَسْنَا بِحَمْدِ اللهِ مِمَّنْ نَغْلُو فِيْهِ وَلاَ نَجْفُو عَنْهُ ، مَا رُئِيَ كَامِلاً مِثْلَ أَئِمَّةِ التَّابِعِيْنَ وَتَابِعِيْهِمْ ، فَمَا رَأَيْتُهُ إِلاَّ بِبَطْنِ كِتَابٍ .

وقال في تذكرة الحفاظ(٢) : الشَّيْخُ ، الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، الْحَافِظُ ، النَّاقِدُ ، الفَقِيْهُ ،

---

(١) (١/٥٦) .
(٢) (٤/١٤٩٦) .

الْمُجْتَهِدُ ، الْمُفَسِّرُ البَارِعُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، عَلَمُ الزُّهَّادِ ، نَادِرَةُ العَصْرِ ، أَحَدُ الأَعْلاَمِ ، عُنِيَ بِالْحَدِيْثِ وَنَسْخِ الأَجْزَاءِ ، وَدَارَ عَلَى الشُّيُوْخِ ، وَخَرَّجَ وَانْتَقَى ، وَبَرَعَ فِي الرِّجَالِ وَعِلَلِ الْحَدِيْثِ وَفِقْهِهِ ، وَفِي عُلُوْمِ الإِسْلاَمِ ، وَعِلْمِ الكَلاَمِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَانَ مِنْ بُحُورِ العِلْمِ ، وَمِنَ الأَذْكِيَاءِ الْمَعْدُوْدِيْنَ ، وَالزُّهَّادِ الأَفْرَادِ ، وَالشُّجْعَانِ الكِبَارِ ، وَالكُرَمَاءِ الأَجْوَادِ ، أَثْنَى عَلَيْهِ الْمُوَافِقُ وَالْمُخَالِفُ ، وَسَارَتْ بِتَصَانِيْفِهِ الرُّكْبَانُ ، وَقَدِ امْتُحِنَ وَأُوْذِيَ مَرَّاتٍ ، وَحُبِسَ بِقَلْعَةِ مِصْرَ وَالقَاهِرَةِ وَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَبِقَلْعَةِ دِمَشْقَ مَرَّتَيْنِ . وقال : قَدِ انْفَرَدَ بِفَتَاوى نِيْلَ مِنْ عِرْضِهِ لأَجْلِهَا ، وَهِيَ مَغْمُوْرَةٌ فِي بَحْرِ عِلْمِهِ ، فَاللهُ تَعَالَى يُسَامِحُهُ وَيَرْضَى عَنْهُ ، فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ مِنَ الأُمَّةِ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ .

*** وَفَاتُهُ :**

قال الذهبي في معجم الشيوخ[1] : وكانت وفاته في العشرين من شهر ذي القعدة ، سنة ثمان وعشرين وسبع مئة ، مَسْجُوْناً بِقَاعَةٍ مِنْ قَلْعَةِ دِمَشْقَ ، وَشَيَّعَهُ أُمَمٌ لاَ يُحْصَوْنَ إِلَى مَقْبَرَةِ الصُّوْفِيَّةِ ، وَلَمْ يَخْلُفْ بَعْدَهُ مِثْلَهُ فِي العِلْمِ ، وَلاَ مَنْ يُقَارِبُهُ .

*** مَحَبَّتُهُ لِلشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :**

وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مِنَ الشُّيُوخِ الْمُسْتَقِيمِينَ فيقول[2] : فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حمّاد الدبّاس وغيرهما من المشائخ أهل الإستقامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم . . .

وشيخ الإسلام مُحِبٌّ لِلشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ ، فَهُوَ مُعْتَنٍ بِكَلِمَاتِهِ حَتَّى وَبِرُؤيَاهُ ، وَلِذَلِكَ يَنْقُلُ عَنْ أَبِيْهِ وَشَيْخِهِ ، فَيَقُوْلُ[3] : حدّثني أبي ، عن محيي الدين ابن النّحاس ـ وأظنّني سمعتها منه ـ : أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه ، وهو يقول إخباراً عن الحق تعالى : « من جاءنا تلقيناه من البعيد ، ومن تصرّف بِحَولنا ألنّا له الحديد ، ومن اتّبع مرادنا أردنا ما يريد ، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد » .

---

(١) (١/٥٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٨) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٥٤٩ـ٥٥٠) .

قلت : هذا من جهة الرب تبارك وتعالى .

فالأولتان : العبادة ، والاستعانة . والآخرتان : الطاعة ، والمعصية .

فالذهاب إلى الله : هي عبادته وحده ، كما قال تعالى : « من تقرب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً ، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً » .

والتقرب بحوله : هو الاستعانة والتوكل عليه ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي الأثر : « من سره أن يكون أقوى الناس ، فليتوكل على الله » .

وعن سعيد بن جبير : التوكل جماع الإيمان .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق : ٣] . وقال : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾[الأنفال : ٩] .

وهذا على أصحّ القولين في أنّ التوكل عليه بمنزلة الدعاء ، على أصح القولين أيضاً ، سببٌ لجلب المنافع ودفع المضار ، فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ، وهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم ، وبه يتصرفون ويؤثرون تارةً بما يوافق الأمر ، وتارةً بما يخالفه .

وقوله : « ومن اتبع مُرادنا » . يعني : المراد الشرعي ، كقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[البقرة : ١٨٥] . وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[النساء : ٢٨] . وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾[المائدة : ٦] . هذا هو طاعة أمره .

وقد جاء في الحديث : « وأنت يا عمر ، لو أطعت الله لأطاعك » .

وفي الحديث الصحيح : « ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

وقد قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾[الشورى : ٢٦] .

وقوله : « ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد » . يعني : ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله ، رجاءً ومَحبّةً ، وخشيةً ، أعطيناه فوق المزيد ؛ لأن هذا مقام الصبر .

وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر : ١٠] .

● وسئل شيخ الإسلام رحمه الله(١) عن قول الشيخ عبد القادر رحمه الله : « نازعت أقدار الحق بالحق للحق » ؟ .

فأجاب : الحمد لله ، جميع الحوادث كائنة بقضاء الله و قدره ، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان ، ونزيل الكفر بالإيمان ، والبدعة بالسنة ، والمعصية بالطاعة من أنفسنا ومن عندنا ، فكل من كفر أو فسق أو عصى فعليه أن يتوب ، وإن كان ذلك بقدر الله ، وعليه أن يأمر غيره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان ، ويجاهد في سبيل الله ، وإن كان ما يعمله من المنكر بحسب الإمكان ، ويجاهد في سبيل الله ، وإن كان ما يعمله من المنكر والكفر والفسوق والعصيان بقدر الله ، ليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر ، بل يفعل ما أمر الله ورسوله ، كما روى مسلم في صحيحه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خيرٌ . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . فأمر النبي ﷺ أن يحرص على ما ينفعه ، والذي ينفعه يحتاج إلى منازعة شياطين الإنس والجن ، ودفع ما قدر من الشر بما قدره الله من الخير ، وعليه مع ذلك أن يستعين بالله ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به ، وأن يكون عمله خالصاً لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، وهذا حقيقة قولك : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والذي قبله حقيقة : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وأن يكون مستعيناً بالله على ذلك ، وفي عبادة الله وطاعته فيما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير ، ودفع ما يريده الشيطان ، ويسعى فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[البقرة : ٢٥١] . كما يدفع شرَّ الكفّار والفجّار الذي في نفوسهم ، والذي سعوا فيه بالحق ، كإعداد القوّة ، ورباط الخيل وكالدعاء والصدقة الذين يدفعان البلاء كما جاء في الحديث : « أن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض » . فالشرّ تارةً يكون قد انعقد سببه

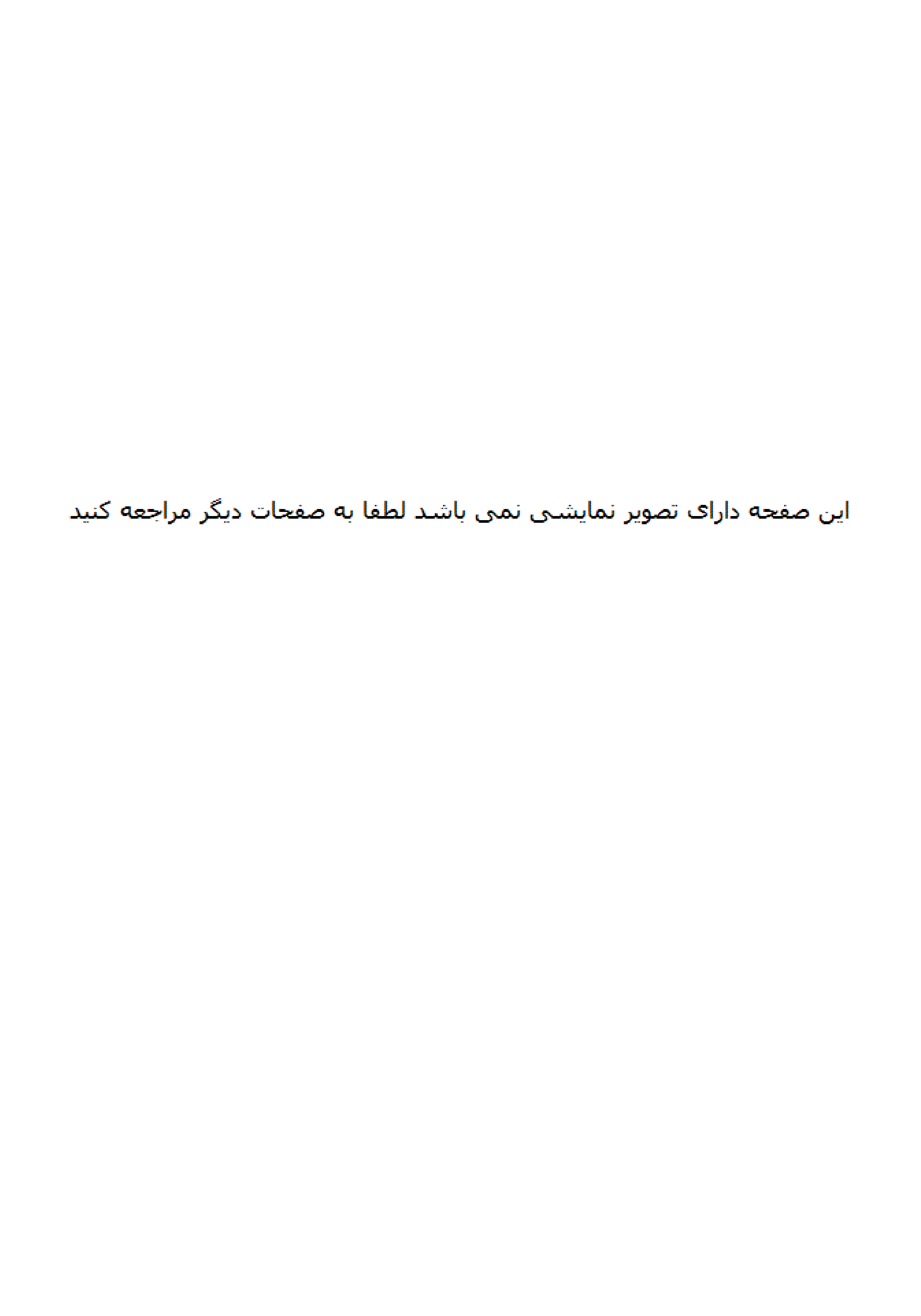
(١) كما في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٧ ـ ٥٥٠) . وانظر (١٠/ ١٥٨) .

وخيف فيدفع صَوْله ، فيدفع الكفار إذا قصدوا بلاد الإسلام ، وتارةً يكون قد وجد فيزال وتبدل السيئات بالحسنات ، وكل هذا من باب دفع ما قدر من الشر بما قدر من الخير ، وهذا واجب تارة ، ومستحب تارة ، فالذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله .

والمقصود من ذلك : أن كثيراً من أهل السلوك والإرادة يشهدون ربوبية الرب ، وما قدره من الأمور التي ينهى عنها ، فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية ، ويظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء والتسليم ، وهذا جهلٌ وضلالٌ قد يؤدي إلى الكفر والانسلاخ من الدين ، فإن الله لَم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان ، بل أمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان ، كما قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . والله تعالى قد قال : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[الزمر : ٧] ، وقال : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[البقرة : ٢٠٥] . فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا ما لا يرضاه لنا ، وهو جعل ما يكون من الشر محنةً لنا وابتلاءً ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[الفرقان : ٢٠] ، وقال تعالى بعد أمره بالقتال : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[محمد : ٤] . وفي صحيح مسلم[1] عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يقضي اللهُ للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له » . فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً يكون ما يقضى عليه من المصائب خيراً له ، وإذا كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مجاهداً في سبيله ، كان ما قدر له من كفر الكفار سببٌ للخير في حقه ، وكذلك إذا دعاه الشيطان والهوى كان ذلك سبباً لما حصل له من الخير فيكون ما يقدر من الشر إذا نازعه ودافعه كما أمره الله ورسوله سبباً لِمَا يحصل له من البر والتقوى وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات . فهذا وأمثاله مِمَّا يبين معنى هذا الكلام . والله أعلم .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ » .



این صفحه دارای تصویر نمایشی نمی باشد لطفا به صفحات دیگر مراجعه کنید



تأليف

العارف بالله تعالى الشيخ الجليل

عبد القادر الجيلاني

رحمه الله تعالى

٤٧٠ ـ ٥٦١ هـ

مع تعليقات شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم
بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي

رحمه الله تعالى

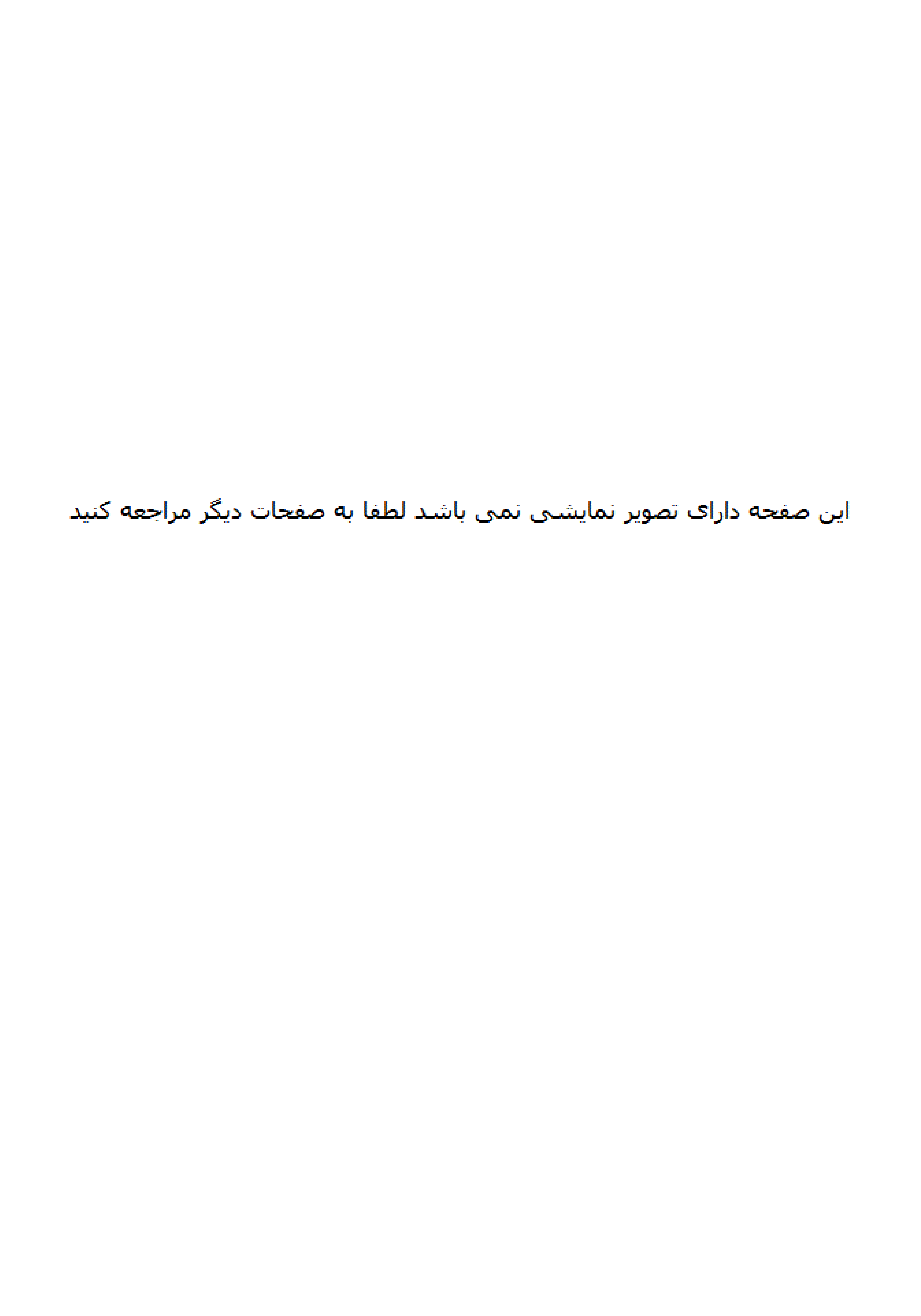
٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ

حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه

عبد العليم محمد الدرويش

دار الهادي

مكتبة دار الزاهر


این صفحه دارای تصویر نمایشی نمی باشد لطفا به صفحات دیگر مراجعه کنید

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَوَّلاً وَآخِراً ، وَظَاهِراً وَبَاطِناً ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَرِضَاءَ نَفْسِهِ ، وَعَدَدَ كُلِّ شَفْعٍ وَوَتْرٍ ، وَرَطْبٍ وَيَابِسٍ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[١] ، وَجَمِيعِ مَا خَلَقَ رَبُّنَا وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، خَالِقٌ بِلاَ مِثَالٍ ، أَبَداً سَرْمَداً[٢] ، طَيِّباً مُبَارَكاً ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[الأعلى : ٢] ، وَ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى : ٣] ، وَ﴿ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[النجم : ٤٤] ، وَ﴿ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾[النجم : ٤٣] ، وَقَرَّبَ وَأَدْنَى ، وَرَحِمَ[٣] وَأَخْزَى ، وَأَطْعَمَ وَأَسْقَى ، وَأَسْعَدَ وَأَشْقَى ، ومَنَعَ وَأَعْطَى[٤] ، الَّذِي بِكَلِمَتِهِ قَامَتِ السَّبْعُ الشِّدَادُ[٥] ، وَبِهَا رَسَتِ الرَّوَاسِي وَالأَوْتَادُ ، وَاسْتَقَرَّتِ الأَرْضُ الْمِهَادُ ، فَلاَ مَقْنُوطاً مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلاَ مَأْمُوناً مِنْ مَكْرِهِ وَغَيْرَتِهِ وَإِنْفَاذِ[٦] أَقْضِيَتِهِ وَفِعْلِهِ وَأَمْرِهِ ، وَلاَ مُسْتَنْكَفاً[٧] عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَلاَ مَخْلُوّاً مِنْ نِعْمَتِهِ ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ بِمَا أَعْطَى ، وَالْمَشْكُورُ بِمَا زَوَى .

ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى ﷺ ، الَّذِي مَنِ اتَّبَعَ مَا جَاءَ بِهِ اهْتَدَى ، وَمَنْ صَدَفَ[٨] عَنْهُ

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام : ٥٩] .

(٢) أي : دائماً .

(٣) في المطبوع : (أرحم) .

(٤) قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٤] . و﴿ وَأَكْدَىٰٓ ﴾ : منع الباقي ، مأخوذ من الكدية وهي أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر إذا وصل إليها من الحفر .

(٥) قال الله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[النبأ : ١٢] . أي : سبع سموات قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان .

(٦) تحرف في المطبوع إلى : (وإنقاذ) بالقاف .

(٧) أي : مُسْتَكبراً أو مُتأنفاً . قال الله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[النساء : ١٧٢] .

(٨) صَدَفَ عَنْهُ يَصْدِفُ : أَعْرَضَ .

ضَلَّ وَارْتَدَى[١] ، النَّبِيِّ الصَّادِقِ الْمَصْدُوْقِ ، الزَّاهِدِ فِي الدُّنْيَا ، الطَّالِبِ الرَّاغِبِ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ، الْمُجْتَبَى مِنْ خَلْقِهِ ، الْمُنْتَخَبِ مِنْ بَرِيَّتِهِ ، الَّذِي جَاءَ الْحَقُّ بِمَجِيْئِهِ ، وَزَهَقَ البَاطِلُ بِظُهُوْرِهِ ، وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُوْرِهِ[٢] .

ثُمَّ الصَّلَوَاتُ الوَافِيَاتُ ، وَالبَرَكَاتُ الطَّيِّبَاتُ ، الزَّاكِيَاتُ الْمُبَارَكَاتُ عَلَيْهِ ثَانِياً ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِيْنَ ، وَأَصْحَابِهِ ، وَالتَّابِعِيْنَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، الأَحْسَنِيْنَ لِرَبِّهِمْ فِعْلاً ، الأَقْوَمِيْنَ لَهُ قِيْلاً ، وَالأَصْوَبِيْنَ إِلَيْهِ طَرِيْقاً وَسَبِيلاً .

ثُمَّ تَضَرُّعُنَا وَدُعَاؤُنَا وَرُجُوْعُنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَمُنْشِئِنَا وَخَالِقِنَا وَرَازِقِنَا[٣] ، وَمُطْعِمِنَا وَمُسْقِيْنَا ، وَنَافِعِنَا وَحَافِظِنَا ، وَكَالِئِنَا[٤] وَمُحْيِيْنَا ، وَالْذَّابِّ وَالدَّافِعِ عَنَّا جَمِيْعَ مَا يُؤْذِيْنَا وَيَسُوْؤُنَا ، كُلُّ ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ وَتَحَنُّنِهِ وَفَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ[٥] ، بِالْحِفْظِ الدَّائِمِ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ فِي السِّرِّ وَالإِعْلاَنِ ، وَالإِظْهَارِ وَالْكِتْمَانِ ، وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَالنِّعْمَةِ وَالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، إِنَّهُ ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[هود : ١٠٧ والبروج : ١٦] ، وَالْحَاكِمُ بِمَا يَشَاءُ ، العَالِمُ بِمَا يَخْفَى ، الْمُطَّلِعُ عَلَى الشُّؤُوْنِ وَالأَحْوَالِ ، مِنَ الزَّلاَّتِ وَالطَّاعَاتِ وَالقُرُبَاتِ ، السَّامِعُ لِلأَصْوَاتِ ، الْمُجِيْبُ لِلدَّعَوَاتِ ، لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ تَنَازُعٍ وَتَرَدُّدٍ[٦] .

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ عَلَيَّ[٧] كَثِيْرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ[٨] (مُتَرَادِفَةٌ) ، فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، وَالسَّاعَاتِ وَاللَّحَظَاتِ وَالْخَطَرَاتِ وَجَمِيْعِ الْحَالاَتِ ، كَمَا قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ

---

(١) في نسخة : (وتردَّى) . وارتدى : من الرَّدَى ، وهو الهلاك .

(٢) الضمير يعود على الحق وهو الله عزَّ وجلَّ . قال الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[الزمر : ٦٩] .

(٣) في المطبوع : (ورزاقنا) .

(٤) أي : مُتولِّينا برعايته وعنايته وحفظه . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء : ٤٢] .

(٥) تحرف في المطبوع إلى : (ومنته) .

(٦) في نسخة : (ولا تردد) .

(٧) في نسخة : (على العباد) .

(٨) في المطبوع : (متوافرة) . أي : يتلو بعضها بعضاً .

اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨] . وَقَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل : ٥٣] .

فَلاَ يَدَانَ لِي وَلاَ جَنَانَ[١] وَلاَ لِسَانَ فِي إِحْصَائِهَا وَأَعْدَادِهَا[٢] ، فَلاَ يُدْرِكُهَا التَّعْدَادُ ، وَلاَ تَضْبِطُهَا العُقُولُ وَالأَذْهَانُ ، وَلاَ يُحْصِيهَا الْجَنَانُ ، وَلاَ يُعَبِّرُهَا[٣] اللِّسَانُ .

فَمِنْ جُمْلَةِ مَا مَكَّنَ عَنْ[٤] تَعْبِيرِهَا اللِّسَانُ ، وَأَظْهَرَهَا[٥] الْكَلاَمُ ، وَكَتَبَهَا البَنَانُ[٦] ، وَيُفَسِّرُهُ[٧] البَيَانُ ، كَلِمَاتٌ بَرَزَتْ وَظَهَرَتْ لِي مِنْ فُتُوحِ الغَيْبِ ، فَحَلَّتْ فِي الْجَنَانِ ، فَأَشْغَلَتِ الْمَكَانَ فَأَنْتَجَهَا وَأَبْرَزَهَا صِدْقُ الحَالِ ، فَتَوَلَّى إِبْرَازَهَا لُطْفُ الْمَنَّانِ ، وَرَحْمَةُ رَبِّ الأَنَامِ فِي قَالَبِ صَوَابِ الْمَقَالِ لِمُرِيدِي الْحَقِّ وَالطُّلاَّبِ .





(١) الْجَنَان بالفتح ـ : القلب ، لاستتاره في الصدر ، أو لحفظه الأشياء . والروح : لأنّ الجسم يَجُنّها .

(٢) في نسخة : (وعدّها) .

(٣) في نسخة : (يَعْبُرها) . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[يوسف : ٤٣] . وتَعبرون : تُفسّرون .

(٤) في نسخة : (من) .

(٥) في نسخة : (وإظهارها) .

(٦) أي : اليد . والبنان : الأصابع .

(٧) في نسخة : (وفسّرها) .

الْمَقَالَةُ الأُوْلَى
فِيمَا لاَ بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ

لاَ بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ مِنْ ثَلاَثَةِ أَشْيَاءِ :

١ـ أَمْرٍ يَمْتَثِلُهُ ،

٢ـ وَنَهْيٍ يَجْتَنِبُهُ ،

٣ـ وَقَدَرٍ يَرْضَى بِهِ .

فَأَقَلُّ حَالَةٍ لاَ يَخْلُو الْمُؤْمِنُ(١) فِيهَا مِنْ أَحَدِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الثَّلاَثَةِ .

فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُلْزِمَ بِهَا(٢) قَلْبَهُ ، وَلْيُحَدِّثْ(٣) بِهَا نَفْسَهُ ، وَيَأْخُذَ بِهَا الْجَوَارِحَ(٤) فِي سَائِرِ(٥) أَحْوالِهِ(٦) .

---

(١) في المطبوع : (حالة المؤمنين لا يخلو) . وفي نسخة : (حال للمؤمن لا يخلو) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (همّها) .

(٣) في نسخة : (ويحدث) .

(٤) في نسخة : (ويؤاخذ الجوارح بها) . وفي نسخة : (ويأخذ الجوارح بها) .

(٥) في نسخة : (كل) .

(٦) قال شيخ الإسلام علاّمة الزّمان ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة ـ قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه ـ في التعليقة على فتوح الغيب :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً .

هذا كلامٌ شريفٌ ، جامع يحتاج إليه كل أحدٍ ، وهو تفصيلٌ لِمَا يحتاج إليه العبد ، وهي مطابقةٌ [في نسخة : مطابقٌ] لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف : ٩٠] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[آل عمران : ١٢٠] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[آل عمران : ١٨٦] . فإنّ التقوى تتضمّن : فعل المأمور ، وترك المحظور . والصبر يتضمّن : الصبر على المقدور . فالثلاثة ترجع إلى هذين =

. . . .

= الأصلين ، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر ، وهو طاعة الله ورسوله .

فحقيقة الأمر : أن كل عبدٍ فإنه محتاجٌ في كلّ وقتٍ إلى طاعة الله ورسوله ، وهو : أن يفعل في ذلك الوقت ما أُمِرَ به في ذلك الوقت .

وطاعة الله ورسوله : هي عبادة الله التي خلق لها الجن والإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

والرسل كلّهم أَمَرُوا قومهم أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] .

وإنما كانت الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر ، لأنه في الوقت الذي يؤمر فيه بفعل [شيء] من الفرائض : كالصلوات الخمس ، والحج ، ونحو ذلك ، يحتاج إلى فعل ذلك المأمور ، وفي الوقت الذي تَحدث أسباب المعصية يُحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك . وهذا فعل لِمَا أمر به في هذا الوقت ، وأما من لَم تخطر له المعصية ببال ، فهذا لَم يفعل شيئاً يُؤجر عليه ، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب ، والعَدَمُ المَحْضُ المُستمر لا يؤمر به ، وإنّما يؤمر بأمر يقدر عليه العبد ، وذاك لا يكون إلا حادثاً : سواءٌ كان إحداثُ إيجادِ أمرٍ ، أو إعدامَ أمرٍ .

وأما « الْقَدَرُ الَّذِي يُرْضَى بِهِ » ، فإنه إذا ابتلي بالمرض أو الفقر أو الخوف ، فهو مأمور بالصبر أمرَ إيجابٍ ، ومأمورٌ بالرضا : إمّا أمر إيجاب ، وإما أمر استحباب . وللعلماء من أصحابنا وغيرهم في ذلك قولان ، ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله ، فهو من امتثال الأمر وهو عبادة لله .

لكنّ هذه الثلاثة وإن دخلت في امتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والاقتران : إما أن تُخصَّ بالذكر ، وإما أن يُقَال : يُرَادُ بهذا ما لا يُراد بهذا ، كما في قوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود : ١٢٣] . وقوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا ﴾[طه : ١٤] . فإن هذا داخلٌ [في نسخة : دخل] في العبادة إذا أطلق اسم العبادة ، وعند الاقتران : إما أن يقال : ذكره عموماً وخصوصاً ، وإما أن يقال : ذكره خصوصاً يُغنِي عن دخوله في العام . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . وقوله : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً . وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[المزمل : ٨ ـ ١٠] . وقد يقال : لفظ التبتيل لا يتناول هذه الأمور المعطوفة ، كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة .

وبالجملة : فرق ما بين ما يُؤمَر به الإنسان ابتداءً ، وبين ما يُؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة ، أو عند حُبِّ الشيء وبغضه . وكلام الشيخ ـ قدّس الله روحه ـ يدور على هذا القطب ، وهو أن يفعل المأمور ويترك المحظور ، ويخلو فيما سواهما عن إرادة ، لئلا يكون له مرادٌ غير فِعْلِ =

. . . .

= ما أمر الله به [في نسخة : فِعْلِ ما أمره به ربّه] ، وما لَم يُؤمر به العبد بل فعله الرب عزّ وجلّ بلا واسطة العبد ، أو فعله بالعبد بلا هوًى من العبد . فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به . وسيأتي في [في نسخة : من] كلام الشيخ ما يُبيِّن مراده ، وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أُمر به ، ويترك ما نهى عنه ، وأمّا إذا لم يكن هو أمر العبد بشيءٍ من ذلك ، فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله ، وهذه هي الحقيقة في كلام الشيخ وأمثاله .

وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام ، أن هذا نوعان : أحدُهُما : أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب : إما بِحُبٍّ له وإعانةٍ عليه ، وإما ببغضٍ له ودفعٍ له . والثاني : أن لا يكون العبد مأموراً بواحدٍ منهما . فالأول مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره ، فهو مأمورٌ بِحُبِّه وإعانته عليه ، كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد ، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان ، وبمحبة [في نسخة : ومحبة] ذلك والرضا به ، وكذلك هو مأمورٌ عند مصيبة الغير : إمّا بنصر مظلوم ، وإمّا بتعزية مُصابٍ ، وإمّا بإغناءِ فقيرٍ ، ونحو ذلك .

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه ، فمثل : ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان ، فهو مأمورٌ ببغض ذلك ودفعه ، وإنكاره بحسب الإمكان ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح [مسلم (٤٩)] : « من رأى منكم مُنكَراً فليغيره بيده ، فإن لَم يستطع فبلسانه ، فإن لَم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعَفُ الإيمان » .

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما ، فمثل : ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لَم يتبين له أنه يُستعان بها على طاعة ولا معصية ، فهذه لا يؤمر بحبها ولا ببغضها ، وكذلك [في نسخة : وذلك] مُباحاتُ نفسه المَحْضَة التي لَم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية . مع أنّ هذا نقصٌ منه ، فإنّ الذي ينبغي أنّه لا يفعل من المباحات إلاّ ما يستعين به على الطاعة ، ويقصد الاستعانةَ بها على الطاعة ، فهذا سبيل المقرَّبين السابقين ، الذين تقرّبوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ، ولَم يزل أحدهم يتقرّب إليه بذلك حتى أحَبَّهُ ، فكان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . وأما مَنْ فعل المباحات مع الغفلة ، أو فَعَل فضول المباح التي لا يُستعان بها على طاعةٍ مع أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، باطناً وظاهراً . فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين . وبالجملة : الأفعالُ التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لا تكون مستويةً من كل وجهٍ ، بل إن فُعِلَتْ على الوجه المحبوب كان وجودُها خيراً للعبد ، وإلاّ كان تركُها خيراً له ، وإن لَم يعاقب عليها . ففضول المباح التي لا تُعين على الطاعة عَدَمُها خيرٌ من وجودها ، إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله ، فإنها تكون شاغلةً له عن ذلك . وأما إذا قُدِّرَ أنّها تَشْغَلُه عمّا هُوَ دونَها ، فهي خيرٌ له مِمّا دونَها ، وإن شغلَتْهُ عن معصية الله كانت رحمةً في حقّه ، وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيراً له من هذا وهذا .

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يُمكن الاستعانة بها على الطاعة ، كالنّوم الذي يُقْصَد به الاستعانة على العبادة ، والأكل ، والشرب ، واللباس ، والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على =

. . . .

= العبادة ، إذا لَم يُقصد به ذلك كان ذلك نقصاً من العبد وفواتِ حَسنَةٍ ، وخيرٍ يُحبُّهُ الله . ففي الصحيحين [خ (٥٦) وم (١٦٢٨)] عن النبي ﷺ أنه قال لسعد : « إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله ، إلاَّ ازددتَ بها درجةً ورِفْعةً ، حتَّى اللُّقْمَة تضعها فِي فِيّ امرأتك » . وقال في الصحيح [خ (٥٥) وم (١٠٠٢)] : « نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة » .

فما لا يُحتاج إليه من المباحات ، أو يحتاج إليه ولَم يصحبه إيمانٌ يجعله حسنةً ، فعدمه خيرٌ من وجوده ، إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خيرٌ منه . وقد قال النبي ﷺ [مسلم (١٠٠٦)] : « في بُضْعِ أحدِكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله ، يأتي أحدُنا شهوته ، ويكون له فيها أجرٌ ؟! قال : « أرأيتم لو وضعها في الحرام ، أما كان عليه وِزْرٌ ؟ » . قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : « فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر » ، فلم تعتدون بالحرام ، ولا تعتدون بالحلال . وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عمّا حرّمه الله إلى ما أباحه الله ، ويقصد فعل المباح مُعتقداً أن الله أباحه ، « والله يُحب أن يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ ، كما يكره أن تؤتى معصيته » كما رواه الإمام أحمد في المسند [٥٨٦٥] ورواه غيره . ولهذا أحَب القصر والفطر في السفر ، فعدول المؤمن عن الرَّهبانية والتشديدِ ، وتعذيب النفس الذي لا يُحبُّه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يُثيبه الله عليها ، وإن فعل مباحاً لَمَا اقترن به من الاعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعةٌ لله ورسوله ، فـ« إنَّما الإعمال بالنيات ، وإنما لكل امري ما نوى » . وأيضاً : فالعبد مأمورٌ بفعلِ ما يحتاج إليه من المباحات ، هو مأمورٌ بالأكل عند الجوع ، والشرب عند العطش ، ولهذا يجب على المضطر إلى المَيْتة أن يأكل منها ، ولو لم يأكل حتّى مات كان مستوجباً للوعيد ، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم . وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه ، بل هو مأمورٌ بنفس عَقْدِ النّكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه . فقول النبي ﷺ : « في بُضْعِ أحدكم صدقة » . فإن المُبَاضَعَةَ مأمورٌ بها لحاجته ولحاجة [في نسخة : وحاجة] المرأة إلى ذلك ، فإنّ قضاء حاجتها التي لا تَنْقَضِي إلاّ به بالوجه المباح صدقة . والسلوك سلوكان : [الأول] « سلوك الأبرار أهل اليمين » : وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطناً وظاهراً . والثاني « سلوك المقرّبين السّابقين » : وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان ، وترك المكروه والمحرّم ، كما قال النبي ﷺ [خ (٦٨٥٨) وم (١٣٧٣)] : « إذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمرٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم » . وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا السلوك ، ولهذا يأمرون بِمَا هو مستحبٌ غير واجب ، وينهون عمّا هو مكروهٌ غير مُحرّم ، فإنّهم يسلكون بالخاصّة مسلك الخاصّة ، وبالعامّة مسلك العامّة . وطريق الخاصة طريق المقربين : أن لا يفعل العبد إلاّ ما أمر به ، ولا يريد إلا ما أمر [في نسخة : أمره] الله ورسوله بإرادته ، وهو ما يُحبّه الله ويرضاه ، ويريده إرادةً دينيّةً وشرعيّةً ، وإلا فالحوادث كلها مُرادةٌ له خَلقاً وتكويناً والوقوف مع الإرادة الخلقية القَدَرية مطلقاً غير مقدورٍ عقلاً ، ولا مأمورٍ شرعاً ، وذلك لأنّ من الحوادث ما يَجب دفعه ولا تجوز إرادته ، كمن أراد تكفير الرّجل ، أو تكفير أهله ، أو الفجور به ، أو بأهله ، أو أراد قتل النّبيّ وهو قادر على دفعه ، أو أراد إضلال الْخَلْقِ وإفساد دينهم ودنياهم . فهذه =

. . . .

= الأمور يجب دفعها وكراهتها [في نسخة : وكراهيتها] ، لا تجوز إرادتها .

وأما الامتناع عقلاً ، فلأنَّ الإنسانَ مَجبولٌ على حُبِّ ما يُلائمه وبغض ما يُنافره ، فهو عند الجوع يُحبّ ما يُقيتُهُ [في نسخة : يغنيه] كالطعام ، ولا يُحب ما لا يُقيتُهُ [في نسخة : يغنيه] كالتّراب ، فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء .

وكذلك يُحبّ الإيمانَ والعمل الصالح الذي ينفعه ، ويُبغض الكفرَ والفسوقَ الذي يضرّه ، بل ويحب [في نسخة : يحب] اللهَ وعبادتهَ وحدَه ، ويُبغض عبادة ما دونه ، كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء : ٧٥ـ ٧٧] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة : ٤] . فقد أمرنا الله أن نتأسّى بإبراهيم والذين معه إذ تبرّؤا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾[الزخرف : ٢٦ـ ٢٧] . والبراءة ضدّ الولاية ، وأصل البراءة : البغض ، وأصل الولاية : الحب . وهذا لأن حقيقة التوحيد : أن لا يحب إلا الله ، ويحب ما يُحبّه الله لله ، فلا يحب [في نسخة : تحب] إلا لله ، ولا يبغض [في نسخة : تبغض] إلا لله . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة : ١٦٥] . والفرقُ ثابتٌ بين الحب لله والحب مع الله ، فأهل التوحيد والإخلاص : يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غير الله مع الله ، كحبّ المشركين لآلهتهم ، وحبّ النصارى للمسيح ، وحب أهل الأهواء رؤوسهم . فإذا عُرِفَ أن العبد مفطورٌ على حُبِّ ما ينفعه ، وبُغضِ ما يضرّه ، لَم يُمكن أن تستوي إرادته لجميع الحوادث فطرةً وخَلْقاً ، ولا هو مأمورٌ من جهة الشَّرع أن يكون مريداً لجميع الحوادث ، بل قد أمره الله بإرادة أمورٍ وكراهةِ أخرى .

والرّسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وقد قال النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » [خ (١٢٩٢)] . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم : ٣٠] . وفي الحديث الصحيح [مسلم (٢٨٦٥)] عن النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : إني خلقتُ عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لَم يُنَزل [في نسخة : أنزل] به سلطاناً » .

والحنيفية : هي الاستقامة بإخلاص الدين لله ، وذلك يتضمّن حبّه تعالى ، والذل له ، لا يشرك به شيءً : لا في الحُبِّ ، ولا في الذُّلِّ ، فإن العبادة تتضمّن غاية الحبّ بغاية الذّلّ ، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده ، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده ، والتوكل على الله وحده .

والرسول يُطاع ويُحَبُّ ، فالحلال ما أحلّه [في نسخة : حلّله] ، والحرام ما حرّمه ، والدين ما شرّعه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[النور : ٥٢] . =

. . . .

= وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[التوبة : ٥٩] . وهذه حقيقة دين الإسلام . والرُّسل بُعِثُوا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[الشورى : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[المؤمنون : ٥١ـ ٥٢] . فهذا هو الأصل الذي يَجب على كل أحدٍ أن يَعتصم به ، فلا بُدَّ أن يكون مريداً مُحباً لِمَا أمره الله بإرادته ومحبّته ، كارهاً مبغضاً لِمَا أمره الله بكراهته وبغضه . والناس في هذا الباب أربعة أنواع : أكملهم الذين يُحبّون ما أحبّه الله ورسوله ، ويُبغضون ما أبغضه الله ورسوله ، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته ، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته ، وليس عندهم حبٌّ ولا بغضٌ لغير ذلك ، فيأمرون بما أمر الله به ورسوله [في نسخة : الله ورسوله به] ، ولا يأمرون بغير ذلك ، وينهون عمّا نهى الله عنه ورسوله ، ولا ينهون عن غير ذلك . وهذه حال الخليلين أفضل البرية : محمّد وإبراهيم ـ صلى الله عليهما وسلم ـ . وقد ثبت في الصحيح [م (٥٣٢)] عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً » . وقال ﷺ في الحديث الصحيح [خ (٢٩٤٩)] : « إنّي والله لا أعطي أحداً ، ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسمٌ أضع حيث أمرت » . وذكر : أن ربّه خيّره بين أن يكون نبياً ملكاً ، وبين أن يكون عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً ورسولاً . فإن « النبيّ الملك » مثل داود وسليمان ، قال تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[ص : ٣٩] . قالوا : معناه : أعط من شئت ، وامنع من شئت ، لا نحاسبك . فـ« النبي الملك » يعطي بإرادته لا يعاقب على ذلك ، كالذي يفعل المباحات بإرادته . وأما « العبد الرسول » فلا يعطي ولا يمنع إلا بأمر ربه ، وهو محبّته ورضاه وإرادته الدينية ، والسابقون المقرّبون : أتباع العبد الرسول ، والمقتصدون أهل اليمين : أتباع النبي الملك . وقد يكون [في نسخة : تكون] للإنسان حالٌ هو فيها خالٍ عن الإرادتين : وهو أن [في نسخة : أنه] لا تكون له إرادةٌ في عطاءٍ ولا مَنْعٍ ، لا إرادة دينية هو مأمور بها ، ولا إرادة نفسانية سواء كان منهياً عنها أو غير منهيٍّ عنها ، بل ما وقع كان مراداً له ، ومهما فعل به كان مراداً له من غير أن يفعل المأمور به شرعاً في ذلك . فهذا بمنزلة من له أموالٌ يُعطيها وليس له إرادةٌ في إعطاء معين ، لا إرادة شرعيّة ، ولا إرادة مذمومة ، بل يُعطي كلّ أحدٍ . فهذا إذا قدر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ، ولكنه خَفِيَ عليه الإرادة الشرعية في تفصيل أفعاله ، فإنه لا يذم على ما فعل ، ولا يمدح مطلقاً ، بل يمدح لعدم هواه ، ولو علم تفصيل المأمور به ، وأرادهُ إرادةً شرعيةً لكان أكمل . بل هذا مع القدرة : إما واجبٌ ، وإما مُستحبٌّ . وحال هذا خيرٌ من حال من يُريدُ بحكم هواه ونفسه ، وإن كان ذلك مباحاً له ، وهو دون من يريد بأمر ربّه لا بهواه ، ولا بالقدر المحض . فمضمون هذا المقام : أن الناس في المباحات من الملك [في نسخة : ذلك] والمال وغير ذلك على ثلاثة أقسام : قوم لا يتصرّفون فيها إلا بحكمِ الأمر الشرعيّ ، وهو حال نبيّنا ، وهو حال العبد الرسول ومن اتّبعه في ذلك . وقوم يتصرّفون فيها بحكم إرادتهم ، والشهوة التي ليست محرّمة ، وهذا حال النبي الملك ، =

. . . .

= وهو حال الأبرار أهل اليمين . وقوم لا يتصرفون بهذا ، ولا بهذا .

أما الأول فلعدم علمهم به . وأما الثاني فلزهدهم فيه . بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض ، اتباعاً لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر معرفة الإرادة الشرعية الأمرية . وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذّر الترجيح بسبب شرعيٍّ معلومٍ ، وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بإلْهَامٍ يقع في قلوبهم وخطاب . وكلام الشيخ عبد القادر ـ قدّس الله روحه ـ كثيراً ما يقع في هذا المقام ، فإنه يأمر بالزهد في إرادة النفس وهواها ، حتّى لا يتصرف بحكم الإرادة والنفس ، وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين ، وعن طريق الملوك مطلقاً . ومن حَصَّلَ هذا وتصرَّف بالأمر الشرعيِّ الْمُحَمَّدِيِّ القرآنِيِّ فهو أكمل الخلق ، لكن هذا قد يخفى عليه ؛ فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذّر أو يتعسَّرُ في كثيرٍ من المواضع ، ألا ترى أن النبي ﷺ لَمّا حَكَّمَ سعد بن معاذ في بني قُريظة ، فَحَكَمَ بقتل مقاتلتهم ، وبِسَبْيِ ذراريهم ، وغنيمة أموالهم ، قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » [خ (٢٨٧٨)] . وذلك أن تخيير وَلِيِّ الأمر بين القتل والاسترقاق ، والمنّ والفداء ، ليس تَخيير شهوةٍ ، بل تخيير رأيٍ ومصلحةٍ ، فعليه أن يختار الأصلح ، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله ، وإلاَّ فلا .

وَلَمَّا كان هذا يَخْفَى كثيراً قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح [م (١٧٣١)] : « إذا حاصرت أهل حصنٍ ، فسألوك أن تنْزلهم على حكم الله ، فلا تنْزلهم على حكم الله ، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك ، وحكم أصحابك » . والحاكم الذي ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن يحكم باجتهاده ، فلما أمر سعد بما هو الأرضى لله ، والأحبُّ إليه ، حكم بحكمه ، ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه ، فإنه حَكَمَ باجتهاده ، وإن لم يكن ذلك هو حكم الله في الباطن . ففي مثل هذه الحال التي لا يتبيّن الأمرُ الشرعيُّ في الواقعة المعينة ، يأمر الشيخ عبد القادر وأمثاله من الشيوخ : تارة بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك . وتارة بالرجوع إلى القدر المحض ، لِتَعَذُّرِ الأسباب المرجحة من جهة الشرع ، كما يرجح الشارع بالقرعة . فهم يأمرون أن لا يرجح بمجرد إرادته وهواه ، فإن هذا إما محرّم ، وإما مكروه ، وإما مُنَقِّص . فهم في هذا النهي كنهيهم عن فضول المباحات .

ثم إن تبيَّنَ لهم الأمر الشرعيّ وجب الترجيح به ، وإلا رجحوا : إما بسببٍ باطن من الإلهام والذوق ، وإمّا بالقضاء والقدر الذي لا يُضاف إليهم . ومن يُرجِّح في مثل هذه الحال باستخارة الله كما كان النبي ﷺ يُعَلِّمُ أصحابَهُ الاستخارة في الأمور كلها ، كما يُعَلِّمُهُمُ السُّورةَ من القرآن ، فقد أصاب .

وهذا كما أنه إذا تعارضت أدلّة المسألة الشرعية عند الناظر المجتهد ، وعند المقلّد المستفتي ، فإنه لا يُرجِّح شيئاً ، بل ما جرى به القدر أقرُّوه ولَم ينكروه . وتارةً يرجِّح أحدهم : إما بمنام ، وإما برأيِ مشير ناصح ، وإما برؤية المصلحة في أحد الفعلين .

وأمّا الترجيح بمجرد الاختيار : بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره . فهذا ليس قول أحدٍ من أئمة الإسلام ، وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام . ولكن قاله طائفةٌ من الفقهاء في العاميّ المستفتي : أنه يُخَيَّر بين المفتين المختلفين . وهذا كما أن طائفة من السالكين : إذا استوى عنده الأمران في الشريعة رجّح بمجرد ذوقه وإرادته ، فالترجيح بمجرد الإرادة التي لا تستند إلى أمر =

. . . .

= علميٌ باطنٍ ولا ظاهرٍ ، لا يقول به أحدٌ من أئمة العلم والزهد . فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا .

ولكن من جوّز لِمُجتَهِدٍ أو مُقلِّدٍ الترجيحَ بمجرد اختياره وإرادته ، فهو نظيرُ من شرّع [في نسخة : سوّغ] للسالك الترجيحَ بمجرد إرادته وذوقه .

لكن قد يقال : القلب المعمور بالتقوى ، إذا رجح بإرادته ، فهو ترجيحٌ شرعيٌّ . وعلى هذا التقدير ليس من هذا ، فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله ، وبغض ما يكرهه الله ، إذا لم يدر في الأمر المعيّن : هل هو محبوب لله ، أو مكروه ؟ ورأى قلبه يحبه أو يكرهه ، كان هذا ترجيحاً عنده . كما لو أخبره من صِدْقُهُ أغلب من كذبه ، فإن الترجيح بخبر [في نسخة : يخبر] هذا عند انسداد وجوه الترجيح ترجيحٌ بدليل شرعيٍّ .

ففي الجملة : متى حصل ما يُظنّ معه أنّ أحدَ الأمرين أحبُّ إلى الله ورسوله ، كان هذا ترجيحاً بدليلٍ شرعيٍّ ، والذين أنكروا كون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطأوا ، كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق .

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلّة الشّرعيّة الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً ، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى ، فإلهام مثل هذا دليلٌ في حقّه ، قد يكون أقوى من كثيرٍ من الأقيسة الضعيفة ، والأحاديث الضعيفة ، والظواهر الضعيفة ، والاستصحابات الضعيفة التي يحتجُّ بها كثيرٌ من الخائضينَ في المذهب والخلاف وأصول الفقه .

وفي الترمذي [٥١٣٣] عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « اتَّقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[الحجر : ٧٥] . وقال عمر بن الخطاب : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلّى لهم أمورٌ صادقةٌ . وقد ثبت في الصحيح قول الله تعالى : « ولا يزال عبدي يتقرّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، وَرِجْلَهُ التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي » .

وأيضاً فالله سبحانه وتعالى فَطَرَ عباده على الحنيفية : وهو حبُّ المعروف ، وبغض المنكر . فإذا لم تُستَحَلِ الفطرةُ ، فالقلوب مفطورةٌ على الحقّ ، فإذا كانت الفطرة مُقوَّمةً بحقيقة الإيمان ، مُنوَّرةً بنور القرآن ، وخَفِيَ عليها دلالة الأدلّة السّمعيّة الظاهرة ، ورأى قلبه يرجّح أحدَ الأمرين ، كان هذا من أقوى الإمارات عند مثله . وذلك أنّ الله علّم القرآن والإيمان . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[الشورى : ٥١] ، ثم قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى : ٥٢] . وقال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر : تعلّمنا الإيمان ، ثم تعلّمنا القرآن ، فازددنا إيماناً . وفي الصحيحين [خ (٦١٣٢) وم (٧٩٧)] عن حذيفة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب

. . . .

= الرجال ، فعلّموا من القرآن وعلّموا من السنة » . وفي الترمذي [٣٠١٩] (بإسناد جيّد) وغيره حديثُ النوّاس بن سمعان ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ضَرَبَ الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جَنْبَتَي الصراط سُوران ، وفي السورين أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستورٌ مُرْخَاة ، وداعٍ يدعو على رأس الصراط ، وداعٍ يدعو من فوق الصراط ، فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والسّتور حدود الله ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ، ناداه المنادي ـ أو كما قال ـ : يا عبدَ الله! لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تَلِجْه . والداعي على رأس الصراط : كتابُ الله ، والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مؤمن » . فقد بيّن : أنّ في قلب كلّ مؤمنٍ واعظاً [في نسخة : واعظٌ] ، والواعظ : الأمرُ والنهيُ بترغيبٍ وترهيبٍ . فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن ، مُطابقٌ لأمر القرآن ونهيه . ولهذا يَقْوَى أحدهما بالآخر ، كما قال تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[النور : ٣٥] . قال بعض السلف في الآية : هو المؤمن ينطق بالحكمة ، وإن لم يسمع فيها بأثر ، فإذا سمع بالأثر كان نوراً على نور : نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن ، كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل ، فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقِسْطِ . وقد يؤتى العبد أحدَهما ولا يؤتى الآخر ، كما في الصحيحين [خ (٥٠١١) وم (٧٩٧)] عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة : طعمها طيّب وريحها طيّب . ومثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل التمرة : طعمها طيّب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : رِيحُهَا طيّب وطعمها مُرّ . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : ليس لها ريح وطعمها مُرّ » .

والإلهام في القلب تارةً يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد . وتارةً يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب ، فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجحُ وأظهرُ وأصوبُ ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر .

وفي الصحيحين [خ (٣٢٨٢) وم (٢٣٩٨)] عن النبي ﷺ أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون ، فإن يَكُنْ في أمّتي أحدٌ فَعُمَرُ » . والمُحدَّثُ المُلْهَم المخاطَب . وفي مثل هذا قول النبي ﷺ في حديث وابصة : « البِرُّ : ما اطمأنتْ إليه النفس وسَكَنَ إليه القلب . والإثم : ما حاك في نفسك ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . وهو في السنن [أحمد (٤/ ٢٢٨)] . وفي صحيح مسلم (٢٥٥٣) عن النّوّاس بن سمعان ، عن النبي ﷺ قال : « البِرُّ : حُسْنُ الخلُق ، والإثم : ما حَاكَ في نفسك ، وكرهت أن يطّلعَ عليه الناس » . وقال ابن مسعود : الإثم حوّازٌ [في المطبوع : حزاز] القلوب .

وأيضاً فإذا كانت الأمورُ الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظنّاً ، فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى ، فإنه إلى كشفها أَحْوَج ، لكن هذا في الغالب لا بُدّ أن يكون كشفاً بدليل ، وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن ، ولا [في نسخة : لا] يمكنه التعبير عنه ، وهذا أحد ما فُسّر به معنى الاستحسان . وقد قال من طعن في ذلك كأبي حامد وأبي محمد : ما لا يُعَبَّر به عنه فهو هَوَسٌ . وليس كذلك ، فإنه ليس كلّ أحدٍ يُمكنه إبانةُ المعاني القائمة بقلبه ، وكثيرٌ من الناس يُبيِّنُهَا بياناً =

. . . .

= ناقصاً ، وكثيرٌ من أهل الكشف يُلقى في قلبه أن هذا الطعام حرامٌ ، أو أن هذا الرجل كافرٌ أو فاسقٌ من غير دليلٍ ظاهرٍ . وبالعكس قد يُلقى في قلبه محبّة شخص ، وأنه وَلِيٌّ لله ، أو أنَّ هذا المال حلالٌ . وليس المقصود هنا : بيان أن هذا وحدَه دليل على الأحكام الشرعية ، لكن أنَّ مِثْلَ هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأتْ عنده الأدلّة السّمعية الظاهرة ، فالترجيح بها خيرٌ من التسوية بين الأمرين المتناقضَين قطعاً ، فإن التسوية بينهما باطلة قطعاً ، كما قلنا : إن العمل بالظنّ الناشيء عن ظاهر أو قياس خيرٌ من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما . والصواب الذي عليه السلف والجمهور : أنه لا بُدَّ في كل حادثة من دليلٍ شرعيٍّ ، فلا يجوز تكافؤ الأدلّة في نفس الأمر ، لكنْ [في نسخة : ولكن] قد تتكافأ عند الناظر لعدمِ ظهور الترجيح له ، وأمّا من قال : إنه ليس في نفس الأمر حقٌّ معيّنٌ ، بل كل مجتهد عالِمٌ بالحق الباطن في المسألة ، وليس لأحدهما على الآخر مزيّةٌ في علم ولا عمل ، فهؤلاء قد يُجوِّزون أو بعضهم تكافؤَ الأدلّة ، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين . وهؤلاء يقولون : ليس على الظن دليلٌ في نفس الأمر ، وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة ، كترجيح النفس الغضبية للانتقام ، والنفس الحليمة للعفو .

وهذا القول خطأ ، فإنه لا بُدّ في نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويُخطئه أخرى ، كالكعبة في حقّ من اشتبهتْ عليه القبلة ، والمجتهد إذا أدّاه اجتهاده إلى جهة سقط [في نسخة : وسقط] عنه الفرض بالصلاة إليها ، كالمجتهد إذا أدّاه اجتهاده إلى قولٍ فعمل بموجبه ، كلاهما مطيع لله ، وهو مُصيبٌ بمعنى أنه مطيع لله ، وله أجرٌ على ذلك ، وليس مصيباً بمعنى أنه علم الحق المعين ، فإنّ ذلك لا يكون إلا واحداً ، ومصيبه له أجران . وهذا في كشف الأنواع التي يكون عليها دليلٌ شرعيٌّ ، لكن قد يخفى على العبد ، فإن الشارع بيَّن الأحكام الكلية . وأمّا الأحكام المعيّنات التي تسمّى « تنقيحَ المناط » ، مثل كون الشخص المعيَّن عَدلاً أو فاسقاً ، أو مؤمناً أو منافقاً ، أو وليّاً لله أو عدوّاً له . وكون هذا المعيّن عدوّاً للمسلمين يستحق القتل ، وكون هذا العقار ليتيم أو فقير يستحق الإحسان إليه ، وكون هذا المال يُخاف عليه من ظُلْم ظالِم ، فإذا زهد فيه الظالم انتفع به أهله . فهذه الأمور لا يجب أن تُعلم بالأدلّة الشّرعية العامّة الكليّة ، بل تعلم بأدلّة خاصّة تدلّ عليها .

ومن طُرُقِ [في نسخة : طريق] ذلك : الإلهامُ ، فقد يُلهم الله بعضَ عِبَاده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص المعيّن ، وإن لم يكن هناك دليلٌ ظاهرٌ يشركه فيه غيره . وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب ، ليس فيها مخالفةٌ لشرع الله تعالى ، فإنه لا يجوز قطُّ لأحدٍ لا نبيٌّ ولا وَلِيٌّ أن يخالف شرع الله ، لكن فيها علمُ حال ذلك المعيّن بسببٍ باطنٍ يوجب فيه الشرعُ ما فعله الخضر . كمن دخل إلى دارٍ وأخذَ ما فيها من المال ، لعلمه بأن صاحبها أَذِنَ له ، وغيره لم يعلم . ومثل من رأى ضالّةً أخذها ولَم يُعَرِّفْهَا ، لعلمه بأنه أُتِيَ بها هدية له ، ونحو ذلك . ومثل هذا كثيرٌ عند أهل الإلهام الصحيح .

والنوع الثاني عكس هذا : وهو أنّهم يتّبعون هواهم ، لا أَمْرَ الله ، فهؤلاء لا يفعلون ، ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم ، ولا يتركون وينهون إلا عمّا يكرهونه بهواهم . وهؤلاء شرّ الخلق . قال =

. . . .

= تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[الفرقان : ٤٣] . قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلاّ ركبه . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[القصص : ٥٠] . وقال عمر بن عبد العزيز : لا تكن مِمَّن يتبع الحق إذا وافق هواه ، ويخالفه إذا خالف هواه ، فإذا [في نسخة : فكذا] أنت لا تثاب على ما اتَّبعته من الحق ، وتُعاقب على ما خالفته . وهو كما قال رضي الله عنه ؛ لأنه في الموضعين إنّما قصد اتباع هواه لَم يعمل لله .

ألا ترى أن أبا طالب نصر النبي ﷺ ، وذبَّ عنه أكثر من غيره ، لكن فَعَلَ ذلك لأجل القرابة ، لا لأجل الله تعالى ، فلم يتقبَّل الله ذلك منه ، ولَم يثبه على ذلك ؟! . وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أعانه بنفسه وماله لله ، فقال الله فيه : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾[الليل : ١٧ ـ ٢١] .

والقسم الثالث : الذي يريد تارةً إرادةً يُحبّها الله ، وتارة إرادةً يُبغضها الله . وهؤلاء أكثر المسلمين فإنهم يطيعون الله تارةً ، ويريدون ما أحبّه ، ويعصونه تارةً ، ويريدون [في نسخة : فيريدون] ما يهوونه ، وإن كان يكرهه .

والقسم الرابع : أن يخلو عن الإرادتَيْنِ ، فلا يريد لله ولا لهواه ، وهذا يقع لكثيرٍ من الناس في بعض الأشياء ، ويقع لكثيرٍ من الزُّهّاد والنُّسّاك في كثيرٍ من الأمور .

وإمّا خلو الإنسان عن الإرادة مطلقاً فمُمتنع ، فإنه مفطورٌ على إرادةِ ما لا بُدَّ له منه ، وعلى كراهة ما يَضرّه ويؤذيه ، والزاهد الناسك إن [في نسخة : إذا] كان مسلماً فلا بُدَّ أن يريد أشياءَ يحبها الله ، مثل : أداء الفرائض ، وترك المحارم ، بل وكذلك عموم المؤمنين لا بُدَّ أن يريد أحدهم أشياءَ يُحبّها الله ، وإلاّ فمن لَم يُحب الله ، ولا أحبَّ شيئاً لله ، فلم يحب شيئاً من الطاعات ، لا الشهادتين ولا غيرهما ولا يريد ذلك ، فإنه لا يكون مؤمناً ، فلا بد لكل مؤمنٍ من أن تكون له إرادةٌ لبعض ما يُحبه الله . وأمّا إرادةُ العبد لِمَا يهواه ولا يحبه الله ، فهذا لازِمٌ لِكُلِّ من عصى الله ، فإنه أراد المعصية والله لا يُحبّها ولا يَرضاها . **وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة فيقع على وجهين** :

أحدهما : مع إعراض العبد عن عبادة الله تعالى وطاعته وإن علم بها ، فإنه قد يعلم كثيراً من الأمور أنه مأمورٌ بها ، وهو لا يريدها ، ولا يكره من غيره فعلها ، وإذا اقتتل المسلمون والكفار لَم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذي يحبه الله ، ولا لانتصار هؤلاء الذي يبغضه الله .

والوجه الثاني : يقع من كثير من الزّهّاد العبّاد الممتثلين لِمَا يعلمون أن الله أمر به المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه ، وأمور أخرى لا يعلمون أنها مأمورٌ بها ولا منهيٌّ عنها ، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم ، وقد يرضونها [في نسخة : ويرضون بها] من جهة كونها مخلوقةً مقدرةً ، وقد يعاونون عليها ، ويرون [في نسخة : ويريدون] هذا موافقةً لله ، وأنهم لَمّا خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادثٍ ، بل والمعاونة عليه . وهذا مَوْضِعٌ يَقعُ فيه الغَلَطُ ، فإنّ ما أحبّه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبّه الله ورسوله ، وما أبغضه الله ورسوله ، فعلينا أن نبغض ما أبغضه الله =

. . . .

= ورسوله ، وأما ما لا يُحبّه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله ، كالأفعال التي لا تكليف فيها ، مثل أفعال النائم والمجنون ، فهذا إذا كان الله لا يحبها ولا يرضاها ولا يكرهها ويذمّها ، فالمؤمن أيضاً لا ينبغي أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها . وأما كونها مقدورةً ومخلوقةً لله فذاك لا يختصّ بها ، بل هو شاملٌ لجميع المخلوقات . والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته ، وقد ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة : ٧] .

والرضا بالقضاء ثلاثة أنواع [في نسخة : أقسام] :

أحدها : الرضا بالطاعات ، فهذا طاعةٌ مأمورٌ بها .

والثاني : الرضا بالمصائب ، فهذا مأمورٌ بها [في نسخة : به] : إما مستحب ، وإما واجب .

والثالث : الكفر والفسوق والعصيان ، فهذا لا يؤمر بالرضا به ، بل يؤمر ببغضه وسخطه ، فإن الله لا يُحبه ولا يرضاه ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء : ١٠٨] . وقال : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] . وقال : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧] . وقال : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران : ٣٢] . وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠ والمائدة : ٨٧] . (وقال : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة : ٦٤]) .

وهو وإن خلقه لما له في ذلك من الحكمة ، فلا يمتنع أن يخلق ما لا يُحبّه لإفضائه إلى الحكمة التي يُحبّها ، كما خلق الشياطين ، فنحن راضون عن الله في أن [في نسخة : بأن] يخلق ما يشاء ، وهو محمودٌ على ذلك .

وأما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله ، فلا نرضى به ولا نحمده ، وفَرْقٌ بين ما يُحَبُّ لنفسه ، وما يُراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضاً من جهة أخرى ، فإنَّ الأمر الواحد يُراد من وجهٍ ويكره من وجه آخر ، كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه ، فإنه يبغض الدواء ويكرهه ، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب ، لا لأنه في نفسه محبوب . وفي الحديث الصحيح [خ (٦١٣٧)] : « يقول الله تعالى : وما تردّدت عن شيءٍ أنا فاعله كتردُّدي [في نسخة : ترددي] وعن قبض نفس عبدي المؤمن : يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بُدَّ له منه » . فهو سبحانه لَمّا كره مساءة عبده المؤمن الذي يكره الموت كان هذا مقتضياً أن يكره إماتته مع أنه يريد إماتته ، لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى ، فالأمور التي يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تُحَبُّ ولا تُرضى ، لكن نَرضَى بما يرضَى الله به ، حيث خلقها لما له في ذلك من الحكمة ، فكذلك الأفعال التي لا يُحبها ولا يُبغضها ، وَلاَ ينبغي أن تُحبّ ولا تُرضَى ، كما لا ينبغي أن تبغض .

والرضا الثابت بالنص : هو أن يرضى بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . وقد ثبت في الصحيح [م (٣٤)] عن النبي ﷺ أنه قال : « من رضي بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد نبيّاً ، كان حقّاً على الله أن يُرضيه » .

وأما بالنسبة إلى القدر : فيرضى عن الله ، إذ له الحمد على كل حال ، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خَلَقَ لأجلها ما خلق ، وإن كُنّا نبغض ما يبغضه من المخلوقات ، فحيث انتفى الأمر =

. . . .

= الشرعي أو خفي الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبّة ، كما يكون في الأمر الشرعي ، وإن كان ذلك مقدوراً . وهذا موضعٌ يَغْلَطُ [في نسخة : غَلِطَ] فيه كثير من خاصّة السّالكين وشيوخهم ، فضلاً عن عامّتهم ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعيّ وطاعتهم له . فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له ، فهذا تكون [في نسخة : يكون] حاله أحسنَ مِمَّن يقصر [في نسخة : نقص] عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له . ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ، ويسترسل حتّى ينسلخ من الإسلام بالكليّة ، ويبقى واقفاً مع هواه والقدر . ومن هؤلاء من يموت كافراً ، ومنهم من يتوب الله عليه ، ومنهم من يموت فاسقاً ، ومنهم من يتوب الله عليه . وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية مُعْرِضِيْنَ عن الأمر الشرعي ، ولا بُدَّ مع ذلك من اتّباع أمرٍ ونهيٍ غير الأمر الشرعي ، إمّا من أنفسهم ، وإمّا من غير الله ورسوله ، إذ الاسترسال مع القدر مطلقاً ممتنعٌ لذاته ، لِمَا تقدّم من أن العبد مفطورٌ على محبة أشياء وبغض أشياء . وقول من قال [هو الإمام الغزالي ، وأيضاً قول الشيخ عبد القادر كما في هذا الكتاب] : « إن العبد يكون مع الله كالميّت مع الغاسل » لا يصحّ ولا يسوّغ على الإطلاق عند [في نسخة : عن] أحد من المسلمين ، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع ، ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه ، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه ، فلا بد أن يحبّ ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه الله .

فصل : وكما أن الطريقة العلمية بصحّة النظر في [في نسخة : من] الأدلة والأسباب هي الموجبة للعلم : كتدبُّر القرآن والحديث . فالطريقة العملية بصحّة الإرادة والأسباب هي الموجبة للعمل ، (كعمارة الباطن بالمراقبة ، والخوف من الله على كلّ حال) . ولهذا يسمّون السالك في ذلك : المريد . كما يسميه أولئك : الطالب . والنظر جنسٌ تحته حقٌّ وباطلٌ ، ومحمودٌ ومذمومٌ ، وكذلك الإرادة . فكما أن طريق العلم لا بدّ فيه من العلم النبوي الشرعي ، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ، ويكون علمك بها مطابقاً لما أخبرت به الرسل ، وإلا فلا ينفعك أي معلوم علمته ، ولا أيّ شيءٍ اعتقدته فيما أخبرت به الرّسل ، بل لا بُدَّ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فكذلك الإرادة لا بُدَّ فيها من تعيين المراد : وهو الله . والطريق إليه : وهو ما أمرت به الرُّسل . فلا بُدَّ أن تعبد الله وتكون عبادتك إيّاه بما شرع على ألسنة رسله ، إذ لا بُدَّ من تصديق الرسول فيما أخبر علماً ، ولا بُدَّ من طاعته فيما أمر عملاً .

ولهذا كان الإيمان قولاً وعملاً مع موافقة السنة ، فالعلم [في نسخة : فعلم] الحق ما وافق علم الله ، والإرادة الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه ، وهو حكمه الشرعي ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[النساء : ٢٦] .

فالأمور الخبرية لا بُدَّ أن تطابق علم الله وخبره ، والأمور العملية لا بُدَّ أن تطابق حبّ الله وأمره . فهذا حكمه ، وذاك علمه . وأما من جعل حكمه مجرّد القدر ، كما فعل صاحب منازل السائرين ، وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه أن يستحسن حسنةً أو يستقبح سيئةً . فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد تبّهنا عليه في غير هذا الموضع . فلا ينفع المريد القاصد أن يعبد أيَّ معبودٍ كانَ، ولا أن يعبد الله=

= بأيِّ عبادةٍ كانت ، بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[الشورى : ٢١] . كالنصارى ومن أشبههم من أهل البدع الذين يعبدون غير الله بغير أمر الله . وأما أهل الإسلام والسنة : فهم يعبدون الله وحده ، ويعبدونه بما شرع ، لا يعبدونه بالبدع إلا ما يقع من أحدهم خطأً .

فالسالكون طريق الإرادة قد يغلطون تارةً في المراد ، وتارةً في الطريق إليه ، وتارةً يألَهُونَ [في نسخة : يتألهون] غير الله ، بالخوف منه ، والرجاء له ، والتعظيم والمحبة له ، وسؤاله والرغبة إليه . فهذا حقيقة [في نسخة : فهذا من] الشرك المحرم ، فإن حقيقة التوحيد أن لا يعبد [في نسخة : تعبد] إلا الله .

والعبادة تتضمَّن كمال الحب ، وكمال التعظيم ، وكمال الرجاء والخشية والإجلال [في نسخة : والجلال] والإكرام .

والفناء في هذا التوحيد : هو فناء المرسلين وأتباعهم ، وهو : أن تفنى بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه عن رجاء ما سواه ، وبحبه والحبِّ فيه عن محبّة ما سواه والحبِّ فيه .

وأما الغالطون في الطريق : فقد يريدون الله ، لكنْ لا يتّبعون الأمر الشرعيَّ في إرادته ، لكن تارةً يعبده أحدهم بما يظنُّه يرضيه ، ولا يكون كذلك . وتارةً ينظرون إلى القدر لكونه مراده ، فَيَفْنَوْنَ في القدر الذي ليس لهم فيه غَرَضٌ . وأما الفناء المطلق فيه فمُمتنعٌ . وهؤلاء يفنى [في نسخة : يبقى] أحدهم متبعاً لذوقه ووجده المخالف للأمر الشرعي ، أو ناظراً إلى القدر . وهذا يبتلى به كثيرٌ من خواصّهم .

والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم : آمراً بالتزام الشرع ، والأمر والنهي ، وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية . فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادةٌ إنما تقع [في نسخة : يقع] من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادةٌ من جهة هواه أصلاً ، بل يريد ما يريده الرب عزَّ وجلَّ : إما إرادةٌ شرعيّة إن تبيّن له ذلك ، وإلا جرى مع الإرادة القدرية ، فهو إما مع أمر الرب ، وإما مع خلقه ، وهو سبحانه ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[الأعراف : ٥٤] .

وهذه طريقةٌ شرعيةٌ [في نسخة : شريفة] صحيحةٌ إنما يُخاف على صاحبها من ترك إرادة شرعيةٍ لا يعلم أنها شرعية ، أو من تقديم إرادةٍ قدريةٍ على الشرعية ، فإنه إذا لَم يعلم أنها شرعية [في نسخة : يعلم الشرعية] فقد يتركها ، وقد يريد ضدّها ، فيكون تركَ مأموراً ، أو فعلَ محظوراً ، وهو لا يعلم . فإن طريقة الإرادة يُخاف على صاحبها من ضعف العلم ، وما يقترن بالعلم من العمل ، والوقوع في الضلال ، كما أن طريقة العلم يخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وضعف العلم الذي يقترن بالعمل ، لكن ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة : ٢٨٦] من هذا وهذا . قال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن : ١٦] ، فإذا تفقّه السّالك ، وتعلّم الأمر والنّهيَ بحسب اجتهاده ، وكان علمه =

. . . .

= وإرادته بحسب ذاك ، فهذا مستطاعه .

وإذا أدّى الطالب ما أُمِرَ به ، وترك ما نُهِيَ عنه ، وكان علمه مطابقاً لعمله ، فهذا مستطاعه .

وقال ابن قيّم الجوزية في عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص١٩ـ) : الصبر باعتبار متعلَّقِهِ ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها . وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب : لا بدّ للعبد من أمرٍ يفعله ، ونهيٍ يجتنبه ، وقدَرٍ يصبر عليه . وهذا الكلام بطرفين : طرف من جهة الرب تعالى ، وطرف من جهة العبد . فأما الذي من جهة الرب : فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان : حكم شرعي ديني ، وحكم كوني قدري . فالشرعي متعلّق بأمره ، والكوني متعلّق بخلقه ، وهو سبحانه ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ . وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب ، فإن المطلوب إن كان محبوباً له ، فالمطلوب فعله : إما واجباً ، وإما مستحباً ، ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وإن كان مبغوضاً له ، فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة . وذلك أيضاً موقوفٌ على الصبر . فهذا حكمه الديني الشرعي .

وأما حكمه الكوني : فهو ما يقضيه ويقدّره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ، ففرضه الصبر عليها ، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء ، وهما وجهان في مذهب أحمد ، أصحّهما : أنه مستحب ، فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور . وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفكّ عن هذه الثلاث ، ما دام مكلّفاً ، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف ، فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه ، كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها ، فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر . والشيخ دائماً يحوم حول هذه الأصول الثلاثة ، كقوله : يا بني افعل المأمور ، واجتنب المحظور ، واصبر على المقدور . وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[لقمان : ١٧] . فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر ، أما من حيث إطلاق اللفظ ، فتدخل نفسه فيه وغيره ، وأما من حيث اللزوم الشرعي ، فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي . وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد : ١٩ـ ٢٢] . فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف ، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه ، وذلك يعمّ أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه ، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه ، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه ، وحق الله ، وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده ، لا شريك له ، والقيام بطاعته ، والإنابة إليه ، =

. . . .

* * *



= والتوكل عليه ، وحبه ، وخوفه ، ورجائه ، والتوبة إليه ، والاستكانة له ، والخضوع والذلّة له ، والاعتراف له بنعمته ، وشكره عليها ، والإقرار بالخطيئة ، والاستغفار منها . فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد ، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده : أن توصل ، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ، وتصديقه ، وتحكيمه في كل شيء ، والرضا لحكمه ، والتسليم له ، وتقديم محبّته على محبّة النفس والولد والوالد والناس أجمعين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ . فدخل في ذلك القيام بحقّه وحقّ رسوله وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة فإنّه أمر ببرّ الوالدين وصلة الأرحام وذلك مِمّا أمر ﴿ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾[البقرة : ٢٧ والرعد : ٢١ و٢٥] ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم ، وأن نصل ما بيننا من ذلك الوسخ والخبث . وأما باب المأمورات فلا يبطله إلا الشرك . . .

الْمَقَالَةُ الثَّانِيَةُ
فِي التَّوَاصِي بِالْخَيْرِ

اتَّبِعُوا وَلاَ تَبْتَدِعُوا ، وَأَطِيعُوا وَلاَ تَمْرُقُوا ، وَوَحِّدُوا وَلاَ تُشْرِكُوا ، وَنَزِّهُوا الْحَقَّ وَلاَ تَتَّهِمُوا ، وَصَدِّقُوا وَلاَ تَشُكُّوا ، وَاصْبِرُوا وَلاَ تَجْزَعُوا ، وَاثْبُتُوا وَلاَ تَفِرُّوا[(١)] ، وَاسْأَلُوا وَلاَ تَسْأَمُوا ، وَانْتَظِرُوا وَتَرَقَّبُوا وَلاَ تَيْأَسُوا ، وَتَوَاخَوْا وَلا تَعَادَوْا ، وَاجْتَمِعُوا عَلَى الطَّاعَةِ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا ، وَتَحَابُّوا وَلاَ تَبَاغَضُوا ، وَتَطَهَّرُوا عَنِ الذُّنُوبِ وَبِهَا لاَ تَتَدَنَّسُوا وَلاَ تَتَلَطَّخُوا ، وَبِطَاعَةِ رَبِّكُمْ فَتَزَيَّنُوا ، وَعَنْ بَابِ مَوْلاَكُمْ فَلاَ تَبْرَحُوا ، وَعَنِ الإِقْبَالِ عَلَيْهِ فَلاَ تَتَوَلَّوا ، وَبِالتَّوْبَةِ فَلاَ تُسَوِّفُوا ، وَعَنِ الاعْتِذَارِ إِلَى خَالِقِكُمْ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ فَلاَ تَمَلُّوا ، فَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَتَسْعَدُونَ ، وَعَنِ النَّارِ تُبْعَدُونَ ، وَفِي الْجَنَّةِ تُحْبَرُونَ[(٢)] ، وَإِلَى اللهِ تُوصَلُونَ ، وَبِالنَّعِيمِ وَافْتِضَاضِ[(٣)] الأَبْكَارِ فِي دَارِ السَّلاَمِ تَشْتَغِلُونَ ، وَعَلَى ذَلِكَ أَبَداً تَخْلُدُونَ ، وَعَلَى النَّجَائِبِ[(٤)] تَرْكَبُونَ ، وَبِحُورِ العِينِ وَأَنْوَاعِ الطِّيبِ وَصَوْتِ القِيَانِ[(٥)] مَعَ ذَلِكَ النَّعِيمِ تُحْبَرُونَ ، وَمَعَ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ تُرْفَعُونَ[(٦)] .

* * *

(١) في المطبوع : (تنفروا) .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾[الزخرف : ٧٠] . أي : تُسَرُّونَ وتُكْرَمُون .

(٣) الفَضُّ : فَكُّ خَاتَمِ الكتاب ، ومنه افْتِضاض البكر ، أي : فكُّ خاتمها .

(٤) جمع نَجيب ونَجيبة ، وهي : الناقة .

(٥) جمع قَيْنة ، المغنية .

(٦) قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء : ٦٩] .

الْمَقَالَةُ الثَّالِثَةُ
فِي الابْتِلاَءِ

إِذَا ابْتُلِيَ الْعَبْدُ بِبَلِيَّةٍ تَحَرَّكَ أَوَّلاً فِي نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهَا اسْتَعَانَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ[١] كَالسَّلاَطِينِ ، وَأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ ، وَأَرْبَابِ[٢] الدُّنْيَا ، وَأَصْحَابِ الأَمْوَالِ[٣] ، وَأَهْلِ الطِّبِّ فِي الأَمْرَاضِ وَالأَوْجَاعِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي ذَلِكَ خَلاَصاً[٤] ، رَجَعَ (حِينَئِذٍ) إِلَى رَبِّهِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالثَّنَاءِ .

فَمَا[٥] دَامَ يَجِدُ بِنَفْسِهِ[٦] نُصْرَةً لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْخَلْقِ .

وَمَا دَامَ يَجِدُ بِهِ عِنْدَ[٧] الْخَلْقِ[٨] نُصْرَةً لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْخَالِقِ .

ثُمَّ إِذَا لَمْ يَجِدْ عِنْدَ الْخَالِقِ[٩] نُصْرَةً ، اسْتَطْرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ[١٠] مُدِيماً لِلسُّؤَالِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالثَّنَاءِ ، وَالافْتِقَارِ مَعَ الْخَوْفِ (مِنْهُ) وَالرَّجَاءِ .

ثُمَّ يُعْجِزُهُ الْخَالِقُ (عزَّ وجلَّ) عَنِ الدُّعَاءِ ، وَلَمْ[١١] يُجِبْهُ ، حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنْ جَمِيعِ الأَسْبَابِ ، فَحِينَئِذٍ يَنْفُذُ فِيهِ الْقَدَرُ ، وَيَفْعَلُ فِيهِ الْفِعْلُ[١٢] ، فَيَفْنَى الْعَبْدُ عَنْ جَمِيعِ الأَسْبَابِ

---

(١) في المطبوع : (استعان من الخلق) . وفي نسخة : (استعان بالخلق) .
(٢) في نسخة : (وأبناء) .
(٣) في المطبوع : (الأحوال) .
(٤) في نسخة : (خلاصه) .
(٥) في المطبوع : (ما) .
(٦) في نسخة : (عند نفسه) .
(٧) في نسخة : (ثم ما دام يجد) . وفي نسخة : (وما دام يجد عند) .
(٨) تحرف في نسخة : (الحق) .
(٩) في نسخة : (الخلق) .
(١٠) أي : بين يدي الله عزَّ وجلَّ .
(١١) ولم هنا بمعنى : لا .
(١٢) في نسخة : (ويفعل الفعل) .

وَالْحَرَكَاتِ ، فَيَبْقَى رُوحاً فَقَطْ ، فَلاَ يَرَى إِلاَّ فِعْلَ الْحَقِّ (عزَّ وجلَّ) ، فَيَصِيرُ مُوْقِناً مُوَحِّداً ضَرُوْرَةً ، وَيَقْطَعُ[(١)] أَنْ لاَ فَاعِلَ فِي الْحَقِيْقَةِ إِلاَّ اللهُ ، وَلاَ[(٢)] مُحَرِّكَ وَلاَ مُسَكِّنَ إِلاَّ اللهُ ، وَلاَ خَيْرَ وَلاَ شَرَّ ، وَلاَ ضَرَّ وَلاَ نَفْعَ ، وَلاَ عَطَاءَ وَلاَ مَنْعَ ، وَلاَ فَتْحَ وَلاَ غَلْقَ ، وَلاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ ، وَلاَ عِزَّ وَلا ذُلَّ ، (وَلاَ غِنَى وَلاَ فَقْرَ) ، إِلاَّ بِيَدِ اللهِ . فَيَصِيرُ حِيْنَئِذٍ[(٣)] كَالطِّفْلِ الرَّضِيْعِ فِي يَدِ الظِّئْرِ[(٤)] ، والْمَيْتِ الغَسِيْلِ فِي يَدِ الغَاسِلِ[(٥)] ، وَالْكُرَةِ فِي صَوْلَجَانِ الفَارِسِ ، يُقَلَّبُ وَيُغَيَّرُ وَيُبَدَّلُ وَيُكَوَّنُ ، وَلاَ حَرَاكَ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَلاَ فِي غَيْرِهِ ، فَهُوَ[(٦)] غَائِبٌ عَنْ نَفْسِهِ فِي فِعْلِ مَوْلاَهُ ، فَلاَ يَرَى غَيْرَ مَوْلاَهُ وَفِعْلَهُ ، (وَلاَ يَرَى سِوَاهُ) ، وَلاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَعْقِلُ مِنْ غَيْرِهِ ، إِنْ أَبْصَرَ[(٧)] (فَلِصُنْعِهِ أَبْصَرَ) ، وَإِنْ سَمِعَ وَعَلِمَ ، فَلِكَلاَمِهِ سَمِعَ ، وَلِعِلْمِهِ عَلِمَ ، وَبِنِعْمَتِهِ تَنَعَّمَ ، وَبِقُرْبِهِ سَعِدَ[(٨)] ، وَبِتَقَرُّبِهِ[(٩)] تَزَيَّنَ وَتَشَرَّفَ ، وَبِوَعْدِهِ طَابَ وَسَكَنَ ، وَبِهِ[(١٠)] اطْمَأَنَّ ، وَبِحَدِيْثِهِ أَنِسَ ، وَعَنْ غَيْرِهِ اسْتَوْحَشَ وَنَفَرَ ، وَإِلَى ذِكْرِهِ الْتَجَأَ وَرَكَنَ ، وَبِهِ[(١١)] عزَّ وجلَّ وَثِقَ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلَ ، وَبِنُوْرِ مَعْرِفَتِهِ اهْتَدَى وَتَقَمَّصَ ، وَتَسَرْبَلَ ، وَعَلَى غَرَائِبِ عُلُوْمِهِ اطَّلَعَ ، وَعَلَى أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ أَشْرَفَ ، وَمِنْهُ سَمِعَ وَوَعَى ، ثُمَّ عَلَى ذَلِكَ حَمِدَ وَأَثْنَى ، وَشَكَرَ وَدَعَا .

* * *

---

(١) في المطبوع : (يقطع) .

(٢) في المطبوع : (لا) .

(٣) في المطبوع : (فيصير القدر) . وفي نسخة : (فيصير في القدر) .

(٤) المرضعة .

(٥) مرّ في التعليقة على المقالة الأولى .

(٦) في نسخة : (هو) .

(٧) في المطبوع : (بصر) .

(٨) في المطبوع : (تسعد) .

(٩) في المطبوع : (وبتقريبه) .

(١٠) في المطبوع : (به) .

(١١) في نسخة : (وبربه) .

الْمَقَالَةُ الرَّابِعَةُ
فِي الْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ

إِذَا مُتَّ عَنِ الْخَلْقِ ، قِيْلَ لَكَ : رَحِمَكَ اللهُ ، وَأَمَاتَكَ عَنِ الْهَوَى .

وَإِذَا مُتَّ عَنْ هَوَاكَ ، قِيْلَ لَكَ : رَحِمَكَ اللهُ ، وَأَمَاتَكَ عَنْ إِرَادَتِكَ وَمُنَاكَ .

وَإِذَا مُتَّ عَنِ الإِرَادَةِ ، قِيْلَ لَكَ : رَحِمَكَ اللهُ ، وَأَحْيَاكَ حَيَاةً لاَ مَوْتَ بَعْدَهَا ، وَتَغْنَى غِنًى لاَ فَقْرَ بَعْدَهُ ، وَتُعْطَى عَطَاءً لاَ مَنْعَ بَعْدَهُ ، وَتُرَاحُ بِرَاحَةٍ لاَ شَقَاءَ بَعْدَهَا ، وَتَنْعَمُ بِنِعْمَةٍ لاَ بُؤْسَ بَعْدَهَا ، وَتَعْلَمُ عِلْماً لاَ جَهْلَ بَعْدَهُ ، وَتُؤَمَّنُ أَمْناً لاَ خَوْفَ بَعْدَهُ ، وَتَسْعَدُ فَلاَ تَشْقَى ، وَتُعَزُّ فَلاَ تُذَلُّ ، وَتُقَرَّبُ[1] فَلاَ تُبْعَدُ ، وتُرْفَعُ فَلاَ تُوضَعُ ، وَتُعَظَّمُ فَلاَ تُحَقَّرُ ، وَتُطَهَّرُ فَلاَ تُدَنَّسُ ، لِتُحَقَّقَ فِيْكَ الأَمَانِيُّ ، وَتُصَدَّقَ فِيْكَ الأَقَاوِيْلُ ، فَتَكُوْنَ كِبْرِيْتاً أَحْمَرَ فَلاَ تُكَادُ تُرَى ، وَعَزِيْزاً فَلاَ تُمَاثَلُ ، وَفَرِيْداً فَلاَ تُشَارَكُ ، وَحِيْداً فَلاَ تُجَانَسُ ، فَرْداً[2] بِفَرْدٍ وَوِتْراً بِوِتْرٍ ، وَغَيْبَ الغَيْبِ ، وَسِرَّ السِّرِّ ، فَحِيْنَئِذٍ تَكُوْنُ وَارِثَ كُلِّ نَبِيٍّ وَصِدِّيْقٍ وَرَسُوْلٍ ، بِكَ تُخْتَمُ الْوِلاَيَةُ ، وَإِلَيْكَ تُصَوَّرُ[3] الأَبْدَالُ ، وَبِكَ تَنْكَشِفُ الْكُرُوْبُ ، وَبِكَ تُسْقَى الغُيُوْثُ ، وَبِكَ تَنْبُتُ الزُّرُوعُ ، وَبِكَ يُدْفَعُ البَلاَءُ وَالْمِحَنُ عَنِ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَأَهْلِ الثُّغُوْرِ وَالرَّاعِي وَالرَّعَايَا ، وَالأَئِمَّةِ وَالأُمَّةِ وَسَائِرِ البَرَايَا[4] ، فَتَكُوْنَ شُحْنَةَ البِلاَدِ وَالْعِبَادِ ، فَتَنْطَلِقُ إِلَيْكَ الرِّجْلُ بِالسَّعْيِ وَالتَّرْحَالِ[5] ، وَالأَيْدِي بِالبَذْلِ[6] وَالعَطَاءِ وَالْخِدْمَةِ ، بِإِذْنِ خَالِقِ الأَشْيَاءِ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ ، وَالأَلْسُنُ بِالذِّكْرِ الطَّيِّبِ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَجَمِيْعِ

---

(١) في المطبوع : (وتقر) . خطأ .
(٢) في المطبوع : (فراد) .
(٣) في نسخة : (تصير) .
(٤) تحرف في المطبوع إلى : (البلايا) . والبرايا : جميع الخلق .
(٥) تحرف في المطبوع إلى : (والرجال) .
(٦) في المطبوع : (بالذل) .

الْمَحَال[1] ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِيْكَ اثْنَانِ مِنْ أَهْلِ الإِيْمَانِ . يَا خَيْرَ مَنْ سَكَنَ الْبَرَارِي وَجَالَ بِهَا .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الحديد : ٢١ والجمعة : ٤] .

* * *



(١) تحرف في المطبوع إلى : (المجال) . والْمَحَال : جمع مَحَلَّة ، أي : في جميع الأماكن .

المَقَالَةُ الْخَامِسَةُ

فِي بيَانِ الدُّنْيَا وَالْحَثّ عَلَى عَدَمِ الالتِفَاتِ إِلَيْهَا

إِذَا رَأَيْتَ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي[1] أَرْبَابِهَا بِزِينَتِهَا وَأَبَاطِيلِهَا وَخِدَاعِهَا وَمَصَائِدِهَا وَسُمُومِهَا القَتَّالَةِ ، مَعَ لِينِ مَسِّ ظَاهِرِهَا ، وَضَرَاوَةِ بَاطِنِهَا ، وَسُرْعَةِ إِهْلاَكِهَا ، وَقَتْلِهَا لِمَنْ مَسَّهَا وَاغْتَرَّ بِهَا ، وَغَفَلَ عَنْ وَلِيِّهَا وَغِيَرِهَا[2] بِأَهْلِهَا ، وَنَقْضِ عَهْدِهَا .

فَكُنْ كَمَنْ رَأَى إِنْسَاناً عَلَى الغَائِطِ بِالبَرَازِ[3] بَادِيَةً سَوْأَتُهُ وَفَائِحَةً رَائِحَتُهُ ، فَإِنَّكَ تَغُضُّ بَصَرَكَ عَنْ سَوْأَتِهِ ، وَتَسُدُّ أَنْفَكَ مِنْ رَائِحَتِهِ وَنَتَنِهِ . فَهَكَذَا كُنْ فِي الدُّنْيَا : إِذَا رَأَيْتَهَا غُضَّ بَصَرَكَ عَنْ زِينَتِهَا ، وسُدَّ أَنْفَكَ عَمَّا يَفُوحُ مِنْ رَوَائِحِ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا ، فَتَنْجُو مِنْهَا وَمِنْ آفَاتِهَا ، وَيَصِلُ إِلَيْكَ قَسْمُكَ مِنْهَا وَأَنْتَ مُهَنّأٌ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[طه : ١٣١] .

* * *

(١) في المطبوع : (يدي) .

(٢) في نسخة : (وغدرها) . أي : هذه الدنيا تتغيّرُ أحوالها بالنسبة للإنسان من خيرٍ وشرٍّ .

(٣) المكان المنكشف الواسع .

المَقَالَةُ السَّادِسَةُ
فِي الفَنَاءِ عَنِ الْخَلْقِ

افْنَ عَنِ الْخَلْقِ بِحُكْمِ[(١)] اللهِ تَعَالَى ، وَعَنْ هَوَاكَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى[(٢)] ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة : ٢٣] ، وَعَنْ إِرَادَتِكَ بِفِعْلِ اللهِ تَعَالَى[(٣)] ، فَحِينَئِذٍ يَصْلُحُ[(٤)] أَنْ تَكُونَ وِعَاءً لِعِلْمِ اللهِ تَعَالَى[(٥)] .

فَعَلامَةُ فَنَائِكَ عَنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى : انْقِطَاعُكَ عَنْهُمْ ، وَعَنِ التَّرَدُّدِ إِلَيْهِمْ ، وَالْيَأسِ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ[(٦)] .

---

(١) في المطبوع : (بإذن) .

(٢) في المطبوع : (بأمره) .

(٣) في المطبوع : (بفعله) .

(٤) في المطبوع : (وحينئذ تصلح) .

(٥) قال شيخ الإسلام في تعليقته على فتوح الغيب : فحكمه يتناول خلقه وأمره ، أي : افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله ، والتوكل عليه ، فلا تطعهم في معصية الله تعالى ، ولا تتعلّق بهم في جلب منفعة ، ولا دفع مضرة . وأما الفناء عن الهوى بالأمر ، وعن الإرادة بالفعل ، بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعةً لفعل الله لا لإرادة نفسه ، فالإرادة تارةً تتعلّق بفعل نفسه ، وتارةً بالمخلوقات . فالأول : يكون بالأمر ، والثاني : لا تكون له إرادة . ولا بد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادةٌ لَم يؤمر بها ، وإلا فإذا أُمِرَ بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيءٍ فليرد ما أمر بإرادته ، سواءٌ كان موافقاً للقدر ، أم لا . وهذا الموضع قد يَغْلَطُ فيه طائفةٌ من السَّالكين . والغالب على الصادقين منهم أنهم لَم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعيّن ، وهم ليس لهم إرادة نفسانيّة ، فتركوا إرادتهم لغير المقدور .

(٦) قال شيخ الإسلام في تَعْليقته على فتوح الغيب : وهو كما قال ، فإذا كان القلب لا يرجوهم ، ولا يخافهم ، لَم يتردّد إليهم لطلب شيءٍ منهم ، وهذا يشبه [في نسخة : يشتبه] بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم ، بما أمر الله به ، ونهيهم عمّا نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغون [في نسخة : يبلغونه] رسالات الله ، فإن التوكل إنّما يصحّ مع القيام بما أمر به العبد ليكون عابداً لله متوكّلاً عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به ، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مِمّا قام به من التوكل ، أو مثله ، أو دونه ، كما أن من قام بأمرٍ ولَم يتوكل عليه ولَم يستعن به فلم يقم بالواجب ، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مِمّا فعله من الأمر أو مثله أو دونه .

وَعَلاَمَةُ فَنَائِكَ عَنْكَ وَعَنْ[١] هَوَاكَ : تَرْكُ التَّكَسُّبِ وَالتَّعَلُّقِ بِالسَّبَبِ فِي جَلْبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ[٢] ، فَلاَ تَتَحَرَّكُ[٣] فِيكَ (بِكَ) وَلاَ تَعْتَمِدُ عَلَيْكَ لَكَ[٤] ، وَلاَ تَنْصُرُ نَفْسَكَ ، وَلاَ تَذُبُّ عَنْكَ ، لَكِنْ[٥] تَكِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، لأَنَّهُ تَوَلاَّهُ[٦] أَوَّلاً فَيَتَوَلاَّهُ آخِراً ، كَمَا كَانَ ذَلِكَ مَوْكُولاً إِلَيْهِ فِي حَالِ كَوْنِكَ مُغَيَّباً فِي الرَّحِمِ ، وَكَوْنِكَ رَضِيعاً طِفْلاً فِي مَهْدِكَ[٧] .

وَعَلاَمَةُ فَنَائِكَ عَنْ إِرَادَتِكَ[٨] بِفِعْلِ اللهِ أَنَّكَ لاَ تُرِيدُ مُرَاداً قَطُّ ، فَلاَ يَكُنْ[٩] لَكَ غَرَضٌ ، وَلاَ تَقِفُ[١٠] لَكَ حَاجَةٌ وَلاَ مَرَامٌ ، لأَنَّكَ[١١] لاَ تُرِيدُ مَعَ إِرَادَةِ اللهِ سِوَاهَا ، بَلْ يَجْرِي

---

(١) في المطبوع : (وعلامة فنائك عن) .

(٢) في المطبوع : (النفع والضرر) .

(٣) في نسخة : (تحرك) .

(٤) تحرف في المطبوع إلى : (تتعمد عليك ولا لك) .

(٥) في المطبوع : (ولا تذب عنك ، ولا تنفر نفسك) .

(٦) في المطبوع : (إلى من تولاه) .

(٧) قال شيخ الإسلام في تعليقته على فتوح الغيب : وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ، ودفع ما تبغضه ويضرّها ، فإذا نُهِيَ عن ذاك بالأمر : فعل ما يحبه الله ، وترك ما يبغضه الله ، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه ، وبترك ما يبغضه [في نسخة : يغضبه] الله عما يبغضه [في نسخة : أبغضه] ، وحينئذ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ، ودفع المضرة ، فيكون في ذلك متوكلاً على الله . والشيخ ـ رحمه الله ـ ذكر هنا التوكل دون الطاعة ، لأن النفس لا بُدَّ لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن لَم تكن متوكّلة على الله في ذلك واثقةً به لَم يمكن أن تنصرف عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقاً ، بل لا بد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة ، فلا تصحّ العبادة لله وطاعة أمره بدون [في نسخة : دون] التوكل عليه ، كما أن التوكل عليه لا يصحّ بدون [في نسخة : دون] عبادته وطاعته . قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود : ١٢٣] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق : ٢ـ ٣] . وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[المزمل : ٨ـ ٩] . والمقصود : أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصحّ بدون [في نسخة : دون] التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقاً بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضرّه أمكن أن يدع هواه ، ويطيع أمره [في نسخة : أمر مولاه] ، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول أنه محتاجٌ فيه إلى غيره .

(٨) في نسخة : (وعلامة فناء إرادتك) .

(٩) في المطبوع : (ولا يكون) .

(١٠) في المطبوع : (يبقى) .

(١١) في نسخة : (فإنك) .

فِعْلُ اللهِ[١] فِيْكَ ، فَتَكُوْنَ أَنْتَ عِنْدَ[٢] إِرَادَةِ اللهِ (تَعَالَى) وَفِعْلِهِ ، سَاكِنَ الْجَوَارِحِ ، مُطْمَئِنَّ الْجَنَانِ ، مُنْشَرِحَ[٣] الصَّدْرِ ، مُنَوَّرَ الْوَجْهِ ، عَامِرَ الْبَطْنِ ، غَنِيّاً عَنِ الأَشْيَاءِ بِخَالِقِهَا ، تُقَلِّبُكَ يَدُ الْقُدْرَةِ ، وَيَدْعُوْكَ لِسَانُ الأَزَلِ ، وَيُعَلِّمُكَ رَبُّ الْمُلْكِ[٤] ، وَيَكْسُوْكَ أَنْوَاراً[٥] مِنْهُ وَالْحُلَلَ ، وَيُنْزِلُكَ (مَنَازِلَ مَنْ سَلَفَ)[٦] مِنْ أُوْلِي الْعِلْمِ الأَوَّلِ ، فَتَكُوْنَ مُنْكَسِراً أَبَداً .

فَلاَ تَثْبُتُ[٧] فِيْكَ شَهْوَةٌ وَإِرَادَةٌ ، كَالإِنَاءِ الْمُنْثَلِمِ[٨] ـ الَّذِي لاَ يَثْبُتُ فِيْهِ مَائِعٌ وَلاَ كَدَرٌ[٩] ـ فَتَفْنَى[١٠] عَنْ أَخْلاَقِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَلَنْ يَقْبَلَ بَاطِنُكَ سَاكِناً[١١] غَيْرَ إِرَادَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فَحِيْنَئِذٍ يُضَافُ إِلَيْكَ التَّكْوِيْنُ وَخَرْقُ الْعَادَاتِ ، فَيُرَى ذَلِكَ مِنْكَ فِي ظَاهِرِ الْفِعْلِ[١٢] وَالْحُكْمِ ، وَهُوَ فِعْلُ اللهِ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) وَإِرَادَتُهُ[١٣] حَقّاً فِي الْعَالَمِ[١٤] ، فَتَدْخُلُ حِيْنَئِذٍ فِي زُمْرَةِ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوْبُهُمْ الَّذِيْنَ كُسِرَتْ إِرَادَتُهُمْ الْبَشَرِيَّةُ ، وَأُزِيْلَتْ شَهَوَاتُهُمْ الطَّبِيْعِيَّةُ ، فَاسْتُؤْنِفَتْ لَهُمْ إِرَادَةٌ[١٥] رَبَّانِيَّةٌ (وَشَهَوَاتٌ إِضَافِيَّةٌ) ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

(١) في نسخة : (فعله) .
(٢) (عند) غير موجودة في نسخة .
(٣) في نسخة : (مشروح) .
(٤) في المطبوع : (الملل) .
(٥) في نسخة : (نوراً) .
(٦) ما بين : ( ) نقص من المطبوع .
(٧) في المطبوع : (يثبت) .
(٨) في نسخة : (المتثلم) بالتاء .
(٩) في المطبوع : (مائع وكدر) .
(١٠) في المطبوع : (فتنقى) . وفي نسخة : (فتفنوا) .
(١١) في المطبوع : (شيئاً) .
(١٢) في نسخة : (العقل) .
(١٣) (وإرادته) غير موجودة في نسخة .
(١٤) في نسخة : (العلم) .
(١٥) في نسخة : (واستوثقت لهم إرادات) .

« حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ(١) : الطِّيبُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ »(٢) .

فَأُضِيفَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْهُ وَزَالَ عَنْهُ تَحْقِيقاً بِمَا أَشَرْنَا(٣) ، وَتَقَدَّمَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى(٤) : « أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي »(٥) .

---

(١) زاد في المطبوع : (ثلاث) . ولم تَرِدْ في نسخة التعليقة . ولفظ ثلاث لَمْ يرد في شيءٍ من الكتب المسندة . وذكره الغزالي في الأربعين في أصول الدين (٣ و٥٠١ بتحقيقي) بهذا اللفظ . وانظر الجواب الكافي لابن القيم (٦٧٣ بتحقيقي) وتعليقه عليه .

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥) وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٣٩٨) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٢٢ و٣٢٣) والنسائي (٧/٦١) والكبرى (٨٨٨٧) وأبو يعلى (٣٤٨٢ و٣٥٣٠) وابن أبي عاصم في الزهد (٢٣٤) والعقيلي في الضعفاء (٢/١٦٠) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (ص٩٨ و٢٢٩) والبيهقي (٧/٧٨) والضياء في المختارة (١٧٣٦ و١٧٣٧) من طرقٍ عن سلام أبي المنذر القارىء [صدوق حسن الحديث] ، ورواه ابن أبي عاصم في الزهد (٢٣٥) وابن عدي في الكامل (٣/١١٥١) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (ص٩٨) من طريق سلام بن أبي الصهباء [ضعيف] ، ورواه النسائي (٧/٦١ـ ٦٢) والكبرى (٨٨٨٨) والحاكم (٢/١٦٠) والضياء في المختارة (١٦٠٨) من طريق سيّار بن حاتم [ضعيف] ، عن جعفر بن سليمان ، ثلاثتهم عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/١١٦) : إسناده حسن .

ورواه عبد الرزاق (٧٩٣٩) عن معتمر بن سليمان ، عن سليمان بن طرخان وليث بن أبي سليم ، عن النبي ﷺ مرسلاً . وقال الدارقطني : والمرسل أشبه بالصواب .

(٣) في نسخة : (تحقيقاً لما أشرت إليه) .

(٤) في المطبوع : (في الحديث القدسي) .

(٥) رواه الإمام أحمد في الزهد رقم (٣٩١) عن سيار ، عن جعفر ، عن عمران القصير قال : قال موسى بن عمران : أي رب ، أين أبغيك ؟ قال : ابغني عند المنكسِرة قلوبهم ، إني أدنو منهم كل يوم باعاً ولولا ذلك لانهدموا . وعزاه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢/٣٨٥) لأحمد في الزهد .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/١٧٧) من طريق عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ، ومن طريق إسحاق بن إبراهيم ، كلاهما عن علي بن مسلم ، عن سيار ، عن جعفر ، عن عمران القصير قال : قال موسى عليه السلام : يا رب ، أين أبغيك ؟ قال : ابغني عند المنكسرة قلوبهم ، فإني أدنو منهم كل يوماً باعاً لولا ذلك لتهدموا .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٢/٣٦٤) من طريق محمد بن إسحاق ، عن هارون ، عن سيار ، عن جعفر بن سليمان قال : حدثنا مالك بن دينار قال : قال موسى عليه السلام : يا رب ، أين أبغيك ؟ قال : ابغني عند المنكسرة قلوبهم . ورواه أبو نعيم في الحلية (٤/٣١ـ ٣٢) من طريق عطاء بن =

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَكُونُ عِنْدَكَ حَتَّى تَنْكَسِرَ(١) جُمْلَةُ هَوَاكَ وَإِرَادَتِكَ ، فَإِذَا انْكَسَرَتْ وَلَمْ يَثْبُتْ فِيْكَ شَيْءٌ وَلَمْ يَصْلُحْ فِيْكَ شَيْءٌ ، أَنْشَأَكَ اللهُ ، فَجَعَلَ فِيْكَ إِرَادَةً ، فَتُرِيْدُ بِتِلْكَ الإِرَادَةِ ، فَإِذَا صِرْتَ فِي تِلْكَ الإِرَادَةِ الْمُنْشَأَةِ فِيْكَ كَسَرَهَا الرَّبُّ تَعَالَى بِوُجُوْدِكَ فِيْهَا ، فَتَكُوْنَ مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ أَبَداً ، فَهُوَ لاَ يَزَالُ يُجَدِّدُ فِيْكَ إِرَادَةً ثُمَّ يُزِيْلُهَا عِنْدَ وُجُوْدِكَ فِيْهَا هَكَذَا إِلَى أَنْ ﴿ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[البقرة : ٢٣٥] ، فَيَحْصُلَ اللِّقَاءُ ، فَهَذَا هُوَ مَعْنَى(٢) : « عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوْبُهُمْ مِنْ أَجْلِي » .

وَمَعْنَى قَوْلِنَا : عِنْدَ وُجُوْدِكَ فِيْهَا : هُوَ رُكُوْنُكَ وَطُمَأْنِيْنَتُكَ إِلَيْهَا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي حَدِيْثِهِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي يَرْوِيْهِ ﷺ : « لاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا »(٣)(*) .

= المبارك ، عن أشرس ، عن وهب بن منبه ، ورواه البيهقي في الزهد الكبير (٣٦٧) من طريق السري ، عن عبد الكريم بن رشيد ، كلاهما : أن داود عليه السلام قال : أي رب ، أين ألقاك ؟ . قال : تلقاني عند المنكسرة قلوبهم .

وانظر صفوة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٣) . وانظره في بداية الهداية للغزالي (ص١٤٣) والأربعين في أصول الدين له (١١٧ و٤٢٨ بتحقيقي) والفوائد لابن القيم (الفصل ٥١ . بتحقيقي) وجامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب (١٥٨٧) .

وقال الملا علي القاري في الموضوعات الكبرى (رقم ٧٠) : ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ إلى غاية ، ولا أصل له في المرفوع .

(١) تحرف في المطبوع إلى : (تنكر) .

(٢) في المطبوع : (المعنى) .

(٣) سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٩ـ ١٣٥) عن قوله ﷺ فيما يروي عن ربه عزَّ وجلَّ : « وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته » . ما معنى تردد الله ؟ .

فأجاب : هذا حديثٌ شريفٌ ، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، وهو أشرفُ حديثٍ رُوِيَ في صفة الأولياء ، وقد رد هذا الكلام طائفةٌ ، وقالوا : إن الله لا يوصف بالتردد ، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور ، والله أعلم بالعواقب ، وربما قال بعضهم : إن الله يعامل معاملة المتردد .

والتحقيق : أن كلام رسوله حقٌّ ، وليس أحد أعلم بالله من رسوله ، ولا أنصح للأمّة منه ، ولا أفصح ولا أحسن بياناً منه ، فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضلّ الناس وأجهلهم=

. . . .

= وأسوئهم أدباً ، بل يجب تأديبه وتعزيزه ، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة ، والاعتقادات الفاسدة ، ولكن المتردّد منّا ، وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منّا ، فإن اللهَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى : ١١] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ثم هذا باطلٌ ؛ فإن الواحد منّا يتردد تارةً لعدم العلم بالعواقب ، وتارةً لما في الفعلين من المصالح والمفاسد فيريد الفعل لما فيه من المصلحة ، ويكرهه لما فيه من المفسدة لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يُحَبُّ من وجهٍ ويكره من وجه ، كما قيل :

الشيب كـره وكـره أن أفـارقـه ... فاعجب لشيء على البغضاء محبوب

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه ، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس ، هو من هذا الباب . وفي الصحيح : « حُفَّتِ النّار بالشهوات ، وحفّت الجنة بالمكاره » . وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة : ٢١٦] الآية .

ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في هذا الحديث ، فإنه قال : « لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه » . فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوباً للحقّ محبّاً له ، يتقرب إليه أوّلاً بالفرائض وهو يحبها ، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق ، فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة بحيث يحب ما يحبه محبوبه ، ويكره ما يكرهه محبوبه ، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه ، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه .

والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت ، فكل ما قضى به فهو يريده ولا بُدَّ منه ، فالرب مُريدٌ لموته لما سبق به قضاؤه ، وهو مع ذلك كارهٌ لمساءة عبده ، وهي المساءة التي تحصل له بالموت ، فصار الموت مراداً للحق من وجه ، مكروهاً له من وجه ، وهذا حقيقة التردد ، وهو : أن يكون الشيء الواحد مراداً من وجهٍ ، مكروهاً من وجهٍ ، وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين ، كما ترجح إرادة الموت ، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده ، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته ، كإرادته لموت الكافر الذي يُبغضه ويُريد مساءته .

ثم قال بعد كلام سبق ذكره ، ومن هذا الباب ما يقع في الوجود من الكفر والفسوق والعصيان ، فإن الله تعالى يُبغض ذلك ويُسخطه ويكرهه وينهى عنه ، وهو سبحانه قد قدَّره وقضاه ، وشاءه بإرادته الكونيّة ، وإن لم يرده بإرادة دينيّة ، وهذا هو فَصْلُ الخطاب فيما تنازع فيه الناس : من أنه سبحانه هل يأمر بما لا يريده ؟ .

فالمشهور عند متكلّمة أهل الإثبات ومن وافقهم من الفقهاء : أنه يأمر بما لا يريده . وقالت القدرية والمعتزلة وغيرهم : إنه لا يأمر إلا بما يريده .

والتحقيق : أن الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادة دينيّة شرعية ، وإرادة كونيّة قدرية ، فالأول : =

. . . .

= كقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة : ١٨٥] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾[المائدة : ٦] . وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٢٦ـ٢٧] . فإن الإرادة هنا بمعنى المحبة والرضا وهي الإرادة الدينية ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وأما الإرادة الكونية القدرية : فمثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام : ١٢٥] . ومثل قول المسلمين : ما شاء الله كان ، وما لَم يشأ لم يكن . فجميع الكائنات داخلةٌ في هذه الإرادة والإشاءة ، لا يخرج عنها خيرٌ ولا شرٌّ ، ولا عرفٌ ولا نكرٌ ، وهذه الإرادة والإشاءة تتناول ما لا يتناوله الأمر الشرعيّ .

وأما الإرادة الدينية فهي مطابقة للأمر الشرعيّ لا يختلفان ، وهذا التقسيم الوارد في اسم الإرادة يرد مثله في اسم الأمر والكلمات ، والحكم والقضاء ، والكتاب والبعث ، والإرسال ونحوه ، فإن هذا كلّه ينقسم إلى كوني قدري ، وإلى ديني شرعي .

والكلمات الكونية : هي التي لا يخرج عنها بَرٌّ ولا فاجرٌ ، وهي التي استعان بها النبي ﷺ في قوله : « أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجرٌ » . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

وأما الدينية : فهي الكتب المنزلة التي قال فيها النبي ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » . وقال تعالى : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾[التحريم : ١٢] .

وكذلك الأمر الديني كقوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[النساء : ٥٨] . والكونية : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا ﴾ .

والبعث الديني : كقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُمْ﴾[الجمعة : ٢] . والبعث الكوني : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾[الإسراء : ٥] .

والإرسال الديني : كقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[التوبة : ٣٣ والفتح : ٢٨ والصف : ٩] . والكوني : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[مريم : ٨٣] .

وهذا مبسوطٌ في غير هذا الموضع .

فما يقع في الوجود من المنكرات هي مُرادةٌ للهِ إرادةً كونيّةً ، داخلةٌ في كلماته التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وهو سبحانه مع ذلك لم يردها إرادةً دينيةً ، ولا هي موافقة لكلماته الدينية ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء ، فصارت له من وجهٍ مكروهةً . ولكن هذه ليست بمنزلة قبض المؤمن فإن ذلك يكرهه ، والكراهة مساءة المؤمن ، وهو يريده لما سبق في قضائه له بالموت فلا بد منه ، وإرادته لعبده المؤمن خيرٌ له ورحمةٌ به ، فإنه قد ثبت في الصحيح [مسلم (٢٩٩٩)] : « أن الله تعالى لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء =

صبر فكان خيراً له » .

وأما المنكرات فإنه يبغضها ويكرهها ، فليس لها عاقبةٌ محمودةٌ من هذه الجهة إلا أن يتوبوا منها فيرحمون بالتوبة ، وإن كانت التوبة لا بُدَّ أن تكون مسبوقةً بمعصيةٍ ، ولهذا يُجاب عن قضاء المعاصي على المؤمن بجوابين :

أحدهما : أن هذا الحديث لم يتناولها ، وإنما تناول المصائب .

والثاني : أنه إذا تاب منها كان ما تعقبه التوبة [خيراً] ، فإن التوبة حسنة ، وهي من أحبِّ الحسنات إلى الله ، والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أشدّ ما يمكن أن يكون من الفرح ، وأما المعاصي التي لا يتاب منها فهي شرٌّ على صاحبها ، والله سبحانه قدَّر كل شيءٍ وقضاه ، لما له في ذلك من الحكمة ، كما قال : ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل : ٨٨] . وقال تعالى : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[السجدة : ٧] . فما من مخلوقٍ إلا ولله فيه حكمة .

ولكن هذا بَحْرٌ واسعٌ قد بسطناه في مواضع ، والمقصود هنا : التنبيه على أن الشيء المعين يكون محبوباً من وجهٍ ، مكروهاً من وجهٍ ، وأن هذا حقيقة التردد ، وكما أن هذا في الأفعال ، فهو في الأشخاص . والله أعلم .

(*) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) وصححه وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤ ـ٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٤٩ و١٠/٢١٩) والأسماء والصفات (١٠٢٩) والزهد الكبير (٦٩٦) والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/٦) من طريق أبي العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم الثقفي السرّاج ، والمزي في تهذيب الكمال (٢٦/٩٦/ ٩٧) والذهبي في تذكرة الحفاظ (٤/١٤٦٣) وميزان الاعتدال (ترجمة خالد) عن محمد بن مخلد بن حَفْص العطّار ، ثلاثتهم عن مُحَمَّد بن عُثْمَان بن كَرَامَةَ العِجْلِيُّ [ثقة ، صدوق] قال : حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَد الدُّوريّ القَطواني ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلالٍ قال : حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ القرشي المدني ، عَنْ عَطَاء بن يسار ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ قَالَ [حب : إن الله جلّ وعلا يقول] : مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً ، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ [حب : فقد آذاني] ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي [عبدي غير موجود في حب] يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ [حب : فإن سألني عبدي أعطيته ، وإن استعاذني أعذته] ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ [حب : وأكره] مَسَاءَتَهُ » . ورواه عن ابن كَرَامة أيضاً المحاملي كما في تذكرة الحفاظ . أقول : خالد بن مَخلَد : قال الإمام أحمد عنه : له أحاديث مناكير . وقال ابن سعد : منكر الحديث ، مفرطٌ في التشيّع . وقال ابن معين : ليس به بأسٌ . وقال أبو حاتم : يكتب حديثه . وقال أبو داود : صدوقٌ ، لكنه يتشيّع . وقال ابن عدي : لا بأس به . وشريك بن عبد الله : قال عنه ابن معين : ليس به بأسٌ . وقال ابن سعد : كان ثقةً كثيرَ الحديث . وقال ابن حجر في التقريب : صدوقٌ يُخطئ .

. . . .

= وقال المزي وابن رجب في الجامع : هو من غرائب الصحيح . وقال الذهبي في التذكرة : هو من أغرب شيءٍ في الصحيح . وقال في السير : غريبٌ جداً . وقال في الميزان : هذا حديثٌ غريبٌ جداً ، لولا هيبة الجامع الصحيح لعدّوه في منكرات خالد بن خالد ، وذلك لغرابة لفظه ، ولأنه مِمَّا ينفرد به شريكٌ وليس بالحافظ ، ولَم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد ، ولا خرجه من عدا البخاري ، ولا أظنه في مسند أحمد ، وقد اختلف في عطاءه : فقيل : هو ابن أبي رباح ، والصحيح : أنه عطاء بن يسار .

وقال ابن حجر في فتح الباري عقب رقم (٦٥٠٢) : ليس هو في مسند أحمد جزماً ، وإطلاق أنه لَم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردودٌ . ومع ذلك : فشريك شيخ شيخ خالد ، فيه مقالٌ أيضاً ، وهو راوي حديث المعراج الذي زاد فيه ونقص ، وقدّم وأخّر ، وتفرّد فيه بأشياء لَم يتابع عليها ، كما يأتي القول فيه مستوعباً في مكانه . اهـ

أقول : بل رواه الإمام أحمد في المسند (٦/٢٥٦) قال : حدثنا حمَّاد بن خالد الخيّاط القرشي وأبو الْمُنْذِر إسماعيل بن عمر الواسطي قالاً : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بن ميمون أبو حمزة مَوْلَى عُرْوَةَ [ضعيف ، منكر الحديث] ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيّاً ، فَقَدْ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، إِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَإِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ ، مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ وَفَاتِهِ ، لأَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » . وقال الإمام أحمد : وَقَالَ أَبُو الْمُنْذِرِ : قَالَ : حَدَّثَنِي عُرْوَةُ ، قَالَ : حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ . وَقَالَ أَبُو الْمُنْذِرِ : « آذَى لِي » .

ورواه البزار (٣٦٢٧ و٣٦٤٧ زوائد) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥) من طريق أبي عامر العقدي ، عن عبد الواحد مولى عروة ، بهذا الإسناد نحوه .

ورواه ابن أبي الدنيا في الأولياء (٤٥) والبيهقي في الزهد الكبير (٦٩٨) من طريق أبي المنذر ، بهذا الإسناد . وفيه : « فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وفؤاده الذي يعقل به ، ولسانه الذي يتكلم به » .

ورواه الطبراني في الأوسط (٩٣٤٨) عن هارون بن كامل ، عن سعيد بن أبي مريم ، عن إبراهيم بن سويد المدني ، عن أبي حَزْرَة يعقوب بن مجاهد القرشي المدني القاص ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة بنحوه .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩٤٩) : رواه البزار واللفظ له ، وأحمد والطبراني في الأوسط ، وفيه : عبد الواحد بن قيس [أقول : ميمون لا قيس] ، وقد وثقه غير واحد ، وضعفه غيرهم ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح ، ورجال الطبراني رجال الصحيح ، غير شيخ هارون بن كامل .

وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم عقب رقم (٢٨٩٢) : قد روي هذا الحديث من وجوهٍ أخر [أي : غير حديث أبي هريرة] لا تخلو كلها عن مقالٍ .

وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : « فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يَبْطِشُ ، وَبِي يَعْقِلُ »[1] .

وَهَذَا إِنَّمَا يَكُوْنُ فِي حَالَةِ الْفَنَاءِ لاَ غَيْرُ ، فَإِذَا فَنِيْتَ عَنْكَ وَعَنِ الْخَلْقِ . وَالْخَلْقُ إِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ وَشَرٌّ ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ خَيْرٌ وَشَرٌّ ، فَلَمْ تَرْجُ خَيْرَهُمْ ، وَلاَ تَخَافُ شَرَّهُمْ ، بَقِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَمَا كَانَ ، فَفِي قَدَرِ اللهِ خَيْرٌ وَشَرٌّ ، فَيُؤْمِنُكَ مِنْ شَرِّهِ وَيُغْرِقُكَ فِي بِحَارِ خَيْرِهِ ، فَتَكُوْنَ وَعَاءَ

= وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : ولكن للحديث طرقٌ أخرى يدل مجموعها على أنَّ له أصلاً :

منها : عن عائشة . أخرجه أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الزهد ، من طريق عبد الواحد بن ميمون ، عن عروة ، عنها . وذكر ابن حبان وابن عدي [(١٩٣٩/٥)] : أنه تفرّد به . وقد قال البخاري [التاريخ الكبير (٥٨/٦)] : إنه منكر الحديث . لكن أخرجه الطبراني من طريق يعقوب بن مجاهد ، عن عروة ، وقال : لم يروه عن عروة إلا يعقوب ، وعبد الواحد .

ومنها : عن أبي امامة . أخرجه الطبراني [الكبير (٧٨٣٣ و٧٨٨٠) ومجمع الزوائد (٣٤٩٩ و٣٥٠٠)] ، والبيهقي في الزهد [(٧٠٢)] ، بسند ضعيف . [وقال أبو حاتم الرازي كما في العلل لابنه (١٨٧٢) : هو منكر جداً] .

ومنها : عن علي . عند الإسماعيلي في مسند علي [الحافظ ابن رجب في جامع العلوم (٢٨٩٨)] .

وعن ابن عباس : أخرجه الطبراني [الكبير (١٢٧١٩) وانظر مجمع الزوائد (١٧٩٥٢ و١٧٩٥٣)] . وسندهما ضعيف .

وعن أنس : أخرجه أبو يعلى ، والبزار ، والطبراني [الأوسط (٦١٣) والحكيم في نوادر الأصول (١٠٤٣) والحلية لأبي نعيم (٣١٨/٨ و٣١٩) والقضاعي (١٤٥٦) ومجمع الزوائد (١٧٩٥١) وجامع العلوم والحكم لابن رجب (٢٩٠٠ و٢٩٠١)] ، وفي سنده ضعف أيضاً .

وعن حذيفة : أخرجه الطبراني مختصراً [أبو نعيم في الحلية عنه (١١٦/٦)] ، وسنده حسنٌ غريبٌ .

وعن معاذ بن جبل : أخرجه ابن ماجة [(٣٩٨٩)] وأبو نعيم في الحلية [(٥/١)] مختصراً ، وسنده ضعيف أيضاً .

وعن وهب بن منبه مقطوعاً : أخرجه أحمد في الزهد (٣٤٢) ، وأبو نعيم في الحلية . اهـ

أقول : وله شاهدٌ : عن ميمونة ـ رضي الله عنها ـ . رواه أبو يعلى (٧٠٨٧) . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩٥٠) : فيه : يوسف بن خالد السمتي ، وهو كذّاب .

(١) انظر نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٣٧١ و٩٨٨ و١٠٤٤) .

كُلِّ خَيْرٍ ، وَمَنْبَعاً[١] لِكُلِّ نِعْمَةٍ وَسُرُورٍ ، وَحُبُورٍ ، وَضِيَاءَ أَمْنٍ[٢] وَسُكُونٍ .

فَالْفَنَاءُ وَالْمُنَى ، وَالْمُبْتَغَى وَالْمُنْتَهَى ، حَدٌّ وَمَرَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ مَسِيرُ الأَوْلِيَاءِ ، وَهُوَ الاسْتِقَامَةُ الَّتِي طَلَبَهَا مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الأَوْلِيَاءِ وَالأَبْدَالِ : أَنْ يَفْنَوا عَنْ إِرَادَتِهِمْ وَتُبَدَّلُ بِإِرَادَةِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، فَيُرِيدُوْنَ بِإِرَادَةِ الْحَقِّ أَبَداً إِلَى الوَفَاةِ ، فَلِهَذَا سُمُّوا : أَبْدَالاً ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .

فَذُنُوبُ هَؤُلاَءِ السَّادَةِ : أَنْ يُشْرِكُوا إِرَادَةَ الْحَقِّ بِإِرَادَتِهِمْ عَلَى وَجْهِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ ، وَغَلَبَةِ الْحَالِ وَالدَّهْشَةِ ، فَيُدْرِكُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ بِالتَّذْكِرَةِ وَاليَقَظَةِ ، فَيَرْجِعُوا عَنْ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ .

إِذًا لاَ مَعْصُوْمَ عَنِ الإِرَادَةِ إِلاَّ الْمَلاَئِكَةُ ، عُصِمُوا عَنِ الإِرَادَةِ ، وَالأَنْبِيَاءُ عُصِمُوا عَنِ الْهَوَى ، وَبَقِيَّةُ الْخَلْقِ مِنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ الْمُكَلَّفِيْنَ لَمْ يُعْصَمُوا مِنْهُمَا ، غَيْرَ أَنَّ الأَوْلِيَاءَ بَعْضَهُمْ يُحْفَظُوْنَ عَنِ الْهَوَى ، وَالأَبْدَالُ عَنِ الإِرَادَةِ ، وَلاَ يُعْصَمُوْنَ مِنْهُمَا عَلَى مَعْنَى يَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ الْمَيْلُ إِلَيْهِمَا فِي الأَحْيَانِ ، ثُمَّ يَتَدَارَكُهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِالْيَقَظَةِ بِرَحْمَتِهِ[٣] .

(١) تحرف في المطبوع : (ومنيعاً) .

(٢) في نسخة : (وأمن) .

(٣) قال شيخ الإسلام في تَعْلِيقته على فتوح الغيب : هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ، وحقيقته : أنه لا يريد كون شيءٍ إلا أن يكون مأموراً بإرادته ، فقوله : « علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط » . أي : لا تريد مراداً لَم تؤمر بإرادته ، فأما ما أمر [في نسخة : أمرك] الله ورسوله بإرادتك إياه ، فإرادته : إمّا واجبٌ ، وإمّا مستحبٌ . وترك إرادة هذا : إمّا معصيةً ، وإما نقص . وهذا الموضع يلتبس على كثيرٍ من السّالكين ، فيظنون أن الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد إرادةٌ أصلاً ، وأن قول أبي يزيد : أريد أن لا أريد . لَمّا قيل له : ماذا تريد ؟ . نقصٌ وتناقضٌ ، لأنه قد أراد ، ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقاً ، وهذا غَلَطٌ منهم على الشيوخ المستقيمين ، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقاً ، فإنّ هذا غلط مِمَّن قاله ، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور ، فإن الحيّ لا بُدّ له من إرادةٍ ، فلا يمكن حياً أن لا تكون له إرادة [في نسخة : فلا يكون حيٌّ من الناس إلا أن تكون له إرادة] ، فإن الإرادة التي يُحبّها الله ورسوله ، ويأمر بها أمر إيجابٍ أو أمر استحبابٍ ، لا يدعها إلا كافرٌ ، أو فاسقٌ ، أو عاصٍ ، إن كانت واجبة . وإن كانت مستحبّة : كان تاركها تاركاً لما هو خيرٌ له .

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصدّيقين بهذه الإرادة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[الأنعام : ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[الليل : ١٩ـ ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا =

. . . .

= ﴿شَكُورًا﴾[الإنسان : ٩] . وقال تعالى : ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء : ١٩] . وقال تعالى : ف﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر : ٢ ـ ٣] . وقال تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[الزمر : ١٤] . وقال تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات : ٥٦] .

ولا عبادةَ إلاَّ بإرادة الله ، ولما أمر به ، قال [في نسخة : وقال] تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[البقرة : ١١٢] أي : أخلص قصده لله . وقال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة : ٥] .

وإخلاص الدين له : هو إرادته وحده بالعبادة . وقال تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة : ٥٤] . وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة : ١٦٥] . وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران : ٣١] . وكل مُحبٍّ فهو مُريد ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾[الأنعام : ٧٦] ، ثم قال : ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[الأنعام : ٧٩] . ومثل هذا كثيرٌ في القرآن ، يأمر الله بإرادته ، وإرادة ما يأمر به ، وينهى عن إرادة غيره ، وإرادة ما نهى عنه . وقد قال النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأةٍ ينكحها [في نسخة : يتزوجها] ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . فهما إرادتان : إرادةٌ يحبها الله ويرضاها ، وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها ، بل إمّا نهى عنها ، وإمّا لَم يأمر بها ولا ينهى عنها .

والناس في الإرادة ثلاثة أقسام : قوم يريدون ما يهوونه ، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان . وقوم يزعمون أنهم فرغوا من الإرادة مطلقاً ، ولم يبق لهم مرادٌ إلا ما يقدّره الرب ، وأن هذا المقام هو أكمل المقامات ، ويزعمون أن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة ، وهي الحقيقة القدرية الكونية ، وأنه شهد القيّومية العامّة ، ويجعلون الفناء في شهود توحيد الربوبيّة هو الغاية ، وقد يسمون هذا الجمع والفناء والاصطلام ، ونحو ذلك ، وكثيرٌ من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع . وفي هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية ، فإنهم اتّفقوا على شهود توحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل شيءٍ وربّه ومليكه ، وهو شهود القدر ، وسمّوا هذا مقام الجمع ، فإنه خرج به عن الفرق الأول ، وهو الفرق الطبيعي بإردة هذا وكراهة هذا ، ورؤية فعل هذا وترك هذا ، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات ، ويكون متبعاً لهواه فيما يريده ، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع ، ثم يشهد [في نسخة : شهد] أنه خالق كل شيء ، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق ، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد الفرق الثاني ، وهو بعد هذا الجمع ، وهو الفرق الشرعي : ألا ترى أنك تريد ما أُمِرْتَ به ، ولا تريد ما نُهيت عنه ؟ وتشهد أن الله هو يستحق العبادة دون ما سواه ، وأن عبادته هي بطاعة رسله ، فتفرق=

....

= بين المأمور والمحظور ، وبين أوليائه وأعدائه ، وتشهد توحيد الألوهية ، فنازعوه في هذا الفرق . منهم من أنكره . ومنهم من لم يفهمه . ومنهم من ادّعى أن المتكلم فيه لم يصل إليه . ثم إنك تجد كثيراً من الشيوخ إنما ينتهي إلى ذلك الجمع ، وهو توحيد الربوبية ، والفناء فيه كما في كلام صاحب منازل السائرين مع جلالة قدره ، مع أنه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهي المعروفين ، لكن قد يدعون أن هذا لأجل العامّة . ومنهم من يتناقض [في نسخة : يناقض] . ومنهم من يقول الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامّة ، وقد يعبّر عنهم بأهل المارستان . ومنهم من يسمّي ذلك مقام التلبيس . (ومنهم من يقول : إنما التكليف على الإنسان ما دام عبداً ، فإذا ترقّى من منزلةِ العبودية إلى منزلة الحرية سقط عنه التكليف ، فلا يبقى عليه تكليف ؛ لأن الْحُرَّ لا تكليف عليه لأحد) . ومنهم من يقول : التحقيق أن يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور مع تفريقه بلسانه بينهما . ومنهم من يرى أن هذه هي الحقيقة التي هي منتهى سلوك العارفين ، وغاية منازل الأولياء الصدّيقين . ومنهم من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية ، وأما في النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر ، وهو في الحقيقة قولٌ بسقوط العبادة والطاعة ، فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله ، إنما تكون في امتثال الأمر الشرعي لا في الجري مع المقدور ، وإن كان كفراً أو فسوقاً أو عصياناً [في نسخة : وفسوقاً وعصياناً] ، ومن هنا صار كثيرٌ من السالكين من أعوان الكفّار والفجّار وخفرائهم ، حيث شهدوا القدر معهم ، ولَم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين . ومن هؤلاء من يقول : من شهد القدر سقط عنه الملام . ويقولون [في نسخة : ويقول] : إن الخضر إنما سقط عنه الملام لَمَّا شهد القدر .

وأصحاب شهود القدر قد يُؤتى أحدهم ملكاً من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف ، فيظن ذلك كمالاً في الولاية ، وتكون تلك الخوارق إنما حصلت بأسباب شيطانية ، وأهواء نفسانية ، وإنما الكمال في الولاية أن يستعمل خرق العادات في إقامة الأمر والنهي الشرعيين ، مع حصولهما بفعل المأمور وترك المحظور ، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهي مذمومة ، وإن حصلت بالأسباب الشرعية لكن استعملت ليتوصل بها إلى محرّم كانت مذمومة ، وإن توصل بها إلى مباح لا يستعان بها على طاعة كانت للأبرار دون المقربين ، وأما إن حصلت بالسبب الشرعيّ واستعين بها على فعل الأمر الشرعي ، فهذه خوارق المقرّبين السابقين .

فلا بُدَّ أن ينظر في الخوارق في أسبابها وغاياتها : من أين حصلت ؟ وإلى ماذا أوصلت ؟ كما ينظر في الأموال : في مستخرجها ومصروفها ؟ ومن استعملها ـ أعني : الخوارق ـ في إرادته الطبيعية كان مذموماً . ومن كان خالياً عن الإرادتين الطبيعية والشرعية ، فهذا حسبه أن يُعفى عنه ، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية .

وأما إن عرفها وأعرض عنها ، فإنه يكون مذموماً مستحقاً للعقاب إن لَم يعف عنه ، وهو يمدح بكون إرادته ليست بهواه ، لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقةً لأمر الله تعالى ورسوله ، لا يكفيه أن تكون لا من هذا ولا من هذا ، مع أنه لا يمكن خلوه عن الإرادة مطلقاً ، بل لا بُدَّ له من إرادةٍ ، فإن لَم =

. . . .

= يُرِدْ ما يحبّه الله ورسوله ، أراد ما لا يحبّه الله ورسوله ، لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما تهواه [في نسخة : يهواه] بقي مريداً لِما يظن أنه مأمورٌ به ، فيكون ضالاً . فإن هذا يشبه حال الضَّالِّين من النصارى ، وقد قال تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . وقد قال النبي ﷺ : « اليهود مغضوبٌ عليهم ، والنصارى ضالُّون » [أحمد (٣٧٨/٤)] . فاليهود لهم إراداتٌ فاسدةٌ مَنْهِيٌ عنها ، كما أخبر عنهم بأنهم عصوا وكانوا يعتدون . وهم يعرفون الحق ولا يعملون به ، فلهم علمٌ ، لكن ليس لهم عَمَلٌ بالعلم ، وهم في الإرادة المذمومة المحرّمة يتّبعون أهواءهم ، ليسوا في الإرادة المحمودة المأمورة بها ، وهي إرادة ما يحبه الله ورسوله . والنصارى لهم قصدٌ وعبادةٌ وزهدٌ ، لكنهم ضُلاَّلٌ ، يعملون بغير علم ، فلا يعرفون الإرادة التي يحبّها الله ورسوله ، بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات ، فلا يبقى مريداً لما أمر الله به ورسوله ، كما لا يريد كثيراً مِمّا نهى الله عنه ورسوله ، وهؤلاء ضالُّون عن مقصودهم ، فإن مقصودهم إنما هو في طاعة الله ورسوله ، ولهذا كانوا ملعونين ـ أي : بعيدين عن الرحمة التي تُنال بطاعة الله عزَّ وجلَّ ـ . والعالم الفاجر : يشبه اليهود . والعابد الجاهل : يشبه النصارى . ومن أهل العلم من فيه شيءٌ من الأول ، ومن أهل العبادة من فيه شيءٌ من الثاني .

وهذا الموضع تفرّق فيه بنوا آدم ، وتباينوا تبايناً عظيماً ، لا يحيط به إلا الله ، ففيهم من لَم يخلق الله خلقاً أكرم عليه منه ، وهو خير البريّة ، ومنهم من هو شر البريّة ، وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين : إبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ ، ومحمّد سيّد ولد آدم ، وأفضل الأوّلين والآخرين ، وخاتم النبيين وإمامهم إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم : إبراهيم وموسى ، وغيرهما .

وأفضل الأنبياء بعده : إبراهيم ، كما ثبت في الصحيح [م (٢٣٦٩)] عن أنس ، عن النبي ﷺ : « إن إبراهيم خير البريّة » . وقد ثبت في صحيح مسلم [٨٦٧] عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبة الجمعة : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمّدٍ » . وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس ، كما رواه البخاري في صحيحه [٥٧٤٧] . وقد ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٦٧) وم (٢٣٢٨)] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له ، ولا امرأةً ، ولا دابةً ، ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه قطُّ شيءٌ فانتقم لنفسه ، إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لَم يقم لغضبه شيءٌ حتى ينتقم لله . وقال أنس [م (٢٣٠٩)] : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنينَ ، فما قال لي : أفٍّ قط . وما قال لي لشيءٍ فعلته : لِمَ فعلته . ولا لشيءٍ لم أفعله : لِمَ لا فعلته . وكان بعض أهله إذا عنّفني [في نسخة : عتبني] على شيءٍ قال : « دعوه فلو قُضِيَ شيءٌ لكان » .

ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق ، وسيّد ولد آدم ، وله الوسيلة في المقامات كلها ، ولَم يكن حاله أنه لا يريد شيئاً ، ولا أنه يريد كل واقع ، كما أنه لَم يكن حاله أنه يتّبع الهوى ، بل هو مُنَزَّهٌ عن هذا وهذا . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم : ٣ـ ٤] . وقال =

. . . .

= تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن : ١٩] . وقال تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة : ٢٣] . وقال : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء : ١] . والمراد ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ : عابده المطيع لأمره ، وإلاَّ فجميع المخلوقين عبادٌ بمعنى : أنهم معبدون مخلوقون مدبرون . وقد قال الله تعالى لنبيّه : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر : ٩٩] . قال الحسن البصري : لَم يجعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت . وقد قال الله تعالى له : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم : ٤] . قال ابن عباس ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل : على دين عظيم .

و« الدين » : فعل ما أمر به . وقالت عائشة : كان خلقه القرآن . رواه مسلم [٧٤٦] . وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ، ولا ينتقم لنفسه ، لكن يعاقب لله ، وينتقم لله . وكذلك أخبر أنس : أنه كان يعفو عن حظوظه . وأما حدود الله فقد قال : « والذى نفسي بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . أخرجاه في الصحيحين [خ (٢٥٠٥) وم (١٦٨٨)] . وهذا هو كمال الإرادة ، فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح ، وأمر بذلك وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ، ونهى عن ذلك ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف : ١٥٦-١٥٧] .

وأما لِحَظِّ نفسه [في نسخة : لنفسه] : فلم يكن يعاقب ، ولا ينتقم ، بل يستوفي حقّ ربه ، ويعفو عن حظ نفسه ، وفى حظ نفسه ينظر إلى القدر ، فيقول : « لو قضي شيء لكان » . وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمر الله به ، ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن ، فجاهدهم أوّلاً بلسانه بالقرآن الذي أنزل عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان : ٥١- ٥٢] . ثم لَمّا هاجر إلى المدينة وأُذِنَ له في القتال جاهدهم بيده . وهذا مطابقٌ لما أخرجاه في الصحيحين [خ (٣٢٢٨) وم (٢٦٥٢)] عن أبي هريرة ، وهو معروفٌ أيضاً من حديث عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ في حديث احتجاج آدم وموسى لما لام موسى آدم لكونه أخرج نفسه وذريّته من الجنة بالذنب الذي فعله ، فأجابه آدم : بأن هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق بمدة طويلة . قال النبي ﷺ : « فحجّ آدمُ موسى . . » . وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله ، وإنما كان لِمَا لَحِقَهُ وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل ، فذكر له آدم أن هذا كان أمراً مقدّراً لا بُدَّ من كونه ، والمصائب التي تُصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر ، فإن هذا هو الذي ينفعهم . وأما لومهم لمن كان سبباً فيها ، فلا فائدة لهم في ذلك . وكذلك ما فاتهم من الأمور التي تنفعهم يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر ، وأما التأسّف والحزن فلا فائدة فيه ، فما جرى به القدر من فوت منفعةٍ لهم ، أو حصول مضرَّة لهم ، فلينظروا في ذلك إلى القدر ، وأما ما كان بسبب =

= أعمالهم : فليجتهدوا في التوبة من المعاصي والإصلاح في المستقبل ، فإن هذا الأمر ينفعهم ، وهو مقدورٌ لهم بمعونة الله لهم .

وفي صحيح مسلم [٢٦٦٤] عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خيرٌ . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز [في نسخة : تعجزن] . وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان » . أمر النبي ﷺ بحرص العبد على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز ، وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله ، وهي عبادة الله تعالى . وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . ونهاه عن العجز : وهو الإضاعة والتفريط والتواني ، كما قال في الحديث الآخر : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتْبَعَ نفسه هواها ، وَتَمَنَّى على الله الأماني » . رواه الترمذي [٢٥٧٧] .

وفي سنن أبي داود [٣٦٢٧] : أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما ، فقال المقضي عليه : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمرٌ فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » . فالكيس ضد العجز . وفي الحديث : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » . رواه مسلم [٢٦٥٥] . وليس المراد بالعجز في كلام النبي ﷺ ما يضادُّ القُدرة ، فإن من لا قدرة له بحالٍ لا يُلام ، ولا يُؤمر بما لا يقدر عليه بحال . ثم لَمّا أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز ، أمَرَه إذا غلبه أمر أن ينظر إلى القدر ، ويقول : « قدَّر الله وما شاء فعل » . ولا يتحسّر ويتلهّف ويحزن ، ويقول : « لو أني فعلت كذا وكذا ، لكان كذا وكذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

وقد قال بعض الناس في هذا المعنى : الأمر أمران : أمرٌ فيه حيلةٌ ، وأمر لا حِيلة فيه . فما فيه حيلة : لا يعجز [في نسخة : تعجز] عنه ، وما لا حيلة فيه : لا يجزع [في نسخة : تجزع] منه . وهذا هو الذي يذكره أئمة الدين ، كما ذكر الشيخ عبد القادر وغيره . فإنه لا بُدَّ من فعل المأمور ، وترك المحظور ، والرضا والصبر على المقدور . وقد قال تعالى حكايةً عن يوسف [عليه السلام] : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف : ٩٠] . فالتقوى تتضمّن : فعل المأمور ، وترك المحظور . والصبر يتضمّن : الصبر على المقدور .

وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[آل عمران : ١١٨ـ ١٢٠] . فبيّن سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضرّ المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[آل عمران : ١٢٥] . فبيّن أنه مع الصبر والتقوى يمدّهم بالملائكة ، وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم [في نسخة : يقاتلوهم] .

وقال تعالى : ﴿ ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن=

. . . .

= قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[آل عمران : ١٨٦] . فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بُدّ أن يؤذوهم بألسنتهم ، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتّقوا ، فإن ذلك من عزم الأمور .

فالصبر والتقوى : يدفع شرّ العدو المظهر للعداوة ، المؤذين بألسنتهم والمؤذين [في نسخة : المؤذون بألسنتهم والمؤذون] بأيديهم ، وشرّ العدو المبطن للعداوة ، وهم المنافقون . وهذا الذي كان خُلق النبي ﷺ وهديه هو أكمل الأمور .

فأمّا من أراد ما يحبّه الله تارةً ، وما لا يحبّه تارةً ، أو لَم يُرِدْ لا هذا ولا هذا ، فكلاهما دون خُلق رسول الله ﷺ ، وإن لم يكن على واحدٍ منهما إثم ، كالذي يُريد ما أبيح له من نيل الشهوة المباحة ، والغضب ، والانتقام المباح ، كما هو خُلُق بعض الأنبياء والصالحين ، فهو وإن كان جائزاً لا إثم فيه ، فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه .

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة ، وإن كان يستعان بها على أمر مستحب ، ولَم يرد أن يغضب وينتقم ويجاهد إذا جاز العفو ، وإن كان الانتقام لله أرضى لله ، كما هو أيضاً خلق بعض الأنبياء والصالحين . فهذا وإن كان جائزاً لا إثم فيه ، فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه .

وهذا والذي قبله إذا كان شريعة لنبيٍّ ، فلا عيب على نبي فيما شرع الله له . لكن قد فضَّل الله بعض النبيين على بعض ، وفضّل بعض الرسل على بعض . والشريعة التي بَعث الله بها محمداً [في نسخة : محمدٌ] ﷺ أفضل الشرائع ؛ إذ كان محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين ، وأمّته خير أمّة أخرجت للناس . قال أبو هريرة في قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران : ١١٠] : كنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتّى تُدخلوهم الجنة ، يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس ، فهم خير الأمم للخلق . والخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله .

وأمّا غير الأنبياء : فمنهم من يكون ذلك شرعةً لاتّباعه لذلك النبي ، وأما من كان من أهل شريعة محمد ﷺ ومنهاجه ، فإن كان ما تركه واجباً عليه وما فعله محرّماً عليه كان مستحقاً للذّم والعقاب ، إلا أن يكون متأوّلاً مُخطئاً ، فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان ، وذنب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة . ومن أسباب هذا الانحراف : أن من الناس من تغلب عليه طريقة الزهد في إرادة نفسه ، فيزهد في موجب الشهوة والغضب ، كما يفعل ذلك من يفعله من عُبّاد المشركين وأهل الكتاب ، كالرهبان وأشباههم ، وهؤلاء يرون الجهاد نقصاً لِمَا فيه من قتل النفوس وسبْي الذرية وأخذ الأموال ، ويرون أن الله لَم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود ، لأنه جرى على يديه سفك الدماء . ومنهم من لا يرى ذبح شيءٍ من الحيوان كما عليه البراهمة . ومنهم من لا يحرّم ذلك ، لكنه هو يتقرّب إلى الله بأنه [في نسخة : بأن] لا يذبح حيواناً ولا يأكل لحمه ، (بل) ولا ينكح النساء ، ويقول مادحه [في نسخة : ويقول في مَمادحه] : فلان ما نكح ، ولا ذبح .

وقد أنكر النبي ﷺ على هؤلاء كما في الصحيحين [خ (٤٧٧٦) وم (١٤٠١)] عن أنس : أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السّرّ ؟ فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . =

. . . .

= وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراشٍ . فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا! لكنّي أصلّي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس منّي » . وقد قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[المائدة : ٨٧] . نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل ، ونوع من الترهّب . وفي الصحيحين عن سعد قال : ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا .

والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله : هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة ، فأمّا ما ينفع في الآخرة ، وما يستعان به على ذلك ، فالزهد فيه زهدٌ في نوعٍ من عبادة الله وطاعته ، والزهد إنما يُراد لأنه زهدٌ فيما يضر ، أو زهدٌ فيما لا ينفع . فأما الزهد في النافع فجهلٌ وضلالٌ ، كما قال النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز [في نسخة : تعجزن] » . والنافع للعبد : هو عبادة الله ، وطاعته ، وطاعة رسوله . وكل ما صدّه عن ذلك فإنه ضارٌّ لا نافع . ثم الأنفع له : أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له ، وإن أدّى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة فقد فعل ما ينفعه وما لا ينفعه ولا يضره .

وكذلك الورع المشروع : هو الورع عمّا قد تخاف عاقبته ، وهو ما يعلم تحريمه ، وما يشك في تحريمه ، وليس في تركه مفسدةٌ أعظم من فعله . مثل (فعل) محرّم معيّن [في نسخة : يتعيّن] . مثل من يترك أخذ الشبهة ورعاً مع حاجته إليها ، ويأخذ بدل ذلك محرّماً بيّناً تحريمه ، أو يترك واجباً تركه أعظم فساداً من فعله مع الشبهة ، كمن يكون على أبيه أو عليه ديونٌ هو مُطالَبٌ بها ، وليس له وفاءٌ إلا من مالٍ فيه شبهة ، فيتورّع عنها ، ويدع ذمّته وذمّة في نسخة : أو ذمة] أبيه مرتهنة .

وكذلك من الورع : الاحتياط بفعل ما يُشَكُّ في وجوبه ، لكن على هذا الوجه .

وتمام الورع : أن يعمّ الإنسان خير الخيرين ، وشرّ الشرّين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فمن لَم يُوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية ، فقد يدع واجبات ويفعل محرّمات ، ويرى ذلك من الورع . كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ، ويرى ذلك ورعاً . ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعةٌ أو فجورٌ ، ويرى ذلك من الورع . ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيّة ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع .

وكذلك الزهد والرغبة : من لَم يُراعِ ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد ، وما يكرهه من ذلك ، وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرّمات . مثل : من يدع ما يحتاج إليه من الأكل ، أو أكل الدسم ، حتّى يفسد عقله أو تضعف قوته ، عما يجب عليه من حقوق الله تعالى ، أو حقوق [في نسخة : وحقوق] عباده ، أو يدع الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، لِمَا في فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم ، حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الأبرار ، فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك .

. . . .

= وقد قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[البقرة : ٢١٧] . يقول سبحانه وتعالى : وإن كان قتل النفوس فيه شرٌّ ، فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما .

وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان أو يرى أن في ذبحه ظلماً له هو جاهل ، فإن هذا الحيوان لا بُدَّ أن يموت ، فإذا قتل لمنفعة الآدميين وحاجتهم كان خيراً من أن يموت موتاً لا ينتفع به أحد ، والآدمي أكمل منه ، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان في الأكل والركوب ، ونحو ذلك . لكن ما لا يحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه ، كصبر البهائم وذبحها في غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك ، وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح ، كما في صحيح مسلم [١٩٥٥] عن شدّاد بن أوس ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة ، وليُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليريح ذبيحته » .

وهؤلاء الذين زهدوا في الإرادات حتّى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بإزائهم طائفتان : طائفةٌ رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان . وطائفةٌ رغبت فيما أمر الله ورسوله ، لكن لهوى أنفسهم لا لعبادة الله تعالى ، وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات ، كما في الصحيحين [خ (١٢٣) وم (١٩٠٤)] عن النبي ﷺ أنه قيل له : يا رسول الله ، الرجل يقاتل شجاعةً ، ويُقاتل حَمِيَّةً ، ويُقاتل رِياءً ، فأيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء : ١٤٢] . وهؤلاء أهل إرادات فاسدةٍ مذمومةٍ ، فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرم ، وهم يُشبهون اليهود ، كما يشبه أولئك النصارى . قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[آل عمران : ١١٢] . وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف : ١٤٦] . وقال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف : ١٧٥ـ ١٧٦] . فهؤلاء يتّبعون أهواءهم غياً مع العلم بالحق ، وأولئك يتّبعون أهواءهم مع الضلال والجهل بالحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[المائدة : ٧٧] .

وكلا الطائفتين تاركةٌ ما أمر الله ورسوله به من الإرادات ، والأعمال الصالحة ، مرتكبة لما نهى الله

المَقَالَةُ السَّابِعَةُ
فِي إِذْهَابِ غُمَمِ(١) القَلْبِ

اخْرُجْ مِنْ نَفْسِكَ وَتَنَحَّ عَنْهَا ، وَانْعَزِلْ عَنْ مُلْكِكَ وَسَلِّمِ الكُلَّ إِلَى اللهِ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) ، وَكُنْ(٢) بَوَّابَهُ عَلَى بَابِ قَلْبِكَ ، وَامْتَثِلْ أَمْرَهُ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فِي إِدْخَالِ مَنْ يَأْمُرُكَ بِإِدْخَالِهِ ، وَانْتَهِ(٣) بِنَهْيِهِ(٤) فِي صَدِّ مَنْ يَأْمُرُكَ بِصَدِّهِ، فَلاَ تُدْخِلِ الْهَوَى قَلْبَكَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ(٥) مِنْهُ، فَإِخْرَاجُهُ(٦)

= ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة .

فصل : فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حمّاد الدبّاس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم : بأنه لا يريد السالك مراداً قط ، وأنه لا يريد مع إرادة الله عزّ وجلّ سواها ، بل يجري فعله فيه ، فيكون هو مراد الحق ، إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه ، فأما ما علم أن الله أمر به ، فعليه أن يريده ويعمل به ، وقد صرّحوا بذلك في غير موضع . وإن كان غيرهم من الغالطين : يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال ، وهو الفناء في توحيد الربوبية ، وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره ، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر . فتلك أقوال وطرائق فاسدة قد تُكُلِّمَ عليها في غير هذا الموضع .

فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف ، مثل : الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسري السَّقَطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدِّمين . ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حمَّاد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين . فهم لا يسوِّغون للسالك ولو طار في الهواء ، أو مشى على الماء ، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ، ويدع المحظور ، إلى أن يموت . وهذا هو الحق الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة وإجماع السَّلف . وهذا كثيرٌ في كلامهم كقول عبد القادر في كتاب فتوح الغيب . . .

(١) في نسخة : (غمّ) .
(٢) في المطبوع : (فكن) .
(٣) في المطبوع : (وانه) .
(٤) في نسخة : (نهيه) .
(٥) في نسخة : (أُخرِجَ) .
(٦) في نسخة : (وإخراج) .

الْهَوَى مِنَ الْقَلْبِ بِمُخَالَفَتِهِ وَتَرْكِ مُتَابَعَتِهِ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا ، وَإِدْخَالُهُ فِي الْقَلْبِ بِمُتَابَعَتِهِ وَمُوَافَقَتِهِ[١] .

فَلاَ تُرِدْ إِرَادَةً غَيْرَ إِرَادَتِهِ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْكَ تَمَنٍّ[٢] ، وَهُوَ وَادِي الْحَمْقَى[٣] ، وَفِيهِ حَتْفُكَ وَهَلاَكُكَ وَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِهِ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) ، وَحِجَابُكَ عَنْهُ .

احْفَظْ أَبَداً أَمْرَهُ ، وَانْتَهِ أَبَداً نَهْيَهُ[٤] ، وَسَلِّمْ أَبَداً لِمَقْدُورِهِ[٥] ، وَلاَ تُشْرِكْهُ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِرَادَتُكَ وَهَوَاكَ وَشَهَوَاتُكَ كُلُّهَا خَلْقُهُ ، فَلاَ تُرِدْ (زِيَادَةً) ، وَلاَ تَهْوَى[٦] ، وَلاَ تَشْتَهِي[٧] ، لِئَلاَّ يَكُونَ شِرْكاً[٨] .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف : ١١٠] .

لَيْسَ الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ فَحَسْبُ ، بَلْ هُوَ (أَيْضاً) مُتَابَعَتُكَ هَوَاكَ ، وَأَنْ تَخْتَارَ مَعَ رَبِّكَ شَيْئاً سِوَاهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَالآخِرَةِ وَمَا فِيهَا .

فَمَا سِوَاهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى[٩] غَيْرُهُ ، فَإِذَا رَكَنْتَ إِلَى غَيْرِهِ فَقَدْ أَشْرَكْتَ بِهِ (عزَّ وجلَّ) غَيْرَهُ .

فَاحْذَرْ وَلاَ تَرْكُنْ ، وَخَفْ وَلاَ تَأْمَنْ ، وَفَتِّشْ وَلاَ[١٠] تَغْفَلْ فَتَطْمَئِنَّ ، وَلاَ تُضِفْ إِلَى نَفْسِكَ حَالاً وَلاَ مَقَاماً ، وَلاَ تَدَّعِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ .

فَإِنْ أُعْطِيتَ حَالاً أَوْ أُقِمْتَ فِي مَقَامٍ ، فَلاَ تُخْبِرْ أَحَداً بِشَيْءٍ[١١] مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[الرحمن : ٢٩] فِي تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ .

---

(١) في نسخة : (وموافاته) .
(٢) في المطبوع : (غير) .
(٣) في المطبوع : (الحمقاء) .
(٤) في نسخة : (بنهيه) .
(٥) في نسخة : (وسلم إليه أبداً مقدوره) .
(٦) في المطبوع : (تهو) .
(٧) في المطبوع : (تشته) .
(٨) في المطبوع : (كيلا تكون مُشركاً) .
(٩) في المطبوع : (عزَّ وجلَّ) .
(١٠) في المطبوع : (فلا) .
(١١) في المطبوع : (فلا تختر شيئاً واحداً) .

وَأَنَّهُ ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال : ٢٤] ، فَيُزِيْلُكَ عَمَّا أُخْبِرْتَ بِهِ ، وَيُغَيِّرُكَ عَمَّا تَخَيَّلْتَ ثَبَاتَهُ وَبَقَاءَهُ ، فَتَخْجَلُ عِنْدَ مَنْ أَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ ، بَلِ احْفَظْ ذَلِكَ فِيْكَ ، وَلاَ تُعَدِّهِ إِلَى غَيْرِكَ ، فَإِنْ كَانَ[١] الثَّبَاتُ وَالبَقَاءُ ، فَتَعْلَمُ أَنَّهُ مَوْهِبَةٌ ، وَتَسْأَلُ التَّوْفِيْقَ لِلشُّكْرِ ، وَاسْتُرْ رُؤْيَتَهُ وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ كَانَ فِيْهِ زِيَادَةُ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَنُوْرٍ وَتَيَقُّظٍ وَتَأَدُّبٍ[٢] .

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة : ١٠٦] .

فَلاَ تُعَجِّزِ اللهَ فِي قُدْرَتِهِ ، وَلاَ تَتَّهِمْهُ فِي تَقْدِيْرِهِ وَلاَ تَدْبِيْرِهِ ، وَلاَ تَشُكَّ فِي وَعْدِهِ[٣] ، فَلْيَكُنْ لَكَ فِي رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، نُسِخَتِ الآيَاتُ وَالسُّوَرُ النَّازِلَةُ عَلَيْهِ ، الْمَعْمُوْلَةُ بِهَا ، الْمَقْرُوْءَةُ فِي الْمَحَارِيْبِ ، الْمَكْتُوْبَةُ فِي الْمَصَاحِفِ ، وَرُفِعَتْ وَبُدِّلَتْ ، وَأُثْبِتَ غَيْرُهَا مَكَانَهَا ، وَنُقِلَ ﷺ إِلَى غَيْرِهَا ، هَذَا فِي ظَاهِرِ الشَّرْعِ .

وَأَمَّا فِي البَاطِنِ وَالْعِلْمِ وَالْحَالِ فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فَكَانَ يَقُوْلُ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ[٤]

(١) تحرف في المطبوع إلى : (فإنه كليّ) .

(٢) في نسخة : (وتأديب) .

(٣) تحرف في المطبوع إلى : (عدوّه) .

(٤) قال ابن قيّم الجوزية في مدارج السالكين (٣/ ٢٢٢ـ ٢٢٤) : المكاشفة الصحيحة : علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالى في قلب العبد ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره ، وقد يواليها ، وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها ، ويواريها عنه بالغَيْن : الذي يغشى قلبه ، وهو أرق الْحُجُبِ . أو بالغيم : وهو أغلظ منه . أو بالران : وهو أشدّها .

فالأول : يقع للأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما قال النبي ﷺ : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة » .

والثاني : يكون للمؤمنين .

والثالث : لمن غلبت عليه الشقوة . قال الله تعالى : ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ . قال ابن عباس وغيره : هو الذنب بعد الذنب ، يغطي القلب حتى يصير كالران عليه .

والْحُجُبُ عشرةٌ : حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات ، وهو أغلظها ، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ، ولا يصل إليه ألبتة ، إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق . الثاني : حجاب الشرك ، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله . الثالث : حجاب البدعة القولية ، كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها . الرابع : حجاب البدعة العملية ، كحجاب أهل السّلوك =

عَلَى قَلْبِي ، فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » . وَيُرْوَى : « مِئَةَ مَرَّةٍ »[1] .

وَكَانَ ﷺ يُنقَلُ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَيُسَارُ[2] بِهِ فِي مَنَازِلِ الْقُرْبِ وَمَيَادِينِ الْغَيْبِ ، وَيُغَيَّرُ عَلَيْهِ (خِلَعُ) الأَنْوَارِ ، فَتَبِينُ الْحَالَةُ الأُوْلَى عِنْدَ ثَانِيهَا ظُلْمَةً (وَنُقْصَاناً) وَتَقْصِيراً فِي حِفْظِ الْحُدُوْدِ ، فَيُلَقَّنُ الاسْتِغْفَارَ ، لأَنَّهُ أَحْسَنُ حَالِ الْعَبْدِ ، وَالتَّوْبَةُ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ ، لأَنَّ فِيهَا اعْتِرَافَهُ بِذَنْبِهِ وَقُصُوْرِهِ ، وَهُمَا صِفَتَا الْعَبْدِ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ ، فَهُمَا وِرَاثَةٌ مِنْ أَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عليه السلام إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ حِينَ اعْتَوَرَتْ صَفَاءُ حَالِهِ ظُلْمَةُ النِّسْيَانِ لِلْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَإِرَادَةُ الْخُلُوْدِ فِي دَارِ السَّلاَمِ ، وَمُجَاوَرَةِ الْحَبِيبِ الرَّحْمَنِ الْمَنَّانِ ، وَدُخُولِ الْمَلاَئِكَةِ الْكِرَامِ عَلَيْهِ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلاَمِ ، فَوَجَدَتْ هُنَاكَ نَفْسُهُ مُشَارَكَةَ إِرَادَتِهِ لإِرَادَةِ الْحَقِّ ، فَانْكَسَرَتْ لِذَلِكَ تِلْكَ الإِرَادَةُ ، وَزَالَتْ تِلْكَ الْحَالَةُ ، وَانعزَلَتْ تِلْكَ الوِلاَيَةُ ، فَانْهَبَطَتْ تِلْكَ الْمَنزِلَةُ ،

= المبتدعين في طريقهم وسلوكهم . **الخامس** : حجاب أهل الكبائر الباطنة ، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها . **السادس** : حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، وحجابهم أرقّ من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة ، مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم . فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك ، فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة ، فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم ، وقلوبهم خيرٌ من قلوبهم . **السابع** : حجاب أهل الصغائر . **الثامن** : حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات . **التاسع** : حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم ، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته . **العاشر** : حجاب المجتهدين السالكين ، المشمرين في السير عن المقصود .

فهذه عشرُ حُجُبٍ بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى تحول بينه وبين هذا الشأن . وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر : عنصر النفس ، وعنصر الشيطان ، وعنصر الدنيا ، وعنصر الهوى ، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة .

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١١٤٠) والإمام أحمد (٤/ ٢١١ و٢٦٠) والزهد له (٢١٣) وعبد بن حميد (٣٦٤) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٤٣) ومسلم (٢٧٠٢) وأبو داود (١٥١٥) والبيهقي (٧/ ٥٢) والشعب (٦٤٠ و٧٠٢٣) عن الأغرّ بن يسار الجهني رضي الله عنه . وفيهم جميعاً : « أستغفر الله مئة مرة » .

أقول : ولفظ : « سبعين مرة » . جاء من دون : « إنه ليغان على قلبي » . رواه البخاري (٥٩٤٨) . وانظر التفصيل في الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٦٣) . وانظر الأربعين في أصول الدين للغزالي (٣٦٦ بتحقيقي) .

(٢) في المطبوع : (ويسير) .

وَأَظْلَمتْ تِلْكَ الأَنْوَارُ ، وَتَكَدَّرَ ذَلِكَ الصَّفَاءُ ، ثُمَّ تَنَبَّهَ وَذَكَرَ صَفِيِّ الرَّحْمَنِ ، فعرَفَ الاعْتِرَافَ بِالذَّنْبِ وَالنِّسْيَانِ ، وَلُقِّنَ الإِقْرَارَ فَقَالَ : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف : ٢٣] .

فَجَاءَتْ أَنْوَارُ الْهِدَايَةِ وَعُلُومُ التَّوْبَةِ وَمَعَارِفُهَا ، وَالْمَصَالِحُ الْمَدْفُونَةُ فِيهَا مَا كَانَ غَائِباً مِنْ قَبْلُ ، فَلَمْ تَظْهَرْ إِلاَّ بِهَا ، فَبُدِّلَتْ[1] تِلْكَ الإِرَادَةُ بِغَيْرِهَا ، وَالْحَالَةُ الأُوْلَى بِأُخْرَى ، وَجَاءَتْهُ الوِلاَيَةُ الْكُبْرَى وَالسُّكُونُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ فِي العُقْبَى ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ مَنْزِلاً ، وَالْعُقْبَى لَهُمْ مَوْئِلاً وَمَرْجِعاً وَخُلْداً .

فَلَكَ بِرَسُوْلِ اللهِ وَحَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى وَأَبِيهِ آدَمَ صَفِيِّ اللهِ عُنْصُرِ الأَحْبَابِ وَالأَخِلاَّءِ أُسْوَةٌ فِي الاعْتِرَافِ بِالقُصُوْرِ وَبِالاسْتِغْفَارِ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا .

* * *



(١) في المطبوع : (فبذلت) .

المَقَالَةُ الثَّامِنَةُ
فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ

إِذَا كُنتَ فِي حَالَةٍ لاَ تَخْتَرْ غَيْرَهَا أَعْلَى مِنْهَا وَلا أَدْنَى ، فَإِذَا كُنْتَ عَلَى بَابِ دَارِ الْمَلِكِ لاَ تَخْتَرِ الدُّخُولَ إِلَى الدَّارِ حَتَّى تُدْخَلَ إِلَيْهَا جَبْراً لاَ اخْتِيَاراً .

وَأَعْنِي بِالْجَبْرِ : أَمْراً عَنِيفاً مُتَأَكِّداً مُتَكَرِّراً ، وَلاَ تَكْتَفِ بِمُجَرَّدِ إِذْنٍ فِي الدُّخُولِ ، لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَكْراً وَخَدِيعَةً مِنَ الْمَلِكِ ، لَكِنِ اصْبِرْ حَتَّى تُجْبَرَ عَلَى الدُّخُولِ ، فَتَدْخُلَ الدَّارَ جَبْراً مَحْضاً وَفَضْلاً مِنَ الْمَلِكِ ، فَحِينَئِذٍ لاَ يُعَاقِبُكَ الْمَلِكُ عَلَى فِعْلِهِ ، إِنَّمَا تَتَعَرَّضُ الْعُقُوبَةُ لَكَ لِشُؤْمِ تَخَيُّرِكَ وَشَرَهِكَ ، وَقِلَّةِ صَبْرِكَ وَسُوءِ أَدَبِكَ ، وَتَرْكِ الرِّضَا بِحَالَتِكَ الَّتِي أَقَمْتَ فِيهَا ، فَإِذَا حَصَلْتَ فَكُنْ مُطْرِقاً غَاضاً لِبَصَرِكَ ، مُتَأَدِّباً ، مُحَافِظاً لِمَا تُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الشُّغْلِ وَالْخِدْمَةِ فِيهَا غَيْرَ طَالِبٍ لِلتَّرَقِّي إِلَى الذُّرْوَةِ الْعُلْيَا .

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] .

فَهَذَا تَأْدِيبٌ مِنْهُ عزَّ وجلَّ لِنَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ ﷺ فِي حِفْظِ الْحَالِ ، وَالرِّضَا بِالعَطَاءِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . أَي : مَا أَعْطَيْتُكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالنُّبُوَّةِ وَالعِلْمِ وَالقَنَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَوِلاَيَةِ الدِّينِ ، وَالْعُزْوَةُ[١] فِيهِ أَوْلَى مِمَّا أَعْطَيتُ غَيْرَكَ وَأَحْرَى ، فَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي حِفْظِ الْحَالِ وَالرِّضَا بِهَا ، وَتَرْكِ الالْتِفَاتِ إِلَى مَا سِوَاهَا ، لأَنَّهُ لاَ يَخْلُو : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَسْمَكَ ، أَوْ قَسْمَ غَيْرِكَ ، أَوْ أَنَّهُ لاَ قَسْمٌ لأَحَدٍ بَلْ أَوْجَدَهُ اللهُ فِتْنَةً .

فَإِنْ كَانَ قَسْمَكَ وَصَلَ إِلَيْكَ ، شِئْتَ أَمْ أَبَيْتَ ، فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرَ مِنْكَ سُوءُ الأَدَبِ وَالشَّرَهُ فِي طَلَبِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَحْمُودٍ فِي قَضِيَّةِ العِلْمِ وَالعَقْلِ .

وَإِنْ كَانَ قَسْمَ غَيْرِكَ ، فَلاَ تَتْعَبْ فِيمَا لَمْ تَنَالُهُ ، وَلاَ يَصِلُ إِلَيْكَ أَبَداً .

---

(١) في المطبوع : (والعروة) .

وَإِنْ كَانَ لَيْسَ بِقَسْمٍ لأَحَدٍ ، بَلْ هُوَ فِتْنَةٌ ، فَكَيْفَ يَرْضَى العَاقِلُ وَيَسْتَحْسِنُ أَنْ يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ فِتْنَةً وَيَسْتَجْلِبَهَا لَهَا .

فَقَدْ ثَبَتَ : أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَالسَّلاَمَةَ فِي حِفْظِ الْحَالِ .

فَإِذَا رَقِيتَ إِلَى الغُرْفَةِ ، ثُمَّ إِلَى السَّطْحِ ، فَكُنْ كَمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِفْظِ وَالإِطْرَاقِ وَالأَدَبِ ، بَلْ يَتَضَاعَفُ ذَلِكَ مِنْكَ ، لأَنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى الْمَلِكِ[١] وَأَدْنَى بِالْخَطَرِ ، فَلاَ تَتَمَنَّى[٢] الانْتِقَالَ مِنْهَا إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَلاَ إِلَى أَدْنَى ، وَلاَ ثَبَاتَهَا وَبَقَاءَهَا ، وَلاَ تَغَيُّرَ وَصْفِهَا وَأَنْتَ فِيهَا ، وَلاَ يَكُونُ لَكَ اخْتِيَارٌ أَلْبَتَّةَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ فِي نِعْمَةِ[٣] الْحَالِ ، وَالْكُفْرُ يُحِلُّ بِصَاحِبِهِ الْهَوَانَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

فَاعْمَلْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَبَداً حَتَّى تَرْقَى إِلَى حَالَةٍ تَصِيرُ لَكَ مَقَاماً تُقَامُ فِيهِ فَلاَ تُزَالُ عَنْهُ ، فَتَعْلَمَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ مَوْهِبَةٌ ظَهَرَ بَيَانُهَا وَدَلِيلُهَا ، فَتَمْسِكُهُ وَلاَ تَزَلُ .

فَالأَحْوَالُ لِلأَوْلِيَاءِ ، وَالْمَقَامَاتُ لِلأَبْدَالِ ، وَاللهُ يَتَوَلَّى هُدَاكَ .

* * *

(١) في نسخة : (ظلك) .

(٢) في المطبوع : (تتمن) .

(٣) في نسخة : (بنعمة) .

الْمَقَالَةُ التَّاسِعَةُ
فِي الكَشْفِ وَالْمُشَاهَدَةِ

يُكْشَفُ لِلأَوْلِيَاءِ وَالأَبْدَالِ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ مَا يُبْهِرُ الْعُقُوْلَ وَيَخْرِقُ العَادَاتِ وَالرُّسُوْمَ ، فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : جَلاَلٌ ، وَجَمَالٌ .

فَالْجَلاَلُ وَالعَظَمَةُ يُوَرِّثَانِ الْخَوْفَ الْمُقْلِقَ وَالوَجَلَ الْمُزْعِجَ ، وَالغَلَبَةَ العَظِيْمَةَ عَلَى القَلْبِ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ .

كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : كَانَ يُسْمَعُ مِنْ صَدْرِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمِرْجَلِ فِي الصَّلاَةِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ[1] . لِمَا يَرَى مِنْ جَلاَلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَيَنْكَشِفُ لَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ .

وَنُقِلَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلِ الرَّحْمَنِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ـ[2] ، وَعُمَرَ الفَارُوْقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٩) والإمام أحمد (٤/ ٢٥ و٢٦) وعبد بن حميد (٥١٤) وأبو داود (٩٠٤) والترمذي في الشمائل (٣٢٢) والنسائي (٣/ ١٣) وابن خزيمة (٩٠٠) وأبو يعلى (١٥٩٩) وابن حبان (٦٦٥ و٧٥٣) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١١) والبيهقي (٢/ ٢٥١) والشعب (٧٧٤ و٢٠٤٨ و٢٠٤٩) عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يصلّي ، ولصدره أزيزٌ كأزيزِ الْمِرْجَلِ من البكاء .

وقال ابن قيّم الجوزية في إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ١١٨ـ ١١٩) : قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[مريم : ٨٣] . قال ابن عباس : تغريهم إغراءً . وفي رواية : تشليهم إشلاءً . وفي لفظ : تحرضهم تحريضاً . وفي آخر : تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً . وفي آخر : توقدهم . أي : تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته . قال الأخفش : توهجهم .

وحقيقة ذلك : أن الأزّ : هو التحريك والتهييج ، ومنه يقال لغليان القدر : الأزيز ، لأن الماء يتحرّك عند الغليان . ومنه الحديث : لجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء . قال أبو عبيدة : الأزيز : الالتهاب والحركة ، كالتهاب النار في الحطب ، يقال : إزّ قِدْرَك ، أي : ألهب تحتها بالنار ، وأزيزت القدر : إذا اشتد غليانها . فقد حصل للأزّ معنيان : أحدهما : التحريك . والثاني : الإيقاد والإلهاب ، وهما متقاربان ، فإنه تحريكٌ خاصٌ بإزعاجٍ وإلهابٍ .

(٢) قال الغزالي في الأربعين في أصول الدين (٣٨٢ بتحقيقي) : قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كَانَ أَزِيْزُ=

أَمَّا مُشَاهَدَةُ الْجَمَالِ : فَهِيَ[1] تُحَلِّي الْقُلُوبَ بِالأَنْوَارِ وَالسُّرُورِ وَالأَلْطَافِ ، وَالكَلاَمِ اللَّذِيذِ وَالْحَدِيثِ الأَنِيسِ ، وَالبِشَارَةِ بِالْمَوَاهِبِ الْجِسَامِ وَالْمَنَازِلِ العَالِيَةِ ، وَالْقُرْبِ مِنْهُ عزَّ وجلَّ مِمَّا سَيَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ .

وَجَفَّ بِهِ القَلَمُ مِنْ أَقْسَامِهِمْ فِي سَابِقِ الدُّهُورِ فَضْلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً ، وَإِثْبَاتاً مِنْهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى بُلُوغِ الأَجَلِ وَهُوَ الوَقْتُ الْمَقْدُورُ ، لِئَلاَّ تَفْرُطَ بِهِمُ الْمَحَبَّةُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَتَنْفَطِرُ مَرَائِرُهُمْ ، فَيَهْلِكُونَ وَيَضْعُفُونَ عَنِ القِيَامِ بِالعُبُودِيَّةِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُمُ اليَقِينُ الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ ، فَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ لُطْفاً مِنْهُ وَرَحْمَةً وَمُدَاوَاةً وَتَرْبِيَةً لِقُلُوبِهِمْ ، وَمُدَارَاةً لَهَا .

﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام : ١٣٩ والحجر : ٢٥] . لَطِيفٌ[2] ﴿ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

وَلِهَذَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِبِلاَلٍ الْمُؤَذِّنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « أَرِحْنَا (بِهَا) يَا بِلاَلُ »[3] . (أي) : بِالإِقَامَةِ ، لِنَدْخُلَ فِي الصَّلاَةِ لِمُشَاهَدَةِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحَالِ .

= قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يُسْمَعُ فِي الصَّلاَةِ مِنْ مَسِيرَةِ مِيلٍ . ولفظه في الإحياء : كان يُسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة من مسيرة ميلٍ خوفاً من ربّه . وقال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٢٤٦) : رواه ابن أبي الدنيا في الخائفين .

(١) في المطبوع : (فهو) .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾[الشورى : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[الحج : ٦٣ ولقمان : ١٦] .

(٣) رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٦٤) عن وكيع ، عن مِسْعَر بن كدام ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن رجل من أسلم : أن النبي ﷺ قال : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » . ورجاله ثقات .

ورواه أبو داود (٤٩٨٥) والطبراني في الكبير (٦٢١٤) من طريق مسدد ، عن عيسى بن يونس ، عن مسعر بن كدام ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رجل من خزاعة [عند الطبراني : عن عمرو بن مرة ، عن سلمان بن خالد من خزاعة . خطأ] : ليتني صليت فاسترحت ، فكأنهم عابوا عليه ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا بلال ، أقم الصلاة أرحنا بها » .

ورواه الإسماعيلي في معجم شيوخه (٢/ ٥٨٠ـ ٥٨١) عن ابن كاسب ، عن سلمة بن رجاء ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن رجل من خزاعة : سمع النبي ﷺ يقول : « أقم الصلاة يا بلال ، أرحنا بها » .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٤ـ ٤٤٥) من طريق بشر بن موسى ، عن خلّاد بن =

. . . .

= يحيى ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبي الجعد قال : عادوا رجلاً من خزاعة قال : فقال الخزاعي : لقد وددت أني قد صليت فاسترحت ، قال : ثم قال الخزاعي : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا بلال ، أقم الصلاة أرحنا بها » .

ورواه الإمام أحمد (٦/ ٣٧١) والدارقطني في العلل (٤/ ١٢١ـ ١٢٢) من طريق عبد الرحمن بن مهدي ، وأبو داود (٤٩٨٦) وابن الأثير في أسد الغابة (٦/ ٣٨٣) من طريق محمد بن كثير ، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣ـ ٤٤٤) من طريق عبد الله بن رجاء الغداني ، ثلاثتهم عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبي على صِهْرٍ لنا من الأنصار ، فحَضَرتِ الصلاةُ ، فقال : يا جاريةُ ، ائتِنِي بوضوءٍ لَعَلِّي أُصَلِّي فأَسْتَرِيحَ . فرآنا أَنْكَرْنَا عليه ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قُمْ يَا بلال ، فأَرِحْنا بالصلاةِ » . ورجاله ثقات .

ورواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٥٤٩) عن يزيد بن سنان ، عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبي على صِهْرٍ لنا من الأنصار ، فَحَضرَتِ الصَّلاةُ ، فقال : يا جاريتي ، ائتني بوَضوءٍ لَعَلِّي أتوضأ فأستريح ، فرآنا أنكرنا ذلك ، أو فكأنه رآنا أنكرنا ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قُمْ يَا بلال ، فأرحنا بالصلاة » .

ورواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٩٦) عن أيوب الوزان ، عن محمد بن ربيعة ، عن أبي حمزة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن عبد الله بن محمد بن علي ، عن رجل من أسلم [بوّب له ابن أبي عاصم باسم : سنان بن سلمة رجلٌ من أسلم] : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لبلال رضي اللهُ عنه : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » .

ورواه الطبراني في الكبير (٦٢١٥) عن علي بن عبد العزيز البغوي ، عن أبي نعيم ، عن أبي حمزة الثمالي ثابت بن أبي صفية قال : حدثني سالم بن أبي الجعد قال : حدثني عبد الله بن محمد بن الحنفية قال : انطلقت مع أبي إلى صِهْرٍ لنا من أسلم من أصحاب النبي ﷺ فسمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال ، الصلاة » . قال : قلت : أسمعتَ ذا من رسول الله ﷺ ؟ فغضبَ وأقبلَ على القوم يُحَدِّثُهم : أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى حيٍّ من أحياء العرب ، فلمَّا أتاهم ، قال لهم : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أحكم في نسائكم بما شئت ، فقالوا : سمعاً وطاعةً لأمرِ رسول الله ﷺ ، وبعثوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن فلاناً جاءنا فقال : إن النبي ﷺ أمرني أن أَحْكُمَ في نسائكم بما شئت ، فإن كان عن أمرك فسمعاً وطاعةً ، وإن كان غيرَ ذلكَ فأحببنا أن نُعْلِمَكَ ، فَغَضِبَ رسول الله ﷺ ، وبعث رجلاً من الأنصار ، وقال : « اذهب إلى فلان فاقتله ، وأحرقه بالنار » . فانتهى إليه وقد مات وقُبِرَ ، فأمر به فنبش ، ثم أحرقه بالنار ، ثم قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فليتبوأ مَقْعَدَهُ من النار » ، ثم أقبل عليٌّ فقال : تراني كذبت على رسول الله ﷺ بعد هذا . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣٣) : فيه : أبو حمزة الثمالي ، =

. . . .

= وهو ضعيفٌ واهي الحديث .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٤) من طريق مسدد ، عن عبد الله بن داود الخريبي ، عن أبي حمزة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال : انطلقت مع أبي إلى صهر لنا من أسلم فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال » .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٤) من طريق مسدد ، عن حفص بن غياث ، عن ثابت الثمالي ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن رجل قال : سمعت النبي ﷺ ـ وحضرت الصلاة ـ يقول : « أرحنا بها يا بلال » .

ورواه الدارقطني في العلل (٤/ ١٢٢) ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٤) عن القاضي عبد الله بن أحمد بن ربيعة ، عن أحمد بن عبيد ، عن الحسين بن علوان ، عن أبي حمزة الثمالي ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن محمد بن علي بن الحنفية ، عن بلال : أن رسول الله ﷺ قال : « أرحنا بها يا بلال » يعني : الصلاة .

ورواه أبو نعيم في ذكر أخبار أصبهان (٢/ ٢٤٩) عن الحسين بن محمد بن علي ، عن محمد بن يوسف بن محمد الصوفي ، عن أحمد بن مهران بن خالد ، عن إسحاق بن إبراهيم ختن سلمة الأبرش ، عن سلمة بن الفضل [ضعيف] ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة قال : دخلت على عمرو بن خزاعة أعوده ، فقال : ليتنا صلينا فاسترحنا ، ثم قال : قال لي بلال : قال رسول الله ﷺ : « يا بلال ، قم فأرحنا بها » .

ورواه الدارقطني في العلل (٤/ ١٢١) والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣) من طريق عبد العزيز بن أبان أبو خالد القرشي [متروك ، كذّاب] ، عن سفيان الثوري ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ابن الحنفية ، عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « يا بلال ، قم فأرحنا بالصلاة » . وقال الخطيب : لَم يرو هذا الحديث كذا عن الثوري مسنداً غير أبي خالد عبد العزيز بن أبان .

ورواه الدارقطني في العلل (٤/ ١٢١) ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣) عن ابن مبشر ، عن أحمد بن سنان ، عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن محمد بن الحنفية : أن النبي ﷺ قال : « أرحنا يا بلال » . من غير ذكر لعليّ في الإسناد . وقال الخطيب : وهو المحفوظ عن الثوري .

أقول : وسئل الدارقطني كما في العلل له (٤/ ١٢٠ـ ١٢١) عن حديث محمد بن الحنفية ، عن عليّ ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » ؟ . فقال : هو حديثٌ يروى عن سالم بن أبي الجعد ، واختلف عنه ، فقيل : عن الثوري ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ابن الحنفية ، عن عليّ . قاله أبو خالد عبد العزيز بن أبان ، عن الثوري . وقال إسرائيل : عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن عبد الله بن محمد بن الحنفية ، عن صهرٍ لهم ، عن النبي ﷺ ، لَم يذكر علياً . ورواه عمرو بن مرّة ، وأبو حمزة الثمالي ثابت بن أبي صفية ، عن =

وَلِهَذَا قَالَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »(١) .

* * *



= سالم بن أبي الجعد ، عن رجل من خزاعة ، عن النبي ﷺ ، لم يذكر علياً ، ولا ابن الحنفية . وقيل : عن أبي حمزة ، عن سالم ، عن ابن الحنفية ، عن بلال . وقال محمد بن ربيعة : عن أبي حمزة ، عن سالم ، عن عبد الله بن محمد الأسلمي ، عن النبي ﷺ . وقول عمرو بن مرة أصحّ .

(١) تقدَّم تخريجه .

المَقَالَةُ العَاشِرَةُ
فِي النَّفْسِ وَأَحْوَالِهَا

إِنَّمَا هُوَ اللهُ وَنَفْسُكَ وَأَنْتَ الْمُخَاطَبُ ، وَالنَّفْسُ ضِدُّ اللهِ وَعَدُوَّتُهُ[1] ، وَالأَشْيَاءُ كُلُّهَا تَابِعَةٌ للهِ ، (وَالنَّفْسُ لَهُ خَلْقاً وَمُلْكاً ، وَلِلنَّفْسِ ادِّعَاءٌ وَتَمَنٍّ وَشَهْوَةٌ وَلَذَّةٌ بِمُلاَبَسَتِهَا) ، فَإِذَا وَافَقْتَ الْحَقَّ عزَّ وجلَّ فِي مُخَالَفَةِ النَّفْسِ وَعُدْوَانِهَا ، فَكُنْتَ للهِ[2] خَصْماً عَلَى نَفْسِكَ .

كَمَا قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِدَاوُدَ عليه السلام : « يَا دَاوُدُ ، أَنَا بُدُّكَ اللاَّزِمُ ، فَالْزَمْ بُدَّكَ »[3] .

الْعُبُوْدِيَّةُ : أَنْ تَكُوْنَ خَصْماً عَلَى نَفْسِكَ ، فَتَحَقَّقَتْ حِينَئِذٍ مُوَالاَتُكَ وَعُبُوْدِيَّتُكَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وَأَتَتْكَ الأَقْسَامُ هَنِيئاً مَرِيْئاً مَطِيباً ، وَأَنْتَ عَزِيْزٌ وَمُكَرَّمٌ ، وَخَدَمَتْكَ الأَشْيَاءُ وَعَظَّمَتْكَ وَفَخَّمَتْكَ ، لأَنَّهَا بِأَجْمَعِهَا تَابِعَةٌ لِرَبِّهَا مُوَافِقَةٌ لَهُ ، إِذْ هُوَ خَالِقُهَا وَمُنْشِؤُهَا ، وَهِيَ مُقِرَّةٌ لَهُ بِالعُبُوْدِيَّةِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء : ٤٤] .

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت : ١١] .

---

(١) في المطبوع : (وعدوه) .

(٢) في نسخة : (فكنت مع الله) .

(٣) ذكره الغزالي في الأربعين في أصول الدين (٢٨٧ بتحقيقي) . ولم أجده في إحياء علوم الدين له .
وذكره الديلمي في الفردوس (٨٠٤٠) عن أنس بن مالك : « يقول الله عزَّ وجلَّ : يا ابن آدم ، أنا بدك اللازم ، فاعمل لبدك ، كل الناس لك منهم بد ، وليس لك مني بد » . وإسناده في الموضوعات لابن الجوزي (٢/ ١٣٦) وزهر الفردوس لابن حجر (٤/ ٢٥٤) وفي لسان الميزان (١/ ٢١٣) من طريق أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود [كذاب] ، عن عباس بن أحمد الدوري وزاد ابن الجوزي : محمد بن عبد الملك الدقيقي وعثمان بن خرزاد الأنطاكي ، عن عفان بن مسلم ، عن شعبة ، عن أبي التياح ، عن أنس مرفوعاً . وقال ابن الجوزي : قال الخطيب : هذا الحديث موضوع المتن مركب على هذا الإسناد ، وكل رجاله مشهورون معروفون بالصدق إلا ابن الجارود فإنه كذّاب ولم نكتبه إلاّ من حديثه .

فَالْعِبَادَةُ كُلُّ العِبادَةِ فِي مُخَالَفَتِكَ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ[١] .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٢] [ص : ٢٦] .

وَقَالَ لِدَاوُدَ عليه السلام : « اهْجُرْ هَوَاكَ فَإِنَّهُ مُنَازِعٌ » .

وَالْحِكَايَةُ الْمَشْهُورَةُ عَنْ أَبِي يَزِيْدِ البسْطَامِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ : لَمَّا رَأَى رَبَّ الْعِزَّةِ فِي الْمَنَامِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ الطَّرِيْقُ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : « اتْرُكْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ » . فَقَالَ[٣] : فَانْسَلَخْتُ مِنْ نَفْسِي كَمَا تَنْسَلِخُ الْحَيَّةُ مِنْ جِلْدِهَا[٤] .

فَإِذَا (ثَبَتَ أَنَّ) الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي مُعَادَاتِهَا فِي الْجُمْلَةِ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا ، فَإِنْ كُنْتَ فِي حَالِ التَّقْوَى فَخَالِفِ النَّفْسَ ، بِأَنْ تَخْرُجَ[٥] مِنْ حَرَام[٦] الْخَلْقِ وَشُبَهِهِمْ وَمِنَّتِهِمْ ، وَالاتِّكَالِ عَلَيْهِمْ ، وَالثِّقَةِ بِهِمْ ، وَالْخَوْفِ مِنْهُمْ ، وَالرَّجَاءِ لَهُمْ ، وَالطَّمَعِ فِيْمَا عِنْدَهُمْ مِنْ حُطَام[٧] الدُّنْيَا ، فَلاَ تَرْجُ[٨] . . .

---

(١) في المطبوع : (في مخالفة نفسك) . وفي نسخة : (فالعبادة في مخالفتك . .) .

(٢) والآية بكاملها هي ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

(٣) في نسخة : (قال أبو يزيد) .

(٤) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٤/ ١١١ـ ١١٢) بدون قول أبي يزيد الأخير .

وروى ابن أبي شيبة في المصنف (١٢٦٧) عن يزيد بن هارون ، عن العوّام ، عن شهر بن حوشب ، عن عمرو بن عَبَسَة الأسلمي قال : إذا آوى الرجل إلى فراشه على طهر فذكر الله حتى تغلبه عيناه ، وكان أول ما يقول حين يستيقظ : سبحانك لا إله إلا أنت اغفر لي ، انسلخ من ذنوبه كما تنسلخ الحية من جلدها .

وروى الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٢٣٨) من طريق أبي سعيد ابن الأعرابي ، عن محمد بن شاذان الجوهري ، عن عامر بن إبراهيم ، عن سلم بن سالم ، عن سفيان الثوري ، عن زبيد الإيامي ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : من تعارّ من الليل فقال : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٧] ، انسلخ من ذنوبه كما تنسلخ الحية من جلدها .

(٥) تحرف في المطبوع إلى : (نخرج) بالنون .

(٦) في نسخة : (إجرام) .

(٧) تحرف في المطبوع إلى : (أحكام) .

(٨) في نسخة : (تبرح) .

عَطَاءَهُمْ[١] عَلَى طَرِيْقِ الْهَدِيَّةِ أَوِ الزَّكَاةِ أَوْ الصَّدَقَةِ أَوْ الكَفَّارَةِ أَوِ النَّذْرِ[٢] ، فاقطع هَمَّكَ مِنْهُمْ مِنْ سَائِرِ الْوُجُوْهِ وَالأَسْبَابِ ، (حَتَّى إِنْ كَانَ لَكَ نَسَبٌ ذُوْ مَالٍ لاَ تَتَمَنَّ مَوْتَهُ لِتَرِثَ مَالَهُ) ، فَاخْرُجْ مِنَ الْخَلْقِ جِدّاً ، وَاجْعَلْهُمْ كَالبَابِ يُرَدُّ وَيُفْتَحُ[٣] ، وَكَالشَّجَرَةِ يُوْجَدُ[٤] فِيْهَا ثَمَرَةٌ تَارَةً وَتَحِيْلُ[٥] أُخْرَى ، وَكُلُّ[٦] ذَلِكَ بِفِعْلِ فَاعِلٍ وَتَدْبِيْرِ مُدَبِّرٍ ، وَهُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى[٧] .

فَإِذَا صَحَّ لَكَ هَذَا كُنْتَ مُوَحِّداً لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى[٨] ، وَلاَ تَنْسَ مَعَ ذَلِكَ كَسْبَهُمْ لِتَتَخَلَّصَ[٩] مِنْ مَذْهَبِ الْجَبْرِيَّةِ .

وَاعْتَقِدْ : أَنَّ الأَفْعَالَ لاَ تَتِمُّ لَهُمْ[١٠] دُوْنَ اللهِ (لِكَيْ) لاَ تَعْبُدَهُمْ وَتَنْسَى اللهَ (تَعَالَى) .

وَلاَ تَقْبَلْ[١١] فِعْلَهُمْ دُوْنَ اللهِ فَتَكْفُرَ ، فَتَكُوْنَ قَدَرِيّاً .

وَلَكِنْ[١٢] قُلْ : هِيَ للهِ خَلْقاً ، وَلِلعِبَادِ كَسْباً ، كَمَا جَاءَتْ بِهِ الآثَارُ لِبَيَانِ مَوْضِعِ الْجَزَاءِ مِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ ، وَامْتَثِلْ أَمْرَ اللهِ فِيْهِمْ ، وَخَلِّصْ قَسْمَكَ مِنْهُمْ بِأَمْرِهِ وَلاَ تُجَاوِزْهُ ، فَحُكْمُ اللهِ[١٣] قَائِمٌ يَحْكُمُ[١٤] عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ ، فَلاَ تَكُنْ أَنْتَ الْحَاكِمَ ، وَكَوْنُكَ مَعَهُمْ قَدَرٌ ، وَالقَدَرُ ظُلْمَةٌ ، فَادْخُلْ فِي الظُّلْمَةِ بِالْمِصْبَاحِ[١٥] ، وَهُوَ (الحَكَمُ) كِتَابُ اللهِ

(١) في المطبوع : (عطاياهم) .
(٢) في المطبوع : (طريق الهداية والزكاة والصدقة أو النذر) .
(٣) في نسخة : (ويفتتح) .
(٤) في المطبوع : (وشجرة توجد) .
(٥) في المطبوع : (وتحتل) . وفي نسخة : (تخلو) .
(٦) في نسخة : (كل) .
(٧) في المطبوع : (جل وعلا) .
(٨) في المطبوع : (لتكون موحداً للرب) .
(٩) في المطبوع : (لتخلص) .
(١٠) في المطبوع : (بهم) .
(١١) في المطبوع : (تقل) .
(١٢) في المطبوع : (لكن) .
(١٣) في نسخة : (فحكمه) .
(١٤) في المطبوع : (بحكمه) .
(١٥) في المطبوع : (بالظلمة في المصباح) .

وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ ، لاَ تَخْرُجُ عَنْهُمَا .

فَإِنْ خَطَرَ خَاطِرٌ ، أَوْ وَجَدْتَ إِلْهَاماً فَاعْرِضْهُمَا[١] عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنْ وَجَدْتَ فِيهِمَا[٢] تَحْرِيمَ ذَلِكَ ، مِثْلَ : أَنْ تُلْهَمَ بِالزِّنَا أَوِ الرِّبَا أَوْ مُخَالَطَةِ أَهْلِ الفُسُوقِ[٣] وَالفُجُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَعَاصِي ، فَادْفَعْهُ عَنْكَ ، واهْجُرْهُ وَلاَ تَقْبَلْهُ وَلاَ تَعْمَلْ بِهِ ، وَاقْطَعْ بِأَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ .

وَإِنْ وَجَدْتَ فِيهَا إِبَاحَةً[٤] ، كَالشَّهَوَاتِ المُبَاحَةِ مِنَ الأَكْلِ أَوِ الشُّرْبِ أَوِ اللُّبْسِ أَوِ النِّكَاحِ[٥] ، فَاهْجُرْهُ أَيْضاً وَلاَ تَقْبَلْهُ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ إِلْهَامِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَقَدْ أُمِرْتَ بِمُخَالَفَتِهَا وَعَدَاوَتِهَا[٦] .

وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَحْرِيمَهُ وَلاَ إِبَاحَتَهُ[٧] ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ لاَ تَعْقِلُهُ ، مِثْلَ أَنْ يُقَالَ[٨] لَكَ : ائْتِ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا ، الْقَ فُلاَناً الصَّالِحَ[٩] ، وَلاَ حَاجَةَ لَكَ هُنَاكَ ، وَلاَ فِي الصَّالِحِ لاسْتِغْنَائِكَ عَنْهُ بِمَا أَوْلاَكَ اللهُ (تَعَالَى) مِنْ نِعَمِهِ[١٠] مِنَ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ ، فَتَوَقَّفْ فِي ذَلِكَ وَلاَ تُبَادِرْ إِلَيْهِ فَتَقُولُ : (هَلْ) هَذَا إِلْهَامٌ (إِلاَّ) مِنَ الحَقِّ (جَلَّ وَعَلاَ) فَاعْمَلْ بِهِ ، بَلِ انْتَظِرِ[١١] الخَيْرَ كُلَّهُ فِي ذَلِكَ ، وَفِعْلُ الحَقِّ عزَّ وجلَّ بِأَنْ يَتَكَرَّرَ ذَلِكَ الإِلْهَامُ وَتُؤْمَرَ بِالسَّعْيِ ،

(١) في المطبوع : (أو وجد إلهام فاعرضه) .
(٢) في نسخة : (فيها) .
(٣) في المطبوع : (والرياء ومخالطة أهل الفسق) .
(٤) في المطبوع : (إباحته) .
(٥) في نسخة : (والشرب واللبس والنكاح) .
(٦) قال شيخ الإسلام في تعليقته على فتوح الغيب : ومراده بهجر المباح : إذا لم يكن مأموراً به ، كما قد بيّن مراده في غير هذا الموضع ، فإن المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعمة الله عليه ، وكان واجباً عليه ، وقد قدّمت أنه يدعو إلى طريقة السابقين المقرّبين ، لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين .
(٧) في المطبوع : (وإباحته) .
(٨) في المطبوع : (مثل السائق) .
(٩) في المطبوع : (صالحاً) .
(١٠) في المطبوع : (نعمته) .
(١١) في نسخة : (انظر) .

أَوْ عَلاَمَةٌ تَظْهَرُ لأَهْلِ الْعِلْمِ بِاللهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى[١] ـ يَعْقِلُهَا[٢] الْعُقَلاَءُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَالْمُؤَيَّدُوْنَ[٣] مِنَ الأَبْدَالِ .

وَإِنَّمَا لَمْ تُبَادِرْ[٤] إِلَى ذَلِكَ لأَنَّكَ لاَ تَعْلَمُ عَاقِبَتَهُ وَمَا يَؤُوْلُ الأَمْرُ إِلَيْهِ ، وَرُبَّمَا[٥] كَانَ فِيْهِ فِتْنَةٌ وَهَلاَكٌ وَمَكْرٌ مِنَ اللهِ وَامْتِحَانٌ ، فَاصْبِرْ حَتَّى يَكُوْنَ عزَّ وجلَّ هُوَ[٦] الْفَاعِلُ فِيْكَ ، فَإِذَا تَجَرَّدَ الْفِعْلُ وَحُمِلْتَ إِلَى هُنَاكَ ، وَاسْتَقْبَلَتْكَ فِتْنَةٌ كُنْتَ مَحْمُوْلاً مَحْفُوْظاً فِيْهَا ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُعَاقِبُكَ عَلَى فِعْلِهِ ، وَإِنَّمَا تَتَطَرَّقُ الْعُقُوْبَاتُ[٧] نَحْوَكَ لِكَوْنِكَ فِي الشَّيْءِ[٨] .

---

(١) في المطبوع : (عزَّ وجلَّ) .

(٢) في المطبوع : (يفعلها) .

(٣) في نسخة : (والمؤيديون) .

(٤) في المطبوع : (يتبادر) .

(٥) في المطبوع : (وما) .

(٦) في المطبوع : (يكون هو عزَّ وجلَّ) .

(٧) في المطبوع : (العقوبة) .

(٨) قال شيخ الإسلام في تعليقته على فتوح الغيب : فقد أمر رضي الله عنه [في نسخة : رحمه الله] بأنَّ ما كان محظوراً في الشرع يجب تركه ولا بُدّ ، وما كان معلوماً أنه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضاً ، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباحٌ لا مضرة فيه أو منه [في نسخة : فيه مضرة] . مثل السفر إلى مكان معيّن أو شخص معيّن ، والذهاب إلى مكان معيّن أو شخص معيّن ، فإن جنس هذا العمل ليس محرّماً ، ولا كل أفراده مباحة ، بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضَرَرٌ في دينه ، فأمره بالكفّ عن الذهاب حتّى يظهر [في نسخة : يقهر] أو يتبيّن له في الباطن أن هذا مصلحة ؛ لأنه إذا لم يتبيّن له أن الذهاب واجب أو مستحب لم ينبغ له فعله ، وإذا خاف الضرر ينبغي [في نسخة : انبغى] له تركه ، فإذا أكره على الذهاب لم يكن عليه حَرَجٌ فلا يؤاخذ بالفعل ، بخلاف ما إذا فعله باختياره أو شهوته [في نسخة : وشهوته] ، وإذ تبيّن له أنه مصلحةٌ راجحةٌ كان حسناً .

وقد جاءت شواهد السنة : بأن من ابتلي بغير تعرّضٍ منه أُعِيْنَ ، ومن تعرّض للبلاء خِيْفَ عليه . مثل قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة [رضي الله عنه] : « لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها » . ومنه قوله : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا » . وفي السنن : « من سأل القضاء ، واستعان عليه بالشفعاء ، وكل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ، ولم يستعن عليه ، أنزل الله عليه ملكاً يسدده » . وفي رواية : « وإن أكره عليه » . وفي الصحيحين أنه ﷺ قال في الطاعون : « إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » . وعنه [في نسخة : ومنه] أنه ﷺ نهى=

وَإِنْ كُنْتَ فِي حَالِ[1] الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ حَالُ[2] الوِلَايَةِ ، فَخَالِفْ هَوَاكَ ، وَاتَّبِعِ الأَمْرَ فِي الْجُمْلَةِ .

وَاتِّبَاعُ الأَمْرِ عَلَى قِسْمَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ تَأْخُذَ مِنَ الدُّنْيَا القُوْتَ الَّذِي هُوَ حَقُّ النَّفْسِ ، وَتَتْرُكَ الْحَظَّ ، وَتُؤَدِّيَ الْفَرْضَ ، وَتَشْتَغِلَ بِتَرْكِ الذُّنُوْبِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وَالقِسْمُ الثَّانِي : مَا كَانَ بِأَمْرٍ بَاطِنٍ ، وَهُوَ أَمْرُ الْحَقِّ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى[3] ـ ، يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَيَنْهَاهُ ، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ هَذَا[4] الأَمْرُ فِي الْمُبَاحِ الَّذِي لَيْسَ حُكْماً[5] فِي الشَّرْعِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيْلِ النَّهْيِ ، وَلاَ مِنْ قَبِيْلِ الأَمْرِ الوَاجِبِ ، بَلْ هُوَ مُهْمَلٌ ، تُرِكَ الْعَبْدُ يَتَصَرَّفُ فِيْهِ بِاخْتِيَارِهِ فَسُمِّيَ : مُبَاحاً ، فَلاَ يُحْدِثُ العَبْدُ فِيْهِ شَيْئاً مِنْ عِنْدِهِ ، بَلْ يَنْتَظِرُ الأَمْرَ فِيْهِ ، فَإِذَا أُمِرَ امْتَثَلَ فَتَصِيْرُ[6] (جَمِيْعُ) حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ[7] ، مَا فِي الشَّرْعِ حُكْمُهُ فَبِالشَّرْعِ ، وَمَا لَيْسَ لَهُ حُكْمٌ فِي الشَّرْعِ فَبِالأَمْرِ البَاطِنِ ، فَحِيْنَئِذٍ يَصِيْرُ مُحَقَّقاً حَالَ[8] أَهْلِ الحَقِيْقَةِ ، وَمَا لَيْسَ فِيْهِ أَمْرٌ بَاطِنٌ فَهُوَ مُجَرَّدُ الفِعْلِ حَالَةَ التَّسْلِيْمِ .

وَإِنْ كُنْتَ فِي حَالَةِ حَقِّ الْحَقِّ : وَهِيَ حَالَةُ الْمَحْقِ[9] وَالْفَنَاءِ ، (وَهِيَ) حَالَةُ الأَبْدَالِ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوْبِ لأَجْلِ الْحَقِّ[10] ، الْمُوَحِّدِيْنَ العَارِفِيْنَ أَرْبَابِ العُلُوْمِ وَالْعَقْلِ[11] ، السَّادَةِ

= عن النذر . ومنه قوله : « ذروني ما تركتم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم » .

(١) في المطبوع : (حالة) .

(٢) في المطبوع : (حالة) .

(٣) في المطبوع : (عزَّ وجلَّ) .

(٤) في المطبوع : (بهذا) .

(٥) في المطبوع : (ليس له حكم) .

(٦) في نسخة : (فيصير) .

(٧) في نسخة : (تعالى) .

(٨) في المطبوع : (محقاً) . وفي نسخة : (محققاً حال من) .

(٩) في المطبوع : (المحو) .

(١٠) في المطبوع : (لأجله) .

(١١) تحرف في نسخة إلى : (والفعل) .

الأُمَرَاءِ الشُّحْن[١] خُفَرَاء[٢] لِلْحَقِّ[٣] ، خُلَفَاءِ الرَّحْمَنِ وَأخِلاَّئِه[٤] وَأَعْيَانِهِ وَأَحِبَّائِه[٥] ـ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ـ .

فَاتِّبَاعُ الأَمْرِ فِيْهَا بِمُخَالَفَتِكَ إيَّاكَ بِالتَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالقُوَّةِ ، وَأَنْ لاَ تَكُوْنَ[٦] لَكَ إِرَادَةٌ وَهِمَّةٌ فِي شَيْءٍ أَلْبَتَّةَ دُنْيَاً وَعُقْبَى[٧] ، (فَتَكُوْنَ) عَبْدَ الْمَلِكِ لاَ عَبْدَ الْمُلْكِ ، وَعَبْدَ الأَمْرِ لاَ عَبْدَ الْهَوَى ، كَالطِّفْلِ مَعَ الظِّئْرِ[٨] ، والمَيْتِ الغَسِيْلِ مَعَ الغَاسِلِ ، وَالْمَرِيْضِ الْمَغْلُوْب[٩] عَلَى حِسِّهِ مَعَ الطَّبِيْب[١٠] فِيْمَا سِوَى الأَمْرِ وَالنَّهْي . وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *



(١) لعلّه أراد بهم من يُزَوِّدُون الناس بالأقوات والأرزاق ، ويشحنون لهم ما ينفعهم .

(٢) في نسخة : (السخي الخفراء) .

(٣) في نسخة : (الخلق) .

(٤) في نسخة : (وأجلائه) .

(٥) في نسخة : (وأحبابه) .

(٦) في المطبوع : (يكون) .

(٧) في نسخة : (وأخرى) .

(٨) المرضعة .

(٩) في نسخة : (المقلوب) .

(١٠) في المطبوع : (على جنبيه بين يدي الطبيب) .

المَقَالَةُ الحَادِيَةَ عشْرَةَ
فِي الشَّهْوَةِ

وَإِذَا أُلْقِيَتْ عَلَيْكَ شَهْوَةُ النِّكَاحِ فِي حَالَةِ الفَقْرِ ، وَعَجَزْتَ عَنْ مُؤْنَتِهِ فَصَبَرْتَ عَنْهُ مُنْتَظِرَ الفَرَجِ مِنَ البَارِي عزَّ وجلَّ :

إِمَّا بِزَوَالِهَا وَإِقْلاَعِهَا عَنْكَ بِقُدْرَتِهِ الَّتِي أَلْقَاهَا عَلَيْكَ وَأَوْجَدَهَا فِيكَ ، فَيُعِينُكَ أَوْ يَصُونُكَ وَحَيَاتَكَ عَنْ حَمْلِ مُؤْنَتِهَا أَيْضاً .

أَوْ بِإِيْصَالِهَا إِلَيْكَ مَوْهُوبَةً مُهَنَّأً مَكْفِيَاً مِنْ غَيْرِ ثِقَلٍ فِي الدُّنْيَا وَلاَ تَعَبٍ فِي العُقْبَى .

وَسَمَّاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ صَابِراً شَاكِراً لِصَبْرِكَ عَنْهَا رَاضِياً بِقِسْمَتِهِ فَزَادَكَ عِصْمَةً وَقُوَّةً ، فَإِنْ كَانَتْ قِسْماً لَكَ سَاقَهَا إِلَيْكَ مَكْفِيَاً مُهَنَّأً ، فَيَنْقَلِبُ الصَّبْرُ شُكْراً .

وَهُوَ عزَّ وجلَّ وَعَدَ الشَّاكِرِيْنَ بِالزِّيَادَةِ فِي العَطَاءِ . قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قِسْماً لَكَ ، فَالغِنَى عَنْهَا بِقَلْعِهَا مِنَ القَلْبِ إِنْ شَاءَتِ النَّفْسُ أَوْ أَبَتْ .

فَلاَزِمِ الصَّبْرَ ، وَخَالِفِ الْهَوَى ، وَعَانِقِ الأَمْرَ ، وَارْضَ بِالقَضَاءِ ، وَارْجُ بِذَلِكَ الفَضْلَ وَالعَطَاءَ .

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

* * *

الْمَقَالَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ
فِي النَّهْيِ عَنْ حُبِّ الْمَالِ

إِذَا أَعْطَاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَالاً فَاشْتَغَلْتَ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ حَجَبَكَ بِهِ عَنْهُ دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَرُبَّمَا سَلَبَكَ إِيَّاهُ وَغَيَّرَكَ وَأَفْقَرَكَ لاشْتِغَالِكَ بِالنِّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعِمِ ، وَإِنِ اشْتَغَلْتَ بِطَاعَتِهِ عَنِ الْمَالِ جَعَلَهُ لَكَ مَوْهِبَةً(١) وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ حَبَّةً وَاحِدَةً ، وَكَانَ الْمَالُ خَادِمَكَ وَأَنْتَ خَادِمُ الْمَوْلَى ، فَتَعِيشُ فِي الدُّنْيَا مُدَلَّلاً وَفِي العُقْبَى مُكَرَّماً مُطَيَّباً فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ(٢) .

* * *



(١) في نسخة : (هبة) .
(٢) قال الله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء : ٦٩] .

المَقَالَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ
فِي التَّسْلِيْمِ لأَمْرِ اللهِ

لاَ تَخْتَرْ جَلْبَ النَّعْمَاءِ وَلاَ دَفْعَ البَلْوَى ، فَالنَّعْمَاءُ وَاصِلَةٌ إِلَيْكَ[١] إِنْ كَانَتْ قِسْمَكَ اسْتَجْلَبْتَهَا أَوْ كَرِهْتَهَا ، وَالبَلْوَى حَالَّةٌ بِكَ إِنْ كَانَتْ قِسْمَكَ مَقْضِيَّةٌ عَلَيْكَ سَوَاءٌ كَرِهْتَهَا أَوْ رَفَعْتَهَا بِالدُّعَاءِ أَوْ صَبَرْتَ أَوْ تَجَلَّدْتَ لِرِضَا الْمَوْلَى .

بَلْ سَلِّمْ فِي الكُلِّ ، فَيَفْعَلَ الفِعْلَ فِيْكَ ، فَإِنْ كَانَتِ النَّعْمَاءُ فَاشْتَغِلْ بِالشُّكْرِ ، وَإِنْ كَانَتِ البَلْوَى فَاشْتَغِلْ بِالتَّصَبُّرِ وَالصَّبْرِ ، أَوِ الْمُوَافَقَةِ وَالتَّنَعُّمِ بِهَا ، أَوِ العَدَمِ أَوِ الفَنَاءِ فِيْهَا عَلَى قَدْرِ مَا تُعْطَى مِنَ الْحَالاَتِ وَتُنَقَّلَ فِيْهَا ، وَمَا تَسِيْرُ فِي الْمَنَازِلِ فِي طَرِيْقِ الْمَوْلَى الَّذِي أُمِرْتَ بِطَاعَتِهِ وَالْمُوَالاَةِ ، لِتَصِلَ إِلَى الرَّفِيْقِ الأَعْلَى ، فَتُقَامُ حِيْنَئِذٍ مَقَامَ مَنْ تَقَدَّمَ وَمَضَى مِنَ الصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ ، لِتُعَايِنَ مَنْ سَبَقَكَ إِلَى الْمَلِيْكِ وَمِنْهُ دَنَا ، وَوَجَدَ عِنْدَهُ كُلَّ طَرِيْفَةٍ ، وَسُرُوْراً وَأَمْناً ، وَكَرَامَةً وَنِعَماً .

دَعِ البَلِيَّةَ تَزُورُكَ ، خَلِّ مِنْ سَبِيْلِهَا ، وَلاَ تَقِفْ وَلاَ تَجْزَعْ مِنْ مَجِيْئِهَا وَقُرْبِهَا ، فَلَيْسَ نَارُهَا أَعْظَمَ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَلَظَى[٢] .

فَقَدْ ثَبَتَ فِي الْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ عَنْ خَيْرِ البَرِيَّةِ ، وَخَيْرِ مَنْ حَمَلَتْهُ الأَرْضُ وَأَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ : مُحَمَّدٌ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ تَقُوْلُ لِلْمُؤْمِنِ : جُزْ يَا[٣] مُؤْمِنُ ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُوْرُكَ لَهَبِي** »[٤] .

---

(١) في نسخة : (زيادة) .

(٢) اسمٌ لِجَهَنَّمَ لأنَّها تتلظى ، أي : تتلهَّب وتتوقَّد على الكُفَّار . ومنه قول الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾[المعارج : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾[الليل : ١٤] .

(٣) تحرف في المطبوع إلى : (جزياً) .

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ رقم ٦٦٨) وعنه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٢٩) وانظر ميزان الاعتدال للذهبي (٨٧٩٧) عن الحسن بن سفيان الصفار المصيصي وعلي بن سعيد الرازي ، عن سليم [في الحلية : سليمان . خطأ] بن منصور بن عمار ، عن أبيه ، عن بشير بن طلحة الجذامي ، عن خالد بن=

. . . .

= دُرَيْك [روايته عن يعلى مرسلة] ، عن يعلى بن مُنْيَة . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤٤٦) : رواه الطبراني ، وفيه : سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف . وقال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص١٨٣) : غريب وفيه نكارة بعضهم . أقول : سليم قال العقيلي عنه : فيه تجهم . وقال الدارقطني : يروي عن ضعفاء أحاديث لا يُتابع عليها . وفي الحديث انقطاع بين خالد ويعلى . ومنصور بن عمار : كان له المنتهى في البلاغة والوعظ وترقيق القلوب وتحريك الهمم ، وقال عنه أبو حاتم : ليس بالقوي . والله أعلم .

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٥) والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٢) من طريق أبي الحسن أحمد بن الحسين الصوفي ، عن سليم بن منصور بن عمار ، عن أبيه ، عن الهقل بن زياد ، عن خالد بن دريك ، عن بشير بن طلحة ، عن يعلى بن مُنْيَة . وقال البيهقي : تفرّد به سليم بن منصور ، وهو منكر . أقول : وزاد الخطيب بعد منصور : عن الأوزاعي .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٢٩) عن إبراهيم بن عبد الله ، عن محمد بن إسحاق الثقفي ، عن محمد بن جعفر صاحب منصور بن عمار ، عن منصور ، عن بشير بن طلحة ، عن خالد بن دريك ، عن يعلى بن منية .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ١٩٣) من طريق أحمد بن الهيثم بن خالد الدينوري ، عن عبد الله بن حمدان بن وهب الحافظ الدينوري ، عن محمد بن جعفر العابد ، عن أبي السري منصور بن عمار ، عن خالد بن الدريك ، عن يعلى بن منية . وقال الخطيب : هكذا قال : عن منصور بن عمار ، عن خالد بن دُرَيك . وروى هذا الحديث سليم بن منصور بن عمار ، عن أبيه ، واختلف عليه ، فقال إسحاق بن الحسن الحربي ، عن سليم ، عن أبيه ، عن بشير بن طلحة ، عن خالد بن دريك ، عن يعلى . ورواه أحمد بن الحسين بن إسحاق الصوفي ، عن سليم ، عن أبيه ، عن هقل بن زياد ، عن الأوزاعي ، عن خالد بن الدريك ، عن بشير ، عن طلحة ، عن يعلى بن منية . والله أعلم .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٢) من طريق إسحاق بن الحسن الحربي ، ومن طريق الحسن البزار ، كلاهما عن سليم بن منصور بن عمار ، عن أبيه ، عن بشير بن طلحة الجذامي ، عن خالد بن دريك ، عن يعلى بن منية . وقال الخطيب : وكذا رواه محمد بن إبراهيم البوسنجي ، عن سليم . ورواه علي بن موفق العابد ، عن منصور بن عمار كذلك أيضاً .

وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٣٥ و١١٤٣) والديلمي في الفردوس (٢٣٦٥) عن يعلى بن منيه أو أمية .

وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٨٢) للحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والخطيب والبيهقي في الشعب عن يعلى بن أمية .

تنبيه : ذكر عند بعضهم : يعلى بن أمية ، ويعلى بن منبه ، أو منية . والصحيح : يعلى بن أميّة بن أبي عبيدة بن همّام بن الحارث بن بكر بن زيد بن مالك بن حَنْظلة بن مالك بن زيد مَنَاة بن تميم =

فَهَلْ كَانَ نُورُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي أَطْفَأَ لَهَبَ النَّارِ فِي لَظَى إِلاَّ الَّذِي صَحِبَهُ فِي الدُّنْيَا الَّذِي لَنْ يَمُرَّ مَنْ أَطَاعَهَا وَعَصَى ؟! فَلْيُطْفِىء هَذَا النُّورُ لَهَبَ الْبَلْوَى ، وَلْتَجِدْ بَرْدَ صَبْرِكَ وَمُوَافَقَتِكَ لِلْمَوْلَى ، وَهَيَّجَ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ وَمِنْكَ دَنَا ، فَالْبَلِيَّةُ لَمْ تَأْتِكَ لِتُهْلِكَكَ ، لَكِنَّهَا تَأْتِيكَ لِتُجَرِّبَكَ ، وَتُحَقِّقَ صِحَّةَ إِيمَانِكَ وَتُوَثِّقَ[١] عُرْوَةَ يَقِينِكَ ، وَيُبَشِّرُكَ بَاطِنُهَا مِنْ مَوْلاَكَ بِمُبَاهَاتِهِ بِكَ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ[٢] حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟[٣] أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

فَإِنْ ثَبَتَ مَعَ الْحَقِّ[٤] إِيمَانُكَ ، وَوَافَقْتَهُ فِي فِعْلِهِ بِيَقِينِكَ ، كُلُّ ذَلِكَ بِتَوْفِيقٍ مِنْهُ وَمِنَّةٌ ، فَكُنْ حِينَئِذٍ أَبَداً صَابِراً مُوَافِقاً مُسَلِّماً ، لاَ تَحْدُثُ فِيكَ وَلاَ فِي غَيْرِكَ حَادِثَةٌ مَا خَرَجَ عَنِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، فَإِذَا كَانَ أَمْرُهُ عزّ وجلّ فَتَسَامَعْ وَتَسَارَعْ وَتَحَرَّكْ وَلاَ تَسْكُنْ وَلاَ تُسَلِّمْ لِلْقَدَرِ وَالْفِعْلِ ، بَلِ ابْذُلْ طَوْقَكَ وَمَجْهُودَكَ لِتُؤَدِّيَ الأَمْرَ ، فَإِنْ عَجَزْتَ فَدُونَكَ الالْتِجَاءَ إِلَى مَوْلاَكَ عزّ وجلّ ، فَالْتَجِىءْ إِلَيْهِ وَتَضَرَّعْ وَاعْتَذِرْ ، وَفَتِّشْ عَنْ سَبَبِ عَجْزِكَ عَنْ أَدَاءِ أَمْرِهِ وَصَدِّكَ عَنِ التَّشَوُّقِ لِطَاعَتِهِ لَعَلَّ ذَلِكَ لِشُؤْمِ دُعَائِكَ وَسُوءِ أَدَبِكَ فِي طَاعَتِهِ ، وَرُعُونَتِكَ وَاتِّكَالِكَ عَلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَإِعْجَابِكَ بِعِلْمِكَ وَشِرْكِكَ إِيَّاكَ[٥] بِنَفْسِكَ وَخَلْقِهِ ، فَصَدَّكَ عَنْ بَابِهِ ، وَعَزَلَكَ عَنْ طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ ، وَقَطَعَ عَنْكَ مَدَدَ تَوْفِيقِهِ ، وَوَلَّى عَنْكَ وَجْهَهُ الْكَرِيمَ ، وَمَقَتَكَ وَقَلاَكَ ، وَشَغَلَكَ بِبَلاَئِكَ : دُنْيَاكَ ، وَهَوَاكَ ، وَإِرَادَتِكَ ، وَمُنَاكَ .

أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَشْغُولٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَاطِعُكَ عَنْ عَيْنِ الَّذِي خَلَقَكَ وَرَبَّاكَ ، وَخَوَّلَكَ وَأَعْطَاكَ وَحَبَاكَ[٦] .

= التميمي . وهو أيضاً : يعلى بن مُنْيَة ، وهي أمّه ، ويقال : جدّته ، وهي مُنْيَة بنت غزوان أخت عتبة بن غزوان . أسلم يوم فتح مكة ، وشهد الطائف وحنيناً وتبوك مع رسول الله ﷺ وروى عنه .

(١) تحرف في المطبوع إلى : (وتوثيق) .
(٢) نختبركم بالجهاد وغيره .
(٣) نظهر .
(٤) في نسخة : (الخلق) .
(٥) في نسخة : إياه .
(٦) تحرف في المطبوع إلى : (حياك) .

احْذَرْ ، لاَ يُلْهِيكَ عَنْ مَوْلاَكَ غَيْرُ مَوْلاَكَ ، وَكُلُّ مَنْ سِوَى مَوْلاَكَ غَيْرُهُ ، فَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ خَلَقَكَ لَهُ ، فَلاَ تَظْلِمْ نَفْسَكَ فَتَشْغَلَ بِغَيْرِهِ عَنْ أَمْرِهِ فَيُدْخِلُكَ النَّارَ الَّتِي ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[1] [البقرة : ٢٤] فَتَنْدَمُ فَلاَ يَنْفَعُكَ النَّدَمُ ، وَتَعْتَذِرُ فَلاَ تُعْذَرُ ، وَتَسْتَعْتِبُ فَلاَ تُعْتَبُ ، وَتَسْتَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا لِتَسْتَدْرِكَ وَتُصْلِحَ فَلاَ تُرْجَعُ .

ارْحَمْ نَفْسَكَ وَأَشْفِقْ عَلَيْهَا ، وَاسْتَعْمِلِ الآلاَتِ وَالأَدَوَاتِ الَّتِي أُعْطِيتَهَا فِي طَاعَةِ مَوْلاَكَ مِنَ العَقْلِ[2] وَالإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالعِلْمِ ، اسْتَضِىءْ بِنُورِهَا فِي ظُلُمَاتِ الأَقْدَارِ ، وَتَمَسَّكْ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَسَيِّرْهُمَا فِي طَرِيقِ مَوْلاَكَ ، وَسَلِّمْ مَا سِوَاهُمَا إِلَى الَّذِي خَلَقَكَ وَأَنْشَأَكَ ، فَلاَ تَكْفُرْ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ وَرَبَّاكَ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ رَجُلاً سَوَّاكَ[3] ، وَلاَ تُرِدْ غَيْرَ أَمْرِهِ ، وَلاَ تَكْرَهْ غَيْرَ نَهْيِهِ .

اقْنَعْ مِنَ الدُّنْيَا وَالأُخْرَى بِهَذَا الْمُرَادِ ، وَاكْرَهْ فِيهِمَا هَذَا الْمَكْرُوهَ ، فَكُلُّ مَا يُرَادُ تَبَعٌ لِهَذَا الْمُرَادِ ، وَكُلُّ مَكْرُوهٍ تَبَعٌ لِهَذَا الْمَكْرُوهِ .

---

(١) وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم : ٦] .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (الفعل) .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[الكهف : ٣٧] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[الحج : ٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون : ١٢ ـ ١٦] . وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[فاطر : ١١] . وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[غافر : ٦٧] . وغير ذلك كثير في القرآن الكريم .

إِذَا كُنْتَ مَعَ أَمْرِهِ كَانَتِ الأَكْوَانُ فِي أَمْرِكَ ، وَإِذَا كَرِهْتَ نَهْيَهُ فَرَّتْ مِنْكَ الْمَكَارِهُ أَيْنَ كُنْتَ وَحَلَلْتَ .

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ : « يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنَا اللهُ (الَّذِي) لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ، أَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ ، فَيَكُونُ . أَطِعْنِي أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ ، فَيَكُونُ »(١) .

وَقَالَ عزَّ وجلَّ : « يَا دُنْيَا ، مَنْ خَدَمَنِي فَاخْدُمِيهِ ، وَمَنْ خَدَمَكِ فَأَتْعِبِيهِ »(٢) .

---

(١) لم أجده ، وسيأتي في هذا الكتاب (المقالة ١٦ و٤٦) . ولكن قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة : ١١٧] . وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران : ٤٧] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[الأنعام : ٧٣] . وقال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل : ٤٠] . وقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس : ٨٢] .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٩٤) ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (٥/ ٨٧) عن أحمد بن إسحاق ، عن محمد بن العباس ، عن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي عَبّاد ، عن محمد بن بشر ، عن جعفر بن محمد الصادق قال : أوحى الله تعالى إلى الدنيا : أن اخدمي من خدمني ، وأتعبي من خدمك .

ورواه البيهقي في الزهد الكبير (١٤) عن أبي عبد الله الحاكم ، عن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ، عن أبي عثمان سعيد بن إسماعيل ، عن أبي منصور نصر بن داود بن طوق البغدادي ، عن داود بن نوح قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : سمعت أبا حازم يقول : أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى الدنيا : من خدمك فأتعبيه ، ومن خدمني فاخدميه . ورواه البيهقي (١٥) عن أبي عبد الله الحاكم ، عن أبي العباس محمد بن يعقوب بن يوسف الأموي ، عن عمّه محمد بن يوسف ، عن إسحاق الحنظلي ، عن سفيان ، عن أبي حازم فذكره بمثله .

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٥٤) والفردوس للديلمي (٨٠٦٤) وإسناده في زهر الفردوس لابن حجر (٤/ ٢٥٨) من طريق أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم ، عن إبراهيم بن عصمة بن إبراهيم المُعدل ومحمد بن سليمان بن منصور المذكر ، عن الحسين بن داود بن معاذ البلخي [منكر الحديث ، ليس بثقة] ، عن الفضيل بن عياض ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود رفعه : « يقول الله عزَّ وجلَّ للدنيا : يا دنيا اخدمي من خدمني ، وأتعبي يا دنيا من خدمك » .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٤٤) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٣٦) عن الحسن بن محمد الخلال ، عن يوسف بن عمر القواس ، عن أبي مقاتل محمد بن العباس بن شجاع ، عن الحسين بن داود بن معاذ البلخي ، عن الفضيل بن عياض ، عن منصور ، عن إبراهيم ، =

فَإِذَا جَاءَ نَهْيُهُ عزَّ وجلَّ فَكُنْ كَأَنَّكَ مُسْتَرْخِيَ الْمَفَاصِلِ ، مُسَكَّنَ الْحَوَاسِّ ، مُضَيَّقَ الذِّرَاعِ ، مُتَمَاوِتَ الْجَسَدِ ، زَائِلَ الْهَوَى ، مُنْطَمِسَ الوُسُوْمِ ، مُنْمَحِيَ الرُّسُوْمِ ، مَنْسِيَّ الأَثَرِ ، مُظْلِمَ الفَنَاءِ[1] ، مُتَهَدِّمَ البِنَاءِ ، خَاوِيَ البَيْتِ ، سَاقِطَ العَرْشِ ، لاَ حِسَّ وَلاَ أَثَرَ .

= عن علقمة ، عن عبد الله رفعه : « أوحى الله إلى الدنيا : أن اخدمي من خدمني ، وأتعبي من خدمك » . وقال الخطيب : تفرّد بروايته الحسين ، عن الفضيل ، وهو موضوع ، ورجاله كلهم ثقات سوى الحسين بن داود .

ورواه ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٣٥ـ ١٣٦) وابن حجر في زهر الفردوس (٤/ ٢٥٨) من طريق أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، عن أبي جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازي ، عن الحسين بن داود البلخي ، عن فضيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود رفعه : « يقول الله تبارك وتعالى للدنيا : مُري على أوليائي وأحبائي لا تخليها فتفتنيهم ، وأكرمي من خدمني ، وأتعبي من خدمك » . وانظر الفردوس (٨٠٦٥) .

وله شاهدٌ : رواه الطبراني في الكبير (١٩/ رقم ١) وعنه ابن المرزبان في الفوائد (١/ ٢) وانظر الفردوس للديلمي (٥٢١) .ولسان الميزان لابن حجر (٦/ ٢٢١) واللآلىء المصنوعة للسيوطي (٢/ ٣٢١) عن الوليد بن حماد بن جابر الرملي [ذكره ابن عساكر وابن حجر ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً فهو في عداد المجاهيل] ، عن عبد الله بن الفضل بن عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري ، عن أبيه الفضل ، عن أبيه عاصم ، عن أبيه عمر ، عن أبيه قتادة بن النعمان بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أنزل الله إليَّ جبريل بأحسن ما كان يأتيني صُورةً ، فقال : إن السلام يقرئك السلام يا محمد ، ويقول : إني أوحيت إلى الدنيا : أن تَمَرَّري وتكدّري [في مجمع : وتنكدي] ، وتضيّقي وتشدّدي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، وتسهّلي وتوسّعي وتطيّبي لأعدائي حتى يكرهوا لقائي ، فإني جعلتها سجناً لأوليائي وجنّة لأعدائي » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠٨٢) : رواه الطبراني ، وفيه : جماعةٌ لم أعرفهم . وقال ابن حجر : أشار العلائي في الموشى إلى أن عبد الله وأباه لا يعرفان .

ورواه البيهقي في الشعب (٩٨٠٠) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٣/ ١٢٢) عن أبي محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني ، عن أبي بكر أحمد بن سعيد بن فريج الأخميمي ، عن أبي العباس الوليد بن حماد ، عن أبي محمد عبد الله بن الفضل بن عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأنصاري ، عن أبيه الفضل ، عن أبيه عاصم ، عن أبيه عمر ، عن أبيه قتادة بن النعمان فذكره بنحوه . وقال البيهقي : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيه مجاهيل . **أقول** : وفي مطبوع الشعب والتاريخ نقص يستدرك من هنا .

(١) تحرف في المطبوع إلى : (القنا) . والفناء هنا : فناء البيت .

فَلْيَكُنْ سَمْعُكَ كَأَنَّهُ أَصَمُّ ، وَعَلَى ذَلِكَ مَخْلُوقٌ ، وبَصَرُكَ كَأَنَّهُ مُعَصَّبٌ(١) أَوْ مَرْمُودٌ(٢) أَوْ مَطْمُوسٌ(٣) ، وَشَفَتَاكَ كَأَنَّ بِهِمَا قَرْحَةً وَبُثُوراً ، وَلِسَانُكَ كَأَنَّ بِهِ خَرَساً وَكَلُولاً(٤) ، وَأَسْنَانُكَ كَأَنَّ بِهِمَا ضَرَيَاناً(٥) وَأَلَماً وَنُشُوراً(٦) ، وَيَدَاكَ كَأَنَّ بِهِمَا شَلَلاً وَعَنِ البَطْشِ قُصُوراً ، وَرِجْلاكَ كَأَنَّ بِهِمَا رَعْدَةً وَارْتِعَاشاً وَجُرُوحاً ، وَفَرْجُكَ كَأَنَّ بِهِ عِنَّةً(٧) وَبِغَيْرِ ذَلِكَ الشَّأْنِ مَشْغُولاً ، وَبَطْنُكَ كَأَنَّ بِهِ امْتِلاَءً وَارْتِوَاءً وَعَنِ الطَّعَامِ غَنِيٌّ ، وَعَقْلُكَ كَأَنَّكَ مَجْنُونٌ وَمَخْبُولٌ ، وَجَسَدُكَ كَأَنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَى القَبْرِ مَحْمُولٌ .

فَالتَّسَامُعُ وَالتَّسَارُعُ فِي الأَمْرِ ، وَالتَّقَاعُدُ وَالتَّجَاعُدُ وَالتَّقَاصُرُ فِي النَّهْيِ ، وَالتَّمَاوُتُ وَالتَّعَادُمُ وَالتَّفَانِي فِي القَدَرِ ، فَاشْرَبْ هَذِهِ الشَّرْبَةَ ، وَتَدَاوَ بِهَذَا الدَّوَاءِ ، وَتَغَذَّ بِهَذَا الغِذَاءِ تَنْجَحْ وَتَشْفَى ، وَتُعَافَى مِنْ أَمْرَاضِ الذُّنُوبِ وَعِلَلِ الأَهْوَاءِ ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *



(١) أي : وُضِعَتِ العِصَابَةُ عَلَى عَيْنَيْهِ .
(٢) الرَّمَدُ : هَيَجَانُ العَيْنِ .
(٣) طَمِيْسٌ وَمَطْمُوسٌ : ذاهِبُ البَصَرِ .
(٤) كَلَّ لِسَانُهُ وَبَصَرُهُ يَكِلُّ : نَبَا .
(٥) عِرْقٌ ضَرِيٌّ : لاَ يَكَادُ يَنْقَطِعُ دَمُهُ .
(٦) انْتَشَرَ العَصَبُ : انْتَفَخَ .
(٧) العَنِينُ : من لا يأتي النساء عجزاً ، أو لا يُرِيدُهُنَّ .

المَقَالَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ
فِي اتِّبَاعِ أَحْوَالِ القَوْمِ

لاَ تَدَعْ حَالَةَ القَوْمِ يَا صَاحِبَ الْهَوَى ، أَنْتَ تَعْبُدُ الْهَوَى وَهُمْ عَبِيْدُ الْمَوْلَى ، أَنْتَ رَغْبَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَرَغْبَةُ القَوْمِ فِي العُقْبَى ، أَنْتَ تَرَى الدُّنْيَا وَهُمْ يَرَوْنَ رَبَّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَأَنْتَ أُنْسُكَ بِالْخَلْقِ وَأُنْسُ القَوْمِ بِالْحَقِّ ، أَنْتَ قَلْبُكَ مُتَعَلِّقٌ بِمَنْ فِي الأَرْضِ وَقُلُوبُ القَوْمِ بِرَبِّ العَرْشِ ، أَنْتَ يَصْطَادُكَ مَنْ تَرَى وَهُمْ لاَ يَرَوْنَ مَنْ تَرَى ، بَلْ يَرَوْنَ خَالِقَ الأَشْيَاءِ وَمَا يُرَى ، فَازَ القَوْمُ بِهِ وَحَصُلَتْ لَهُمُ النَّجَاةُ ، وَبَقِيتَ أَنْتَ مُرْتَهناً بِمَا تَشْتَهِي مِنَ الدُّنْيَا وَتَهْوَى ، فَنَوْا عَنِ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالإِرَادَةِ وَالْمُنَى فَوَصَلُوا إِلَى المَلِكِ الأَعْلَى ، فَأَرْفَقَهُمْ عَلَى غَايَةِ مَا رَامَ مِنْهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[المائدة : ٥٤ والحديد : ٢١ والجمعة : ٤] .

فَلاَزَمُوا ذَلِكَ وَوَاظَبُوا بِتَوْفِيقٍ مِنْهُ وَتَيْسِيرٍ بِلاَ عَنَاءٍ ، فَصَارَتِ الطَّاعَةُ لَهُمْ رُوحاً وَغِذَاءً ، وَصَارَتِ الدُّنْيَا إِذْ ذَاكَ فِي حَقِّهِمْ نِقْمَةً وَخِزْياً ، فَكَأَنَّهَا لَهُمْ جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ مَا يَرَوْنَ شَيْئاً مِنَ الأَشْيَاءِ حَتَّى يَرَوا قَبْلَهُ فِعْلَ الَّذِي خَلَقَ وَأَنْشَأَ فِيهِمْ ثَبَاتَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَقَرَارَ الْمَوْتِ وَالإِحْيَاءِ ، إِذْ جَعَلَهُمْ مَلِيكُهُمْ أَوْتَاداً لِلأَرْضِ الَّتِي دَحَى[(١)] ، فَكُلٌّ[(٢)] كَالْجَبَلِ الَّذِي رَسَا ، فَتَنَحَّ عَنْ طَرِيقِهِمْ وَلا تُزَاحِمْ مَنْ لَمْ يُحِدْهُ[(٣)] عَنْ قَصْدِهِ الآبَاءُ وَالأَبْنَاءُ ، فَهُمْ خَيْرُ مَنْ خَلَقَ رَبِّي وَبَثَّ فِي الأَرْضِ وَذَرَأَ ، فَعَلَيْهِمْ سَلاَمُ اللهِ وَتَحِيَّاتُهُ مَا دَامَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ .

* * *

(١) قال الله تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[النازعات : ٣٠] .

(٢) في نسخة : (فكن) .

(٣) تحرف في المطبوع إلى : (يفده) . ولعلّ المقصود : يبعده ويحرفه عن قصده .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ
فِي الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ

رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي فِي مَوْضِعٍ شِبْهِ مَسْجِدٍ وَفِيْهِ قَوْمٌ مُنْقَطِعُوْنَ ، فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ لِهَؤُلاَءِ فُلاَنٌ يُؤَدِّبُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ ، فَأَشَرْتُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصَّالِحِيْنَ ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ حَوْلِي ، فَقَال وَاحِدٌ مِنْهُمْ : فَأَنْتَ لأَيِّ شَيْءٍ لاَ تَتَكَلَّمُ ؟! فَقُلْتُ : إِنْ رَضِيتُمُوْنِي لِذَلِكَ[1] ، ثُمَّ قُلْتُ : إِذَا انْقَطَعْتُمْ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ فَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً بِأَلْسِنَتِكُمْ ، فَإِذَا تَرَكْتُمْ ذَلِكَ فَلاَ تَسْأَلُوْهُمْ بِقُلُوْبِكُمْ ، فَإِنَّ السُّؤَالَ بِالْقَلْبِ كَالسُّؤَالِ بِاللِّسَانِ .

ثُمَّ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن : ٢٩] فِي تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ ، وَرَفْعٍ وَخَفْضٍ ، فَقَوْمٌ يَرْفَعُهُمْ إِلَى عِلِّيِّيْنَ ، وَقَوْمٌ يَحُطُّهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِيْنَ .

فَخَوْفُ الَّذِيْنَ رَفَعَهُمْ إِلَى عِلِّيِّيْنَ أَنْ يَحُطَّهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِيْنَ ، وَرَجَاؤُهُمْ أَنْ يُبْقِيَهُمْ وَيَحْفَظَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْعِ .

وَخَوْفُ الَّذِيْنَ حَطَّهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِيْنَ ، أَنْ يُبْقِيَهُمْ وَيُخَلِّدَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيْهِ مِنَ الْحَطِّ ، وَرَجَاؤُهُمْ أَنْ يَرْفَعَهُمْ إِلَى عِلِّيِّيْنَ . ثُمَّ انْتَبَهْتُ[2] .

* * *

(١) في المطبوع : (ذلك) .
(٢) أراد بانتباهه أنه استيقظ .

المَقَالَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ
فِي التَّوَكُّلِ وَمَقَامَاتِهِ

مَا حُجِبْتَ عَنْ فَضْلِ اللهِ وَالبَدْءِ بِنِعْمَةٍ إلاَّ لاتِّكَالِكَ عَلَى الْخَلْقِ وَالأَسْبَابِ ، وَالصَّنَائِعِ وَالاكْتِسَابِ .

فَالْخَلْقُ حِجَابُكَ[1] عَنِ الأَكْلِ بِالسُّنَّةِ وَهُوَ الكَسْبُ[2] ، فَمَا دُمْتَ قَائِماً مَعَ الْخَلْقِ رَاجِياً لِعَطَايَاهُمْ وَفَضْلِهِمْ ، سَائِلاً لَهُمْ ، مُتَرَدِّداً إِلَى أَبْوَابِهِمْ ، فَأَنْتَ مُشْرِكٌ بِاللهِ خَلْقَهُ ، فَيُعَاقِبُكَ بِحِرْمَانِ الأَكْلِ بِالسُّنَّةِ الَّذِي هُوَ الكَسْبُ مِنْ حَلاَلِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ إِذَا تُبْتَ عَنِ القِيَامِ مَعَ الْخَلْقِ ، وَشِرْكِكَ بِرَبِّكَ عزَّ وجلَّ إِيَّاهُمْ ، وَرَجَعْتَ إِلَى الكَسْبِ فَتَأْكُلَ بِالكَسْبِ وَتَتَوَكَّلَ عَلَى الكَسْبِ وَتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ وَتَنْسَى فَضْلَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ، فَأَنْتَ مُشْرِكٌ أَيْضاً ، إِلاَّ أَنَّهُ شِرْكٌ خَفِيٌّ أَخْفَى مِنَ الأَوَّلِ ، فَيُعَاقِبُكَ اللهُ عزَّ وجلَّ وَيَحْجُبُكَ عَنْ فَضْلِهِ وَالبَدَاءَةِ بِهِ .

فَإِذَا تُبْتَ عَنْ ذَلِكَ وَأَزَلْتَ الشِّرْكَ عَنِ الوَسَطِ ، وَرَفَعْتَ اتِّكَالَكَ عَنِ الكَسْبِ وَالْحَوْلِ وَالقُوَّةِ ، وَرَأَيْتَ اللهَ عزَّ وجلَّ هُوَ الرَّزَّاقُ ، وَهُوَ الْمُسَبِّبُ وَالْمُسَهِّلُ وَالْمُقَوِّي عَلَى الكَسْبِ ، وَالْمُوَفِّقُ لِكُلِّ خَيْرٍ ، وَالرِّزْقُ بِيَدِهِ تَارَةً يُوَاصِلُكَ بِهِ بِطَرِيقِ الْخَلْقِ عَلَى وَجْهِ الْمَسْأَلَةِ لَهُمْ فِي حَالَةِ الابْتِلاَءِ أَوِ الرِّيَاضَةِ أَوْ عِنْدَ سُؤَالِكَ لَهُ عزَّ وجلَّ ، وَأُخْرَى بِطَرِيقِ الكَسْبِ مُعَاوَضَةً ، وَأُخْرَى مِنْ فَضْلِهِ مُبَادَاةً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرَى الوَاسِطَةَ وَالسَّبَبَ ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِ وَاسْتَطْرَحْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرُفِعَ الْحِجَابُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ فَضْلِهِ ، وَبَادَاكَ وَغَذَّاكَ بِفَضْلِهِ عِنْدَ كُلِّ حَاجَةٍ عَلَى قَدْرِ مَا يُوَافِقُ حَالَكَ ، كَفِعْلِ الطَّبِيبِ الشَّفِيقِ الرَّفِيقِ الْحَبِيبِ لِلْمَرِيضِ حِمَايَةً مِنْهُ عزَّ وجلَّ ، وَتَنْزِيهاً

---

(١) قال عبد الله بن أبي الحسن الْجُبَّائي كما في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٢٠/ ٤٥٠) : كَانَ الشيخ عبد القادر يقول : الْخَلْقُ حِجَابُكَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَنَفْسُكَ حِجَابُكَ عَنْ رَبِّكَ . وانظر شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٢٠٠) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (المكسب) .

لَكَ عَنِ الْمَيْلِ إِلَى مَنْ سِوَاهُ ، يُرْضِيكَ بِفَضْلِهِ ، فَإِذَا يَنْقَطِعُ عَنْ قَلْبِكَ كُلُّ إِرَادَةٍ وَكُلُّ شَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ وَمَطْلُوبٍ وَمَحْبُوبٍ ، فَلاَ يَبْقَى فِي قَلْبِكَ سِوَى إِرَادَتِهِ عزَّ وجلَّ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَسُوقَ إِلَيْكَ قِسْمَكَ الَّذِي لاَ بُدَّ مِنْ تَنَاوُلِهِ وَلَيْسَ هُوَ رِزْقاً لأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ سِوَاكَ ، أَوْجَدَ عِنْدَكَ شَهْوَةَ ذَلِكَ الْقِسْمِ وَسَاقَهُ إِلَيْكَ ، فَيُوَاصِلُكَ بِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، ثُمَّ يُوَفِّقُكَ وَيُعَرِّفُكَ أَنَّهُ مِنْهُ وَهُوَ سَائِقُهُ إِلَيْكَ وَرَازِقُهُ لَكَ ، فَتَشْكُرُهُ حِينَئِذٍ وَتَعْرِفُ وَتَعْلَمُ ، فَيَزِيدُكَ خُرُوجاً مِنَ الْخَلْقِ وَبُعْداً مِنَ الأَنَامِ ، وَأَخْلَيْتَ الْبَاطِنَ عَمَّا سِوَاهُ عزَّ وجلَّ .

ثُمَّ إِذَا قَوِيَ عِلْمُكَ وَيَقِينُكَ ، وَشُرِحَ صَدْرُكَ وَنُوِّرَ قَلْبُكَ ، وَزَادَ قُرْبُكَ مِنْ مَوْلاَكَ وَمَكَانَتُكَ لَدَيْهِ عِنْدَهُ ، وَأَهْلِيَّتُكَ لِحِفْظِ الأَسْرَارِ ، عَلِمْتَ مَتَى يَأْتِيكَ قِسْمُكَ كَرَامَةً لَكَ وَإِجْلالاً لِحُرْمَتِكَ فَضْلاً مِنْهُ وَمِنَّةً وَهِدَايَةً .

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة : ٢٤] . وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت : ٦٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[البقرة : ٢٨٢] .

ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْكَ التَّكْوِينَ ، فَتَكُونَ بِالإِذْنِ الصَّرِيحِ الَّذِي هُوَ لاَ غُبَارَ عَلَيْهِ ، وَالدَّلاَلاَتُ اللاَئِحَةُ كَالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ، وَبِكَلاَمِهِ اللَّذِيذِ الَّذِي هُوَ أَلَذُّ مِنْ كُلِّ لَذِيذٍ ، وَإِلْهَامِ صِدْقٍ مِنْ غَيْرِ تَلَبُّسٍ ، مُصَفًّى مِنْ هَوَاجِسِ النَّفْسِ وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ كُتُبِهِ : « يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنَا اللهُ (الَّذِي) لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ، أَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ ، فَيَكُونُ . أَطِعْنِي أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ ، فَيَكُونُ »[1] .

وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَوَاصِّهِ مِنْ بَنِي آدَمَ .

* * *

(١) مرّ في هذا الكتاب (المقالة ١٣) .

الْمَقَالَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ
فِي كَيْفِيَّةِ الوُصُولِ إِلَى اللهِ بِوَاسِطَةِ الْمُرْشِدِ

إِذَا وَصَلْتَ إِلَى اللهِ وَقَرُبْتَ بِتَقْرِيبِهِ وَتَوْفِيقِهِ .

وَمَعْنَى الْوُصُوْلِ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ : خُرُوجُكَ عَنِ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالإِرَادَةِ وَالْمُنَى ، وَالثُّبُوتُ مَعَ فِعْلِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُوْنَ مِنْكَ حَرَكَةٌ فِيْكَ وَلاَ فِي خَلْقِهِ بِكَ ، بَلْ بِحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ وَفِعْلِهِ ، فَهِيَ حَالَةُ الفَنَاءِ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالوُصُوْلِ ، فَالوُصُولُ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ لَيْسَ كَالوُصُولِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ الْمَعْقُولِ الْمَعْهُودِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى : ١١] .

جَلَّ الْخَالِقُ أَنْ يُشَبَّهَ (بِمَخْلُوْقَاتِهِ) أَوْ يُقَاسَ عَلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، فَالوَاصِلُ إِلَيْهِ عزَّ وجلَّ مَعْرُوفٌ عِنْدَ[١] أَهْلِ الوُصُولِ بِتَعْرِيفِهِ عزَّ وجلَّ لَهُمْ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى حِدَةٍ[٢] لاَ يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ، وَلَهُ عزَّ وجلَّ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ سِرٌّ مِنْ حَيْثُ هُوَ لاَ يَطَّلِعُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ غَيْرُهُ ، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ لِلْمُرِيدِ سِرٌّ لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ شَيْخُهُ ، وَلِلشَّيْخِ سِرٌّ لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مُرِيْدُهُ الَّذِي قَد دَنَا سَيْرُهُ إِلَى عَتَبَةِ بَابِ حَالَةِ شَيْخِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ الْمُرِيْدُ حَالَةَ شَيْخِهِ أُفْرِدَ عَنِ الشَّيْخِ وَقُطِعَ عَنْهُ ، فَيَتَوَلاَّهُ الْحَقُّ عزَّ وجلَّ فَيَفْطِمُهُ عَنِ الْخَلْقِ جُمْلَةً ، فَيَكُوْنُ الشَّيْخُ كَالظِّئْرِ وَالدَّايَةِ ، لاَ رَضَاعَ بَعْدَ حَوْلَيْنِ ، وَلاَ خلقَ بَعْدَ زَوَالِ الْهَوَى وَالإِرَادَةِ .

الشَّيْخُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مَا دَامَ ثَمَّ هَوًى وَإِرَادَةٌ لِكَسْرِهِمَا ، وَأَمَّا بَعْدَ زَوَالِهِمَا فَلاَ ، لأَنَّهُ لاَ كُدْرَةَ وَلاَ نُقْصَانَ ، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَى الْحَقِّ عزَّ وجلَّ عَلَى مَا بَيَّنَّا فَكُنْ آمِناً أَبَداً مِنْ سِوَاهُ عزَّ وجلَّ فَلاَ تَرَى لِغَيْرِهِ وُجُوداً أَلْبَتَّةَ ، لاَ[٣] فِي الضُّرِّ وَلاَ فِي النَّفْعِ ، وَلاَ فِي العَطَاءِ وَلاَ فِي الْمَنْعِ ، وَلاَ فِي

---

(١) في نسخة : (عن) .

(٢) في نسخة : (حدا) .

(٣) في المطبوع : (ولا) .

الْخَوْفِ وَلاَ فِي الرَّجَاءِ ، ﴿ هُوَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] .

فَكُنْ أَبَداً نَاظِراً إِلَى فِعْلِهِ مُرَقِّباً لأَمْرِهِ ، مُشْتَغِلاً بِطَاعَتِهِ ، مُبَايِناً عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ دُنْيَاً وَأُخْرَى .

لاَ تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِشَيْءٍ مِنْهُمْ ، وَاجْعَلِ الْخَلِيقَةَ أَجْمَعَ كَرَجُلٍ كَتَّفَهُ سُلْطَانٌ عَظِيمٌ مُلْكُهُ ، شَدِيدٌ أَمْرُهُ ، مَهُولَةٌ صَوْلَتُهُ وَسَطْوَتُهُ . ثُمَّ جَعَلَ الْغُلَّ فِي رَقَبَتِهِ مَعَ رِجْلَيْهِ[١] ، ثُمَّ صَلَبَهُ عَلَى شَجَرَةِ الأَذِرَةِ[٢] ، عَلَى شَاطِىءِ نَهَرٍ عَظِيمٍ مَوْجُهُ ، فَسِيحٍ عَرْضُهُ ، عَمِيقٍ غَوْرُهُ ، شَدِيدٍ جَرْيُهُ . ثُمَّ جَلَسَ السُّلْطَانُ عَلَى كُرْسِيِّهِ[٣] ، عَظِيمٌ قَدْرُهُ ، عَالٍ سَمَاؤُهُ ، بَعِيدٌ مَرَامُهُ وَوُصُولُهُ ، وَتَرَكَ إِلَى جَنْبِهِ أَحْمَالاً مِنَ السِّهَامِ وَالرِّمَاحِ وَالنَّبْلِ وَأَنْوَاعِ السِّلاَحِ والقِسِيِّ[٤] وَمِمَّا لاَ يَبْلُغُ قَدْرَهَا غَيْرُهُ ، فَجَعَلَ يَرْمِي إِلَى الْمَصْلُوبِ بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ السِّلاَحِ ، فَهَلْ يَحْسُنُ لِمَنْ يَرَى ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ النَّظَرَ إِلَى السُّلْطَانِ وَالْخَوْفَ مِنْهُ وَالرَّجَاءَ لَهُ ، وَيَنْظُرَ إِلَى الْمَصْلُوبِ وَيَخَافَ مِنْهُ وَيَرْجُوَهُ ، أَلَيْسَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ يُسَمَّى فِي قَضِيَّةِ العَقْلِ عَدِيمَ العَقْلِ وَالْحِسِّ مَجْنُوناً ، بَهِيمَةً غَيْرَ إِنْسَانٍ ؟ .

نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ العَمَى بَعْدَ البَصِيرَةِ ، وَمِنَ القَطِيعَةِ بَعْدَ الوُصُولِ ، وَمِنَ الصُّدُودِ بَعْدَ الدُّنُوِّ وَالقُرْبِ ، وَمِنَ الضَّلاَلَةِ بَعْدَ الْهِدَايَةِ ، وَمِنَ الكُفْرِ بَعْدَ الإِيْمَانِ .

فَالدُّنْيَا كَالنَّهرِ العَظِيمِ الْجَارِي الَّذِي ذَكَرْنَاهُ . كُلُّ يَوْمٍ فِي زِيَادَةِ مَاءٍ وَهِيَ شَهَوَاتُ بَنِي آدَمَ وَلَذَّاتُهُمْ فِيهَا ، وَالدَّوَاهِي الَّتِي تُصِيبُهُمْ مِنْهَا .

وَأَمَّا السِّهَامُ وَأَنْوَاعُ السِّلاَحِ ، فَالبَلاَيَا الَّتِي يَجْرِي بِهَا القدَرُ إِلَيْهِمْ ، فَالغَالِبُ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الدُّنْيَا : البَلاَيَا ، وَالنِّقَمُ[٥] ، وَالآلاَمُ ، وَالْمِحَنُ . وَمَا يَجِدُونَ من النِّعَمِ وَاللَّذَّاتِ فِيهَا

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ [يس : ٨] . بأن تُضَمَّ إليها الأيدي ؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق .

(٢) لعلها الأرزة .

(٣) في نسخة : (كرسيّ) .

(٤) في المطبوع : (والقسا) . والقسيّ : القوس والنشاب .

(٥) في المطبوع : (والنفع) . والنِّقْمَةُ : المكافأة بالعُقُوبة .

فَمَشُوبَةٌ بِالآفَاتِ إِذَا اعْتَبَرَهَا كُلُّ عَاقِلٍ لاَ حَيَاةَ لَهُ وَلاَ عَيْشَ وَلاَ رَاحَةَ إِلاَّ فِي الآخِرَةِ إِنْ كَانَ مُؤْمِناً ، لأَنَّ ذَلِكَ خُصُوصاً فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِ .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ »(١) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : « لاَ رَاحَةَ لِلْمُؤْمِنِ دُونَ لِقَاءِ رَبِّهِ »(٢) . ذَلِكَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَالَ ﷺ : « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ »(٣) .

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/١٦٩ و١٧٠ و١٧٢ و١٧٣ و٢١٠ و٢١٢ و٢١٦ و٢٥٢ و٢٧٦) والبخاري (٢٨٣٤ و٢٨٣٥ و٢٩٦١ و٢٩٦١ و٣٧٩٥ و٣٧٩٦ و٤٠٩٩ و٤١٠٠ و٦٤١٣ و٧٢٠١) ومسلم (١٨٠٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
ورواه الإمام أحمد (٥/٣٣٢) والبخاري (٣٧٩٧ و٤٠٩٨ و٦٤١٤) ومسلم (١٨٠٤) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .
ورواه الإمام أحمد (٦/٢٨٩) ومسلم (٢٩١٦) عن أم سلمة رضي الله عنها .
ورواه الإمام أحمد (٢/٣٨١) بإسنادٍ ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١٧) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/١٣٦) . ورواه وكيع في الزهد (٨٦) وعنه الإمام أحمد في الزهد (٨٤٥) كلاهما عن سفيان ، عن العلاء بن المسيب ، عن إبراهيم ، عن عبد الله بن مسعود من قوله .
ورواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٣٣) من طريق إسماعيل بن يزيد ، عن إبراهيم بن الأشعث ، عن فضيل بن عياض ، عن العلاء بن المسيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود من قوله . وقال أبو نعيم : لا أعلم للفضيل عن العلاء شيئاً غيره متصلاً .
وذكره الديلمي في الفردوس (١٣٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
وروي عنه ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ » . رواه الإمام أحمد (٦/٤٤ و٥٥ و٢٠٧ و٢١٨ و٢٣٦) ومسلم (٢٦٨٤) والترمذي (١٠٦٧) وابن ماجة (٤٢٦٤) النسائي (٤/١٠) عن عائشة رضي الله عنها . ورواه الإمام أحمد (٢/٣٤٦ و٤٢٠) ومسلم (٢٦٨٥) والنسائي (٤/٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه البخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٢٦٨٣) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . ورواه البخاري (٦٥٠٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٣) رواه الإمام أحمد (٢/٣٢٣ و٣٨٩ و٤٨٥) والزهد له (١٥٢) ومسلم (٢٩٥٦) وابن ماجة (٤١١٣) والترمذي (٢٣٢٤) وابن أبي عاصم في الزهد (١٤٢) وأبو يعلى (٦٤٦٥ و٦٥٢٦) وابن حبان (٦٨٧ و٦٨٨) وابن عدي في الكامل (٣/٨٨٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٥٠) والبيهقي في الشعب (٩٧٩٧ و١٠٤٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه . وانظر علل الدارقطني (٨/٣٣١) .

=

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « التَّقِيُّ مُلْجَمٌ »[1] .

فَمَعَ هَذِهِ الأَخْبَارِ وَالعِيَانِ : كَيْفَ يُدَّعَى طِيبُ العَيْشِ فِي الدُّنْيَا .

فَالرَّاحَةُ كُلُّ الرَّاحَةِ فِي الانْقِطَاعِ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ وَمُوَافَقَتِهِ ، وَالاسْتِطْرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيَكُوْنُ العَبْدُ بِذَلِكَ خَارِجاً عَنِ الدُّنْيَا ، فَحِينَئِذٍ يَكُوْنُ الدَّلَالُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَلُطْفاً وَصَدَقَةً وَفَضْلاً . وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *



(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ٣٧٤) . ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٣٩) عن أبي محمد ابن حيّان ، عن أحمد بن الحسين ، عن أحمد الدورقي ، كلاهما عن قبيصة ، عن سفيان ، [زاد ابن سعد : عن رجل] قال : نال رجلٌ من عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : ما يمنعك منه ؟! قال : إنّ المتقي ملجم .

ورواه البيهقي في الشعب (٥٧٨٨) عن أبي عبد الله الحاكم ، عن دعلج بن أحمد السجزي ، عن أحمد بن علي الأبار ، عن أبي طاهر ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن مالك قال : قال عمر بن عبد العزيز : التقي ملجم لا يستطيع كل ما يريد .

المَقَالَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ
فِي النَّهْيِ عَنِ الشَّكْوَى

الوَصِيَّةُ : لاَ تَشْكُوَنَّ إِلَى أَحَدٍ مَا نَزَلَ بِكَ مِنْ خَيْرٍ كَائِناً مَن كَانَ صَدِيْقاً أَوْ عَدُوّاً ، وَلاَ تَتَّهِمَنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ فِيْمَا فَعَلَ فِيْكَ وَأَنْزَلَ بِكَ مِنَ البَلاَءِ ، بَلْ أَظْهِرِ الْخَيْرَ وَالشُّكْرَ ، فَكَذِبُكَ بِإِظْهَارِكَ لِلشُّكْرِ مِنْ غَيْرِ نِعْمَةٍ عِنْدَكَ خَيْرٌ مِنْ صِدْقِكَ فِي إِخْبَارِكَ جَلِيَّةَ الْحَالِ بِالشَّكْوَى ، مَنِ الَّذِي خَلاَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[إبراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨] . فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ عِنْدَكَ وَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُهَا ؟ .

لاَ تَسْكُنْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ ، وَلاَ تَسْتَأْنِسْ بِهِ ، وَلاَ تُطْلِعْ أَحَداً عَلَى مَا أَنْتَ فِيْهِ ، بَلْ يَكُونُ أُنْسُكَ بِاللهِ عزَّ وجلَّ وَسُكُونُكَ إِلَيْهِ ، وَشَكْوَاكَ مِنْهُ وَإِلَيْهِ لاَ تَرَى ثَانِياً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لأَحَدٍ ضَرٌّ وَلا نَفْعٌ ، وَلاَ جَلْبٌ وَلاَ دَفْعٌ ، وَلاَ عِزٌّ وَلاَ ذُلٌّ ، وَلاَ رَفْعٌ وَلاَ خَفْضٌ ، وَلاَ فَقْرٌ وَلاَ غِنًى ، وَلاَ تَحْرِيْكٌ وَلاَ تَسْكِيْنٌ ، الأَشْيَاءُ كُلُّهَا خَلْقُ اللهِ عزَّ وجلَّ وَبِيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، بِأَمْرِهِ وَبِإِذْنِهِ[1] جَرَيَانُهَا ، وَ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الرعد : ٢ وفاطر : ١٣ والزمر : ٥] ، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد : ٨] ، لاَ مُقَدِّمَ لِمَا أَخَّرَ ، وَلاَ مُؤَخِّرَ لِمَا قَدَّمَ ، قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[يونس : ١٠٧] .

فَإِنْ شَكَوْتَ مِنْهُ عزَّ وجلَّ وَأَنْتَ مُعَافًى وَعِنْدَكَ نِعْمَةٌ ، طَالِباً الزِّيَادَةَ ، وَتَعَامِياً عَنْ مَالِهِ عِنْدَكَ مِنَ النِّعْمَةِ وَالعَافِيَةِ اسْتِهْزَاءً بِهَا ، غَضِبَ عَلَيْكَ وَأَزَالَهُمَا عَنْكَ ، وَحَقَّقَ شَكْوَاكَ ، وَضَاعَفَ بَلْوَاكَ ، وَشَدَّدَ عُقُوبَتَكَ وَمَقْتَكَ وَقِلاَكَ ، وَأَسْقَطَكَ مِنْ عَيْنِهِ . احْذَرِ الشَّكْوَى جِدّاً وَلَوْ قُطِّعْتَ وَقُرِضَ لَحْمُكَ بِالْمَقَارِيْضِ .

---

(١) في المطبوع : (وإذنه) .

إِيَّاكَ إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ ، اللهَ اللهَ ثُمَّ اللهَ ، النَّجَاةَ النَّجَاةَ ، الْحَذَرَ الْحَذَرَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْزِلُ بِابْنِ آدَمَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ بِشَكْوَاهُ مِنْ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ .

كَيْفَ يُشْتَكَى مِنْهُ عزَّ وجلَّ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَخَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود : ١] ، ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة : ١١٧] ، ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج : ٦٣ ولقمان : ١٦] ، (﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[الشورى : ١٩]) ، وَ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[آل عمران : ١٨٢ والأنفال : ٥١ والحج : ١٠] ، كَطَبِيبٍ حَكِيمٍ حَبِيبٍ شَفِيقٍ لَطِيفٍ قَرِيبٍ ، هَلْ تُتَّهَمُ الْوَالِدَةُ الرَّحِيمَةُ ؟! .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اللهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا »(١) .

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤) والبزار في البحر الزخّار (٢٨٧) والطبراني في الأوسط (٣٠١١) والصغير (٢٧٢) وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٢٨) والبيهقي في الشعب (٧١٣٢ و١١٠١٨) من طرقٍ عن سعيد بن أبي مريم ، عن محمد بن مطرف أبو غسان ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قدم عَلَى النبي ﷺ سبْيٌ ، فإذا امرأةٌ في السبي تَحلبُ ثديها تَسْعَى [في رواية : تسقي] إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار ؟ » . قلنا : لا ، وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله ﷺ : « للهُ أرحمُ بعبادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِهَا » . هذا لفظ البخاري .

وزاد البزار : قال : وبلغني أن رسول الله ﷺ كان في بعض مغازيه ، فبينما هم يسيرون ، إذ الشاة فرخ طير ، فأقبل أحد أبويه حتى سقط في أيدي الذي أخذ الفرخ ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا تعجبون لهذا الطير ! أخذ فرخه فأقبل حتى سقط في أيديهم ، والله لله أرحم بخلقه من هذا الطير بفرخه » . وقال البزار : وهذا الحديث لا نعلم رواه عن النبي ﷺ إلا عمر ، ولا نعلم له طريقاً عن عمر إلا هذا الطريق ، ولا رواه عن زيد ، إلا محمد بن مطرف .

ورواه عبد بن حميد (٥٣٠) عن عبد الله بن بكر السهمي ، عن فائد أبو الورقاء ، عن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي قال : خرجت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر قعوداً ، وإذا غلام صغيرٌ يبكي ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : « ضم الصبيَّ إليك فإنه ضالٌ » ، فضمه عمر إليه ، فبينا نحن قعوداً ، إذ أمٌ له تولول ـ أظنه قال : وتقول : وابنياه ـ وتبكي ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : « نادي المرأة ، فإنها أم الصبي » وهي كاشفة عن رأسها ، ليس على رأسها خمارٌ جزعاً على ابنها ، فجاءت حتى قبضت الصبي من حجر عمر ، وهي تبكي ، والصبي في حجرها ، فالتفتت ، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت : واحرباه ، ألا أرى رسول الله ﷺ ؟! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك أترون هذه رحيمة بولدها ؟ » . فقال أصحابه : بلى ، يا رسول الله ، كفى بالمؤمن رحمة . فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمدٍ بيده ، الله أرحم بالمؤمن من هذه بولدها » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦١٣) : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه : فائد أبو الورقاء ، وهو متروك .

=

أَحْسِنِ الأَدَبَ يَا مِسْكِيْنُ ، تَصَبَّرْ[1] عِنْدَ البَلاَءِ إِنْ ضَعُفْتَ عَنِ الصَّبْرِ ، ثُمَّ اصْبِرْ إِنْ ضَعُفْتَ عَنِ الرِّضَا وَالْمُوَافَقَةِ ، ثُمَّ ارْضَ وَوَافِقْ إِنْ وَجَدْتَ ، ثُمَّ افْنَ إِذَا فَقَدْتَ . أَيُّهَا الكِبْرِيْتُ الأَحْمَرُ ، أَيْنَ أَنْتَ ؟ أَيْنَ تُوْجَدُ وَتُرَى ؟ أَمَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ٢١٦] . طَوَى عَنْكَ عِلْمَ حَقِيْقَةِ الأَشْيَاءِ وَحَجَبَكَ عَنْهُ ، فَلاَ تُسِيءِ الأَدَبَ فَتَكْرَهَ (بِكَ) أَوْ تُحَبَّ بِكَ .

بَلِ اتَّبِعِ الشَّرْعَ فِي جَمِيْعِ مَا يَنْزِلُ بِكَ إِنْ كُنْتَ فِي حَالَةِ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ القَدَمُ الأُوْلَى ، وَاتَّبِعِ الأَمْرَ فِي حَالَةِ الوِلاَيَةِ وَوُجُوْدِ الْهَوَى وَلاَ تَتَجَاوَزْهُ[2] ، وَهِيَ القَدَمُ الثَّانِيَةُ . وَارْضَ بِالفِعْلِ وَوَافِقْ ، وَافْنَ فِي حَالَةِ البَدَلِيَّةِ وَالغَوْثِيَّةِ وَالقُطْبِيَّةِ[3] وَالصِّدِّيْقِيَّةِ ، وَهِيَ (حَالَةُ) الْمُنْتَهَى .

تَنَحَّ عَنِ الطَّرِيْقِ القَذِرِ[4] ، خَلِّ عَنْ سَبِيْلِهِ ، رُدَّ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ ، كُفَّ لِسَانَكَ عَنِ

= وروى عبد الرزاق (١١/ ٢٩٧) ومن طريقه البيهقي في الشعب (٧١٣١) عن معمر ، عن زيد بن أسلم مرسلاً قال : كان النبي ﷺ في بعض أسفاره ، فأخذ رجل فرخ طائر ، فجاء الطائر فألقى نفسه في حجر الرجل مع فرخه ، فأخذه الرجل . فقال النبي ﷺ : « عجباً لهذا الطائر! جاء وألقى نفسه في أيديكم رحمةً لولده ، فوالله لله أرحم بعبده المؤمن من هذا الطائر بفرخه » . ورواه بنحوه الحارث بن أبي أسامة (٩٢٤ زوائد) من طريق أبي عمرو الشيباني ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ .

وروى الطبراني في الكبير (٨٩٢٩) والبيهقي في الشعب (٦٦٠٢) من طريق المسعودي ، عن القاسم قال : قال عبد الله بن مسعود : لا تجعلوا بحمد الناس ولا بذمهم ، فإنك أو لعلك أن ترى من أخيك اليوم شيئاً يعجبك لعله أن يسوءك غداً ، ولعلك أن ترى منه اليوم شيئاً يسوءك ، لعله يعجبك غداً ، وإن الناس يعيرون [في مجمع : يغترون] وإنما يغفر الله الذنوب يوم القيامة ، والله أرحم بعبده يوم يلقاه من أم واحد ، فرشت له بأرض فيء ، ثم لمسته [مجمع : لمست] ، فإن كانت شوكة كانت بها قبله ، وإن كانت لدغة كانت بها قبله » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٨٦) : إسناده منقطع .

(١) التصبّر : تكلف الصبر ومحاولته .

(٢) في المطبوع : (وخمود وجود الهوى ولا تجاوزه) .

(٣) في نسخة : (والعينية) بدل : (والغوثية والقطبية) .

(٤) في المطبوع : (طريق القذر) .

الشَّكْوَى ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ إِنْ كَانَ خَيْراً زَادَكَ الْمَوْلَى طِيبَةً وَلَذَّةً وَسُرُوراً[١] ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً حَفِظَكَ فِي طَاعَتِهِ فِيْهِ ، وَأَزَالَ عَنْكَ الْمَلاَمَةَ ، وَأَفْعَدَكَ[٢] فِيْهِ حَتَّى يَتَجَاوَزَ عَنْكَ ، وَيُرِيْحَكَ[٣] عِنْدَ انْقِضَاءِ[٤] أَجَلِهِ ، كَمَا يَنْقَضِي اللَّيْلُ فَيُسْفِرُ عَنِ النَّهَارِ ، وَالْبَرْدُ فِي الشِّتَاءِ فَيُسْفِرُ عَنِ الصَّيْفِ ، ذَلِكَ أُنْمُوذَجٌ[٥] عِنْدَكَ ، فَاعْتَبِرْ بِهِ ، ثُمَّ ذُنُوبٌ وَآثَامٌ وَإِجْرَامٌ وَتَلْوِيْثَاتٌ[٦] بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالْخَطَايَا[٧] ، وَلاَ يَصْلُحُ لِمُجَالَسَةِ الْكَرِيْمِ إِلاَّ طَاهِرٌ[٨] عَنْ أَنْجَاسِ الذُّنُوبِ وَالزَّلاَّتِ ، وَلاَ يَقْبَلُ عَلَى شِدَّتِهِ[٩] إِلاَّ طَيِّباً[١٠] مِنْ دَرَنِ[١١] الدَّعْوَى[١٢] وَالْوُهُوسَاتِ[١٣] ، كَمَا لاَ يَصْلُحُ لِمُجَالَسَةِ الْمُلُوْكِ إِلاَّ الطَّاهِرُ مِنَ الأَنْجَاسِ وَأَنْوَاعِ النَّتَنِ وَالأَوْسَاخِ ، فَالْبَلاَيَا مُكَفِّرَاتٌ مُطَهِّرَاتٌ .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « حُمَّى يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ »[١٤] .



(١) في المطبوع : (وسروراً ولذة) .
(٢) في المطبوع : (وأفقدك) .
(٣) في المطبوع : (ويرحل) .
(٤) في المطبوع : (القضاء) .
(٥) في نسخة : (النموذج) .
(٦) في نسخة : (وتلويث) .
(٧) في المطبوع : (والخطيئات) .
(٨) في المطبوع : (الطاهر) .
(٩) في المطبوع : (سدته) .
(١٠) في نسخة : (طيب) .
(١١) في نسخة : (دون) .
(١٢) في نسخة : (والدعاوى) .
(١٣) في نسخة : (والهَلْوسات) . وفي نسخة : (والهواشات) . والهويس : الفِكْر ، وما تخفيه في صدرك .
(١٤) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٤٩) ومن طريقه البيهقي في الشعب (٩٨٦٩) عن أحمد بن إبراهيم ، عن شعيب بن حرب ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر [ضعيف] ، عن عبد الملك بن عمير قال : قال أبو الدرداء : حُمّى ليلة كفّارة سنة .
ورواه البيهقي في الشعب (٩٨٦٥) من طريق أبي حفص عمر بن محمد الجمحي ، عن علي بن عبد العزيز ، عن سعيد بن يعقوب الطالقاني ، عن ابن المبارك ، عن عمر بن مغيرة ، عن حوشب ، عن الحسن : إنه ليكفر عن العبد خطاياه كلها بحمّى ليلة .
=

صَدَقَ ﷺ(١) .

= ورواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٨) والبيهقي في الشعب (٩٨٦٦) من طريقين عن أبي عبد الله سعيد بن يعقوب الطالقاني ، عن عبد الله بن المبارك ، عن عمر بن المغيرة المصيصي [قال البخاري : منكر الحديث ، مجهول] ، عن حوشب ، عن الحسن رفعه : « إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمّى ليلة » . قال ابن المبارك : هذا من جيّد الحديث . وانظر الإصابة لابن حجر (ترجمة حوشب التابعي) .

ورواه الترمذي (٢٠٨٩) عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن قال : كانوا يرتجون الحمى ليلة كفّارة لما نقص من الذنوب .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد (١٦٠٤) عن بيان بن الحكم ، عن أبي جعفر العابد محمد بن حاتم الجرجرائي ، عن بشر بن الحارث الحافي ، عن حماد بن زيد ، عن هشام ، عن الحسن قال : كانوا يرجون في حُمّى ليلة كفّارة لما سلف من الذنوب .

ورواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٩) ومن طريقه البيهقي في الشعب (٩٨٦٧) عن خالد بن خداش ، عن حماد بن زيد ، عن هشام ، عن الحسن قال [في الشعب : قالوا] : كانوا يرجون في حُمّى ليلةٍ كفارةً لما مضى من الذنوب . وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٥٢٢١) : رواه ابن أبي الدنيا ورواته ثقات .

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٦٢) عن محمد بن الحسين الموصلي ، عن أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان ، عن صالح بن أحمد الهروي ، عن أحمد بن راشد الهلالي ، عن حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي ، عن الحسن بن صالح ، عن الحسن بن عمرو ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله بن مسعود رفعه : « الحمى حظ كل مؤمن من النار ، وحمى ليلةٍ يكفر خطايا سنة مجرمة » . وذكره الديلمي في الفردوس (٢٧٨٨) عن ابن مسعود .

(١) قال شيخ الإسلام في تعليقته على فتوح الغيب : فقد بيّن الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أن لزوم الأمر والنهي لا بُدَّ منه في كل مقام ، وذكر الأحوال الثلاث التي جعلها : حال صاحب التقوى ، وحال الحقيقة ، وحال حق الحق . وقد فُسّر مقصوده بأنه : لا بُدَّ للعبد في كُلّ حالٍ من أن يريد فعل ما أمر به في الشرع ، وترك ما نُهِيَ عنه في الشرع ، وأنه إذا أمر العبد بترك إرادته فهو فيما لَم يؤمر به ولَم ينه عنه ، وهذا حق ، فإنه لَم يؤمر به فتكون [في نسخة : فيكون] له إرادة في وجوده ولا نهي عنه فتكون له إرادة في عدمه فيخلو في مثل هذا عن إرادة النقيضين .

وقد بيّن أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائماً الأمر الشرعيّ الظاهر إن عرفه ، أو الأمر الباطن . وبيّن أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا مُحرّم ، وأن مثل هذا ينتظر فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر .

فإن قلت : فما الفرق بين هذا ، وبين صاحب التقوى الذي قبله ؟ وصاحب حق الحق الذي بعده ؟ . قيل : أمّا الذين [في نسخة : الذي] بعده الذين سَمّاهم : الأبدال ، فهم الذين لا يفعلون إلا =

. . . .

= بأمر الحق ولا يفعلون إلا به ، فلا يشهدون لأنفسهم فعلاً فيما فعلوه من الطاعة ؛ بل يشهدون أنه هو الفاعل بهم ، ما قام بهم من طاعة أمره . ولهذا قال : « فَاتَّبَاعُ الأَمْرِ فِيْهَا بِمُخَالَفَتِكَ إِيَّاكَ بِالتَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ » . فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبيّة مع توحيد الإِلْهيّة ، فيشهدون : أن الله هو الذي خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير ، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا مِنَّةً على أحدٍ . ويرون : أن الله خالق أفعال العباد فلا يرون أحداً مُسيئاً إليهم ، ولا يرون لهم حقّاً على أحدٍ ، إذ قد شهدوا أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وهم يعلمون أن العباد لا يستحقّون من أنفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئاً ، بل هو الذي كتب على نفسه الرحمة . ويشهدون : أنه يستحق أن يُعبد ولا يُشرك به شيءٌ ، وأنه يستحق أن يتقّى حقّ تقاته ، وحقّ تقاته : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . فيرون : إنما قام بهم من العمل الصالح فهو جوده وفضله [في نسخة : بفضله وجوده] وكرمه ، له الحمد في ذلك . ويشهدون : أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأما ما قام بالعباد من أذاهم هو خلقه [في نسخة : فالله خالقه] وهو من عدله ، وما تركه الناس من حقوقهم التي يستحقونها على الناس فهو الذي لَم يخلقه ، وله الحمد على كل حال ، على ما فعل وما لَم يفعل . ولهذا كانوا منكسرةً قلوبهم ، لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض ، ولا أعظم انكساراً مِمَّن لَم ير لنفسه إلا العدم لا يرى له شيئاً ولا يرى به شيئاً .

وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه في إخلاص الدين لله ، وأنه لا يفعل إلا ما أمر به ، فلا يفعل إلا لله ، لكن قصر عنه في شهود توحيد الربوبية ورؤيته ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنه ليس له في الحقيقة شيءٌ ، بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به ، وأن كمال هذا الشهود لا يبقي شيئاً من العُجْبِ ولا الكِبْرِ ، ونحو ذلك ، فكلاهما قائمٌ بالأمر مطيعٌ لله ، لكن هذا يشهد أن الله هو الذي جعله مسلماً مصليّاً ، وأنه في الحقيقة لَم يحدث شيئاً ، وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدق به إذ كان مقرّاً بأن الله خالق أفعال العباد ، لكن قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزلة المعدوم .

وأيضاً : بينهما فرقٌ من جهةٍ ثانيةٍ ، وهي : أنَّ الأول تكون له إرادةٌ وهِمَّةٌ في أمور فيتركها ، فهو يُميِّز في مراداته ، بين ما يُؤمر به وما يُنْهَى عنه ، وما لا يُؤمر به ولا يُنهى عنه ، ولهذا [في نسخة : وهذا] لَم يبق له مراداً أصلاً إلا ما أراده الرب : إمّا أمراً به فيمتثله هو بالله ، وإما فعلاً فيه فيفعله الله به ، ولهذا شبهه بالطفل مع الظئر ، في غير الأمر والنهي .

وأما الأول الذي هو في مقام التقوى العامّة ، فإنَّ له شهوات للمحرّمات ، وله التفاتٌ إلى الخلق ، وله رؤيةٌ نفسه ، فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى ، بأن يكفّ عن المحرمات ، وعن تناول الشهوات بغير الأمر ، فهذا يحتاج أن يُمَيِّز بين ما يفعله وما لا يفعله ، وهو التقوى .

وصاحب الحقيقة لَم يبق له ما يفعله إلا ما يؤمر به فقط ، فلا يفعل إلا ما أمر به في الشرع ، وما كان مباحاً لَم يفعل إلا ما أُمِرَ به (باطناً) .

وأما الثالث : فقد تَمَّ شهوده في أنه لا يفعل إلا الله وبالله ، فلا يفعل إلا ما أمر الله به لله ، ويشهد أن الله هو الذي فعل ذلك [في نسخة : ذاك] في الحقيقة ، ولا تكون له هِمَّةٌ وَإرادةٌ [في نسخة : همة =

. . . .

= إرادة] أن يفعل لنفسه ، ولا لغير الله ، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله تعالى .

والثلاثة : مشتركون في الطريق ، في أن كلاً منهم لا يفعل إلا الطاعة ، لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة ، وبصفاء النية والإرادة . والله أعلم .

فإن قيل : كلامُ الشيخ كُلُّهُ يدور على أنه يتّبع الأمر مهما أمكن معرفته باطناً وظاهراً ، وما ليس فيه أمرٌ باطنٌ ولا ظاهرٌ [في نسخة : باطناً ولا ظاهراً] يكون فيه مسلماً لفعل الرب ، بحيث لا يكون له اختيارٌ لا في هذا ولا في هذا ، بل إن عرف الأمر كان معه ، وإن لم يعرفه كان مع القدر ، فهو مع أمر الرب إن عَرَفَ ، وإلاّ فمع خلقه ، فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، وهذا يقتضي [في نسخة : يقضي] أن من الحوادث ما ليس فيه أمرٌ ولا نهيٌ ، فلا يكون للهِ فيه حكمٌ لا باستحبابٍ ولا كراهةٍ [في نسخة : كراهية] . وقد صرّح بذلك : هو ، والشيخ حَمّاد الدّبّاس ، وأن السالك يصل إلى أمورٍ لا يكون فيها حكمٌ شرعيٌ بأمرٍ ولا نهيٍ ، بل يقف العبد مع القدر ، وهذا الموضع هو الذي يكون السالك فيه عندهم مع الحقيقة القدرية المَحْضَة ، إذ ليس هنا حقيقة شرعية .

وهذا مِمّا يُنازعهم فيه أهل العلم بالشريعة ، ويقولون : (إن) الفعل : إمّا أن يكون بالنسبة إلى الشرع : وجوده راجحاً على عدمه ، وهو الواجب والمستحب . وإمّا أن يكون عدمه راجحاً على وجوده ، وهو المحرم والمكروه . وإمّا أن يستوي الأمران ، وهو المباح . وهذا التقسيم بحسب الأمر المطلق .

ثم الفعل المعين ـ الذي يقال : هو مباح ـ : إمّا أن تكون مصلحته راجحةً للعبد لاستعانته به على طاعته [في نسخة : طاعة] ولحسن نيته . فهذا يصير أيضاً محبوباً راجح الوجود بهذا الاعتبار . وإمّا أن يكون مُفَوِّتاً للعبد ما هو أفضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب . فهذا عَدَمُهُ خَيْرٌ له .

والسالك المتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين في حقّه مستوي الطرفين ، فإنه إذا لم يَسْتَعِنْ به على طاعته [في نسخة : طاعة] ، كان تركه وفعل الطاعة [في نسخة : طاعة] مكانه خيراً له ، وإنما قدر وجوده وعدمه سواءٌ إذا كان مع عدمه يَشتغل بمباح مثله . فيقال : لا فرق بين هذا وهذا ، فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقربون إلى الله بالفرائض ، كأداء الواجبات وترك المحرمات ، ويشتغلون مع ذلك بِمُباحاتٍ . فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوي وجوده وعدمه في حقهم ، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباحٍ آخَرٍ ، ولا سبيل (إلى) أن تترك النفس فعلاً إن لَم تشتغل بفعلٍ آخرَ يُضادُّ الأول ، إذ لا تكون مُعطَّلةً عن جميع الحركات والسكنات .

ومن هذا أنكر الكعبي المباح في الشريعة ؛ لأنّ كل مباحٍ فهو يشتغل به عن محرم ، وترك المحرم واجب ، ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده ، وهذا المباح ضده ، والأمر بالشيء [في نسخة : بشيء] نهيٌ عن ضدِّه ، والنهي عنه أمرٌ بضده (المعين) إن لَم يكن له إلا ضدٌّ واحدٌ ، وإلاّ فهو أمرٌ بأحد أضداده ، فأيُّ ضدٍّ تلبَّس به كان واجباً من باب الواجب المخير .

وسؤال الكعبي هذا أشكلَ على كثيرٍ من النُّظّار ، فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه ، كأبي الحسن الآمدي ، وقوّاه طائفةٌ ، بناءً على أنّ النهيَ عن الشيء أمرٌ بضدِّه كأبي المعالي .

. . . .

= ومنهم من قال : هذا فيما إذا كانت أضداده محصورة ، فأما ما ليست أضداده محصورة فلا يكون النهيُ عنه أمراً بأحدهما ، كما يفرق بين الواجب المطلق والواجب المخير ، فيقال في المخيّر : هو أمرٌ بأحد الثلاثة ، ويقال في المطلق : هو أمرٌ بالقدر المشترك ، وَجَدْنَا [في نسخة : وجدي] أبو البَركات يَميْلُ إلى هذا .

وقد ألزموا الكعبي إذا ترك الحرامَ بحرام آخر ، وهو قد يقول : عليه ترك المحرمات كلها إلى ما ليس بمُحرّم ، بل إمّا مُباحٌ ، وإما مستحبٌ ، وإما واجبٌ .

وتَحقِيقُ الأمر : أن قولنا : الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدِّهِ وأضداده ، والنهيُ عنه أمرٌ بضدِّه ، أو بأحدِ أضداده . من جنس قولنا : الأمر بالشيء أمر بلوازمه ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب . والنهيُ عن الشيء نهيٌ عمّا لا يتم اجتنابه إلا به [في نسخة : إلا باجتنابه] ، فإن وجود المأمور (به) يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجوده وانتفاء أضداده ، وعدم النهي [في نسخة : المنهي] عنه ، بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته ، وإذا كان لا يعدم إلا بضدٍّ يخلقه كالأكوان ، فلا بُدَّ عند عدمه من وجود بعض أضداده . فهذا حقٌّ في نفسه ، لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود ، وإن لَم يكن مقصوده الأمر [في نسخة : تكن مقصودةً للأمر] .

والفرقُ ثابتٌ بَيْنَ ما يُؤمر به قصداً ، و(بين) ما يلزمه في الوجود .

فالأول : هو الذي يُذَمّ ويُعَاقَبُ على تركه بخلاف الثاني ، فإن من أُمِرَ بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيداً ، فعليه أن يسعى من المكان البعيد ، والقريب يسعى من المكان القريب ، فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به ، ومع هذا : فإذا ترك هذان الجمعة والحج لَم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب ، بل ذلك [في نسخة : ذاك] بالعكس أولى ، مع أن ثواب البعيد أعظم ، فلو كانت اللوازم مقصودةً للآمر [في نسخة : للأمر] لكان يُعاقِب بتركها ، فكأن يكون [في نسخة : تكون] عقوبة البعيد أعظم وهذا باطلٌ قطعاً .

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لا بُدَّ من ترك أضداده ، لكنَّ تركَ الأضدادِ هو من لوازم فعل المأمور به ليس مقصوداً للآمر [في نسخة : للأمر] ، بحيث أنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التي اشتغل بها ، وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمه ، ليس مقصوده فعل شيء من أضداده ، وإذا تركه متلبساً بضد له كان ذلك من ضرورة الترك .

وعلى هذا : إذا ترك حراماً بحرامٍ آخر ، فإنه يُعاقب على الثاني ، ولا يقال : فعل واجباً ، وهو ترك الأول ؛ لأن المقصود عدم الأولّ ، فالمباح الذي اشتغل به عن مُحرّم لَم يؤمر به ، ولا بأمثاله ، كان [في نسخة : ولا بامتثاله] أمراً مقصوداً ؛ لكن نُهِيَ عن الحرامِ ، ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بضدٍّ من أضداده ، فذاك يقع لازماً لترك المنهي عنه ، فليس هو الواجب المحدود بقولنا : « الواجب ما يُذَمُّ تاركه ، ويعاقب تاركه » أو : « يكون تركه سبباً للذمّ والعقاب » .

فقولنا : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ » أو : « (لا) يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب » . يتضمن إيجابَ اللوازم . والفرق ثابتٌ بين الواجب الأول والثاني ؛ فإن الأول يُذَمُّ تاركه =

. . . .

= ويُعاقب ، والثاني واجبٌ وقوعاً ـ أي : لا يحصل إلا به ، ويؤمر به أمراً بالوسائل ، ويثاب عليه ، لكن العقوبة ليست على تركه ـ .

ومن هذا الباب : إذا اشتبهت الميتة بالمذكّى [أي : الذبيحة الحلال] ، فإن المحرم الذي يُعاقب على فعله أحدهما ، بحيث إذا أكلهما جميعاً لَم يعاقب عقوبة من أكل ميتتين ، بل عقوبة من أكل ميتةً واحدةً ، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل .

فقول من قال : كلاهما مُحَرَّم ، صحيحٌ بهذا الاعتبار .

وقول من قال : المُحَرَّم في نفس الأمر أحدهما صحيح أيضاً بذلك الاعتبار . وهذا نظير قول من قال : يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب .

وإنكار أبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي على من قال هذا ، ومن قال : المحرم أحدهما لا يناسب طريقة الفقهاء ، وحاصله يرجع إلى نزاع لفظيٍّ . فإن الوجوب والحُرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر ، بل (هي) نوع آخر ، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها يعتقد حِلَّ وطء إحداهما وتحريم وطء الأخرى ، كان ولده من مملوكته ثابتاً نسبه بخلاف الأخرى ، ولو قدّرنا أنه [في نسخة : أنها] اشتبهت (أخته) بأجنبية وتزوّج إحداهما فحُدَّ مثلاً ، ثم تزوج الأخرى لَم يحد حدّين ، مع أنه لا حدّ في ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هي الأجنبية .

وبهذا تَنْحَلُّ شُبهة الكعبي ؛ فإن المحرّم تركه مقصود ، وأمّا الاشتغال بضدٍّ من أضداده فهو وسيلةٌ ، فإذا قيل : المباح واجبٌ ، بمعنى وجوب الوسائل . أي : قد يُتوسل به إلى فعل واجبٍ وترك محرم . فهذا حق .

ثم إن هذا يُعتبَرُ فيه القصد ، فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم . مثل : من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطئها ، أو : يأكل طعاماً حلالاً ليشتغل به عن الطعام الحرام . فهذا يُثَابُ على هذه النية والفعل ؛ كما بَيَّنَ ذلك النبي ﷺ بقوله : « وفي بضعِ أحدكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له أجر ؟! قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام ، أما كان عليه وزرٌ ، فلم تُحتسبون بالحرام ولا تُحتسبون بالحلال ؟! » . ومنه قوله ﷺ : « إن الله يُحب أن يؤخذ [في نسخة : تؤخذ] برُخَصِهِ كما يكره أن تؤتى معصيته » . رواه أحمد [(٥٨٦٥)] وابن خزيمة في صحيحه [(٩٥٠)] . وقد يقال : المُباح يصير واجباً بهذا الاعتبار ، وإن تعيّن طريقاً صار واجباً معيناً ، وإلا كان واجباً مخيّراً ، لكن مع هذا القصد إمّا [في نسخة : وإما] مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجباً أصلاً ، إلا وجوب الوسائل إلى الترك وترك المحرم لا يشترط فيه القصد . فكذلك ما يتوسل به إليه ، فإذا [في نسخة : وإذا] قيل : هو مباحٌ من جهة نفسه ، وأنه قد يجب وجوب المخيرات من جهة الوسيلة لَم يمنع ذلك . فالنزاع في هذا الباب نِزَاعٌ لفظيٌّ اعتباريٌّ ، وإلا فالمعاني الصحيحة لا يُنازع فيها مَنْ فهمها .

والمقصود هنا : أن الأبرار وأصحاب اليمين قد يشتغلون بِمُباح عن مُباح [في نسخة : عن مباح بمباح] آخر ، فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقّهم . أمّا السابقون المقرّبون : فهم=

. . . .

= إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعةً لحسن القصد فيها ، والاستعانة على طاعة الله . وحينئذ فمباحاتهم طاعات ، وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلا ما يترجح وجوده ، فيؤمرون به شرعاً أمر استحبابٍ أو ما يترجح عدمه ، فالأفضل لهم أن لا يفعلوه ، وإن لم يكن فيه إثمٌ ، والشريعة قد بيّنت أحكام الأفعال كلها . فهذا سؤال .

وسؤال ثانٍ ، وهو : أنه إذا قُدِّرَ أن من الأفعال ما ليس فيه أمرٌ ولا نَهيٌ كما في حقِّ الأبرار ، فهذا الفعل لا يُحمد ولا يُذمّ ، ولا يُحبُّ ولا يُبغَضُ ، ولا يُنظرُ فيه إلىٰ [في نسخة : [إلا] وجود القدر وعدمه ، بل إن فعلوه لَم يُحمدوا ، وإن لَم يفعلوه لَم يحمدوا ، فلا يُجعل مما [في نسخة : من ما] يُحمدون عليه أنهم يكونون في هذا الفعل كالْمَيْتِ بين يدي الغاسل ، مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم ، إذِ الكلامُ في ذلك .

وأما غير الأفعال الاختيارية ، وهو : ما فعل بالإنسان (بغير اختياره) كما يحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع . فهذا خارجٌ عن التكليف ، مع أن العبد مأمورٌ في مثل هذا أن يُحبّه إن كان حسناً [في نسخة : حسنة] ، ويُبغضه إن كان سيئاً [في نسخة : سيئة] ، ويخلو عنهما إن لَم يكن حسناً ولا سيئاً [في نسخة : حسنة ولا سيئة] ، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية كالْمَيْتِ بين يدي الغاسل ، فقد رفع الأمر والنهي عنه في الأفعال الاختيارية ، وهذا باطل .

وسؤال ثالث ، وهو : أن حقيقة هذا القول طَيُّ بساطِ الأمر والنهي عن العبد في هذه الأحوال مع كون أفعاله اختيارية ، وَهَبْ أنه ليس (له) هوى ، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمر والنهي ، بل عليه أن يُحبَّ ما أحبّه الله ورسوله ، ويُبغض ما أبغضه الله ورسوله .

قيل : هذه الأسئلة أسئلةٌ صحيحةٌ . وفصلُ الخِطَابِ : أن السّالك قد يَخفى عليه الأمر والنهيُ ، بحيث لا يدري هل ذلك الفعل مأمورٌ به شرعاً أو مَنْهِيٌّ عنه شرعاً ، فيبقى هواه لئلا يكون له هوى فيه ، ثم يسلم فيه للقدر ، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا الرب وأمره وحبّه في ذلك الفعل .

وهذا يعرضُ لكثيرٍ من أئمة العُبّادِ وأئمة العُلَماءِ ، فإنه قد يكون [في نسخة : تكون] عندهم أفعالٌ وأقوالٌ لا يعرفون حكم الله الشرعيّ فيها ، بل قد تعارضت عندهم (فيها) الأدلة أو خفيت الأدلّة بالكليّة ، فيكونون معذورين لِخَفاء الشرع عليهم .

وحكم الشرع إنما يثبت في حقِّ العبد إذ تمكّن من معرفته ، وأما [في نسخة : فأما] ما لَم يبلغه ولَم يتمكّن من معرفته ، فلا يطالب به ، وإنما عليه أن يتّقي الله ما استطاع . وهذا خطأ في العلم ، وليس خطأ في العمل ، وهو كالمجتهد المخطىء : له أجرٌ على قصده واجتهاده ، وخطؤه مرفوعٌ عنه .

فإن قيل : فإذا كان الأمر هكذا ، فالواجب على العبد أن يتوقّف في مثل هذه الحال ، إذا لم يتبيّن له أن ذلك الفعل مأمورٌ به أو مَنهيٌ عنه ، وهو لا يريد أن يفعل شيئاً لا مدح فيه ولا ذمّ ، فيقف لا يستسلم للقدر ، ويصير مَحَلاً لما يستعمل فيه من الأفعال ، اللهم إلاّ إذا فعل غيره فعلاً فهو لا يمدحه ولا يذمّه ، ولا يرضاه ولا يسخطه ، إذا لم يتبيّن له حكمه .

فأما كونه هو من أفعاله الاختيارية يصير مستسلماً لِمَا يستعمله القدر فيه : كالطفل مع الظئر ، =

. . . .

= والْمَيّت مع الغاسل . فهذا مما [في نسخة : ما] لم يأمر الله به ولا رسوله ، بل هذا محرّم ، وإن عُفِيَ عن صاحبه ، وحَسْبُ صاحبه أن يعفى عنه لاجتهاده وحسن قصده .

أما [في نسخة : إما] كونه يُحمد على ذلك ، ويُجعل هذا أفضل المقامات فليس الأمر كذلك ، وكونه مجرداً عن هواه ليس مسوّغاً له أن يستسلم لكل ما يُفعل به .

ثم يقال : الأمور مع هذا نوعان :

أحدهما : أن يفعل به بغير اختياره ، كما يحمل الإنسان ولا يمكنه الامتناع . وكما تضجع المرأة قهراً وتوطأ . فهذا لا إثم فيه باتّفاق العلماء .

وأمّا [في نسخة : وإما] أن يكره بالإكراه الشرعي حتى يفعل ، فهذا أيضاً معفوٌ عنه في الأفعال عند الجمهور ، وهو أصحّ الروايتين عن أحمد لقوله تعالى : ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور : ٣٣] .

وأمّا إذا لم يكره الإكراه الشرعي فاستسلامه للفعل المطلق الذي لا يُعرف أخيرٌ هو أم شر ؟ ليس هو مأموراً به ، وإن جرى على يده خَرْقُ عادةٍ ، أو لم يَجْرِ ، فليس هو مأموراً أن يفعل إلا ما هو خيرٌ عند الله ورسوله .

قيل : هذا السؤالُ صحيحٌ ، وحقيقة الأمر : أن السالكين إذا وصلوا إلى هذا المقام فيحسن قصدهم وتسليمهم وخضوعهم لربهم ، وطلبهم منه أن يختار لهم ما هو الأصلح ، إذا استعملوا في أمر وهم [في نسخة : أمورهم] لا يعرفون حكمه في الشرع رجَوا أن يكون خيراً ، لأن معرفتهم بحكمه قد تتعذر [في نسخة : تعذرت] عليهم ، والإنسان غير عالم في كل حالٍ بما هو الأصلح له في دينه ، وبما هو أرضى لله [في نسخة : رضا الله] ورسوله . فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لَم يعلم عاقبته ، إذا قال : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّمُ الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسّره لي ، ثم بارك لي فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفه عنّي واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضِّني به » [البخاري (١١٠٩)] .

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره وتيسّر له من الأمور هو الذي اختاره الله له ، إذ لم يكن معه دليلٌ شرعيٌ على أن عين هذا الفعل هو مأمورٌ به في هذه الحال ، فإن الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمر مطلق عام ، لا بعين كل فعل من كل فاعل ، إذ كان هذا ممتنعاً ، وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام ، إذا كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكليّ ، لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا ، ولا على استحضار أنواع الخطاب .

ولهذا كان الفقهاء يَعْدِلُوْنَ إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم .

ثم القياس أيضاً قد لا يحصل في كل واقعةٍ ، فقد يَخفى على الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، دخول الواقعة المعيّنة تحت خطابٍ عامٍ ، أو اعتبارها بنظير لها ، فلا يعرف =

. . . .

= لها أصل ، ولا نظير . هذا مع كثرة نظرهم في خطاب الشارع ومعرفة معانيه ، ودلالته على الأحكام ، فكيف من لم يكن كذلك ؟! .

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال والحرام ، بل مقصوده : أن هذا الفعل المعيّن خيرٌ من هذا ، وهذا خيرٌ من هذا ، وأيّهما أحبُّ إلى الله في حقّه في تلك الحال ، وهذا بابٌ واسعٌ لا يُحِيطُ به إلا الله ، ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما يُنْهَى عنه غيره ، ويؤمر في حالٍ بما يُنْهَى عنه في حال آخر [في نسخة : في أخرى] .

فقالوا : نحن نفعل الخير بحسب الإمكان ، وهو فعلُ ما علمنا أنَّا أُمِرْنَا به ، ونترك أصل الشَّرّ ، وهو هوى النفس ، ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك ، أن يوفقنا لِمَا هو أحبُّ إليه وأرضى له ، فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب ، ثم إن أصبنا فلنا أجران ، وإلاَّ فلنا أجرٌ (واحد) ، وخطؤنا مَحطوطٌ عنَّا ، فهذا هذا .

وحينئذٍ فمن قدّر أنه علم المشروع وفعله فهو أفضل من هذا ، ولكن كثير ممّن يعلم المشروع لا يفعله ولا يقصد أحب الأمور إلى الله ، وكثيرٌ منهم يفعله بشوب من الهوى ، فيبقى هذا فعل المشروع بهوى ، وهذا ترك [في نسخة : يترك] ما لم يعلم أنه مشروع بلا هوى . فهذا نقصٌ في العلم ، وذاك نقصٌ في العمل ؛ إذ العمل بهوى النفس نقصٌ في العمل ، ولو كان المفعول واجباً .

فيقال : إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه ، وإن لم يتب فله نصيبٌ من عالم السوء ، ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين في مثل هذا ، فقال أحدهما لصاحبه : إنَّما مثلك مَثَلُ الْكَلْبِ ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[الأعراف : ١٧٦] . وقال الآخر : أنت كَالْحِمَارِ ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة : ٥] . فهذا أحسنُ قصداً وأقوى علماً .

ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء : اتّباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة . وأهل العلم يعيبون على أولئك : نقص علمهم بالشرع ، وعدولهم عن الأمر والنهي . فهذا هذا .

والله تعالى (هو) المسؤول أن يهدينا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وقد قال بعض أهل الفقه والزهد : من الناس من سلك الشريعة ، ومنهم من سلك الحقيقة . ولعله أراد هؤلاء وهؤلاء ؛ فإن هؤلاء يُرجِّحُون بما ييسره الله مع حسن القصد واتّباع الأمر والنهي المعلوم لهم مع خفاء الأدلة الشرعية في ذلك المتيسر لهم ، وهؤلاء يرجحون بالأدلة الشرعية من الظواهر والأقيسة ، وأخبار الآحاد وأقوال العلماء مع خفاء الأمر المتيسر لهم .

وأيضاً فهؤلاء قد يشهدون ما في ذلك الفعل المقدور [في نسخة : المقدر] من المصلحة والخير ، فيرجِّحونه بحكم الإيمان ، وإن لَم يعرفوا دليلاً من النص على حسنه ، وأولئك إنما يرجحون من النصوص [في نسخة : بالنصوص] ، وما استنبط منها . فهؤلاء لهم القرآن ، وهؤلاء لهم الإيمان . وسبب هذا : أنَّ كُلاً من الطائفتين خَفِيَ عليه ما مع الأخرى من الحق ، وكل من الطائفتين في طريقها حقٌّ وباطلٌ .

=

. . . .

= فأما المُدَّعون للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهي الشرعيين ، فهم ضالُّونَ كالذين يعرفون الأمر والنهي ولا يفعلون إلا ما يهوونه من الكبائر ، فإنهم فُسّاقٌ ، وهؤلاء الذين قيل فيهم : « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

والحقيقة : قد تكون قدرية ، وقد تكون ذوقية ، وقد تكون شرعية ، ولفظ الشرع يتناول الْمُنَزَّل والمؤوّل والمبدّل [في نسخة : المبدّل والمؤوّل والمنزّل] .

والمقصود هنا : ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين ، والكلام على حال أهل العبادة والإرادة ، الذين خرجوا عن الهوى ، وهو الفرق الطبعي ، وقاموا بما عملوه [في نسخة : علموه] من الفرق الشرعي .

ويقي قسم ثالثٌ ليس لهم فيه فرقٌ طبعي ، ولا عندهم فيه فرقٌ شرعي ، فهو الذي جروا فيه مع الفعل والقدر .

وأما من جرى مع الفرق الطبعي : إما عالماً بأنه عاصٍ وهو العالِم الفاجر ، أو محتجّاً بالقدر ، أو بذوقه ووجده، مُعْرِضاً عن الكتاب والسنة ، وهو العابد الجاهل . فهذا خارج عن الصراط المستقيم .

وهذا مِمَّا بيَّن كمال حال [في نسخة : حال كمال] الصحابة رضي الله عنهم ، وأنهم خيرُ قرون هذه الأمة ، إذ كانوا في خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية في جليل الأمور ودقيقها مع اتساع الأمر ، والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصّه ، كما أنّ الواحد من هؤلاء يتّبعُ هواه في أمرٍ قليل . فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهي لهم العلم الذي يُميّزون به بين الحسنات والسيئات ، ولهم القصد الحسن الذي يفعلون به [في نسخة : فيه] الحسنات ، والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم في كثيرٍ من الحسنات والسيئات ، حتّى يظنّ السيئة حسنة وبالعكس ، أو يفوته القصد في كثيرٍ من الأعمال ، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي .

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

هذا لعَمْرِي إذا كان عند العالِم ما هو أمرُ الشارع ونهيه حقيقةً ، وعند العابد حسنُ القصدِ ، الخالي عن الهوى حقيقةً ، فأما من خلط الشرع المُنَزَّل بالمبدَّل والمؤوّل ، وخلّط القصد الحسن باتباع الهوى ، فهؤلاء وهؤلاء مُخلّطون في علمهم وعملهم ، وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد ، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم ؛ فإنه من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لَم يعلم .

وحسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه .

والعلمُ الشرعيُّ من أعون الأشياء على حسن القصد والعلم [في نسخة : والعمل] الصالح ، فإن العلم قائدٌ ، والعمل سائقٌ ، والنفس حَرُون ، فإن وَنَى [أي : ضَعُفَ] قائدها لَم تستقم لسائقها ، وإن وَنَى سائقها لَم تستقم لقائدها ، فإذا ضعف العلم حار السالك ولَم يدر أين يسلك ، فغايته أن يستطرح =

. . . .

= للقدر ، وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه . فهذا حائرٌ لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره ، وهذا حائدٌ [في نسخة : حائرٌ . خطأ] عن الطريق زائغٌ عنه مع علمه به .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف : ٥] . هذا جاهل وهذا ظالمٌ .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب : ٧٢] . مع أن الجهل والظلم متقاربان ، لكن الجاهل لا يدرى أنه ظالمٌ ، والظالمُ جَهِلَ الحقيقةَ المانعةَ له من العلم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[النساء : ١٧] .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمدٍ ﷺ ؟ فقالوا (لي) : كُل من عصى الله فهو جاهلٌ ، وكل من تاب قبل الموت ، فقد تاب من قريبٍ .

وقد روى الخلاّل عن أبي حيّان التيمي قال : العلماء ثلاثة : فعالِمٌ بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالِمٌ بأمر الله ليس عالِماً بالله ، وعالِمٌ بالله وبأمر الله . فالعالم بالله الذي يخشاه ، والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه .

قلت : والخشية تمنع اتباع الهوى . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات : ٤٠ـ٤١] .

والكمال في عدم الهوى ، وفي العلم ، (وذلك) هو لخاتم الرسل ﷺ الذي قال فيه : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم : ١ـ ٤] . فنفى عنه الضلال والغي ، ووصفه بأنه : لا [في نسخة : ﴿ مَا ﴾] ﴿ يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ ، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل ، وهو الوحي . فهذا كمال العلم ، وذاك كمال القصد .

ووصف أعداءه بضدِّ هذين ، فقال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[النجم : ٢٣] .

فالكمال المطلق للإنسان ، هو : تكميل العبودية لله علماً وقصداً .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات : ٥٦] . وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[الجن : ١٩] .

وقال تعالى فيما حكاه عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[ص : ٨٢ـ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر : ٤٢ والإسراء : ٦٥] . وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[النحل : ٩٩ـ ١٠٠] .

وعبادته (تعالى : هي) طاعة أمره ، وأمره لنا : ما بلغه الرسول عنه ، فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً ، ومن كان لَم يعرف ما أمر الله به ، فترك هواه ، واستسلم للقدر ، أو اجتهد في

. . . .

= الطاعة ، فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأموراً به ، أو تعارضت عنده الأدلة فتوقّف عمّا هو طاعة في نفس الأمر ، فهؤلاء مُطيعون لله مُثَابُون على ما أحسنوه من القصد لله ، واستفرغوه من وسعهم في طاعة الله ، وما عجزوا عن [في نسخة : من] علمه فأخطؤوه إلى غيره فمغفورٌ لهم .

وهذا من أسباب فتنٍ تقع بين الأمة ، فإن أقواماً يقولون ويفعلون أموراً هُم مُجتهدونَ فيها ، وقد أخطؤوا ، فتبلغ أقواماً يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب ، أو يظنون أنهم لا يعذرون بالخطأ ، وهم أيضاً مجتهدون مخطئون . فيكون هذا مجتهداً مخطئاً في فعله ، وهذا مجتهداً مخطئاً في إنكاره ، والكلُّ مغفورٌ لهم . وقد يكون أحدهما مذنباً ، كما قد يكونان جميعاً مذنبين .

وخيرُ الكَلام كلام الله ، وخيرُ الهدي هدي مُحمَّدٍ ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .

والواحد من هؤلاء قد يعطى طرفاً [في نسخة : تصرفاً] بالأمر والنهي ، فيُولي ويعزل ، ويعطي ويمنع ، فيظن الظَّانُّ أن هذا كمالٌ ، وإنما يكون كمالاً إذا كان موافقاً للأمر ، فيكون طاعةً لله ، وإلا فهو من جنس الملك ، وأفعال الملك : إمّا ذنبٌ ، وإمّا عفوٌ ، وإما طاعةٌ .

فالخلفاء الراشدون أفعالهم طاعةٌ وعبادةٌ ، وهم أتباع العبد الرسول (ﷺ) ، وهي طريقة [في نسخة : طريق] السابقين المقربين .

وأما طريقة [في نسخة : طريق] الملوك العادلين : فإما طاعةٌ ، وإما عفوٌ ، وهي طريقةُ الأنبياء الملوك ، وطريقة الأبرار أصحاب اليمين .

وأما طريقة الملوك الظالمين : فتتضمن المعاصي ، وهي طريقة الظالمين لأنفسهم . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر : ٣٢] . فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون من أحد هذه الأصناف : إما ظالمٌ لنفسه ، وإما مقتصدٌ ، وإما سابقٌ بالخيرات .

وخوارق العادات : إما مكاشفةٌ ، وهي من جنس العلم الخارق . وإما تصرُّفٌ ، وهي من جنس القدرة الخارقة ، وأصحابها لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة .

فصل : وقد تفرّق الناس في هذا المقام الذي هو غاية مطالب العباد ، فطائفةٌ من الفلاسفة ونحوهم يظنّون أنَّ كمال النفس في مجرّد العلم ويجعلون العلم الذي به يكمل ما يعرفونه هم من علم ما بعد الطبيعة ، ويجعلون العبادات رياضةً لأخلاق النفس حتّى تستعدّ للعلم فتصير النفس عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود ، وهؤلاء ضالّون بل كافرون من وجوه :

منها : أنهم اعتقدوا الكمال في مجرد العلم ، كما اعتقد جَهْم ، والصالحي ، والأشعري في المشهور من قوله ، وأكثر أتباعه : أن الإيمان مجرد العلم .

لكن المتفلسفة أسوأ حالاً من الجهمية ، فإن الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله وأولئك يجعلون كمال النفس أن تعلم الوجود المطلق من حيث هو وجود ، والمطلق بشرط الإطلاق إنما يكون في الأذهان لا في الأعيان ، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضاً في الخارج إلا معيناً ، وإن علموا الوجود

. . . .

= الكلي المنقسم إلى واجب وممكن ، فليس للمعلوم علمهم وجوداً في الخارج وهكذا من تصوف وتأله على طريقتهم كابن عربي وابن سبعين ونحوهما .

وأيضاً : فإن الجهمية مقرونٌ بالرسل وبما جاؤوا به من حيث الجملة ، مقروناً بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام وغير ذلك مما جاءت به الرسل ، بخلاف المتفلسفة .

وبالجملة : فكمال النفس ليس في مجرّد العلم ، بل لا بُدَّ مع العلم بالله من محبته وعبادته والإنابة إليه ، فهذا عمل النفس وإرادتها ، وذاك علمها ومعرفتها .

الوجه الثاني : أنهم ظنوا أن العلم الذي تكمل به النفس هو علمهم ، وكثيرٌ منه جهلٌ لا علم .

الوجه الثالث : أنهم لم يعرفوا العلم الإلهي الذي جاءت به الرسل ، وهو العلم الأعلى الذي تكمل به النفس ، مع العمل بموجبه .

الرابع : أنهم يرونه أنهإذا حصل لهم ذاكَ العلم سقطت عنهم واجبات الشرع ، وأبيحت لهم محرماته ، وهذه طريقة الباطنة من الإسماعيلية وغيرهم ، مثل : أبي يعقوب السجستاني صاحب (الأقاليد الملكوتية) وأمثاله ، وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية الذين يتأوّلون قوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر : ٩٩] . أنك تعمل حتى يحصل لك العلم ، فإذا حصل العلم سقط عنك العمل .

وقد قيل للجنيد : إن قوماً يقولون : إنهم يصلون من طريق البر إلى أن تسقط عنهم الفرائض وتباح لهم المحارم ، أو نحو هذا الكلام ، فقال : الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر أحسن حالاً من هذا .

ومن هؤلاء : من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم أعظم من طلبه لما فرض الله عليه ، ويقول في دعائه : اللهم إني أسألك العصمة في الحركات والسكنات ، والخطرات والإرادات والكلمات ، من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب .

وأصل المتفلسفة : أن الفلسفة التي هي الكمال عندهم هي التشبه بالإله على قدر الطاقة ، وهم يقولون : إن حركات الأفلاك لأجل التشبّه بالأوّل .

وعلى هذا : بنى أبو حامد كتابه في شرح الأسماء الحسنى وتخلُّق العبد بأخلاق الله ، وأنكر ذلك عليه المازري وغيره ، وقالوا : ليس لله خُلقٌ يتخلّق به العبد . وعدل أبو الحكم ابن برجان عن لفظ التخلّق إلى لفظ التعبّد .

وعلى هذا الأصل الفلسفي بنى ابن عربي معنى ولي الله ، وأنه المتشبّه به المتخلّق بأخلاقه ، كما يفسّر أبو حامد التقرّب من الله بالتشبه به ، وابن عربي ونحوه يجعلون الوليّ أفضل من النبيّ بناء على أصولهم الفلسفيّة الاتّحادية .

وطائفةٌ أخرى عندهم : أن الكمال في القدرة والسلطان والتصرّف في الوجود ، بنفاذ الأمر والنهي ، إما بالملك والولاية الظاهرة ، وإمّا بالباطن ، وتكون عبادتهم ومجاهدتهم كذلك . وكثيرٌ من هؤلاء يدخل في الشرك والسحر ، فيعبد الكواكب والأصنام لتعينه الشياطين على مقاصده ، وهولاء أضلّ وأجهل من الذين قبلهم . وعامّة من يعبد الله لطلب خوارق العادات يكون فيه نصيبٌ من هذا ،

المَقَالَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ
فِي الأَمْرِ بِوَفَاءِ الْوَعْدِ وَالنَّهْيِ عَنِ خَلفِهِ

إِذَا كُنْتَ ضَعِيفَ الإِيمَانِ وَاليَقِيْنِ ، وَوَعَدْتَ بِوَعْدٍ وَفِّ بِوَعْدِكَ ، وَلاَ تُخْلِفْ كَيْلاَ يَزُوْلَ إِيمَانُكَ وَيَذْهَبَ يَقِيْنُكَ . وَإِذَا قَوِيَ ذَلِكَ فِي قَلْبِكَ وَتَمَكَّنْتَ خُوْطِبْتَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[يوسف : ٥٤] .

وَتَكَرَّرَ هَذَا الْخِطَابُ لَكَ حَالاً بَعْدَ حَالٍ ، فَكُنْتَ مِنَ الْخَوَاصِّ ، بَلْ مِنَ خَوَاصِّ الْخَوَاصِّ ، وَلَمْ يَبْقَ لَكَ إِرَادَةٌ وَلاَ مَطْلَبٌ ، وَلاَ عَمَلٌ تُعْجَبُ بِهِ ، وَلاَ قَرَابَةٌ[1] تَرَاهَا ، وَلاَ مَنْزِلَةٌ تَلْمَحُهَا ، فَتَسْمُو هِمَّتُكَ إِلَيْهَا ، فَصِرْتَ كَالإِنَاءِ الْمُنْثَلِمِ الَّذِي لاَ يَثْبُتُ فِيْهِ مَائِعٌ ، فَلاَ يَثْبُتُ فِيْكَ إِرَادَةٌ وَلاَ خُلُقٌ وَلاَ هِمَّةٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ دُنْيَاً وَأُخْرَى ، وَطَهُرْتَ مِمَّا سِوَى اللهِ

= ولهذا كان منهم من يموت فاسقاً أو مسلوباً ، وكلهم ضلال جُهال .

وطائفةٌ : تجعل الكمال في مجموع الأمرين ، فيدخلون في أقوال وأعمال من الشرك والسحر ، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه من الإخبار بالأمور الغائبة ، وعلى ما يَنفُذُ به تصرّفهم في العالم .

وأمّا الحقّ المبين فهو أنّ كمال الإنسان في أن يَعْبُدَ اللهُ علماً وعملاً ، كما أمره ربّه . وهؤلاء هم عِبَادُ الله ، وهم المؤمنون والمسلمون ، وهم أولياء الله المتّقون ، وحزب الله المفلحون ، وجند الله الغالبون ، وهم أهل العلم النافع ، والعمل الصالح ، وهم الذين زكّوا نفوسهم وكمّلوها ، كملوا القوّة النظرية العلمية ، والقوة الإرادية العملية ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[ص : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم : ١ ـ ٤] ، وقال تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة : ٦ ـ ٧] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه : ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾[البقرة : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر : ٣] .

وصلّى الله على مُحمّد النبي الأُمّي وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً

(١) في المطبوع : (قربة) .

تَعالَى ، وَأُعْطِيتَ رِضاكَ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَوُعِدْتَ بِرِضْوَانِهِ عزَّ وجلَّ عَنْكَ ، وَلَذِذْتَ وَنَعِمْتَ بِأَفْعَالِ اللهِ عزَّ وجلَّ أَجْمَعُ ، فَحِينَئِذٍ تُوْعَدُ بِوَعْدٍ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ ، (وَوَجَدْتَ فِيهِ أَمَارَةَ إِرَادَةٍ مَا ، نُقِلْتَ عَنْ ذَلِكَ الوَعْدِ إِلَى مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ) ، وَصُرِفْتَ إِلَى أَشْرَفَ مِنْهُ ، وَعُوِّضْتَ عَنِ الأَوَّلِ بِالغِنَى عَنْهُ ، وَفُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، وَأُطْلِعْتَ عَلَى غَوَامِضِ الأُمُورِ وَحَقَائِقِ الحِكْمَةِ وَالْمَصَالِحِ الْمَدْفُونَةِ فِي الانْتِقَالِ مِنَ الأَوَّلِ إِلَى مَا يَلِيهِ ، وَيُزَادُ حِينَئِذٍ فِي مَكَانَتِكَ فِي حِفْظِ الْحَالِ ثُمَّ الْمَقَالُ ، وَفِي أَمَانَتِكَ فِي حِفْظِ الأَسْرَارِ وَشَرْحِ الصُّدُورِ وَتَنْوِيرِ القَلْبِ وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ وَالْحِكْمَةِ البَالِغَةِ فِي إِلْقَاءِ الْمَحَبَّةِ عَلَيْكَ ، فَجُعِلْتَ مَحْبُوبَ الْخَلِيقَةِ أَجْمَعَ الثَّقَلَيْنِ وَمَا سِوَاهُمَا دُنْيَا وَأُخْرَى ، إِذْ[1] صِرْتَ مَحْبُوبَ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، وَالْخَلْقُ تَابِعٌ لِلْحَقِّ جَلَّ وَعَلاَ ، وَمَحَبَّتُهُمْ مُنْدَرِجَةٌ فِي مَحَبَّتِهِ ، كَمَا أَنَّ بُغْضَهُمْ يَنْدَرِجُ فِي بُغْضِهِ عزَّ وجلَّ .

فَإِذَا بَلَغْتَ هَذَا الْمَقَامَ الَّذِي لَيْسَ لَكَ فِيهِ إِرَادَةُ شَيْءٍ أَلْبَتَّةَ جُعِلَتْ لَكَ إِرَادَةُ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ ، فَإِذَا تَحَقَّقَتْ إِرَادَتُكَ لِذَلِكَ الشَّيْءِ أُزِيلَ الشَّيْءُ وَأُعْدِمَ وَصُرِفْتَ عَنْهُ ، فَلَمْ تُعْطَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَعُوِّضْتَ عَنْهُ فِي الأُخْرَى بِمَا يَزِيدُكَ قُرْبَةً وَزُلْفَى إِلَى العَلِيِّ الأَعْلَى ، وَمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنَاكَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَجَنَّةِ الْمَأْوَى ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ[2] تَطْلُبْ ذَلِكَ وَتَأْمَلْهُ وَتَرْجُوهُ وَأَنْتَ فِي دَارِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ الفَنَاءِ وَالتَّكَالِيفِ وَالعَنَاءِ ، بَلْ رَجَاؤُكَ ـ وَأَنْتَ فِيهَا ـ وَجْهَ الَّذِي خَلَقَ وَبَرَأَ وَمَنَعَ وَأَعْطَى ، وَبَسَطَ الأَرْضَ وَرَفَعَ السَّمَاءَ إِذْ ذَاكَ هُوَ الْمُرَادُ وَالْمَطْلُوبُ وَالْمُنَى ، وَرُبَّمَا عُوِّضْتَ عَنْ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَدْنَى مِنْهُ أَوْ مِثْلَهُ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ انْكِسَارِ قَلْبِكَ وَبَصَرِكَ ، حِينَئِذٍ يَصُدُّكَ عَنْ ذَلِكَ الْمَطْلُوبُ وَالْمُرَادُ ، وَتَحْقِيقُ العِوَضِ فِي الأُخْرَى عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَبَيَّنَّا . وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

* * *

(١) تحرف في المطبوع إلى : (إذا) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (لك) .

المَقَالَةُ العِشْرُوْنَ

فِي قَوْلِهِ ﷺ : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ »[١]

دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِذَا اجْتَمَعَ مَعَ مَا لاَ يَرِيْبُكَ ، فَخُذْ بِالْعَزِيْمَةِ الَّذِي لاَ يَشُوْبُهَا رَيْبٌ وَلاَ شَكٌّ ، وَدَعْ مَا يَرِيْبُكَ ، فَأَمَّا إِذَا تَجَرَّدَ الْمُرِيْبُ الْمَشُوْبُ الَّذِي لَمْ يَصْفُ عَنْ حَزِّ الْقَلْبِ وَحَكِّه[٢] فَتَوَقَّفْ فِيْهِ وَانْتَظِرِ الأَمْرَ فِيْهِ ، فَإِنْ أُمِرْتَ بِتَنَاوُلِهِ تَنَاوَلْهُ فَدُوْنَكَ ، وَإِنْ أُمِرْتَ بِالْكَفِّ عَنْهُ وَمُنِعْتَ فَكُفَّ ، فَلْيَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَكَ كَأَنَّهُ لَمْ[٣] يَكُنْ وَلَمْ يُوْجَدْ .

ارْجِعْ إِلَى الْبَابِ وَابْتَغِ عِنْدَ رَبِّكَ الرِّزْقَ ، وَإِنْ ضَعُفْتَ عَنِ الصَّبْرِ أَوِ الْمُوَافَقَةِ أَوِ الرِّضَا أَوِ الْفَنَاءِ فَهُوَ عزَّ وجلَّ لاَ يَحْتَاجُ أَنْ يُذَكَّرَ فَلَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْكَ وَ(لاَ) عَنْ غَيْرِكَ ، وَهُوَ عزَّ وجلَّ يُطْعِمُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِيْنَ وَالْمُدْبِرِيْنَ عَنْهُ ، فَكَيْفَ يَنْسَاكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ الْمُقْبِلُ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْقَائِمُ بِأَمْرِهِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ .

وَجْهٌ آخَرُ : دَعْ مَا فِي أَيْدِي الْخَلْقِ فَلاَ تَطْلُبْهُ وَلاَ تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِهِ ، وَلاَ تَرْجُو الْخَلْقَ وَلاَ تَخَفْهُمْ[٤] ، وَخُذْ مِنْ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَهُوَ مَا لاَ يَرِيْبُكَ .

وَلْيَكُنْ لَكَ مَسْؤُولٌ وَاحِدٌ ، وَمُعْطٍ وَاحِدٌ ، وَمَرْجُوٌّ وَاحِدٌ ، وَمُخَوْفٌ وَاحِدٌ ، وَمَوْجُوْدٌ وَاحِدٌ ، وَهِمَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ رَبُّكَ عزَّ وجلَّ الَّذِي نَوَاصِي الْمُلُوْكِ بِيَدِهِ ، وَقُلُوْبُ الْخَلْقِ بِيَدِهِ الَّتِي هِيَ أُمَرَاءُ الأَجْسَادِ ، وَأَمْوَالُ الْخَلْقِ لَهُ عزَّ وجلَّ ، وَهُمْ وُكَلاَؤُهُ وَأُمَنَاؤُهُ ، وَحَرَكَةُ أَيْدِيْهِمْ

(١) رواه الطيالسي (١١٧٨) وأحمد (١٧٢٣) والدارمي (٢٥٣٢) والترمذي (٢٥١٨) والنسائي (٨/ ٣٢٧) وابن خزيمة (٢٣٤٨) وأبو يعلى (٦٧٦٢) وابن حبان (٧٢٢) والحاكم (٢/ ١٣ و٤/ ٩٩) والبيهقي (٥/ ٣٣٥) عن الحسن بن علي رضي الله عنه . ومعناه : دع ما تشكُّ فيه إلى ما لا تشك .

(٢) في المطبوع : (وحكمه) .

(٣) تحرف في المطبوع إلى : (لك) .

(٤) في المطبوع : (تخافهم) .

بالعَطاءِ لَكَ بإذْنِهِ عزَّ وجلَّ وأَمْرِهِ وتَحْرِيكِهِ ، وكَفُّهَا عَنْ عطائِكَ كذلِكَ . قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النساء : ٣٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت : ١٧] . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة : ١٨٦] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر : ٦٠] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات : ٥٨] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران : ٣٧] .

* * *



المَقَالَةُ الْحَادِيَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي مُكَالَمَةِ إِبْلِيْسَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ

رَأَيْتُ إِبْلِيْسَ اللَّعِيْنَ فِي الْمَنَامِ وَأَنَا فِي جَمْعٍ كَثِيْرٍ فَهَمَمتُ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ لِي لَعَنَهُ اللَّهُ : لِمَ تَقْتُلُنِي ، وَمَا ذَنْبِي ؟ إِنْ جَرَى الْقَدَرُ بِالشَّرِّ فَلاَ أَقْدِرُ [أَنْ] أُغَيِّرَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَأَنْقُلَهُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ جَرَى بِالْخَيْرِ فَلاَ أَقْدِر [أَنْ] أُغَيِّرَهُ إِلَى شَرٍّ وَأَنْقُلَهُ إِلَيْهِ ، فَأَيُّ شَيْءٍ بِيَدِي ؟ .

وَكَانَتْ صُوْرَتُهُ عَلَى صُوْرَةِ الْخَنَاثَى[1] ، لَيِّنُ الْكَلاَمِ ، مُشَوَّهُ الوَجْهِ ، طَاقَاتُ شَعْرٍ فِي ذَقْنِهِ ، حَقِيْرُ الصُّوْرَةِ ، دَمِيْمُ الْخِلْقَةِ .

ثُمَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي تَبَسُّمَ خَجِلٍ وَوَجِلٍ .

وَذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الأَحَدِ ، ثَانِي عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ ، مِنْ سَنَةِ سِتَّةَ عَشَرَ وَخَمْسِ مِئَةٍ . وَاللهُ الْهَادِي لِكُلِّ خَيْرٍ .

* * *

(١) الذي يتشبه بالنساء .

المَقَالَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي ابْتِلاَءِ الْمُؤْمِنِ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ

لاَ يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ ، فَمَنْ عَظُمَ إِيْمَانُهُ وَكَثُرَ وَتَزَايَدَ عَظُمَ بَلاَؤُهُ .

وَالرَّسُوْلُ بَلاَؤُهُ أَعظمُ مِنْ بَلاَءِ النَّبِيِّ ؛ لأَنَّ إِيْمَانَهُ أَعْظَمُ ، وَالنَّبِيُّ بَلاَؤُهُ أَعْظَمُ مِنْ بَلاَءِ البَدَلِ ، وَبَلاَءُ البَدَلِ أَعْظَمُ مِنْ بَلاَءِ الوَلِيِّ .

كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ وَيَقِيْنِهِ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « **إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ** »[1] .

فَيُدِيْمُ اللهُ تَعَالَى البَلاَءَ لِهَؤُلاَءِ السَّادَاتِ الكِرَامِ حَتَّى يَكُوْنُوا أَبَداً فِي الْحَضْرَةِ وَلاَ يَغْفَلُوا عَنِ اليَقَظَةِ ، لأَنَّهُ يُحِبُّهُمْ ، فَهُمْ أَهْلُ المَحَبَّةِ يُحِبُّونَ الْحَقَّ ، وَالْمُحِبُّ أَبَداً لاَ يَخْتَارُ بُعْدَ مَحْبُوْبِهِ ، فَالبَلاَءُ خُطَّافٌ[2] لِقُلُوْبِهِمْ وَقَيْدٌ لِنُفُوْسِهِمْ ، يَمْنَعُهُمْ عَنِ المَيْلِ إِلَى غَيْرِ مَطْلُوْبِهِمْ ، وَالسُّكُوْنِ وَالرُّكُوْنِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهِمْ ، فَإِذَا دَامَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِمْ ذَابَتْ أَهْوِيَتُهُمْ وَانْكَسَرَتْ نُفُوْسُهُمْ ، وَتَمَيَّزَ الْحَقُّ مِنَ البَاطِلِ ، فَتَنْزَوِي الشَّهَوَاتُ وَالإِرَادَاتُ ، وَالْمَيْلُ إِلَى اللَّذَّاتِ وَالرَّاحَاتِ دُنْيَا وَأُخْرَى بِأَجْمَعِهَا إِلَى مَا يَلِي النَّفْسَ وَيَصِيْرُ السُّكُوْنُ إِلَى وَعْدِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ ،

---

(١) رواه الطيالسي (٢١٥) وابن سعد في الطبقات (٢/٢٠٩) والإمام أحمد (١/١٧٢ و١٧٣ و١٧٤ و١٨٠ و١٨٥) والدارمي (٢٧٨٣) وعبد بن حميد (١٤٦) والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجة (٤٠٢٣) والنسائي في الكبرى (٧٤٨١) والبزار في البحر الزخّار (١١٥٠ و١١٥٤) وأبو يعلى (٨٣٠) وابن حبان (٢٩٠٠ و٢٩٠١ و٢٩٢٠ و٢٩٢١) والشاشي (٦٩ و٨٠) والحاكم (١/٤٠-٤١ و٤١ و) والبيهقي في السنن (٣/٣٧٢) والشعب (٩٧٧٥) والضياء المقدسي في المختارة (١٠٥٣ و١٠٥٦ و١٠٥٩) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بألفاظ مقاربة . وله شواهد غيره .

وبوّب البخاري رحمه الله في صحيحه : باب : أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثُمَّ الأمثل فالأمثل . فتح الباري (١٠/١١١) .

(٢) كرُمّان ، كلّ حديدةٍ حجناء (أي : معطوفة معوجّة) .

وَالقَنَاعَةِ بِعَطَائِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى بَلاَئِهِ ، وَالأَمْنِ مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ إِلَى مَا يَلِي القَلْبَ ، فَتَقْوَى شَوْكَةُ القَلْبِ ، فَتَصِيرُ الوِلاَيَةُ عَلَى الْجَوَارِحِ إِلَيْهِ ، لأَنَّ البَلاَءَ يُقَوِّي القَلْبَ وَاليَقِينَ ، وَيُحَقِّقُ الإِيْمَانَ وَالصَّبْرَ ، وَيُضْعِفُ النَّفْسَ وَالْهَوى ، لأَنَّهُ كُلَّمَا وَصَلَ الأَلَمُ وَوَجَدَ مِنَ الْمُؤْمِنِ الصَّبْرَ وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيْمَ لِفِعْلِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ، رَضِيَ الرَّبُّ تَعَالَى عَنْهُ وَشَكَرَهُ ، فَجَاءَهُ الْمَدَدُ وَالزِّيَادَةُ وَالتَّوْفِيْقُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وَإِذَا تَحَرَّكَتِ النَّفْسُ بِطَلَب[١] شَهْوَةٍ مِنَ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِهَا مِنَ القَلْبِ ، فَأَجَابَهَا القَلْبُ إِلَى مَطْلُوْبِهَا ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَإِذْنٍ مِنْهُ ، حَصُلَتْ بِذَلِكَ غَفْلَةٌ عَنِ الْحَقِّ تَعَالَى وَشِرْكٌ وَمَعْصِيَةٌ ، فَعَمَّهُمَا اللهُ تَعَالَى بِالْخُذْلاَنِ وَالبَلاَيَا وَتَسْلِيْطِ الْخَلْقِ وَالأَوْجَاعِ وَالأَمْرَاضِ ، وَالإِيْذَاءِ وَالتَّشْوِيْشِ ، فَيَنَالُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ القَلْبِ وَالنَّفْسِ حَظٌّ ، وَإِنْ لَمْ يُجِبِ القَلْبُ وَالنَّفْسُ إِلَى مَطْلُوْبِهَا حَتَّى يَأْتِيَهُ الإِذْنُ مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ بِإِلْهَامٍ فِي حَقِّ الأَوْلِيَاءِ ، وَوَحْيٍ صَرِيْحٍ فِي حَقِّ الْمُرْسَلِيْنَ وَالأَنْبِيَاءِ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ عَطَاءً وَمَنْعاً ، وَعَمَّهُمَا[٢] اللهُ بِالرَّحْمَةِ وَالبَرَكَةِ ، وَالعَافِيَةِ وَالرِّضَا ، وَالنُّوْرِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَالقُرْبِ وَالغِنَى وَالسَّلاَمَةِ مِنَ الآفَاتِ ، وَالنَّصْرِ عَلَى الأَعْدَاءِ ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاحْفَظْهُ ، وَاحْذَرِ البَلاَءَ جِدّاً فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى إِجَابَةِ النَّفْسِ وَالْهَوَى ، بَلْ تَوَقَّفْ وَتَرَقَّبْ فِي ذَلِكَ إِذْنَ الْمَوْلَى جَلَّ جَلاَلُهُ ، فَتَسْلَمَ فِي الدُّنْيَا وَالعُقْبَى إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

* * *

(١) تحرف في المطبوع إلى : (يطلب) .

(٢) في نسخة : (عمهما) .

الْمَقَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللهُ تَعَالَى

ارْضَ بِالدُّوْنِ وَالْزَمْهُ جِداً ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[البقرة : ٢٣٥] فَتَنْقَلَ إِلَى الأَعْلَى وَالأَنْفَسِ ، وَبِهِ تَهْنَأُ وَفِيْهِ تَبْقَى وَتُحْفَظُ بِلاَ عَنَاءِ دُنْيَا وَأُخْرَى وَلاَ تَبِعَةٍ وَلاَ عَدْوَى ، ثُمَّ تَتَرَقَّى مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَقَرُّ عَيْناً مِنْهُ وَأَهْنَأ .

وَاعْلَمْ أَنَّ القَسْمَ لاَ يَفُوْتُكَ بِتَرْكِ الطَّلَبِ ، وَمَا لَيْسَ بِقَسْمٍ لاَ تَنَالُهُ بِحِرْصِكَ فِي الطَّلَبِ وَالْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ ، فَاصْبِرْ وَالْزَمِ الْحَالَ وَارْضَ بِهِ ، لاَ تَأْخُذْ بِكَ حَتَّى تُؤْمَرَ ، وَلاَ تُعْطِ بِكَ حَتَّى تُؤْمَرَ ، وَلاَ تَتَحَرَّكْ بِكَ وَلاَ تَسْكُنْ بِكَ ، فَتُبْتَلَى بِكَ وَبِمَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْكَ مِنَ الْخَلْقِ ، لأَنَّكَ بِذَلِكَ تَظْلِمُ وَالظَّالِمُ لاَ يُغْفَلُ عَنْهُ . قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾[الأنعام : ١٢٩] ، لأَنَّكَ فِي دَارِ مَلِكٍ : عَظِيْمٍ أَمْرُهُ ، شَدِيْدٍ شَوْكَتُهُ(١) ، كَثِيْرٍ جُنْدُهُ ، نَافِذَةٍ مَشِيْئَتُهُ ، قَاهِرٍ حُكْمُهُ ، بَاقٍ مُلْكُهُ ، دَائِمٍ سُلْطَانُهُ ، دَقِيْقٍ عِلْمُهُ ، بَالِغَةٍ حِكْمَتُهُ(٢) ، عَدْلٍ قَضَاؤُهُ(٣) ، لاَ يَعْزُبُ(٤) عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ(٥) ، لاَ يُجَاوِزُهُ ظُلْمُ الظَّالِمِ(٦) ، فَأَنْتَ أَعْظَمُهُمْ ظُلْماً وَأَكْبَرُهُمْ جَرِيْمَةً ؛ لأَنَّكَ أَشْرَكْتَ بِتَصَرُّفِكَ فِيْكَ وَفِي خَلْقِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهَوَاكَ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان : ١٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء : ٤٨ و١١٦] .

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (وشوكته) .
(٢) قال الله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾[القمر : ٥] .
(٣) قطعة من حديث دعاء ختم القرآن .
(٤) أي : لا يغيب عنه .
(٥) قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ : ٣] .
(٦) في نسخة : (ظالم) .

اتَّقِ الشِّرْكَ جِدّاً وَلا تَقْرَبْهُ . وَاجْتَنِبْهُ فِي حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ ، وَلَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، فِي خَلْوَتِكَ وَجِلْوَتِكَ .

وَاحذَرِ الْمَعْصِيَةَ فِي الْجُمْلَةِ فِي الْجَوَارِحِ وَالقَلْبِ .

وَاتْرُكِ الإِثْمَ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَنَ .

لاَ تَهْرُبْ مِنْهُ عزَّ وجلَّ فَيُدْرِكُكَ ، وَلاَ تُنَازِعْهُ فِي قَضَائِهِ فَيَقْصِمُكَ ، وَلاَ تَتَّهِمْهُ فِي حُكْمِهِ فَيَخْذِلُكَ ، وَلاَ تَغْفَلْ عَنْهُ فَيُنَبِّهَكَ وَيَبْتَلِيَكَ ، وَلاَ تُحْدِثْ فِي دَارِهِ حَادِثَةً فَيُهْلِكُكَ ، وَلاَ تَقُلْ فِي دِينِهِ بِهَوَاكَ فَيُرْدِيَكَ وَيُظْلِمُ قَلْبَكَ ، وَيَسْلبُ إِيْمَانَكَ وَمَعْرِفَتَكَ ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْكَ شَيْطَانَكَ وَنَفْسَكَ وَهَوَاكَ وَشَهَوَاتِكَ وَأَهْلَكَ وَجِيرَانَكَ وَأَصْحَابَكَ وَأَخِلاَّءَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِهِ حَتَّى عَقَارِبَ دَارِكَ وَحَيَّاتِهَا وَجِنَّهَا وَبَقِيَّةَ هَوَامِّهَا فَيُنَغِّصُ عِيْشَتَكَ فِي الدُّنْيَا وَيُطِيلُ عَذَابَكَ فِي العُقْبَى .

* * *



الْمَقَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُوْنَ

فِي الْحَثِّ عَلَى مُلاَزَمَةِ بَابِ اللهِ تَعَالَى

اِحْذَرْ مَعْصِيَةَ اللهِ عزَّ وجلَّ جِدّاً ، وَالْزَمْ بَابَهُ حَقّاً ، وَابْذُلْ طَوْقَكَ وَجُهْدَكَ فِي طَاعَتِهِ مُعْتَذِراً مُتَضَرِّعاً مُفْتَقِراً خَاضِعاً ، مُتَخَشِّعاً مُطْرِقاً ، غَيْرَ نَاظِرٍ إِلَى خَلْقِهِ ، وَلاَ تَابِعٍ لِهَوَاكَ ، وَلاَ طَالِبٍ لِلأَعْوَاضِ دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَلاَ ارْتِقَاءِ إِلَى الْمَنَازِلِ العَالِيَةِ[١] وَالْمَقَامَاتِ الشَّرِيْفَةِ .

وَاقْطَعْ بِأَنَّكَ عَبْدُهُ ، وَالعَبْدُ وَمَا مَلَكَ لِمَوْلاَهُ ، لاَ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنَ الأَشْيَاءِ .

وَأَحْسِنِ[٢] الأَدَبَ وَلاَ تَتَّهِمْ مَوْلاَكَ ، فَـ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد : ٨] ، لاَ مُقَدِّمَ لِمَا أَخَّرَ ، وَلاَ مُؤَخِّرَ لِمَا قَدَّمَ ، يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ عِنْدَ وَقْتِهِ وَأَجَلِهِ إِنْ شِئْتَ أَوْ أَبَيْتَ .

لاَ تَشْرَهْ عَلَى مَا سَيَكُوْنُ لَكَ ، وَلاَ تَطْلُبْ وَتَتَلَهَّفْ[٣] عَلَى مَا هُوَ لِغَيْرِكَ ، فَمَا لَيْسَ هُوَ عِنْدَكَ لاَ يَخْلُو : إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ لَكَ ، أَوْ لِغَيْرِكَ .

فَإِنْ كَانَ لَكَ فَهُوَ إِلَيْكَ صَائِرٌ وَأَنْتَ إِلَيْهِ مُقَادٌ وَمُسَيَّرٌ ، فَاللِّقَاءُ عَنْ قَرِيْبٍ حَاصِلٌ .

وَمَا لَيْسَ لَكَ فَأَنْتَ عَنْهُ مَصْرُوْفٌ ، وَهُوَ عَنْكَ مُوَلٍّ ، فَأَنَّى لَكُمَا التَّلاَقِي ، فَاشْتَغِلْ بِإِحْسَانِ الأَدَبِ فِيْمَا أَنْتَ بِصَدَدِهِ مِنْ طَاعَةِ مَوْلاَكَ عزَّ وجلَّ فِي وَقْتِكَ الْحَاضِرِ ، وَلاَ تَرْفَعْ رَأْسَكَ وَلاَ تُمِلْ عُنُقَكَ إِلَى مَا سِوَاهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه : ١٣١] .

فَقَدْ نَهَاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَنِ الالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِ مَا أَقَامَكَ فِيْهِ وَرَزَقَكَ مِنْ طَاعَتِهِ وَأَعْطَاكَ مِنْ قَسْمِهِ وَرِزْقِهِ وَفَضْلِهِ . وَنَبَّهَكَ : أَنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ فِتْنَةٌ افْتَتَنَهُمْ بِهِ .

---

(١) في نسخة : (العليا) .

(٢) في نسخة : (أحسن) .

(٣) في المطبوع : (وتلهف) .

وَرِضَاكَ بِقَسْمِكَ خَيْرٌ لَكَ وَأَبْقَى وَأَبَرُّكَ وَأَحْرَى وَأَوْلَى ، فَلْيَكُنْ هَذَا دَأْبَكَ وَمُتَقَلَّبَكَ وَمَثْوَاكَ وَشِعَارَكَ وَدِثَارَكَ[1] وَمُرَادَكَ وَمَرَامَكَ[2] ، وَشَهَوَاتِكَ[3] وَمُنَاكَ ، تَنَلْ بِهِ كُلَّ الْمَرَامِ ، وَتَصِلْ بِهِ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ ، وَتَرَقَّى بِهِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَنَعِيمٍ وَطَرِيفٍ وَسُرُورٍ وَنَفِيسٍ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة : ١٧] .

وَلاَ عَمَلَ بَعْدَ الْعِبَادَاتِ الْخَمْسِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ ، وَلاَ أَجْمَعَ وَلاَ أَعْظَمَ وَلاَ أَشْرَفَ وَلاَ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ أَرْضَى (عِنْدَهُ) مِمَّا ذَكَرْنَا لَكَ ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى بِمَنِّهِ .

* * *



(١) الدِّثَرُ : المال الكثير .

(٢) ـ الْمَرَامُ : الْمَطْلَبُ .

(٣) في المطبوع : (وشهوتك) .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي شَجَرَةِ الإِيْمَانِ

لاَ تَقُوْلَنَّ ـ يَا فَقِيرَ اليَدِ ، يَا مَزْوِيّاً[1] عَنْهُ الدُّنْيَا وَأَبْنَاؤُهَا ، يَا خَامِلَ الذِّكْرِ بَيْنَ مُلُوْكِ الدُّنْيَا وَأَرْبَابِهَا ، يَا جَائِعُ ، يَا نَايِعُ[2] ، يَا عُرْيَانَ الْجَسَدِ ، يَا ظَمْآنَ الْكَبِدِ ، يَا مُشَتَّتاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنَ الأَرْضِ مِنْ مَسْجِدٍ وَبِقَاعٍ خَرَابٍ ، وَمَرْدُوْداً فِي كُلِّ بَابٍ ، وَمَدْفُوعاً عَنْ كُلِّ مُرَادٍ ، وَمُنْكَسِراً وَمُزْدَحِماً فِي قَلْبِهِ كُلُّ حَاجَةٍ وَمَرَامٍ ـ :

إِنَّ اللهَ أَفْقَرَنِي وَزَوَى عَنِّي الدُّنْيَا وَغَرَّنِي ، وَتَرَكَنِي وَقَلاَنِي وَفَرَّقَنِي وَلَمْ يَجْمَعْنِي وَأَهَانَنِي وَلَمْ يُعْطِنِي مِنَ الدُّنْيَا كِفَايَةً ، وَأَخْمَلَنِي وَلَمْ يَرْفَعْ ذِكْرِي بَيْنَ الْخَلِيْقَةِ وَإِخْوَانِي ، وَأَسْبَلَ عَلَى غَيْرِي نِعْمَةً مِنْهُ سَابِغَةً يَتَقَلَّبُ فِيْهَا لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَفَضَّلَهُ عَلَيَّ وَعَلَى أَهْلِ دِيَارِي وَكِلاَنَا مُسْلِمَانِ مُؤْمِنَانِ وَيَجْمَعُنَا أَبُوْنَا آدَمُ وَأُمُّنَا حَوَّاءُ ـ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ـ .

أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِكَ ، لأَنَّ طِيْنَتَكَ حُرَّةٌ ، وَنَدَى رَحْمَةِ اللهِ مُتَدَارِكٌ عَلَيْكَ مِنَ الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَاليَقِيْنِ وَالْمُوَافَقَةِ وَالعِلْمِ ، وَأَنْوَارَ الإِيْمَانِ وَالتَّوْحِيْدِ مُتَرَاكِمٌ لَدَيْكَ .

فَشَجَرَةُ إِيْمَانِكَ ، وَغَرْسُهَا وَبُذُوْرُهَا ثَابِتَةٌ مَكِيْنَةٌ ، مُوْرِقَةٌ مُثْمِرَةٌ ، مُتَزَايِدَةٌ مُتَشَعِّبَةٌ ، غَضَّةٌ مُظْلِمَةٌ مُتَفَرِّعَةٌ ، فَهِيَ كُلَّ يَوْمٍ فِي زِيَادَةٍ وَنُمُوٍّ ، فَلاَ حَاجَةَ بِهَا إِلَى سُبَاطَةٍ[3] وَعَلَفٍ لِتَنْمَى بِهَا وَتَرْبَى .

وَقَدْ فَرَغَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ أَمْرِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَعْطَاكَ فِي الآخِرَةِ دَارَ البَقَاءِ وَخَوَّلَكَ فِيْهَا ، وَأَجْزَلَ عَطَاءَكَ فِي العُقْبَى مِمَّا لاَ عَيْنٌ رَأَت ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4] [السجدة : ١٧] .

---

(١) في المطبوع : (مُولّي) .

(٢) في نسخة : (يا جائعاً ، يا نايعاً) . وناع ينيع : مَال . والنوائع من الخصون : المواثل .

(٣) السُّبَاطَةُ : الكُنَاسَةَ تُطْرَحُ فِي أَفْنِيَةِ البيوتِ .

(٤) رواه البخاري (٣٠٧٢) ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رفعه : « قال الله عزَّ وجلَّ : أعددت لعبادي=

أي : مَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَدَاءِ الأَوَامِرِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى تَرْكِ الْمَنَاهِي ، وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيْضِ إِلَيْهِ فِي الْمَقْدُوْرِ ، وَالْمُوَافَقَةِ لَهُ فِي جَمِيْعِ الأُمُورِ .

وَأَمَّا الغَنِيُّ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الدُّنْيَا وَخَوَّلَهُ وَنَعَّمَهُ بِهَا وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ فَضْلَهُ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ ، لأَنَّ مَحَلَّ إِيْمَانِهِ أَرْضٌ سَبْخَةٌ[١] وَصَخْرٌ ، لاَ يَكَادُ يَنْبَجِسُ مِنْهَا[٢] الْمَاءُ وَ(لاَ) تَنْبُتُ فِيْهَا الأَشْجَارُ ، وَ(لاَ) يَتَرَبَّى فِيْهَا الزَّرْعُ[٣] وَالثِّمَارُ فَصَبَّ عَلَيْهَا أَنْوَاعَ سُبَاطِهِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُرَبَّى بِهِ النَّبَاتُ وَالأَشْجَارُ ، وَهِيَ الدُّنْيَا وَحُطَامُهَا لِيَحْفَظَ بِهَا مَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنْ شَجَرَةِ الإِيْمَانِ وَغَرْسِ الأَعْمَالِ ، فَلَوْ قُطِعَ ذَلِكَ عَنْهَا لَجَفَّ النَّبَاتُ وَالأَشْجَارُ ، وَانْقَطَعَتِ الثِّمَارُ ، فَخَرِبَتِ الدِّيَارُ ، وَهُوَ عزَّ وجلَّ مُرِيْدٌ عِمَارَتَهَا .

فَشَجَرَةُ إِيْمَانِ الغَنِيِّ ضَعِيْفَةُ الْمَنْبَتِ وَخَالٍ عَمَّا هُوَ مَشْحُوْنٌ بِهِ مَنْبَتُ شَجَرَةِ إِيْمَانِكَ يَا فَقِيْرُ ، فَقُوَّتُهَا وَبَقَاؤُهَا بِمَا تَرَى عِنْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنْوَاعِ النَّعِيْمِ ، فَلَوْ قُطِعَ ذَلِكَ عَنْهُ مَعَ ضَعْفِ الشَّجَرَةِ جَفَّتْ ، فَكَانَ كُفْراً وَجُحُوْداً وَإِلْحَاقاً بِالْمُنَافِقِيْنَ وَالْمُرْتَدِّيْنَ وَالكُفَّارِ ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ عزَّ وجلَّ إِلَى الغَنِيِّ عَسَاكِرَ الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالْيَقِيْنِ وَالتَّوْفِيْقِ وَالعِلْمِ وَأَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ ، فَيَتَقَوَّى الإِيْمَانُ بِهَا ، فَحِيْنَئِذٍ لاَ يُبَالِي بِانْقِطَاعِ الغِنَى وَالنَّعِيْمِ ، وَاللهُ الْهَادِي الْمُوَفِّقُ .

* * *

= الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ . فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] » .

(١) بسكون الباء ، جمع سِباخ : أرضٌ ذاتُ نزٍّ وملحٍ .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (ينبت فيها) . وينبجس : يتفجّر منها الماء .

(٣) في نسخة : (الزروع) .

المَقَالَةُ السَّادِسَةُ وَالعِشْرُوْنَ

فِي النَّهْيِ عَنْ كَشْفِ البُرْقُعِ عَنِ الوَجْهِ

لاَ تَكْشِفِ البُرْقُعَ وَالقِنَاعَ عَنْ وَجْهِكَ حَتَّى تَخرُجَ مِنَ الْخَلْقِ وَتُولِيَهِمْ ظَهْرَ قَلْبِكَ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ وَيَزُولَ هَوَاكَ ، ثُمَّ تَزُولُ إِرَادَتُكَ وَمُنَاكَ ، فَتَفْنَى عَنِ الأَكْوَانِ دُنْياً وَأُخْرَى[١] ، فَتَصِيرَ كَإِنَاءٍ مُنْثَلِمٍ لاَ يَبْقَى فِيكَ غَيْرُ إِرَادَةِ رَبِّكَ عزَّ وجلَّ فَتَمْتَلِيءَ بِهِ عزَّ وجلَّ وَبِحُكْمِهِ ، إِذَا خَرَجَ الزُّوْرُ دَخَلَ النُّوْرُ ، فَلاَ يَكُوْنُ لِغَيْرِ رَبِّكَ فِي قَلْبِكَ مَكَانٌ وَلاَ مَدْخَلٌ وَجُعِلْتَ بَوَّابَ قَلْبِكَ ، وَأُعْطِيْتَ سَيْفَ التَّوْحِيْدِ وَالعَظَمَةِ وَالْجَبَرُوْتِ ، فَكُلُّ مَنْ رَأَيْتَهُ دَنَا مِنْ[٢] سَاحَةِ صَدْرِكَ إِلَى بَابِ قَلْبِكَ بَدَرْتَ[٣] رَأْسَهُ مِنْ كَاهِلِهِ فَلاَ يَكُوْنُ لِنَفْسِكَ وَهَوَاكَ وَإِرَادَتِكَ وَمُنَاكَ فِي دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ عِنْدَكَ أَيُّ[٤] امْتِثَالٍ وَلاَ كَلِمَةٌ مَسْمُوْعَةٌ ، لاَ رَأْيٌ مُتَّبَعٌ إِلاَّ اتِّبَاعَ أَمْرِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ، وَالوُقُوفَ مَعَهُ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، بَلِ الفَنَاءَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَتَكُوْنَ عَبْدَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وَأَمْرَهُ لاَ عَبْدَ الْخَلْقِ وَآرَائِهِمْ فَإِذَا اسْتَمَرَّ الأَمْرُ فِيكَ كَذَلِكَ ، ضُرِبَتْ حَوْلَ قَلْبِكَ سُرَادِقَاتُ الغَيْرَةِ وَخَنَادِقُ العَظَمَةِ وَسُلْطَانُ الْجَبَرُوْتِ ، وَحُفَّ بِجُنُوْدِ الْحَقِيْقَةِ وَالتَّوْحِيْدِ ، وَيُقَامُ دُوْنَ ذَلِكَ حُرَّاسٌ مِنَ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، كَيْلاَ يَخْلُصَ الْخَلْقُ إِلَى تَطَلُّبِ القَلْبِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ وَالْهَوَى ، وَالإِرَادَاتِ وَالأَمَانِي البَاطِلَةِ ، وَالدَّعَاوَى الكَاذِبَةِ النَّاشِئَةِ مِنَ الطِّبَاعِ وَالنُّفُوسِ الآمِرَةِ بِالسُّوءِ ، وَالضَّلاَلاَتِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْهَوَى ، فَحِينَئِذٍ إِنْ كَانَ (فِي) القَدَرِ مَجِيءُ الْخَلْقِ وَتَوَاتُرُهُمْ[٥] إِلَيْكَ وَتَتَابُعُهُمْ وَتَطَابُقُهُمْ عَلَيْكَ ، لِيُصِيبُوا مِنَ الأَنْوَارِ اللاَّئِحَةِ وَالعَلاَمَاتِ الْمُنِيْرَةِ وَالْحِكَمِ البَالِغَةِ ، وَيَرَوْا مِنَ الكَرَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَخَوَارِقِ العَادَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، وَيَزْدَادُوا بِذَلِكَ مِنَ

---

(١) في المطبوع : (دنيا أخرى) .
(٢) في المطبوع : (في) .
(٣) في المطبوع : (ندرت) . وتَدَرَ : سَقَطَ مِنْ جَوْفِ شيءٍ فظهر ، ومنه : نَدَرَ النبات خرج ورقه .
(٤) في المطبوع : (رأس) .
(٥) في المطبوع : (وتوترهم) .

الْقُرُبَاتِ وَالطَّاعَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ وَالْمُكَابَدَاتِ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِم عزَّ وجلَّ ، حُفِظَتْ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ ، وَعَنْ مَيْلِ النَّفْسِ إِلَى هَوَاهَا وَعُجْبِهَا وَمُبَاهَاتِهَا وَتَعَاظُمِهَا بِالتَّكَبُّرِ بِهِمْ وَبِقَبُوْلِهِمْ لَكَ وَإِقْبَالِ وُجُوْهِهِمْ إِلَيْكَ ، وَكَذَلِكَ إِنْ قُدِّرَ مَجِيءُ زَوْجَةٍ حَسْنَاءَ جَمِيْلَةٍ بِكِفَايَتِهَا وَسَائِرِ مُؤْنَتِهَا ، حُفِظْتَ مِنْ شَرِّهَا وَحَمْلِ أَثْقَالِهَا وَأَتْبَاعِهَا وَأَهْلِهَا ، وَصَارَتْ عِنْدَكَ مَوْهِبَةً[١] مُكَفَّاةً مُهَنَّاةً مُنَقَّاةً مُصَفَّاةً مِنَ الغِشِّ وَالْخُبْثِ (وَالدَّغَلِ) وَالْحِقْدِ وَالْغَضَبِ وَالْخِيَانَةِ فِي الْغَيْبِ ، فَتَكُوْنُ لَكَ مُسَخَّرَةً ، هِيَ[٢] وَأَهْلُهَا ، مَحْمُوْلَةً عَنْكَ مُؤْنَتُهَا ، مَدْفُوْعَةً عَنْكَ أَذِيَّتُهَا ، وَإِنْ قُدِّرَ مِنْهَا وَلَدٌ كَانَ صَالِحاً ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً قُرَّةَ عَيْنٍ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾[الأنبياء : ٩٠] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان : ٧٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[مريم : ٦] .

فَتَكُوْنُ هَذِهِ الدَّعَوَاتُ الَّتِي فِي هَذِهِ الآيَاتِ مَعْمُولاً بِهَا مُسْتَجَابَةً فِي حَقِّكَ إِنْ دَعَوْتَ بِهَا أَوْ لَمْ تَدْعُ ، إِذْ هِيَ فِي مَحَلِّهَا وَأَهْلِهَا ، (وَأَوْلَى مَنْ يُعَامِلُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ يُقَابِلُ بِهَا مَنْ كَانَ أَهْلاً) لِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَأُقِيْمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَقُدِّرَ لَهُ مِنَ الفَضْلِ وَالقُرْبِ هَذَا الْمِقْدَارُ ، وَكَذَلِكَ إِنْ قُدِّرَ مَجِيءُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُهَا لاَ يَضُرُّ إِذْ[٣] ذَاكَ ، فَمَا هُوَ قَسْمُكَ مِنْهَا ؟ فَلاَ بُدَّ مِنْ تَنَاوُلِهِ وَتَصْفِيَتِهِ لَكَ بِفِعْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَوُرُوْدِ الأَمْرِ بِتَنَاوُلِهِ وَأَنْتَ مُمْتَثِلٌ لِلأَمْرِ مُثَابٌ عَلَى تَنَاوُلِهِ ، كَمَا تُثَابُ عَلَى فِعْلِ صَلاَةِ[٤] الفَرْضِ وَصِيَامِ الفَرْضِ ، وَتُؤْمَرَ فِيْمَا لَيْسَ بِقَسْمِكَ مِنْهَا بِصَرْفِهِ إِلَى أَرْبَابِهِ مِنَ الأَصْحَابِ وَالْجِيْرَانِ وَالإِخْوَانِ الْمُسْتَحِقِّيْنَ الفُقَرَاءِ مِنْهُمْ وَأَصْحَابِ الأَقْسَامِ عَلَى مَا يَقْتَضِي الْحَالُ ، فَالأَحْوَالُ تَكْشِفُهَا وَتُمَيِّزُهَا . لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ[٥] .

---

(١) في نسخة : (هبة) .

(٢) في المطبوع : (وهي) .

(٣) في المطبوع : (إذا) .

(٤) في المطبوع : (صلوات) .

(٥) رواه الإمام أحمد (١/ ٢١٥ و٢٧١) وابنه في السنة (١١١٤) والبزار (٢٠٠) وابن حبان (٦٢١٣ و٦٢١٤) وأبو الشيخ في الأمثال (٥) وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٩٦) والطبراني في الكبير (١٢٤٥١) والأوسط (٢٥ و٦٩٨٢) والحاكم (٢/ ٣٢١ و٣٨٠) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٥٦) والبيهقي في الزهد الكبير (٩٨٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٨٧) : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله =

فَحِينَئِذٍ تَكُوْنُ مِنْ أَمْرِكَ عَلَى بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ لاَ غُبَارَ عَلَيْهَا وَلاَ تَلْبِيْسَ وَلاَ تَخْلِيْطَ وَلاَ شَكَّ وَ(لاَ) ارْتِيَابَ ، فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ ، الرِّضَا الرِّضَا ، حِفْظَ الْحَالِ حِفْظَ الْحَالِ ، الْخُمُوْلَ الْخُمُوْلَ ، الْخُمُوْدَ الْخُمُوْدَ ، السُّكُوْتَ السُّكُوْتَ ، الصُّمُوْتَ الصُّمُوْتَ[1] ، الْحَذَرَ الْحَذَرَ ، النَّجَا النَّجَا ، الوَحَا الوَحَا[2] ، اللهَ اللهَ ثُمَّ اللهَ ، الإِطْرَاقَ الإِطْرَاقَ ، الإِغْمَاضَ الإِغْمَاضَ ، الْحَيَاءَ الْحَيَاءَ ، إِلَى أَنْ ﴿ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[البقرة : ٢٣٥] ، فَيُؤْخَذُ بِيَدِكَ فَتُقَدَّمُ وَيُنْزَعُ عَنْكَ مَا عَلَيْكَ ثُمَّ تَغُوْصُ فِي بِحَارِ الفَضَائِلِ وَالْمِنَنِ وَالرَّحْمَةِ ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا فَتُخْلَعُ عَلَيْكَ خِلَعُ الأَنْوَارِ وَالأَسْرَارِ وَالعُلُوْمِ وَالغَرَائِبِ الْمَدَنِيَّةِ ، ثُمَّ تُقَرَّبُ وَتُحَدَّثُ (وَتُحَدَّثُ) فِيْهِ بِإِعْلاَمٍ وَإِلْهَامٍ وَتُكَلَّمُ وَتُعْطَى وَتُغْنَى وَتُشَجَّعُ (وَتُرْفَعُ) ، وَتُخَاطَبُ : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[يوسف : ٥٤] .

فَحِينَئِذٍ اعْتَبِرْ حَالَةَ[3] يُوْسُفَ الصِّدِّيْقِ ـ عليه السلام ـ حِيْنَ خُوْطِبَ بِهَذَا الْخِطَابِ عَلَى لِسَانِ مَلِكِ مِصْرَ وَعَظِيْمِهَا وَفِرْعَوْنِهَا ، كَانَ لِسَانُ الْمَلِكِ قَائِلاً مُعَبِّراً بِهَذَا الْخِطَابِ ، وَالْمُخَاطِبُ هُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَى لِسَانِ الْمَعْرِفَةِ ، سُلِّمَ إِلَيْهِ الْمُلْكُ[4] الظَّاهِرُ وَهُوَ مُلْكُ مِصْرَ . وَمُلْكُ النَّفْسِ ، وَمُلْكُ الْمَعْرِفَةِ وَالعِلْمِ وَالقُرْبَةِ وَالْخُصُوْصِيَّةِ وَعُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُ عزَّ وجلَّ . قَالَ تَعَالَى فِي مُلْكِ الْمَلِكِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[يوسف : ٢١ و٥٦] . أي : فِي أَرْضِ مِصْرَ . ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف : ٥٦] .

وَقَالَ تَعَالَى فِي مُلْكِ النَّفْسِ : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] .

= رجال الصحيح ، وصحّحه ابن حبان .

(١) في نسخة : (الصمت الصمت) .

(٢) في نسخة : (اللجا اللجا) .

(٣) في نسخة : (حال) .

(٤) تحرف في المطبوع إلى : (المالك) .

وَقَالَ تَعَالَى فِي مُلْكِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[يوسف : ٣٧] .

فَإِذَا خُوطِبْتَ بِهَذَا الْخِطَابِ يَا أَيُّهَا الصِّدِّيقُ الأَكْبَرُ ، أُعْطِيتَ الْحَظَّ الأَوْفَرَ مِنَ الْعِلْمِ الأَعْظَمِ ، وَمُنِحْتَ وَهُنِّيتَ بِالتَّوْفِيقِ وَالْمِنَنِ وَالْقُدْرَةِ وَالوِلاَيَةِ العَامَّةِ ، وَالأَمْرِ النَّافِذِ عَلَى النَّفْسِ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَشْيَاءِ ، وَالتَّكْوِينِ بِإِذْنِ إِلَهِ الأَشْيَاءِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ .

وَأَمَّا فِي الأُخْرَى فِي دَارِ السَّلاَمِ وَالْجَنَّةِ الْعُلْيَا ، فَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْمَوْلَى الكَرِيمِ زِيَادَةً وَمِنَّةً ، وَهُوَ الْمُنَى الَّذِي لاَ غَايَةَ لَهُ وَلاَ مُنْتَهَى ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِحَقَائِقِ ذَلِكَ ، إِنَّهُ ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٧ و١٢٨ والنور : ٢٠] .





الْمَقَالَةُ السَّابِعَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ثَمَرَتَانِ

اجْعَلِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ثَمَرَتَيْنِ مِنْ غُصْنَيْنِ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، أَحَدُ الْغُصْنَيْنِ يُثْمِرُ حُلْواً وَالآخَرُ مُرّاً ، فَاتْرُكِ البِلاَدَ وَالأَقَالِيْمَ وَنَوَاحِي الأَرْضِ الَّتِي يُحْمَلُ إِلَيْهَا هَذِهِ الثَّمَرَةُ الْمَأْخُوْذَةُ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَابْعُدْ مِنْهَا وَمِنْ أَهْلِهَا ، وَاقْتَرِبْ مِنَ الشَّجَرَةِ وَكُنْ سَائِسَهَا وَخَادِمَهَا القَائِمَ عِنْدَهَا .

وَاعْرِفِ الغُصْنَيْنِ وَالثَّمَرَتَيْنِ وَالْجَانِبَيْنِ ، فَكُنْ إِلَى جَانِبِ الغُصْنِ الْمُثْمِرِ حُلْواً ، فَحِيْنَئِذٍ يَكُوْنُ غِذَاؤُكَ وَقُوَّتُكَ مِنْهَا ، وَاجْتَنِبْ أَنْ تَتَقَدَّمَ[1] إِلَى جَانِبِ الغُصْنِ الآخَرِ فَتَأْكُلَ مِنْ ثَمَرَتِهِ فَتَهْلِكَ مِنْ مَرَارَتِهَا ، فَإِذَا دُمْتَ عَلَى هَذَا كُنْتَ فِي دَعَةٍ وَأَمْنٍ وَرَاحَةٍ وَسَلاَمَةٍ مِنَ الآفَاتِ كُلِّهَا ، إِذِ الآفَاتُ وَأَنْوَاعُ البَلاَيَا تَتَوَلَّدُ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَةِ الْمُرَّةِ ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَهِمْتَ فِي الآفَاقِ وَقُدِّمَ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَتَيْنِ وَهِيَ مُخْتَلِطَةٌ غَيْرُ مُتَمَيِّزَةِ الْحُلْوَةُ[2] مِنَ الْمُرَّةِ هُنَا فَتَنَاوَلْتَ مِنْهَا ، فَرُبَّمَا وَقَعَتْ يَدُكَ عَلَى الْمُرَّةِ فَأَدْنَيْتَهَا مِنْ فِيْكَ فَأَكَلْتَ مِنْهَا جُزْءاً وَمَضَغْتَهُ ، فَسَرَتِ الْمُرَّةُ إِلَى أَعْمَاقِ لَهَوَاتِكَ وَبَاطِنِ حَلْقِكَ وَدِمَاغِكَ وَخَيَاشِيْمِكَ ، فَعَمِلَتْ فِيْكَ وَسَرَتْ فِي عُرُوْقِكَ وَأَجْزَاءِ جَسَدِكَ فَهَلَكْتَ بِهَا ، وَلَفْظُكَ البَاقِي مِنْ فِيْكَ وَغَسْلُ أَثَرِهِ لاَ يَنْفَعُ وَلاَ يَدْفَعُ عَنْكَ مَا قَدْ سَرَى فِي جَسَدِكَ وَلاَ نَفَعَكَ[3] ، وَإِنْ أَكَلْتَ ابْتِدَاءً[4] مِنَ الثَّمَرَةِ الْحُلْوَةِ وَسَرَتْ حَلاَوَتُهَا فِي أَجْزَاءِ جَسَدِكَ وَانْتَفَعْتَ بِهَا وَسُرِرْتَ ، فَلا يَكْفِيكَ ذَلِكَ ، فَلاَ بُدَّ تَتَنَاوَلُ غَيْرَهَا ثَانِياً ، فَلاَ تَأْمَنُ أَنْ تَكُوْنَ الثَّانِيَةُ مِنَ الْمُرَّةِ فَيَحِلَّ بِكَ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ ، فَلاَ خَيْرَ فِي البُعْدِ عَنِ الشَّجَرَةِ وَالْجَهْلِ بِثَمَرَتِهَا ، وَالسَّلاَمَةُ فِي قُرْبِهَا وَالقِيَامِ مَعَهَا .

فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِفِعْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَاللهُ هُوَ فَاعِلُهُمَا وَمُجْرِيْهِمَا .

---

(١) في المطبوع : (تقدم) .
(٢) في نسخة : (الحلو) .
(٣) في المطبوع : (ينفعك) .
(٤) في المطبوع : (غذاء) .

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات : ٩٦] .

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اللهُ خَلَقَ الْجَازِرَ وَجَزُوْرَهُ »[١] .

وَأَعْمَالُ العِبَادِ خَلْقُ اللهِ عزَّ وجلَّ وَكَسْبُهُمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل : ٣٢] .

سُبْحَانَهُ مَا أَكْرَمَهُ وَأَرْحَمَهُ ، أَضَافَ العَمَلَ إِلَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا الدُّخُوْلَ إِلَى الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِمْ ، وَهُوَ بِتَوْفِيْقِهِ وَرَحْمَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

قَالَ ﷺ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ » . فَقِيْلَ لَهُ : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟ فَقَال : « وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ[٢] . مَرْوِيٌّ ذَلِكَ فِي حَدِيْثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

فَإِذَا كُنْتَ طَائِعاً للهِ عزَّ وجلَّ مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ ، مُنْتَهِياً لِنَهْيِهِ ، مُسْلِماً لَهُ فِي قَدَرِهِ ، حَمَاكَ عَنْ شَرِّهِ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْكَ بِخَيْرِهِ وَحَمَاكَ عَنِ الأَسْوَاءِ جَمِيْعِهَا دِيْناً وَدُنْيَا .

---

(١) لم أجده فيما بين يدي من مصادر .

(٢) سيأتي في المقالة رقم (٦٨) . ورواه الطيالسي (٢٣٢٢ و٢٥٨٨) وعبد الرزاق (٢٠٥٦٢) والإمام أحمد (٢/ ٢٣٥ و٢٥٦ و٢٦٤ و٣١٩ و٣٢٦ و٣٤٤ و٣٨٦ و٤٦٦ و٤٧٣ و٤٨٢ و٤٨٨ و٤٩٥ و٥٠٣ و٥٠٩ و٥١٤ و٥١٩ و٥٢٤ و٥٣٧ و٣/ ٣٦٢) والزهد له (٢٣٥٩) والبخاري (٥٦٧٣ و٦٤٦٣) والأدب المفرد (٤٦١) ومسلم (٢٨١٦ و٢٨١٧) وابن ماجة (٤٢٠١) وأبو يعلى (١٧٧٥ و٦٥٩٤) وابن حبان (٣٥٠ و٦٦٠) والبزار (٣٤٤٨ زوائد) والطبراني في الأوسط (٤٢٨٤) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٢٩ و٨/ ٣٧٩) والقضاعي في مسند الشهاب (٦٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ مقاربة .

ورواه الإمام أحمد (٦/ ١٢٥ و٢٧٣) والبخاري (٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٨) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٦٥٥) عن عائشة رضي الله عنها .

ورواه الإمام أحمد (٢/ ٤٩٥ و٣/ ٣٣٧ و٣٦٢ و٣٩٤) والدارمي (٢٧٣٣) ومسلم (٢٨١٧) وأبو يعلى (١٧٧٥) وابن حبان (٣٥٠) والطبراني في الأوسط (٤٢٨٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

وانظر شرح الحديث في فتح الباري لابن حجر عقب رقم (٦٤٦٣ و٦٤٦٦) .

أَمَا دُنْيَاً : فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] .

وَأَمَّا دِيناً : فَقَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء : ١٤٧] .

وَمُؤْمِنٌ شَاكِرٌ مَا يَفْعَلُ البَلاَءُ عِنْدَهُ وَهُوَ إِلَى العَافِيَةِ أَقْرَبُ مِنَ البَلاَءِ ، لأَنَّهُ (فِي مَحَلِّ الْمَزِيدِ أَيْضاً) شَاكِرٌ . قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم : ٧] .

فَإِيمَانُكَ يُطْفِيءُ لَهَبَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ الَّتِي هِيَ عُقُوبَةُ كُلِّ عَاصٍ ، فَكَيْفَ لاَ يُطْفِيءُ نَارَ البَلاَيَا فِي الدُّنْيَا ؟

اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ مِنَ الْمَجْذُوبِينَ الْمُخْتَارِينَ لِلْوِلاَيَةِ وَالاصْطِفَاءِ وَالاجْتِبَاءِ ، فَلاَ بُدَّ مِنَ البَلاَءِ لِيُصَفَّى بِهِ مِنْ خَبَثِ الْهَوَى ، وَالْمَيْلِ إِلَى الطِّبَاعِ ، وَالرُّكُونِ إِلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَلَذَّاتِهَا ، وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَى الْخَلْقِ ، وَالرِّضَا بِقُرْبِهِمْ ، وَالسُّكُونِ إِلَيْهِمْ ، وَالثُّبُوتِ مَعَهُمْ ، وَالفَرَحِ بِهِمْ ، فَيُبْتَلَى حَتَّى يَذُوبَ جَمِيعُ ذَلِكَ ، وَيَتَنَظَّفُ القَلْبُ بِخُرُوجِ الكُلِّ ، وَيَبْقَى تَوْحِيدُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وَمَعْرِفَتُهُ .

وَمَوَارِدُ الغَيْبِ مِنْ أَنْوَاعِ الأَسْرَارِ وَالعُلُومِ وَأَنْوَارِ القَلْبِ ؛ لأَنَّهُ بَيْتٌ لاَ يَسَعُهُ اثْنَانِ . قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[الأحزاب : ٤] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾[النمل : ٣٤] . فَأَخْرَجُوا الأَعِزَّةَ عَنْ طِيبِ الْمَنَازِلِ وَنَعِيمِ العَيْشِ .

وَكَانَتِ الوِلاَيَةُ عَلَى القَلْبِ لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَى وَالنَّفْسِ ، وَالْجَوَارِحُ مُتَحَرِّكَةٌ بِأَمْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالأَبَاطِيلِ وَالتُّرَّهَاتِ فَزَالَتْ تِلْكَ الوِلاَيَةُ فَسَكَنَتِ الْجَوَارِحُ ، وَفَرَغَتْ دَارُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ القَلْبُ ، وَتَنَظَّفَتِ السَّاحَةُ الَّتِي هِيَ الصَّدْرُ .

فَأَمَّا القَلْبُ فَصَارَ مَسْكَناً[١] لِلتَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالعِلْمِ ، وَأَمَّا السَّاحَةُ فَمَهْبِطُ الْمَوَارِدِ

(١) تحرف في المطبوع إلى : (مسكيناً) .

وَالعَجَائِبِ مِنَ الغَيْبِ ، كُلُّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ البَلاَيَا وَثَمَرَتُهَا .

قَالَ ﷺ : « إِنَّا مَعْشَرَ[١] الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ »[٢] .

وَقَالَ ﷺ : « أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ مِنْهُ خَوْفاً »[٣] .

فَكُلُّ مَنْ قَرُبَ مِنَ المَلِكِ اشْتَدَّ خَطَرُهُ وَحَذَرُهُ ، لأَنَّهُ فِي مَرْأَى مِنَ المَلِكِ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ تَصَارِيفُهُ وَحَرَكَاتُهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَالخَلِيقَةُ عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ بِأَجْمَعِهِمْ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِهَذَا الكَلاَمِ ؟ .

فَنَقُولُ لَكَ : لَمَّا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ وَشَرُفَتْ رُتْبَتُهُ عَظُمَ خَطَرُهُ ، لأَنَّهُ وَجَبَ عَلَيْهِ شُكْرُ مَا أَوْلاَهُ مِنْ جَسِيمِ نِعَمِهِ[٤] وَفَضْلِهِ ، فَأَدْنَى الالْتِفَاتِ عَنْ خِدْمَتِهِ تَقْصِيرٌ فِي شُكْرِهِ وَذَلِكَ نُقْصَانٌ فِي طَاعَتِهِ . قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾[الأحزاب : ٣٠] . قَالَ ذَلِكَ لَهُنَّ لِتَمَامِ نِعَمِهِ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِنَّ بِاتِّصَالِهِنَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ ،

(١) في المطبوع : (معاشر) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) رواه البخاري (٦٨٧١ البغا) ومسلم (٢٣٥٦) وأبو يعلى (٤٩١٠) والبيهقي (٣/ ١٣٩) من طريق مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها في حديث فيه : « فوالله ، لأنا أعلمهم بالله ، وأشدّهم له خشية » .

وروواه البخاري (٥٠٦٣ الفكر) وابن حبان (٣١٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٣٨) والبيهقي (٧/ ٧٧) والشعب (٥٤٧٧) من طريق حميد بن أبي حميد الطويل ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث وفيه : « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له » .

ورواه عبد الرزاق (١٠٣٧٥) ومن طريقه الإمام أحمد (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (٩) عن معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها في حديث وفيه : « فوالله إني لأخشاكم لله ، وأحفظكم لحدوده » .

ورواه عبد الرزاق (٧٤١٢) وعنه الإمام أحمد (٥/ ٤٣٤) عن ابن جريج ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن رجل من الأنصار في حديث وفيه : « أنا أتقاكم لله ، وأعلمكم بحدود الله » ورواه مالك (١/ ٢٩١ ٢٩٢) عن زيد بن مسلم ، عن عطاء بن يسار مرسلاً .

(٤) في المطبوع : (نعمة) .

فَكَيْفَ مَنْ كَانَ مَوْصُولاً(١) بِاللهِ عزَّ وجلَّ وَقُرْبَهُ . تَعَالَى اللهُ عُلُوّاً كَبِيْراً عَنِ التَّشَبُّهِ(٢) بِخَلْقِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى : ١١] . وَاللهُ الْهَادِي .

* * *



(١) في المطبوع : (مواصلاً) .
(٢) في المطبوع : (التشبيه) .

المَقَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي تَفْصِيْلِ أَحْوَالِ الْمُرِيْدِ

أَتُرِيْدُ الرَّاحَةَ وَالسُّرُورَ وَالدَّعَةَ وَالْحُبُورَ ، وَالأَمْنَ وَالسُّكُوْنَ وَالنَّعِيْمَ وَالدَّلاَلَ وَأَنْتَ بَعْدُ فِي كِيْرِ السَّبْكِ وَالتَّذْوِيْبِ وَتَمْوِيْتِ النَّفْسِ وَمُجَانَبَةِ الْهَوَى وَإِزَالَةِ الْمُرَادَاتِ وَالأَعْوَاضِ[1] دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَقَدْ بَقِيَتْ فِيْكَ بِقِيَّةٌ مِنْ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ لاَئِحَةٌ ؟ عَلَى رِسْلِكَ يَا مُسْتَعْجِلُ ، مَهْلاً مَهْلاً ، يَا مُتَرَقِّبُ ، البَابُ مَسْدُوْدٌ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ بَقِيَتْ عَلَيْكَ مِنْهُ وَفِيْكَ ذَرَّةٌ .

وَمِنْهُ : « **الْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ** »[2] .

أَنْتَ مَصْدُوْدٌ عَنْ ذَلِكَ مَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا مِقْدَارُ مَصِّ نَوَاةٍ ، وَالدُّنْيَا هَوَاكَ وَمُرَادُكَ

---

(١) في نسخة : (والأغراض) .

(٢) رواه البخاري معلّقاً عقب رقم (٢٥٦٣) وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٧) عن عائشة رضي الله عنها موقوفاً .

ورواه عبد الرزاق (٨/ ٤٠٨) عن أم سلمة زوج النبي ﷺ موقوفاً . ورواه ابن عدي (٣/ ٢٥٢) مرفوعاً وفيه : سليمان بن أرقم ، ليس بشيء .

ورواه سفيان الثوري في الفرائض (رقم ٧٢ و٨٧ العاصمة) والشافعي في المسند (ص٢٠٦) وعبد الرزاق (٨/ ٤٠٥ و٤٠٦) والبخاري معلّقاً عقب رقم (٢٥٦٣) وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٧) والبيهقي (١٠/ ٣٢٤ و٣٢٦) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه موقوفاً .

ورواه البيهقي (١٠/ ٣٢٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً .

ورواه الثوري في الفرائض (٧١) والبخاري معلقاً عقب رقم (٢٥٦٣) وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٦ و٣١٧ مكتبة الرشد) والبيهقي (١٠/ ٣٢٤) عن ابن عمر رضي الله عنه موقوفاً .

ورواه الثوري في الفرائض (٧٠) عن سعيد بن المسيب من قوله .

ورواه أبو داود (٣٩٢٦) ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٢٤) عن هارون بن عبد الله ، عن أبي بدر ، عن أبي عُتبة إسماعيل بن عياش [روايته عن أهل بلده فيها شيء] ، عن سليمان بن سليم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ قال : « المكاتَبُ عبدٌ ما بَقِيَ عليه من مكاتبته درهمٌ » .

وقال الترمذي في سننه (١٢٥٩) : قال أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم : المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم . وهو قول سفيان الثوري ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق .

وَرُؤْيَتُكَ بِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ أَوْ طَلَبُكَ بِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ ، وَتَشَوُّقُ نَفْسِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الأَغْوَاضِ(١) دُنْيَا وَأُخْرَى .

فَمَا دَامَ فِيكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَأَنْتَ فِي بَابِ الإِفْنَاءِ ، فَاسْكُنْ حَتَّى يَحْصُلَ الفَنَاءُ عَلَى التَّمَامِ وَالكَمَالِ ، فَتَخْرُجَ مِنَ الكِيرِ وَتُكَمَّلَ صِيَاغَتُكَ وَتُجَلَّى وَتُكْسَى وَتُطَيَّبُ وَتُبَخَّرُ ، ثُمَّ تُرْفَعُ إِلَى المَلِكِ الأَكْبَرِ ، فَتُخَاطَبُ بِـ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[يوسف : ٥٤] . فَتُؤَانَسُ وَتُلاطَفُ ، وَتُطْعَمُ مِنَ الفَضْلِ وَمِنْهُ تُسْقَى وَتُقَرَّبُ وَتُدْنَى وَتَطَّلِعُ عَلَى الأَسْرَارِ وَهِيَ عَنْكَ لا تُخْفَى ، فَتَغْنَى بِمَا تُعْطَى مِنْ ذَلِكَ عَنْ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ .

أَلا تَرَى إِلَى قُرَاضَةِ الذَّهَبِ مُتَفَرِّقَةً مُبْتَذَلَةً مُتَدَاوَلَةً ، غَادِيَةً رَائِحَةً فِي أَيْدِي العَطَّارِينَ وَالبَقَّالِينَ وَالقَصَّابِينَ وَالدَّبَّاغِينَ وَالنَّفَّاطِينَ(٢) وَالكَنَّاسِينَ وَالكَفَّافِينَ ، أَصْحَابِ الصَّنَائِعِ النَّفِيسَةِ وَالرَّذِيلَةِ الدَّنِيَّةِ الخَبِيثَةِ ، ثُمَّ تُجْمَعُ فَتُجْعَلُ فِي كِيرِ الصَّائِغِ(٣) فَتَذُوبُ هُنَاكَ بِإِشْعَالِ النَّارِ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهُ فَتُطْرَقُ وَتُرَقَّقُ وَتُطْلَعُ وَتُصَاغُ فَتُجْعَلُ حُلِيّاً ، ثُمَّ تُجَلَّى وَتُطَيَّبُ فَتُتْرَكُ فِي خَيْرِ المَوَاضِعِ وَالأَمْكِنَةِ مِنْ وَرَاءِ الأَغْلاقِ فِي الخَزَائِنِ وَالصَّنَادِيقِ وَالأَحْقَاقِ(٤) وَتُحَلَّى بِهَا العَرُوسُ وَتُزَيَّنُ وَتُكَرَّمُ ، وَقَدْ تَكُونُ العَرُوسُ لِلْمَلِكِ الأَعْظَمِ . فَتُنْقَلُ القُرَاضَةُ(٥) مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ إِلَى قُرْبِ المَلِكِ وَمَجْلِسِهِ بَعْدَ السَّبْكِ وَالدَّقِّ .

هَكَذَا أَنْتَ يَا مُؤْمِنُ إِذَا صَبَرْتَ عَلَى مَجَارِي الأَقْدَارِ فِيكَ وَرَضِيتَ بِالقَضَاءِ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ قُرِّبْتَ إِلَى مَوْلاكَ عزَّ وجلَّ فِي الدُّنْيَا ، فَتُنَعَّمُ بِالمَعْرِفَةِ وَالعُلُومِ وَالأَسْرَارِ ، وَتَسْكُنُ فِي الآخِرَةِ دَارَ السَّلامِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي جِوَارِ اللهِ وَدَارِهِ وَقُرْبِهِ عزَّ وجلَّ ، فَاصْبِرْ وَلا تَسْتَعْجِلْ ، وَارْضَ بِالقَضَاءِ وَلا تَتَّهِمْ ، فَسَيَنَالُكَ بَرْدُ عَفْوِ اللهِ وَلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ بِمَنِّهِ تَعَالَى .

---

(١) في نسخة : (الأعراض) .
(٢) تحرف في المطبوع إلى : (والنقاطين) . والنفّاط : الذي يرمي بالنفط والنار بأداة من النحاس .
(٣) في المطبوع : (الصانع) .
(٤) جمع حُقَّة ، وهي : وعاء يوضع فيه الطيب .
(٥) تحرف في المطبوع إلى : (القراصنة) .

المَقَالَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُوْنَ
فِي قَوْلِهِ ﷺ : « كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُوْنَ كُفْراً »

يُؤْمِنُ العَبْدُ بِاللهِ وَيُسَلِّمُ الأُمُوْرَ كُلَّهَا إِلَيْهِ عزَّ وجلَّ ، وَيَعتَقِدُ تَسهِيْلَ الرِّزْقِ مِنْهُ ، وَأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَهُ .

وَيُؤْمِنُ بِقَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

وَيَقُوْلُ ذَلِكَ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَهُوَ فِي حَالِ العَافِيَةِ وَالغِنَاءِ ثُمَّ يَبْتَلِيْهِ اللهُ عزَّ وجلَّ بِالبَلَاءِ وَالفَقْرِ فَيَأْخُذَ فِي السُّؤَالِ وَالتَّضَرُّعِ فَلا يَكْشِفُهُمَا عَنْهُ ، فَحِيْنَئِذٍ يَتَحَقَّقُ قَوْلُهُ ﷺ : « كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُوْنَ كُفْراً »(١) .

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٣ و١٠٩) وابن الجوزي في العلل (١٣٤٦) من طريق أبي مسلم الكشي ، ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (٤/٢٠٦) ومن طريقه القضاعي في مسند الشهاب (٥٨٦) عن إبراهيم بن عبد الله ، كلاهما عن أبي عاصم النبيل الضحاك بن مخلد الشيباني قال : حدثنا سفيان الثوري ، عن الحجاج بن فرافصة ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٥٣) ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (١٣٤٦) عن أبي محمد ابن حيان ، عن العباس بن أحمد السامي ، عن المسيب بن واضح ، عن يوسف بن أسباط ، عن سفيان ، عن حجاج ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

ورواه البيهقي في الشعب (٦٦١٢) عن أبي طاهر الفقيه ، عن أبي بكر محمد بن الحسين القطان ، عن أحمد بن يوسف السلمي ، عن محمد بن يوسف قال : ذكر سفيان ، عن الحجاج ـ يعني : ابن فرافصة ـ ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه رفعه : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

ورواه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٣٦) عن القاسم بن زكريا وابن صاعد ، عن عبد الله بن وضاح ، عن يحيى بن يمان العجلي الكوفي ، عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس رفعه : « كاد الحسد أن يغلب القدر ، وكاد الفقر أن يكون كفراً » . أقول : يحيى بن يمان : قال الإمام أحمد : ليس بحجة . وقال ابن المديني : صدوق فلج فتغير حفظه . وعن=

فَمِنْ تَلَطَّفَ اللهُ بِه(١) كَشَفَ عَنْهُ مَا بِهِ فَأَدْرَكَهُ بِالعَافِيَةِ وَالغِنَى وَيُوَفِّقُهُ لِلْشُّكْرِ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَيُدِيْمُ لَهُ ذَلِكَ إِلَى اللِّقَاءِ .

= وكيع قال : ما كان أحدٌ من أصحابنا أحفظ للحديث من يحيى بن يمان ، كان يحفظ في المجلس الواحد خمس مئة حديث ، ثُمّ نَسِيَ . وقال محمد بن عبد الله بن نمير : كان سريع الحفظ سريع النسيان . وكان يحيى من العُبّاد ذكره أبو بكر بن عيّاش فقال : ذاك ذاهب الحديث . وقال ابن معين والنسائي : ليس بالقوي . وقال ابن عدي : عامّة ما يرويه محفوظ ، وهو في نفسه لا يتعمّد الكذب إلا أنه يُخطىء ويشتبه عليه .

ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٢٥٤) عن إبراهيم بن عبد الله ، عن حجاج ، عن المعتمر بن سليمان قال : حدثنا حسين أبو المنذر ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك رفعه : « كاد الحسد أن يغلب القدر ، وكادت الفاقة أن تكون كفراً » . وقال العقيلي : لا يتابع عليه إلا من طريق تقاربه . وقال البخاري : حسين لم تصحّ روايته .

ورواه الطبراني في الأوسط (٤٠٥٦) عن علي بن سعيد الرازي ، عن أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الحميد الكاتب ، عن عمرو بن عثمان الكِلاَبِيّ ، عن عيسى بن يونس ، عن سليمان التيمي ، عن أنس بن مالك رفعه : « كاد الحسد (أن) [ما بين : ( ) من مجمع] يسبق القدر ، وكادت الحاجة (أن) [( ) من مجمع] تكون كفراً » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٠٤٤) : فيه : عمرو بن عثمان الكِلابي ، وثقه ابن حبان ، وهو متروك .

ورواه ابن أبي شيبة (٢٦٥٩٥) وهناد في الزهد (١٣٩٢) عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن يزيد الرقاشي ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « كاد الحسد أن يغلب القدر ، وكادت الفاقة أن تكون كفراً » .

أقول : حجاج بن فرافصة : قال ابن معين : لا بأس به . وقال أبو زرعة : ليس بالقوي . وقال أبو حاتم : شيخٌ صالحٌ متعبد . ويزيد : قال الذهبي في الميزان (ترجمة حجاج) : تالف .

وقال ابن الجوزي في العلل : حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، ويزيد الرقاشي : لا يُعوّل على ما يروي . قال شعبة : لأن أزني أحبُّ إليَّ من أن أروي عن يزيد الرقاشي .

ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ٢٠٦) عن محمد بن يحيى بن منده ، عن عبد الله بن داود ، عن إبراهيم بن أيوب ، عن أبي هانىء ، عن معمر بن زائدة [قال العقيلي : لا يتابع على حديثه] ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » . وقال العقيلي : قد روي عن علي بن الحكم البناني ، عن عطاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ هذا الكلام .

(١) قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام : ١٢٥] .

وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ(١) ، يُدِيمُ بَلاءَهُ وَفِتْنَتَهُ وَفَقْرَهُ ، فَيَقْطَعُ عَنْهُ مَدَدَ إِيمَانِهِ فَيَكْفُرُ بِالاعْتِرَاضِ وَالتُّهْمَةِ لَهُ عزَّ وجلَّ وَالشَّكِّ فِي وَعْدِهِ فَيَمُوتُ كَافِراً بِاللهِ عزَّ وجلَّ جَاحِداً لآيَاتِهِ وَمُسْخِطاً عَلَى رَبِّهِ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ [عَذَابِ] الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ »(٢) .

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الفَقْرُ المُنْسِي الَّذِي اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ(٣) .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[المائدة : ٤١] . وفتنته ، أي : ضلالته .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ .

وروى الطيالسي (١١٥٧) ومن طريقه البيهقي في الشعب (٥٣٥٦) . والإمام أحمد (٤/ ٩٠) كلاهما عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن أبي نجيح ، عن خالد بن حكيم ، عن خالد بن الوليد قال : قال النبي ﷺ : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم للناس عذاباً في الدنيا » .

وثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله » أو : « يضاهون بخلق الله » أو : « الذين يصورون » .

(٣) روى ابن المبارك في الزهد (٧) وعنه هناد في الزهد (٥٠٤) ومن طريقه القضاعي في مسند الشهاب (٨٢٣) عن معمر بن راشد ، عن من سمع المقبري ، يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ينتظر أحدكم إلا غنًى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فالدجال شرٌ غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر » .

ورواه أبو يعلى (٦٥٤٢) عن محمد بن عبد الرحمن بن سهم الأنطاكي ، عن عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة به .

ورواه الحاكم (٤/ ٣٢٠ ، ٣٢١) من طريق عبدان ، عن عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة به . وقال الحاكم : إن كان معمر بن راشد سمع من المقبري ، فالحديث صحيحٌ على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

ورواه الطبراني في الأوسط (٣٩٤٥) عن علي بن سعيد الرازي ، عن محمد بن حميد الرازي ، عن إبراهيم بن المختار ، عن إسرائيل ، عن إبراهيم بن أعين ، عن معمر ، عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة به .

=

وَالرَّجُلُ الثَّانِي هُوَ الَّذِي أَرَادَ اللهُ عزَّ وجلَّ اصْطِفَاءَهُ وَاجْتِبَاءَهُ وَجَعَلَهُ مِنْ خَوَاصِّهِ وَأَحْبَابِهِ وَأَخِلاَّئِهِ ، وَوَرِثَ أَنْبِيَاءَهُ وَسَيِّدَ أَوْلِيَائِهِ ، وَمِنْ عُظَمَاءِ عِبَادِهِ وَعُلَمَائِهِمْ وَحُكَمَائِهِمْ وَشُفَعَائِهِمْ وَشَيْخِهِمْ وَمَتْبُوْعِهِمْ وَمُعَلِّمِهِمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى مَوْلاَهُمْ ، وَمُرْشِدِهِمْ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَاجْتِنَابِ سُبُلِ الرَّدَى ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ جِبَالَ الصَّبْرِ وَبِحَارَ الرِّضَا وَالْمُوَافَقَةِ وَالغِنَى فِي قَضَائِهِ وَفِعْلِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكُهُ بِجَزِيْلِ العَطَاءِ وَيَدْعُوْ(١) اللهَ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ فِي الْجَلْوَةِ وَالْخَلْوَةِ فِي الظَّاهِرِ مَرَّةً وَفِي البَاطِنِ أُخْرَى بِأَنْوَاعِ اللُّطْفِ وَفُنُوْنِ الْجَذَبَاتِ فَيَتَّصِلَ لَهُ ذَلِكَ إِلَى حِيْنِ اللِّقَاءِ . وَاللهُ الْهَادِي .

* * *



= ورواه القضاعي (٨٢٤) من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة ، عن ابن المبارك ، عن يحيى بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة به .

ورواه الترمذي (٢٣٠٦) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ٢٣٠) وابن عدي في الكامل (٦/ ٤٤٢) والبيهقي في الشعب (١٠٥٧٢) والمزي في تهذيب الكمال (٢٧/ ٢٧٤) من طريق أبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري ، ورواه البيهقي (١٠٥٧٢) من طريق ابن أبي الدنيا ، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي ، كلاهما عن مُحَرّر بن هارون [متروك] ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً ما تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنًى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو كبراً مُفَنِّداً ، أو موتاً مُجهزاً ، أو الدجّال فَشَرٌّ مُنتظرٌ ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » .

وقال الترمذي : حسنٌ غريبٌ لا نعرفه من حديث الأعرج إلا من حديث مُحرّرٍ ، وروى معمر هذا الحديث عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة .

وروى الإمام أحمد (٢/ ٣٠٥ و٣٢٥ و٣٥٤) والبخاري في الأدب المفرد (٦٧٨) وأبو داود (١٥٤٤) والنسائي (٨/ ٢٦١ و٢٦٢) وابن ماجة (٣٨٤٢) وابن حبان (١٠٠٣ و ١٠٣٠) والحاكم (١/ ٥٣١) والبيهقي (٧/ ١٢) بإسناد صحيح عن أبي هريرة رفعه : « تعوذوا بالله من الفقر والذلة ، وأن تظلم أو تظلم » .

(١) في نسخة : (ويُدلّله) .

المَقَالَةُ الثَّلاثُوْنَ
فِي النَّهْيِ عَنْ قَوْلِ الرَّجُلِ : أَيُّ شَيْءٍ أَعْمَلُ ، وَمَا الْحِيْلَةُ ؟

مَا أَكْثَرُ[١] مَا تَقُوْلُ : أَيُّ شَيْءٍ[٢] أَعْمَلُ ، وَمَا الْحِيْلَةُ ؟

فَيُقَالُ لَكَ : قِفْ مَكَانَكَ وَلاَ تُجَاوِزْ حَدَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الفَرَجُ مِمَّنْ أَمَرَكَ بِالقِيَامِ فِيْمَا أَنْتَ فِيْهِ .

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران : ٢٠٠] . أَمَرَكَ بِالصَّبْرِ يَا مُؤْمِنُ ، ثُمَّ بِالْمُصَابَرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ وَالْمُحَافَظَةِ وَالْمُلاَزَمَةِ ، ثُمَّ حَذَّرَكَ تَرْكَهُ ، فَقَالَ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فِي تَرْكِ ذَلِكَ ، أي : لاَ تَتْرُكُوا الصَّبْرَ فَإِنَّ الْخَيْرَ وَالسَّلاَمَةَ فِيْهِ .

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الصَّبْرُ مِنَ الإِيْمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ »[٣] .

---

(١) في المطبوع : (وأكثر) .

(٢) في نسخة : (إيش) .

(٣) ذكره الديلمي في الفردوس (٣٨٤٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً . وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٦٠) : فيه : يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف .

ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٤٣٩) والإيمان له (١٣٠) ومن طريقه البيهقي في الشعب (٤٠) عن أبي خالد الأحمر ، عن عمرو بن قيس الملائي ، عن أبي إسحاق السبيعي [لم يسمع من علي ، وكان قد اختلط] قال : قال عليّ رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان .

ورواه ابن أبي عمر العدني في الإيمان (١٩) عن سفيان بن عيينة ، عن السري بن إسماعيل [ضعيف] ، عن الشعبي قال : قال علي رضي الله عنه : خذوا منّي هذه الكلمات الخمس فإنكم والله لو ركبتم المطي حتى تنصبوها ما أدركتم مثلهن : لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ولا يستحي أن يتعلم إذا لم يعلم ، وأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، لا خير في جسد لا رأس له .

ورواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٥٦٩) من طريق محمد بن نوح بن حرب ، عن مروان بن آدم ، عن محمد بن زياد ، عن ميمون بن مهران ، عن علي رضي الله عنه قال :=

وَقِيْلَ : كُلُّ شَيْءٍ ثَوَابُهُ بِمِقْدَارٍ إِلاَّ ثَوَابُ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ جُزَافٌ بِغَيْرِ مِقْدَارٍ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر : ١٠] .

فَإِذَا اتَّقَيْتَ اللهَ عزَّ وجلَّ حَفِظَكَ لِلْصَّبْرِ وَمُحَافَظَةِ الْحُدُوْدِ وَأَنْجَزَ لَكَ مَا وَعَدَكَ فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق : ٢ـ٣] .

وَكُنْتَ بِصَبْرِكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الفَرَجُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِيْنَ ، وَقَدْ وَعَدَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِالكِفَايَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق : ٣] .

وَكُنْتَ مَعَ صَبْرِكَ وَتَوَكُّلِكَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ ، وَقَدْ وَعَدَكَ بِالْجَزَاءِ ، فَقَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأنعام : ٨٤ ويوسف : ٢٢ والقصص : ١٤] .

وَيُحِبُّكَ اللهُ مَعَ ذَلِكَ ، لأَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة : ١٩٥ والمائدة : ١٣] .

فَالصَّبْرُ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَلاَمَةٍ دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَمِنْهُ يَتَرَقَّى الْمُؤْمِنُ إِلَى حَالَةِ الرِّضَا وَالْمُوَافَقَةِ ، ثُمَّ الفَنَاءِ فِي أَفْعَالِ اللهِ عزَّ وجلَّ حَالَةَ البَدَلِيَّةِ وَالغَيْبِيَّةِ ، فَاحْذَرْ أَنْ تَتْرُكَهُ فَيَخْذُلَكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَيَفُوْتَكَ خَيْرُهُمَا ، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

* * *

= الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، من لا صبر له لا إيمان له .

الْمَقَالَةُ الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُوْنَ
فِي الْبُغْضِ فِي اللهِ(١)

إِذَا وَجَدْتَ بِقَلْبِكَ بُغْضَ شَخْصٍ أَوْ حُبَّهُ فَاعْرِضْ أَعْمَالَهُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانَتْ فِيهِمَا مَبْغُوْضَةً فَأَبْشِرْ بِمُوَافَقَتِكَ اللهَ عزَّ وجلَّ وَرَسُوْلَهُ .

---

(١) رواه هناد في الزهد (٤٨٠) عن محمد بن عبيد ، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٤٣٧) عن أبي معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال : من أقام الصلاة وآتى الزكاة (وسمع وأطاع) [ما بين : ( ) من زهد هناد] فقد توسط الإيمان ، ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان .

ورواه ابن حبان في روضة العقلاء (٨١٦ بتحقيقي) عن أبي خليفة الفضل بن الحباب ، عن محمد بن كثير العبدي ، عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ذَكْوَان وعبد الله بن ضمرة ، عن كَعْب قَالَ : مَنْ أَحَبَّ للهِ ، وَأَبْغَضَ للهِ ، وَأَعْطَى للهِ ، وَمَنَعَ للهِ : فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيْمَانَ .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١) عن عبد الله بن محمد بن جعفر ، عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام ، عن هناد بن السري ، عن وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال : من أقام الصلاة وآتى الزكاة وسمع وأطاع فقد توسط الإيمان ، ومن أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان .

وقال ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٤٥) : وروى مجاهد بن جبر وأبو صالح السمان جميعاً ، عن عبد الله بن ضَمْرة ، عن كعب قال : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، وأعطى في الله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان .

ورواه الإمام أحمد (١٥٦٣٨) والترمذي (٢٥٢١) وأبو يعلى (١٤٨٥ و١٥٠٠) والحاكم (٢/ ١٦٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١٥) من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه مرفوعاً : « مَنْ أَعْطَى للهِ ، وَمَنَعَ للهِ ، وَأَحَبَّ للهِ ، وَأَبْغَضَ للهِ ، وَأَنْكَحَ للهِ ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيْمَانه » . وقال الحاكم : حديث صحيح .

ورواه أحمد (١٥٦١٧) عن حسن بن موسى الأشيب ، عن ابن لهيعة ، عن زبَّان ، عن سهل بن معاذ ، عن أبيه رفعه : « مَنْ أَعْطَى للهِ تعالى ، وَمَنَعَ للهِ تعالى ، وَأَحَبَّ للهِ تعالى ، وَأَبْغَضَ للهِ تعالى ، وَأَنْكَحَ للهِ تعالى ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيْمَانه » .

ورواه ابن عدي في الكامل (٣/ ١٥٢) من طريق ابن أبي السري ، عن رشدين بن سعد ، عن زبان بن فائد الحمراوي ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : =

. . . .

= « من أحب في الله ، وأبغض في الله ، وأعطى في الله ، ومنع في الله ، وأنكح في الله ، فقد استكمل الإيمان » .

ورواه الطبراني في الكبير (٢٠/رقم ٤٢٥) من طريق أسد بن موسى ، عن ابن لهيعة ، عن زبّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه : أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان ؟ قال : « أن تحب لله ، وتُبغِضَ لله ، وتُعْمِلَ لِسَانَكَ فِي ذِكْرِ الله » . قال : وماذا يا رسول الله ؟ قال : « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن تقول خيراً أو تصمت » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١١) : روى الترمذي بعضه بغير سياقه ، ورواه الطبراني في الكبير وفي إسناده ابن لهيعة . وقال (٣٠٥) : رواه أحمد ، وفي إسناده : رشدين بن سعد وابن لهيعة ، وكلاهما ضعيف . **أقول** : لم أجد رواية رشدين في المسند .

وروى ابن أبي الدنيا في الإخوان (٢٢) وابن المبارك في الزهد (٣٥٣) من طريق ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : أَحِبَّ في الله ، وأبغض في الله ، ووال في الله ، وعاد في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولا يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتَّى يكون كذلك .

ورواه الطبراني في الكبير (١٣٥٣٧) وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٢) من طريق ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً قال : « أحبَّ في الله ، وأبغض في الله ، ووال في الله ، وعاد في الله ، فإنك لا تنال ولاية الله إلا بذلك ، ولا يجد رجلٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتَّى يكون كذلك » . وقال الهيثمي في المجمع (٣١٢) : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه : ليث بن أبي سليم والأكثر على تضعيفه .

وروى الخطيب في تاريخ بغداد (٩/٤٤٤) من طريق عبد الله بن المعتز ، عن عفان بن مسلم ، عن حماد بن سلمة ، عن رجل ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يكمل الإيمان بالله حتَّى يكون فيه خمس خصال : التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والصبر على بلاء الله ، إنه من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » . قال الخطيب : هذا الحديث باطل بهذا الإسناد ، وابن المعتز لم يكن قد ولد في وقت عفان بن مسلم فضلاً عن أن يكون سمع منه ، وأراه من صنعة زيد بن رفاعة فإنه كان يضع الحديث .

وروى الطبراني في الكبير (٧٦١٢) والأوسط (٩٠٨٣ دار الحرمين القاهرة) من طريق صدقة بن عبد الله ، عن النعمان بن المنذر ، عن مكحول ويحيى بن الحارث الذماري ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، أن النبي ﷺ قال : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٠) : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه : صدقة بن عبد الله السمين ، ضعفه البخاري وأحمد وغيرهما . وقال أبو حاتم : محله الصدق .

ورواه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٦٠) عن أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة ، عن أبيه ،

وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالُهُ فِيهِمَا مَحْبُوْبَةً وَأَنْتَ تُبْغِضُهُ ، فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ صَاحِبُ هَوًى تُبْغِضُهُ بِهَوَاكَ ظَالِمَاً لَهُ بِبُغْضِكَ إِيَّاهُ ، وَعَاصٍ للهِ عزَّ وجلَّ وَلِرَسُوْلِهِ مُخَالِفٌ لَهُمَا ، فَتُبْ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ بُغْضِكَ وَاسأَلْهُ عزَّ وجلَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ الشَّخْصِ وَغَيْرَهُ مِنْ أَحِبَّائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ

= عن جده ، عن النعمان بن المنذر ، عن مكحول ، عن يحيى بن الحارث ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، أن النبي ﷺ قال : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

ورواه أبو داود (٤٦٨١) عن مؤمل بن الفضل ، عن محمد بن شعيب بن شابور ، عن يحيى بن الحارث ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وروى الطبراني في الكبير (٧٧٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٢١) من طريق هشام بن عمار ، عن صدقة بن خالد [وزاد البيهقي : وابن شعيب] ، عن يحيى بن الحارث الذماري ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ للهِ ، وأَعْطَى لَهُ ، وَمَنَعَ لَهُ ، فقد استكمل الإيمان ، وإنَّ من أَقَارِبِكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنكم أَخْلاَقَاً » .

وروى ابن عدي في الكامل (٦/ ٣١٤) من طريق سليمان بن عبد الرحمن ، عن مسلمة بن علي ، عن يحيى بن الحارث ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : « من أحب لله ، ومن أبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وروى الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٤/ ١٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل ، عن مسلم بن علي ، عن يحيى بن الحارث الداري ، عن نمير بن أوس ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « من أحب لله ، وأبغض لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وروى ابن أبي الدنيا في الإخوان (١٧) من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، استكمل الإيمان .

وروى الطيالسي (٧٤٧) وأحمد (١٨٥٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١٤) وابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ٤٣١) من طريق ليث ، عن عمرو بن مرة ، عن معاوية بن سويد بن مقرن ، عن البراء بن عازب رفعه : « إنَّ أوثق عُرَى الإيمان أن تُحبَّ الله وتُبْغِضَ فِي الله » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٦) : رواه أحمد ، وفيه : ليث بن أبي سليم وضعفه الأكثر .

وروى ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٤٤٣) من طريق سويد بن غفلة ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » .

وذكر الديلمي في الفردوس (٢٧٨٦) عن أبي ذر رفعه : « الحب في الله والبغض في الله أفضل العمل » .

وَالصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ ، لِتَكُوْنَ مُوَافِقاً لَهُ عزَّ وجلَّ .

وَكَذَلِكَ افْعَلْ بِمَنْ تُحِبُّهُ ـ يَعْنِي : اعْرُضْ أَعْمَالَهُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ـ ، فَإِنْ كَانَتْ مَحْبُوْبَةً فِيْهِمَا فَأَحْبِبْهُ ، وَإِنْ كَانَتْ مَبْغُوْضَةً فَأَبْغِضْهُ ، كَيْلاَ تُحِبَّهُ بِهَوَاكَ وَتُبْغِضَهُ بِهَوَاكَ ، وَقَدْ أُمِرْتَ بِمُخَالَفَةِ هَوَاكَ . قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص : ٢٦] .

* * *



المَقَالَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلاثُوْنَ
فِي عَدَمِ الْمُشَارَكَةِ فِي مَحَبَّةِ اللهِ

مَا أَكْثَرَ مَا تَقُوْلُ : كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ لاَ تَدُوْمُ مَحَبَّتِي إِيَّاهُ ، فَيُحَالُ بَيْنَنَا : إِمَّا بِالغَيْبَةِ ، أَوْ بِالْمَوْتِ ، أَوْ بِالعَدَاوَةِ وَأَنْوَاعِ الْمَالِ بِالتَّلَفِ وَالفَوَاتِ مِنَ اليَدِ .

فَيُقَالُ لَكَ : أَمَا تَعْلَمُ يَا مَحْبُوْبَ الْحَقِّ الْمَعْنَى الْمَنْظُوْرَ إِلَيْهِ الْمُغَارَ لَهُ وَعَلَيْهِ ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غَيُوْرٌ خَلَقَكَ لَهُ ، وَتَرُوْمُ أَنْ تَكُوْنَ لِغَيْرِهِ ؟

أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة : ٥٤] . وَقَوْلَهُ (تَعَالَى) : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات : ٥٦] ؟! .

أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الرَّسُوْلِ ﷺ : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ابْتَلاَهُ ، فَإِنْ صَبَرَ اقْتَنَاهُ » . قِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ ، وَمَا اقْتَنَاهُ ؟ قَالَ : « لَمْ يَذَرْ لَهُ مَالاً وَلاَ وَلَداً »[1] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٣٧٣٣) عن أبي عِنَبَةَ الخولاني قال : قال رسـول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبدٍ خيـراً ابتـلاه ، وإذا ابتـلاه أضنـاه » . قـال : يـا رسـول الله ، وما أضناه ؟ . قال : « لا يترك له أهلاً ولا مالاً » . وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه : إبراهيم بن محمد شيخ الطبراني ، ضعفه الذهبي ، ولم يذكر سبباً ، وبقية رجاله موثقون .

وقال الغزالي في الأربعين في أصول الدين (٥٠٩ بتحقيقي) : قال ﷺ : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ابْتَلاَهُ ، فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ ، وَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » .

ورواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٥٨) عن حسين بن علي العجلي ، عن عمرو بن محمد العنقزي ، عن زافر بن سليمان ، عن عبيد الله الوصافي [ضعيف] قال : سمعت الحسن يُحدّث عن أبي سعيد الخدري قال : أتى رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، كبرت سني ، وسقم جسدي ، وذهبَ مالي . فقال رسول الله ﷺ : « لا خير في جسدٍ لا يُبتلى ، ولا خير في مالٍ لا يرزأ منه ، إنّ الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبّره » .

ورواه الإمام أحمد في الزهد (٢٨٨) عن عبد الرزاق ، عن منذر بن النعمان قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزّ وجلّ إذا أحب قوماً ابتلاهم » .

ورواه الإمام أحمد (٥/ ٤٢٧) من طريق سليمان بن بلال ، ورواه الإمام أحمد (٥/ ٤٢٩) عن=

. . . .

= سليمان بن داود الهاشمي أبي أيوب البغدادي ، عن إسماعيل بن جعفر ، ورواه الإمام أحمد (٥/٤٢٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٨٤) من طرقٍ عن الليث بن سعد ، عن عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد ، ثلاثتهم عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب [صدوقٌ لا بأس به] ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » . وقال البيهقي : تابعه ابن أبي الزناد ، عن عمرو بن أبي عمرو . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٣٦) : رواه أحمد ورجاله ثقات .

ورواه أبو يعلى (٤٢٢٢) عن مجاهد بن موسى الختلي ، ورواه البيهقي في الشعب (٩٧٨٥) من طريق أحمد بن عبيد ، عن محمد بن الفرج الأزرق ، كلاهما عن السهمي أبو وهب ، عن سليمان [في الشعب : سنان] الحضرمي ، عن أنس بن مالك رفعه : « إذا أراد الله بقوم خيراً ابتلاهم » .

ورواه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجة (٤٠٣١) وابن عدي (٣/٣٥٦) والبيهقي (٩٧٨٢) والقضاعي (١١٢١) من طريق الليث بن سعد [وزاد البيهقي : ابن لهيعة وعمرو بن الحارث] ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سعد بن سنان [ضعيف] ، عن أنس بن مالك رفعه بلفظ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » . وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

ورواه الطبراني في الأوسط (٣٢٥٢) عن بكر بن سهل ، عن عبد الله بن يوسف ، عن ابن لهيعة ، عن إسحاق الأزرق ، عن عيسى الإسكندراني ، عن أنس بن مالك رفعه : « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم » . وقال الطبراني : تفرد به ابن لهيعة . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٣٧) : فيه : ابن لهيعة ، وفيه كلام .

ورواه الشاشي في مسنده (٦١٢) عن عيسى بن أحمد العسقلاني ، عن النضر ، ورواه البيهقي في الشعب (٩٧٨٦) من طريق أبي العباس الأصم ، عن يحيى بن أبي طالب ، عن عبد الوهاب بن عطاء ، كلاهما عن هشام الدستوائي ، عن حماد ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ـ أو غيره من أصحاب النبي ﷺ شكَّ هشام ـ : أنه قال : إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فمن حبه إياه يمسه البلاء حتى يدعوه فيسمع دعاءه [عند الشاشي : كيما يسمع صوته] .

ورواه البيهقي (٩٧٨٧) من طريق سليمان بن حرب وحفص ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي وائل ، عن كردوس بن عمرو : وكان يقرأ الكتب فلا نجد فيما نقرأ من الكتب : إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه . وقال البيهقي : هذا أصح من رواية حماد .

ورواه هناد في الزهد (٤٠٥) عن يعلى بن عبيد ، عن يحيى بن عبيد الله بن موهب التيمي القرشي ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه ، ليسمع تضرعه الله أن يكشف عنك » . فقال : « إن أشد الناس بلاء النبيون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . ورواه البيهقي في الشعب (٩٧٨٨) من طريق أحمد بن عبيد ، عن إبراهيم بن إسحاق السراج ، عن يحيى بن يحيى ، عن إسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن عبيد الله ، عن أبيه =

وَذَٰلِكَ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَهُ مَالٌ وَوَلَدٌ أَحَبَّهُمَا فَتَنْقُصُ وَتُجَزَّأُ ، فَتَصِيرُ مُشْتَرِكَةً بَيْنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى لاَ يَقْبَلُ الشَّرِيكَ[١] ، وَهُوَ غَيُورٌ قَاهِرٌ ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، غَالِبٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَيُهْلِكُ شَرِيكَهُ وَيُعْدِمُهُ لِيَخْلُصَ قَلْبَ عَبْدِهِ لَهُ مِنْ غَيْرِ شَرِيكٍ ، فَيَتَحَقَّقُ حِينَئِذٍ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ . حَتَّى إِذَا تَنَظَّفَ القَلْبُ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالأَنْدَادِ مِنَ الأَهْلِ وَالْمَالِ وَالوَلَدِ وَاللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَطَلَبِ الوِلاَيَاتِ[٢] وَالرِّيَاسَاتِ وَالكَرَامَاتِ وَالْحَالاَتِ وَالْمَنَازِلِ وَالْمَقَامَاتِ وَالْجِنَانِ وَالدَّرَجَاتِ وَالقُرُبَاتِ وَالزُّلُفَاتِ فَلاَ يَبْقَى فِي القَلْبِ إِرَادَةٌ وَلاَ أُمْنِيَّةٌ ، يَصِيرُ كَالإِنَاءِ الْمُنْثَلِمِ الَّذِي لاَ يَثْبُتُ فِيهِ مَائِعٌ لأَنَّهُ انْكَسَرَ لِفِعْلِ اللهِ (عزَّ وجلَّ كُلَّمَا تَجَمَّعَتْ فِيهِ إِرَادَةٌ كَسَرَهَا فِعْلُ اللهِ) وَغَيْرَتُهُ ، فَضُرِبَتْ حَوْلَهُ سُرَادِقَاتُ العَظَمَةِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْهَيْبَةِ وَأُحْضِرَتْ مِنْ دُونِهَا خَنَادِقُ الكِبْرِيَاءِ وَالسَّطْوَةِ فَلَمْ يَخْلُصْ إِلَى القَلْبِ إِرَادَةُ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فَحِينَئِذٍ لاَ يَضُرُّ[٣]

= قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزَّ وجلَّ إذا أحب عبداً ابتلاه ليسمع صوته » . أقول : فيه : يحيى بن عبيد الله ، قال فيه ابن حبان في المجروحين : يروي عن أبيه ما لا أصل له ، وأبوه ثقة ، فلما كثر روايته عن أبيه ما ليس من حديثه ، سقط عن حدّ الاحتجاج به ، وكان سيء الصلاة . وروى ابن حبان هذا الحديث (٣/ ١٢٢) من طريق عيسى بن يونس ، عن يحيى به .

ورواه عبد الرزاق (٢٠٣١١) ومن طريقه البيهقي في الشعب (٩٧٨٩) عن معمر ، عمن سمع الحسن يرويه عن النبي ﷺ قال : « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم » .

ورواه البيهقي في الشعب (١٠٠٨٧) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٢٦٨) عن أبي عبد الله الحافظ ، عن أبي العباس محمد بن يعقوب ، عن الحسن بن علي بن عفان ، عن عبيد الله بن موسى ، عن عيسى ، عن الشعبي ، عن حذيفة قال : كنتم تسألون عن الرخاء ، وكنت أسأله عن الشدة لأتقيها ، ولقد رأيتني وما من يوم أحب إليّ من يوم يشكو إليّ [في الشعب : شكوا لي] فيه أهلي الحاجة ، إن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه . يا موت ، غظ غيظك وشد شدك أبى [في الشعب : عظ عظك وسد سدل أي . خطأ] قلبي إلا حبك .

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[النساء : ٤٨] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١١٦﴾ ﴾[النساء : ١١٦] .

أقول : لأنّ التوحيد هو أساس الدين ، ولذلك أرسل الله الرسل أجمعين ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء : ٢٥] .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (الولد) .

(٣) في نسخة : (تضر) .

القَلْبَ الأَسْبَابُ مِنَ المَالِ وَالوَلَدِ وَالأَهْلِ وَالأَصْحَابِ وَالكَرَامَاتِ وَالْحُكْمِ وَالعِلْمِ وَالعِبَادَاتِ فَإِنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ يَكُونُ خَارِجَ القَلْبِ فَلاَ يَغَارُ اللهُ عزَّ وجلَّ بَلْ يَكُونُ جَمِيعُ ذَلِكَ كَرَامَةً مِنَ اللهِ لِعَبْدِهِ وَلُطْفاً بِهِ وَنِعْمَةً وَرِزْقاً وَمَنْفَعَةً لِلْوَارِدِينَ عَلَيْهِ فَيُكْرَمُونَ بِهِ وَيُرْحَمُونَ وَيُحْفَظُونَ لِكَرَامَتِهِ عَلَى اللهِ عزَّ وجلَّ فَيَكُونُ خَفِيْراً لَهُمْ وَكَنَفاً وَحِرْزاً وَشَفِيْعاً دُنْيَاً وَأُخْرَى .

* * *



الْمَقَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلاَثُوْنَ
فِي تَقْسِيمِ الرِّجَالِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ

النَّاسُ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ :

١ـ رَجُلٌ لاَ لِسَانَ لَهُ وَلاَ قَلْبَ ، وَهُوَ العَاصِي الغِرُّ الغَبِيُّ لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِ ، لاَ خَيْرَ فِيْهِ ، وَهُوَ وَأَمْثَالُهُ حُثَالَةٌ لاَ وَزْنَ لَهُمْ إِلاَّ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِرَحْمَتِهِ ، فَيَهْدِي قُلُوبَهُمْ لِلإِيْمَانِ بِهِ وَيُحَرِّكُ(١) جَوَارِحَهُمْ بِالطَّاعَةِ لَهُ عزَّ وجلَّ ، فَاحْذَرْ أَنْ تَكُوْنَ مِنْهُمْ ، وَلاَ تَكْتَرِثْ بِهِمْ ، وَلاَ تُقِمْ فِيْهِمْ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ العَذَابِ وَالغَضَبِ وَالسَّخَطِ سُكَّانُ النَّارِ وَأَهْلُهَا ، نَعُوْذُ بِاللهِ عزَّ وجلَّ مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ العُلَمَاءِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ وَمِنْ مُعَلِّمِي الْخَيْرِ وَهُدَاةِ الدِّيْنِ وَقُوَّادِهِ وَدُعَاتِهِ فَدُوْنَكَ فَأْتِهِمْ ، وَادْعُهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَحَذِّرْهُمْ مَعْصِيَتَهُ(٢) ، فَتُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ حِيْنَئِذٍ جِهْبِذاً(٣) فَتُعْطَى ثَوَابَ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِهُدَاكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ »(٤) .

---

(١) في المطبوع : (وتحرك) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (معصية) .

(٣) الْجِهْبِذُ : النَّقَّادُ الْخَبِيْرُ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٩٣٠) عن علي بن عبد العزيز ، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل ، عن عبد السلام بن حرب ، عن أبي خالد الدالاني ، عن زيد بن أسلم ، عن يزيد بن زياد ، عن أبي رافع قال : قال النبي ﷺ [في المجمع : قال رسول الله ﷺ لعلي] : « لأن يهدي الله عزَّ وجلَّ على يديك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغَرَبَتْ » . وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٦٩١) عن أبي رافع .

ورواه الطبراني في الكبير (٩٩٤) عن أبي حصين محمد بن الحسين القاضي والحسين بن إسحاق التستري ، عن يحيى الحماني ، عن قيس بن الربيع ، عن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي خالد ، عن عبد الرحمن بن عبد الله مولى علي رضي الله عنه ، عن أبي رافع قال : بعث النبي ﷺ علياً إلى اليمن ، فعقد له لواء فلما مضى ، قال : « يا أبا رافع ، الحقه ولا تدعه من خلفه ، وليقف ولا يلتفت=

٢ـ الرَّجُلُ الثَّانِي : رَجُلٌ لَهُ لِسَانٌ بِلاَ قَلْبٍ فَيَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ[١] وَلاَ يَعْمَلُ بِهَا ، يَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللهِ وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ عزَّ وجلَّ ، يَسْتَقْبِحُ عَيْبَ غَيْرِهِ وَيَدُومُ هُوَ عَلَى مِثْلِهِ فِي نَفْسِهِ ، يُظْهِرُ لِلنَّاسِ تَنَسُّكاً وَيُبَارِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ بِالْعَظَائِمِ مِنَ الْمَعَاصِي ، إِذَا خَلاَ كَأَنَّهُ ذِئْبٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ ، وَهُوَ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ »[٢] .

= حتى أجيئه » . وأتاه فأوصاه بأشياء فقال : « يا علي ، لأن يهدي الله على يدك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٧١٥ و٩٧١٦) : رواه الطبراني ، عن يزيد بن أبي زياد ، وهو يزيد بن يزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس ، ذكره المزي في الرواة عن أبي رافع ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وبقية رجال الطريق الأولى ثقات .

(١) في المطبوع : (الحكمة) .

(٢) رواه البزار في البحر الزخار (٣٥١٤) (١٧٠ زوائد) عن محمد بن عبد الملك القرشي ، ورواه ابن حبان (٨٠) عن أبي يعلى ، عن خليفة بن خياط ، كلاهما عن خالد بن الحارث ، عن حسين المعلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن عمران بن حصين رفعه : « أخوف ما أخاف عليكم جدال المنافق عليم اللسان » . ولفظ البزار : حذّرنا رسول الله ﷺ كل منافق عليم اللسان . ورواه جعفر الفريابي في صفة المنافق (٢٣) والطبراني في الكبير (١٨/رقم ٥٩٣) والبيهقي في الشعب (١٧٧٥) والذهبي في تذكرة الحفاظ (٢/ ٤٩٠) والسير له (١١/ ٣٨٥) من طريق عبيد الله بن معاذ العنبري ، عن أبيه ، عن حسين المعلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن عمران بن حصين رفعه : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان » . وقال البزار في البحر الزخار : وهذا الكلام لا نحفظه إلا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واختلفوا في رفعه عن عمر ، فذكرناه عن عمران ، إذ كان يختلف في رفعه عن عمر ، وإسناد عمر إسناد صالح ، فأخرجناه عن عمر ، وأعدناه عن عمران لحسن إسناد عمران .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٨٥) : رواه الطبراني في الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح .
ورواه الحارث بن أبي أسامة (٤٦٦ زوائد) عن روح بن عبادة ، عن حسين بن ذكوان المعلم ، عن عبد الله بن بريدة : أن عمر بن الخطاب جمع الناس لقدوم الوفد ، فقال لابنه عبيد الله ـ أو : عبد الله بن الأرقم ـ : انظروا أصحاب محمد ﷺ ، فأذن لهم أول الناس ، ثم القوم الذي يلونهم ، قال : فدخلوا عليه فصفوا قدامه ، فإذا رجلٌ ضخمٌ عليه مقطعة برود ، فأومأ إليه ، فقال عمر : إيه ثلاث مرار . فقال الرجل : إيه ثلاث مرار . فقال له عمر : قم ، فقام إلى مجلسه ، قال : ثم نظر فإذا الأشعري خفيف الجسم قصير سبط ، قال : فأومأ إليه فأتاه ، فقال له عمر : إيه ، فقال له الأشعري : يا أمير المؤمنين ، سلنا أو حدثنا فنحدثك ، قال عمر : أف ، قال : فنظر فإذا رجل أبيض خفيف الجسم ، فأومأ إليه ، فأتاه ، فقال له عمر : إيه ، قال : فوثب ، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ بالله ، ثم قال : إنك وليت هذه الأمة ، فاتق الله فيما وليت من أمر هذه الأمة ، ورعيتك ، وفي نفسك خاصة ، فإنك محاسب ومسؤولٌ عن ما استرعيت ، وإنما أنت أمين ، وإنما عليك أن تؤدي ما عليك =

. . . .

= من الأمانة ، وتعط أجرك على قدر عملك . قال : ما صدقني رجلٌ منذ استخلفت غيرك ، من أنت ؟ قال : أنا ربيع بن زياد ، قال : أخو المهاجر بن زياد ؟ قال : فجهّز عمر جيشاً واستعمل عليهم الأشعري ، ثم قال : انظر ربيع بن زياد ، فإنه إن كان صادقاً فيما يقول فإن عنده عونٌ على هذا الأمر فاستعمله ، ثم لا يأتين عليك عشر إلا تعاهدت فيهن عمله ، واكتب إلي سيرته في عمله حتى كأني أنا الذي استعملته ، ثم قال عمر : عهد إلينا رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم منافق عليم اللسان » .

ورواه الإمام أحمد (١٤٣) عن أبي سعيد مولى بني هاشم ، ورواه البزار في البحر الزخار (٣٠٥) (١٦٨ زوائد) عن محمد بن عبد الملك القرشي ، كلاهما عن دَيْلَم بن غزوان العَبْديّ ، عن ميمون الكُرْديّ ، عن أبي عثمان النهدي عبد الرحمن بن ملّ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفعه : « إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان » .

ولفظ البزار : حذّرنا رسول الله ﷺ كل منافق عليم اللسان .

ورواه الإمام أحمد (٣١٠) والبيهقي في الشعب (١٧٧٧) عن يزيد بن هارون ، عن ديلم بن غزوان العبدي ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان النهدي قال : إني لجالس تحت منبر عمر رضي الله عنه وهو يخطب الناس ، فقال في خطبته : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان » .

ورواه ابن عدي في الكامل (٣/١٠٤) عن أبي يعلى ، عن إبراهيم بن عرعرة ، عن ديلم بن غزوان أبو غالب البصري ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان النهدي قال : كنت تحت منبر عمر بن الخطاب وهو يخطب الناس ، فقال في خطبته : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان » .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٨٦) : رواه البزار وأحمد وأبو يعلى ورجاله موثقون .

ورواه الفريابي في صفة المنافق (٢٤) ومن طريقه الضياء في المختارة (٢٣٥) عن عبيد الله بن عمر القواريري وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المقدمي ، عن ديلم بن غزوان ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان النهدي قال : كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمعته يقول في خطبته : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان » .

ورواه عبد بن حميد (١١) . والبيهقي في الشعب (١٧٧٧) من طريق علي بن عبد العزيز ، كلاهما عن محمد بن الفضل السدوسي عارم ، عن ديلم بن غزوان ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبي ﷺ قال : « إنما أخاف على هذه الأمة [عند ابن حميد : عليكم] كل منافق عليم يتكلم بالحكمة ، ويعمل بالجور » .

ورواه الفريابي (٢٥) عن محمد بن المثنى ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن الحسن بن أبي جعفر ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان النهدي : سمعت عمر بن الخطاب في خطبته يقول : حذرنا رسول الله ﷺ كل منافق عليم اللسان . =

. . . .

= ورواه البزار في البحر الزخار (٣٠٦) (١٦٩ زوائد) عن أبي غسان روح بن حاتم ، عن سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن سويد بن المغيرة ، عن الحسن ، عن الأحنف ، عن عمر بنحوه . وقال البزار : لا نعلمه يروى عن عمر متصلاً إلاّ عن الأحنف وأبي عثمان ، وسويد بن المغيرة بصريٌّ جليل .

ورواه الفريابي (٢٧) عن عبد الأعلى بن حماد النرسي ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس قال : قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاحتبسني عنده حولاً ، فقال : يا أحنف ، إني قد بلوتك وخبرتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك علي ، وإنّا كنّا نتحدث إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم .

ورواه البيهقي في الشعب (١٧٧٦) عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن محمد بن عبد الله بن محمد بن قريش ، عن الحسن بن سفيان ، عن محمد بن عبيد بن حسان ، عن حماد بن زيد ، عن ميمون الكردي قال : سمعت أبا عثمان النهدي قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر : إياكم والمنافق العالم . قالوا : وكيف يكون المنافق عالماً ؟ قال : يتكلم بالحق ويعمل بالمنكر .

ورواه جعفر الفريابي في صفة المنافق (٢٦) ومن طريقه الضياء في المختارة (٢٣٦) عن قتيبة بن سعيد ، عن جعفر بن سليمان ، عن المعلى بن زياد ، عن أبي عثمان النهدي قال : سمعت عمر بن الخطاب وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه ، وهو يقول : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قيل : وكيف يكون المنافق العليم ؟ قال : عالم اللسان ، جاهل القلب والعمل .

أقول : ميمون الكردي ، قال عنه ابن معين : ليس به بأس . وقال مرّة : صالح . ووثّقه أبو داود وابن حبان ، وضعّفه الأزدي .

وسئل الدارقطني في علله (٢/ ١٧٠) عن حديث عبد الله بن بريدة ، عن عمر ، عن النبي ﷺ : « أخوف ما أخاف عليكم من منافق عليم اللسان » ؟ . فقال : هو حديثٌ رواه حسين المعلم ، واختلف عنه : فرواه معاذ بن معاذ ، عن حسين المعلم ، عن ابن بريدة ، عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ ، ووهم فيه . ورواه عبد الوهاب بن عطاء وروح بن عبادة وغيرهما ، عن حسين ، عن ابن بريدة ، عن عمر بن الخطاب ، وهو الصواب في قصة طويلة .

وسئل الدارقطني في علله (٢/ ٢٤٦) عن حديث أبي عثمان النهدي ، عن عمر قوله : « أخوف ما أخاف عليكم كل منافق عليم اللسان » ؟ فقال : رواه المعلى بن زياد ، عن أبي عثمان ، عن عمر ، وكذلك رواه حماد بن زيد ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان ، عن عمر قوله . وخالفه ديلم بن غزوان ويكنى أبا غالب ، عن ميمون الكردي ، عن أبي عثمان ، عن عمر ، عن النبي ﷺ . وتابعه الحسن بن أبي جعفر الجفري ، عن ميمون الكردي فرفعه أيضاً إلى النبي ﷺ ، والموقوف أشبه بالصواب . والله أعلم .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ »[١] .

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ هَذَا ، فَابْعُدْ مِنْهُ وَهَرْوِلْ ، لِئَلاَّ يَخْتَطِفَكَ بِلَذِيذِ لِسَانِهِ فَتُحْرِقَكَ نَارُ مَعَاصِيهِ ، وَيَقْتُلَكَ فِتَنُ بَاطِنِهِ وَقَلْبِهِ .

٣ـ وَالرَّجُلُ الثَّالِثُ : قَلْبٌ بِلاَ لِسَانٍ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ سَتَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَسْبَلَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، وَعَرَّفَهُ غَوَائِلَ مُخَالَطَةِ النَّاسِ وَشُؤْمَ الكَلاَمِ وَالنُّطْقِ ، وَتَيَقَّنَ أَنَّ السَّلاَمَةَ فِي الصَّمْتِ وَالانْزِوَاءِ وَالانْفِرَادِ .

وَاسْمَعْ قَوْلَهُ ﷺ : « مَنْ صَمَتَ نَجَا »[٢] .

وَاسْمَعْ قَوْلَ بَعْضِ العُلَمَاءِ : العِبَادَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ[٣] .

---

(١) لم أجده .
وروى الإمام أحمد في الزهد (٣٩٢) وغيره عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال : . . ويلكم علماء السوء . .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨٥) وابن وهب في الجامع (١/٤٩) والإمام أحمد (٦٤٨١ و٦٦٥٤) وعبد بن حميد (٣٤٥) والدارمي (٢٧١٣) والترمذي (٢٥٠١) وابن أبي الدنيا في الصمت (١٠) وابن أبي عاصم في الزهد (١) وأبو الشيخ في الأمثال (٢٠٧) والبيهقي في الشعب (٤٩٨٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٣٣٤) والمزي في تهذيب الكمال (٣٢/٢١٦) من طرق عن ابن لهيعة [سيء الحفظ] ، عن يزيد بن عمرو المعافري ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي عبد الله بن يزيد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . وقال الترمذي : حديث غريب . وقال العراقي في تخريجه للإحياء (٣/١٠٨) : أخرجه الترمذي بسندٍ فيه ضعف ، وهو عند الطبراني بسندٍ جيّد . وقال ابن حجر في فتح الباري (١١/٣٠٩) : أخرجه الترمذي ، ورواته ثقات .
ورواه الطبراني في الأوسط (١٩٣٣) وابن عبد البر في التمهيد (٢١/٣٧) من طريق عبد الله بن وهب قال : أخبرني ابن لهيعة وعمرو بن الحارث ، عن يزيد بن عمرو المعافري ، بهذا الإسناد .

(٣) رواه ابن حبان في روضة العقلاء (١٠٣ بتحقيقي) عن محمد بن سعيد القزاز ، عن معروف بن الحسن الكتاني [ذكره في الثقات] ، عن كثير بن هشام الكلابي ، عن عيسى بن إبراهيم الهاشمي [متروك الحديث ، لا يجوز الاحتجاج به] ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن كَعْب [في ترجمة سعيد ، روى عن : كعب بن عُجْرة رَضيَ اللهُ عَنْهُ] قَالَ : العَافِيَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي السُّكُوتِ .
ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٦) والخطابي في العزلة (ص ٨٥ـ ٨٦) من طريق محمد بن يزيد بن خنيس ، عن وهيب بن الورد قال : كان يقال : الحكمة عشرة أجزاء ، فتسعة منها في الصمت ، والعاشرة عزلة الناس .
=

. . . .

= وروا أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٤٢) من طريق محمد بن يزيد بن خنيس ، عن وهيب بن الورد قال : قال حكيم من الحكماء : العبادة ـ أو قال : الحكمة ـ عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت وواحدة في العزلة فأردت نفسي من الصمت على شيء فلم أقدر عليه ، فصرت إلى العزلة فخلصت إلى التسعة .

ورواه البيهقي في الزهد الكبير (١٢٦) من طريق ابن خنيس ، عن وهيب بن الورد قال : كان يقال : الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت ، والعاشرة عزلة الناس . قال : فعالجت نفسي على الصمت فلم أجدني أضبط كما أريد أن خير هذه العشرة عاشرها عزلة الناس .

وذكره الثعالبي في الإعجاز والإيجاز (ص٣٤) والأبشيهي في المستطرف (باب في الوصايا الحسنة) من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسين رضي الله عنه : يا بني ، العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله تعالى ، وواحد في ترك مجالسة السفهاء .

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٣٨٤) من طريق ابن أبي الدنيا ، عن محمد بن عبد الله الخزاعي قال : سمعت عثمان بن زائدة يقول : العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل .

قال : فحدثت به أحمد بن حنبل فقال : العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل .

ورواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٤٢٤) والبيهقي في الزهد الكبير (١٢٧) من حديث أبي هريرة رفعه . وقال البيهقي : إسناده ضعيف ومتنه مرفوع منكر . ونسبه السيوطي في حسن السمت في الصمت (١٤) للبيهقي في الزهد وابن بطال في مكارم الأخلاق .

وذكره الديلمي في الفردوس (٢٧٧١) عن أبي هريرة رفعه : « الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحدة في الصمت » .

وذكره الديلمي في الفردوس (٤٢٣١) وإسناده في زهر الفردوس (٢/ ٣٢٩) عن محمد بن عمر بن حفص ، عن إسحاق بن الفيض ، عن أحمد بن جميل ، عن السلمي ، عن الخطاب ، عن داود بن شريح ، عن ابن عباس رفعه : « العافية عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، والعاشرة اعتزالك عن الناس » . وقال المناوي في فيض القدير (٤/ ٣٧٠) : قال الحافظ العراقي : حديث منكر .

وذكره الديلمي في الفردوس (٤٢٢٢) وإسناده في زهر الفردوس (٢/ ٣٢٩) عن البجلي ، عن السلمي ، عن أبي جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازي ، عن الحسين بن داود البلخي ، عن يزيد بن هارون ، عن حميد الطويل ، عن أنس رفعه : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، والعاشرة كسب اليد من الحلال » .

وذكره الديلمي في الفردوس كما في الجامع الصغير (٥٦٧٩) وكنز العمال (٩٢٠٨) عن أنس رفعه : « العافية عشرة أجزاء : تسعة في طلب المعيشة ، وجزء في سائر الأشياء » .

ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٥) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٣٨٤) وانظر ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ١٢٤) ولسان الميزان لابن حجر (١/ ٢٣٥) عن أبي أحمد الغطريفي ،

فَهَذَا رَجُلٌ وَلِيٌّ للهِ[1] عزّ وجلّ فِي سِتْرِ اللهِ مَحْفُوظاً ، ذُو سَلاَمَةٍ وَعَقْلٍ وَافِرٍ ، جَلِيسُ الرَّحْمَنِ ، مُنْعَمٌ عَلَيْهِ ، فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ عِنْدَهُ ، فَدُونَكَهُ وَمُصَاحَبَتَهُ وَمُخَالَطَتَهُ وَخِدْمَتَهُ وَالتَّحَبُّبَ إِلَيْهِ بِقَضَاءِ حَوَائِجَ[2] تَسْنَحُ لَهُ ، وَمَرَافِقَ يَرْتَفِقُ بِهَا فَيُحِبَّكَ اللهُ وَيَصْطَفِيكَ ، وَيُدْخِلَكَ فِي زُمْرَةِ أَحِبَّائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ بِبَرَكَتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

٤ـ وَالرَّجُلُ الرَّابِعُ : الْمَدْعُوُّ فِي الْمَلَكُوتِ بِالعَظِيمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ وَعَمِلَ دُعِيَ فِي الْمَلَكُوتِ عَظِيماً »[3] .

وَهُوَ العَالِمُ بِاللهِ عزّ وجلّ وَآيَاتِهِ ، اسْتَوْدَعَ اللهُ عزّ وجلّ قَلْبَهُ غَرَائِبَ عِلْمِهِ ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى أَسْرَارٍ طَوَاهَا عَنْ غَيْرِهِ ، وَاصْطَفَاهُ وَاجْتَبَاهُ وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ وَرَقَّاهُ ، وَإِلَى بَابِ قُرْبِهِ هَدَاهُ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِقَبُولِ تِلْكَ الأَسْرَارِ وَالعُلُومِ وَجَعَلَهُ جِهْبِذاً وَدَاعِياً لِلْعِبَادِ وَنَذِيراً لَهُمْ وَحُجَّةً فِيهِمْ ، هَادِياً مَهْدِيّاً شَافِعاً مُشَفَّعاً صَادِقاً صِدِّيقاً ، بَدَلاً لِرُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُهُ وَسَلاَمُهُ وَتَحِيَّاتُهُ وَبَرَكَاتُهُ .

فَهَذِهِ هِيَ الغَايَةُ القُصْوَى فِي بَنِي آدَمَ ، لاَ مَنْزِلَةَ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ إِلاَّ النُّبُوَّةَ ، فَعَلَيْكَ بِهِ وَاحْذَرْ أَنْ

= عن أبي الحسين [في حلية : الحسن] بن أبي مقاتل ، عن محمد بن عبيد بن عتبة ، عن محمد بن علي الوهبي الكوفي ، عن أحمد بن عمران بن سلمة ـ قال أبو نعيم : وكان ثقة عدلاً مرضياً ، وقال الذهبي : لا يدرى من ذا ـ ، عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنت عند النبي ﷺ فسئل عن عليّ ؟ . فقال : « قسمت الحكمة [في حلية : الحكم] عشرة أجزاء ، فأعطي عليّ تسعةُ أجزاء ، والناس جزءاً واحداً » . قال الذهبي : هذا كذب . ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٣٨٤) عن أبي غالب بن البنا ، عن أبي محمد الجوهري ، عن أبي عمر بن حيوية ، عن أبي عبد الله الحسين بن علي الدهان ، عن محمد بن عبيد بن عتبة الكندي ، عن أبي هاشم محمد بن يعلى يعني : الوهبي ، عن أحمد بن عمران بن سلمة بن عجلان مولى يحيى بن عبد الله ، عن سفيان بن سعيد ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنت عند النبي ﷺ فسئل عن عليّ ؟ فقال : « قسمت الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي عليّ تسعة أجزاء ، والناس جزءاً واحداً » .

(١) في المطبوع : (وليّ الله) .

(٢) في المطبوع : (الحوائج) .

(٣) لم أجده ؛ وهو من قول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام كما في عون المعبود (٤/ ٢٢٩) .

تُخَالِفَهُ وَتُنَافِرَهُ وَتُجَانِبَهُ وَتُعَادِيَهُ وَتَتْرُكَ القَبُوْلَ مِنْهُ وَالرُّجُوْعَ إِلَى نَصِيحَتِهِ وَقَوْلِهِ ، فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِيمَا يَقُوْلُ عِنْدَهُ ، وَالْهَلَاكَ وَالضَّلَالَ عِنْدَ غَيْرِهِ إِلَّا مَنْ يُوَفِّقُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وَيَمُدُّهُ بِالسَّدَادِ وَالرَّحْمَةِ .

فَقَدْ قَسَّمْتُ لَكَ النَّاسَ ، فَانظُرْ لِنَفْسِكَ إِنْ كُنْتَ نَاظِراً ، وَاحْتَرِزْ لَهَا إِنْ كُنْتَ مُحْتَرِزاً لَهَا شَفِيقاً عَلَيْهَا . هَدَانَا اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ .

* * *



المَقالَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلاَثُوْنَ

فِي النَّهْيِ عَنِ السُّخْطِ عَلَى اللهِ تَعالَى

مَا أَعْظَمَ تَسَخُّطَكَ عَلَى رَبِّكَ وَتُهْمَتَكَ لَهُ عزَّ وجلَّ ، وَاعْتِرَاضَكَ عَلَيْهِ وَانْتِسَابَكَ لَهُ عزَّ وجلَّ بِالظُّلْمِ ، وَاسْتِبْطَاءَكَ فِي الرِّزْقِ وَالغِنَى وَكَشْفِ الكُرُوبِ وَالبَلْوَى ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد : ٣٨] ، وَلِكُلِّ زِيَادَةِ بَلِيَّةٍ وَكُرْبَةٍ غَايَةٌ وَمُنْتَهى وَنَفَادٌ ، لاَ يَتَقَدَّمُ ذَلِكَ وَلاَ يَتَأَخَّرُ .

أَوْقَاتُ البَلاَيَا لاَ تُقْلَبُ[١] فَتَصِيرُ عَوَافِيَ وَوَقْتُ البُؤْسِ لاَ يَنقَلِبُ نَعِيماً[٢] ، وَحَالَةُ الفَقْرِ لاَ تَسْتَحِيلُ غِنًى .

أَحْسِنِ الأَدَبَ ، وَالْزَمِ الصَّمْتَ وَالصَّبْرَ وَالرِّضَا وَالْمُوَافَقَةَ لِرَبِّكَ عزَّ وجلَّ ، وَتُبْ عَنْ تَسَخُّطِكَ عَلَيْهِ وَتُهْمَتِكَ لَهُ فِي فِعْلِهِ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ اسْتِيفَاءٌ وَانْتِقَامٌ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ، وَلاَ عَرَضٌ عَلَى الطَّبْعِ كَمَا هُوَ فِي حَقِّ العَبِيدِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ ، هُوَ عزَّ وجلَّ مُنْفَرِدٌ بِالأَزَلِ وَسَبَقَ الأَشْيَاءَ، خَلَقَهَا وَخَلَقَ مَصَالِحَهَا وَمَفَاسِدَهَا وَعَلِمَ ابْتِدَاءَهَا وَانْتِهَاءَهَا وَانْقِضَاءَهَا، وَهُوَ عزَّ وجلَّ حَكِيمٌ فِي فِعْلِهِ، مُتْقِنٌ فِي صُنْعِهِ، لاَ تَنَاقُضَ فِي فِعْلِهِ ، لاَ يَفْعَلُ عَبَثاً وَلاَ يَخْلُقُ بَاطِلاً لَعِباً ، وَلاَ تَجُوزُ عَلَيْهِ النَّقَائِصُ[٣] وَلاَ اللَّوْمُ فِي أَفْعَالِهِ ، فَانْتَظِرِ الفَرَجَ حَتَّى إِنْ عَجَزْتَ عَنْ مُوَافَقَتِهِ وَعَنِ الرِّضَا والغِنَى[٤] فِي فِعْلِهِ ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[البقرة : ٢٣٥] ، فَتَسْفِرُ الحَالَةُ عَنْ ضِدِّهَا بِمُرُورِ الزَّمَانِ وَانْقِضَاءِ الآجَالِ ، كَمَا يَنْقَضِي الشِّتَاءُ فَيُسْفِرُ عَنِ الصَّيْفِ ، وَيَنْقَضِي اللَّيْلُ فَيُسْفِرُ عَنِ النَّهَارِ ، فَإِذَا طَلَبْتَ نُورَ ضَوْءِ النَّهَارِ ـ وَنُوْرُهُ بَيْنَ العِشَاءَيْنِ ـ لَمْ تُعْطَه ، بَلْ يُزَادُ[٥]

(١) في نسخة : (تتقلب) .

(٢) في نسخة : (نعيمه) .

(٣) في المطبوع : (النقائض) .

(٤) في المطبوع : (وعن الغنى) .

(٥) في المطبوع : (يزداد) .

فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الظُّلْمَةُ غَايَتَهَا وَطَلَعَ الفَجْرُ وَجَاءَ النَّهَارُ بِضَوْئِهِ طَلَبْتَ ذَلِكَ وَأَرَدْتَهُ وَسَكَتَّ عَنْهُ وَكَرِهْتَهُ ، فَإِنْ طَلَبْتَ إِعَادَةَ اللَّيْلِ حِينَئِذٍ لَمْ تُجَبْ دَعْوَتُكَ وَلَمْ تُعْطَهُ لأَنَّكَ طَلَبْتَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ حِينِهِ وَوَقْتِهِ فَتَبْقَى حَسِيراً مُنْقَطِعاً مُتَسَخِّطاً خَجِلاً ، فَأَرِحْ هَذَا كُلَّهُ وَالْزَمِ الْمُوَافَقَةَ وَحُسْنَ الظَّنِّ بِرَبِّكَ عزَّ وجلَّ وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ ، فَمَا كَانَ لَكَ لاَ تُسْلَبُهُ ، وَمَا لَيْسَ لَكَ لاَ تُعْطَاهُ .

لَعَمْرِي إِنَّكَ تَدْعُو وَتَبْتَهِلُ إِلَى رَبِّكَ عزَّ وجلَّ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَهُوَ عِبَادَةٌ وَطَاعَةٌ امتِثَالاً لأَمْرِهِ عزَّ وجلَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر : ٦٠] . وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النساء : ٣٢] ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَالأَخْبَارِ ، أَنْتَ تَدْعُو وَهُوَ يَسْتَجِيبُ لَكَ عِنْدَ حِينِهِ وَأَجَلِهِ إِذَا أَرَادَ وَكَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ فِي دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ وَيُوَافِقُ فِي ذَلِكَ قَضَاءَهُ وَانْتِهَاءَ أَجَلِهِ ، لاَ تَتَّهِمْهُ فِي تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ وَلاَ تَسْأَمْ مِنْ دُعَائِهِ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْبَحْ لَمْ تَخْسَرْ ، وَإِنْ لَمْ يُجِبْكَ عَاجِلاً أَثَابَكَ آجِلاً ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « **الْعَبْدُ يَرَى فِي صَحَائِفِهِ حَسَنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَعْرِفُهَا ، فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّهَا بَدَلُ سُؤَالِكَ فِي الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُقَدَّرْ قَضَاؤُهُ فِيهَا** »(١) أَوْ كَمَا وَرَدَ .

ثُمَّ أَقَلُّ أَحْوَالِكَ أَنَّكَ تَكُونُ ذَاكِراً لِرَبِّكَ عزَّ وجلَّ مُوَحِّداً لَهُ حَيْثُ تَسْأَلُهُ وَلاَ تَسْأَلُ أَحَداً

---

(١) سيأتي في المقالة (٦٦) .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١٤١٩) : قال أبو عثمان النهدي ، عن سلمان : يعطى الرَّجلُ صَحِيفَتَهُ يومَ القِيَامَةِ فيقرأُ أعلاها فإذَا سيِّئَاتُهُ كَادَتْ تَسُوءُ ظَنَّهُ ، نَظَرَ فِي أَسْفَلِهَا فإذَا حَسَنَاتُهُ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَعْلاَهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ بُدِّلَتْ حَسَنَات . وروي عن أبي عثمان ، عن ابن مسعود ، وعن أبي عثمان من قوله وهو أصح .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١١) عن أحمد بن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن محمد بن سلم ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٧٣٨) عن أبي محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني ، عن أبي بكر عمر بن محمد صاحب الكتاني ، عن أبي عثمان الكرخي ، كلاهما عن عبد الرحمن بن عمر رستة قال : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : لولا أني أكره أن يعصى الله لتمنيت أن لا يبقى في هذا المصر أحدٌ إلا وقع واغتابني ، وأي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته يوم القيامة لم يعملها ولم يعلم بها .

وانظر نوادر الأصول للحكيم الترمذي عقب رقم (٦٧٨) .

غَيْرَهُ ، وَلاَ تَتْرُكْ حَاجَتَكَ لِغَيْرِهِ تَعَالَى ، فَأَنْتَ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فِي زَمَانِكَ[1] كُلِّهِ لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ وَصِحَّتِكَ وَسَقَمِكَ وَبُؤْسِكَ وَنَعْمَائِكَ وَشِدَّتِكَ وَرَخَائِكَ ، إِمَّا أَنْ تُمْسِكَ عَنِ السُّؤَالِ وَتَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَتُوَافِقَ وَتَسْتَرْسِلَ لِفِعْلِهِ عزَّ وجلَّ ، كَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدَي الْغَاسِلِ ، وَالطِّفْلِ الرَّضِيعِ فِي يَدَي الظِّئْرِ ، وَالْكُرَةِ بَيْنَ يَدَي الْفَارِسِ يُقَلِّبُهَا بِصَوْلَجَانِهِ ، فَيُقَلِّبُكَ الْقَدَرُ كَيْفَ يَشَاءُ ، إِنْ كَانَ النَّعْمَاءَ فَمِنْكَ الشُّكْرُ وَالثَّنَاءُ وَمِنْهُ عزَّ وجلَّ الْمَزِيدُ فِي الْعَطَاءِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم : ٧] . وَإِنْ كَانَ الْبَأْسَاءَ فَالصَّبْرُ وَالْمُوَافَقَةُ مِنْكَ بِتَوْفِيقِهِ وَالتَّثَبُّتُ وَالنُّصْرَةُ وَالصَّلاَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنْهُ عزَّ وجلَّ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ، كَمَا قَالَ عزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة : ١٥٣ والأنفال : ٤٦] بِنَصْرِهِ وَتَثْبِيتِهِ ، وَهُوَ لِعَبْدِهِ نَاصِرٌ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَهَوَاهُ وَشَيْطَانِهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد : ٧] . إِذَا نَصَرْتَ اللهَ فِي مُخَالَفَةِ نَفْسِكَ وَهَوَاكَ بِتَرْكِ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ وَالسُّخْطِ بِفِعْلِهِ فِيكَ وَكُنْتَ خَصْماً للهِ عَلَى نَفْسِكَ سَيَّافاً عَلَيْهَا كُلَّمَا تَحَرَّكَتْ بِكُفْرِهَا وَشِرْكِهَا حَزَزْتَ رَأْسَهَا بِصَبْرِكَ وَمُوَافَقَتِكَ لِرَبِّكَ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَى فِعْلِهِ وَوَعْدِهِ وَالرِّضَا بِهِمَا كَانَ عزَّ وجلَّ لَكَ مُعِيناً .

وَأَمَّا الصَّلاَةُ وَالرَّحْمَةُ ، فَقَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة : ١٥٥-١٥٧] .

وَالْحَالَةُ الأُخْرَى : أَنَّكَ تَبْتَهِلُ إِلَى رَبِّكَ عزَّ وجلَّ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِعْظَاماً لَهُ وَامْتِثَالاً لأَمْرِهِ ، وَفِيهِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ ، لأَنَّهُ نَدَبَكَ إِلَى سُؤَالِهِ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مُسْتَرَاحاً وَرَسُولاً مِنْكَ إِلَيْهِ ، وَمَوْصِلَةً وَوَسِيلَةً لَدَيْهِ بِشَرْطِ تَرْكِ التُّهْمَةِ وَالسُّخْطِ عَلَيْهِ عِنْدَ تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ[2] إِلَى حِينِهَا .

اعْتَبِرْ مَا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ وَلاَ تَكُنْ مِمَّنْ تَجَاوَزَ عَنِ حَدَّيْهِمَا فَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ حَالَةٌ أُخْرَى ،

---

(١) في نسخة : (زمان) .

(٢) في المطبوع : (إجابة) .

فَاحْذَرْ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ الْمُعْتَدِيْنَ فَيُهْلِكَكَ عزَّ وجلَّ وَلاَ يُبَالِي كَمَا أَهْلَكَ مَنْ مَضَى مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ فِي الدُّنْيَا بِشَدِيْد(١) بَلاَئِهِ وَفِي الآخِرَةِ بِأَلِيْمِ عَذَابِهِ .

* * *



(١) في المطبوع : (بتشديد) .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةُ وَالثَّلاَثُوْنَ

فِـي الـوَرَعِ

عَلَيْكَ بِالوَرَعِ وَإِلاَّ فَالْهَلاَكُ فِي زَنِفِكَ مُلاَزِمٌ لكَ لاَ تَنجُو مِنْهُ أَبَداً إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَكَ اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ .

فَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيْثِ الْمَرْوِيّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ مَلاَكَ الدِّيْنِ الوَرَعُ ، وَهَلاَكُهُ الطَّمَعُ ، وَإِنَّ مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ ، كَالرَّاتِعِ إِلَى جَنْبِ الزَّرْعِ يُوْشِكُ أَنْ يَمُدَّ فَاهُ إِلَيْهِ لاَ يَكَادُ أَنْ يَسْلَمَ الزَّرْعُ مِنْهُ »(١) .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠٩٦٩) والقضاعي في مسند الشهاب (٤٠) من طريق علي بن عبد العزيز ، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/٤٣٦) عن أبي طاهر الخفاف ، عن عبد الله بن القاسم بن سهل الفقيه بالموصل ، عن عبد الله بن زياد ، كلاهما عن معلى بن مهدي الموصلي .
ورواه الطبراني في الكبير (١٠٩٦٩) عن يحيى بن عثمان بن صالح ، عن أبي صالح عبد الله بن صالح .
ورواه ابن عدي (٣/٤٥٥) عن أحمد بن عبد الله بن سالم أبو المنبه الباجري ، عن أبيه ، عن أبي عبد الرحمن المقرىء . ثلاثتهم عن سوّار بن مصعب المؤذن الكوفي [منكر الحديث] ، عن ليث بن أبي سليم [ضعيف ، تركوه] ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العلم أفضل من العبادة ، وملاك الدين الورع » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٨٠) : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه : سَوّار بن مُصعب ، ضعيف جداً .
ورواه ابن عدي في الكامل (٦/١٦٠) عن أحمد بن حفص السعدي ، عن عمران بن سوار البغدادي ، عن محمد بن عبد الملك الأنصاري [وضّاع كذّاب منكر الحديث] ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « فضل في علم خير من فضل في عبادة ، وملاك الدين الورع » .
ورواه ابن حبان في المجروحين (٢/٢٦٩ـ ٢٧٠) عن محمد النيسابوري بالرملة ، عن محمد بن يزيد محمش ، عن حفص بن عبد الرحمن البلخي ، عن محمد بن عبد الملك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة مرفوعاً : « . . وفضل في علم خير من فضل في عبادة ، وملاك الدين الورع » .
ورواه البيهقي في الشعب (٥٧٥١) عن أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي ، عن أبي بكر محمد بن علي بن أيوب بن سلمويه ، عن محمد بن يزيد السلمي ، عن حفص بن عبد الرحمن ، عن محمد بن عبد الملك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ =

. . . .

= يقول : « . . وقصد في علم خيرٌ من فضل في عبادة ، وملاك الدين الورع » .

أقول : فيه : محمد بن عبد الملك . قال ابن حبان : أبو عبد الله الأنصاري من أهل المدينة ، سكن الشام ، كان مِمّن يروي الموضوعات عن الأثبات ، لا يحل ذكره في الكتب إلا على جهة القدح فيه ، ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار .

وفيه : حفص بن عبد الرحمن البلخي . قال الذهبي في السير (٩/ ٣١٠) : حفص بن عبد الرحمن ، الإمام الفقيه مُفتي خراسان ، أبو عمر البَلْخي ، ثم النيسابوري الحنفي ، حدّث عنه : محمد بنُ مَخمش . احتجَّ به النسائي في سننه ، وأما أبو حاتم الرازي [٣/ ١٧٦] فقال : مُضطرب الحديث . وقال (٩/ ٤٨٥) : حفص بن عبد الله بن راشد الإمام الحافظ الصادق القاضي الكبير أبو عمرو وأبو سهل السلمي الفقيه ، قاضي نيسابور . حدث عنه : ولده المحدث أحمد بن حفص ، ومحمد بن يزيد مَحْمِش . وقال المزي في تهذيب الكمال (٧/ ١٨) : حفص بن عبد الله بن راشد السُّلَمِيّ ، أبو عمرو ، ويقال : أبو سهل ، النيسابوري ، قاضيها ، والد أحمد بن حفص . روى عنه : محمد بن يزيد ولقبُه مَحْمِش . وقال ابن حبان في كتاب الثقات (الورقة ٩٧) : حفص بن عبد الله السُّلمِيّ ، كنيته : أبو عمرو ، من أهل نيسابور ، يروي عن : إبراهيم بن طهمان ، روى عنه : ابنه أحمد بن حفص ، وقد قيل : كنيته أبو سهل ، ومن أصحابنا من زعم أن أبا سهل الخراساني الذي يروي عنه أبو نعيم الفضل بن دكين ، عن إبراهيم بن طهمان ، هو حفص بن عبد الله هذا ، وما أراه بمحفوظ .

ورواه ابن أبي شيبة (٢٦١١٥ و٣٤٤٠٥) عن وكيع ، عن سفيان ، عن عمرو بن قيس الملائي قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة ، وملاك دينكم الورع » .

ورواه ابن أبي شيبة (٣٥٦٠٠) عن أسود بن عامر ، عن ابن أبي السميط ، عن قتادة ، عن مطرف قال : لفضل العلم أحبُّ إليّ من فضل العبادة ، وملاك دينكم الورع .

وذكره الديلمي في الفردوس (٦٤٩١) عن أبي هريرة : ملاك الدين الورع .

وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٨) : قال الدارقطني : لا يصح منها شيء ، والصحيح أنه من قول مطرف بن الشخير .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٤) من طريق سلمة بن شبيب ، عن مبارك أبي حماد مولى إبراهيم بن سام قال : سمعت سفيان الثوري يقرأ على علي بن الحسن السليمي : يا أخي ، لا تغبط أهل الشهوات بشهواتهم ولا ما يتقلبون فيه من النعمة فإن أمامهم يوماً تزل فيه الأقدام وترعد فيه الأجسام وتتغير فيه الألوان ويطول فيه القيام ويشتد فيه الحساب وتتطاير فيه القلوب حتى تبلغ الحناجر فيا لها من ندامة على ما أصابوا من هذه الشهوات اجعل كسبك فيما يكون لك ولا تجعل كسبك فيما يكون عليك فإن الذي يقدم ماله ويعطي حق الله منه فماله له وأفضل منه والذي يخلف ماله ويضيع حق الله فيه فماله وبال عليه يوم القيامة اكسب حلالاً واجلس مع من كسبه من حلال وكل طعام من كسبه

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا نَتْرُكُ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْمُبَاحِ مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي الْجُنَاحِ(١) .

وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا نَتْرُكُ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الْحَلَالِ مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي الْحَرَامِ(٢) .

فَعَلُوا ذَلِكَ تَوَرُّعاً مِنْ مُقَارَبَةِ الْحَرَامِ ، أَخذاً بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، فَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ »(٣) .

= من حلال وليكن أهل مشورتك من كسبه من حلال ، فإن الورع ملاك الدين واستكمال أمر الآخرة .

(١) قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٢٥) : وروي مثل هذا عن أبي بكر رضي الله عنه قال : كُنّا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة بابٍ واحدٍ من الحرام . اهـ

وقال ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢٢) : قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام .

أقول : وروى عبد بن حميد (٤٨٤) والبخاري في التاريخ الكبير (٥/ ١٥٨) والترمذي (٢٤٥١) وابن ماجة (٤٢١٥) والطبراني في الكبير (١٧/رقم ٤٤٦) والبيهقي (٥/ ٣٣٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٩٠٩ـ ٩١١) والمزي في تهذيب الكمال (١٦/ ٣١٩) عن عطية السعدي رفعه : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس » . وقال الترمذي : حديث حسن غريب . **أقول** : فيه : عبد الله بن يزيد ، لا يُعرف حاله .

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء كما في الإتحاف (٦/ ٢٥) والأربعين في أصول الدين له (٦١ بتحقيقي) .

وقال في الإحياء : وقيل : إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما . اهـ

وروى البيهقي في الزهد الكبير (٩٣٣) عن المزين قال : الورع شدّة الهرب من الشبهات مخافة الوقوع في الحرام .

(٣) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٧٠) والدارمي (٢٥٣٤) والبخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) وأبو داود (٣٣٣٠) والترمذي (١٢٠٥) وابن ماجة (٣٩٨٤) من طريق زكريا بن أبي زائدة ، عَنْ عَامِرٍ الشعبي ، عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه : « إِنَّ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَاقَعَ الْحَرَامَ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ » . وانظر مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٦٧ و٢٧٥) والبخاري (٢٠٥١) .

فَمَنْ دَخَلَ حِصْنَ الْمَلِكِ فَجَازَ البَابَ الأَوَّلَ ثُمَّ الثَّانِي وَالثَّالِثَ حَتَّى قَرُبَ مِنْ سُدَّتِهِ ، خَيْرٌ مِمَّنْ وَقَفَ عَلَى البَابِ الأَوَّلِ الَّذِي يَلِي البَرَّ ، فَإِنَّهُ إِنْ أَغْلَقَ عَنْهُ غَلَقَ البَابِ الثَّالِثِ لَمْ يَضُرَّهُ وَهُوَ مِنْ وَرَاءِ بَابَيْنِ مِنْ أَبْوَابِ القَصْرِ وَمِنْ دُوْنِهِ حُرَّاسُ الْمَلِكِ وَجُنْدُهُ .

وَأَمَّا إِذَا كَانَ عَلَى البَابِ الأَوَّلِ فَأَغْلَقُوا عَنْهُ بَقِيَ فِي البَرِّ وَحْدَهُ ، فَأَخَذَتْهُ الذِّئَابُ وَالأَعْدَاءُ وَكَانَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ، فَهَكَذَا مَنْ سَلَكَ العَزِيْمَةَ وَلاَزَمَهَا ، إِنْ سُلِبَ عَنْهُ مَدَدُ التَّوْفِيْقِ وَالرِّعَايَةِ وَانقَطَعَتْ عَنْهُ حَصَلَ عَلَى الرُّخَصِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنِ الشَّرْعِ ، فَإِذَا أَدْرَكَتْهُ الْمَنِيَّةُ كَانَ عَلَى العِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَيُشْهَدُ لَهُ بِخَيْرِ العَمَلِ ، وَمَنْ وَقَفَ عَلَى الرُّخَصِ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَى العَزِيْمَةِ إِنْ سُلِبَ عَنْهُ التَّوْفِيْقُ ـ فَقُطِعَتْ عَنْهُ أَمْدَادُهُ ، فَغَلَبَ الْهَوَى عَلَيْهِ وَشَهَوَاتُ النَّفْسِ ، فَتَنَاوَلَ الْحَرَامَ ـ خَرَجَ مِنَ الشَّرْعِ فَصَارَ فِي زُمْرَةِ الشَّيَاطِيْنِ أَعْدَاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ الضَّالِّيْنَ عَنْ سَبِيْلِ الْهُدَى ، فَإِنْ أَدْرَكَتْهُ الْمَنِيَّةُ قَبْلَ التَّوْبَةِ كَانَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ ، فَالْخَطَرُ فِي القِيَامِ مَعَ الرُّخَصِ ، وَالسَّلاَمَةُ كُلُّ السَّلاَمَةِ مَعَ العَزِيْمَةِ ، وَاللهُ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيْقِ .

* * *

الْمَقَالَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُوْنَ

فِي بَيَانِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ فِيهِمَا

اجْعَلْ آخِرَتَكَ : رَأسَ مَالِكِ ، وَدُنْيَاكَ : رِبْحَهُ ، وَاصْرِفْ زَمَانَكَ أَوَّلاً فِي تَحْصِيْلِ آخِرَتِكَ ، ثُمَّ إِنْ فَضَلَ مِنْ زَمَانِكَ شَيءٌ اصْرِفْهُ فِي دُنْيَاكَ وَفِي طَلَبِ مَعَاشِكَ .

وَلاَ تَجْعَلْ دُنْيَاكَ : رَأسَ مَالِكَ ، وَآخِرَتَكَ : رِبْحَهُ ، ثُمَّ إِنْ فَضَلَ مِنَ الزَّمَانِ فَضْلَةٌ صَرَفْتَهَا فِي آخِرَتِكَ تَقْضِي فِيهَا الصَّلَوَاتِ تَسْبِكُهَا سَبِيكَةً وَاحِدَةً سَاقِطَةَ الأَرْكَانِ ، مُخْتَلِفَةَ الوَاجِبَاتِ مِنْ غَيْرِ رُكُوْعٍ وَلاَ سُجُودٍ[1] وَطُمَأنِيْنَةٍ بَيْنَ الأَرْكَانِ ، أَوْ يَلْحَقُكَ التَّعَبُ وَالإِعْيَاءُ فَتَنَامُ عَنِ القَضَاءِ جُمْلَةً ، جِيفَةً فِي اللَّيْلِ بَطَّالاً فِي النَّهَارِ ، تَابِعاً لِنَفْسِكَ وَهَوَاكَ وَشَيْطَانِكَ ، وَبَائِعاً آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ عِنْدَ[2] النَّفْسِ وَمَطِيَّتِهَا وَمَرْكَبِهَا ، وَأُمِرْتَ بِرُكُوْبِهَا وَتَهْذِيْبِهَا وَرِيَاضَتِهَا وَالسُّلُوْكِ بِهَا فِي سَبِيْلِ السَّلاَمَةِ - وَهِيَ طَرَفُ الآخِرَةِ - وَطَاعَةِ مَوْلاَنَا عزَّ وجلَّ ، فَظَلَمْتَهَا بِقَبُوْلِكَ مِنْهَا ، وَسَلَّمْتَ زَمَانَهَا إِلَيْهَا وَتَبِعْتَهَا فِي شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَمُوَافَقَتِهَا وَشَيْطَانِهَا وَهَوَاهَا فَفَاتَكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَخَسِرْتَهُمَا فَدَخَلْتَ القِيَامَةَ أَفْلَسَ النَّاسِ وَأَخْسَرَهُمْ دِيناً وَدُنْيَا ، وَمَا وَصَلْتَ بِمُتَابَعَتِهَا إِلَى أَكْثَرَ مِنْ قِسْمِكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، وَلَوْ سَلَكْتَ طَرِيْقَ الآخِرَةِ وَجَعَلْتَهَا رَأسَ مَالِكَ رَبِحْتَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، وَوَصَلَ[3] إِلَيْكَ قِسْمُكَ مِنَ الدُّنْيَا هَنِيْئاً مَرِيْئاً وَأَنْتَ مَصُوْنٌ مُكْرَمٌ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا عَلَى نِيَّةِ الآخِرَةِ ، وَلا يُعْطِي الآخِرَةَ عَلَى نِيَّةِ الدُّنْيَا** »[4] .

---

(١) في نسخة : (وسجود) .

(٢) في نسخة : (عبد) .

(٣) في المطبوع : (ووصلت) .

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٤٩) ومن طريقه القضاعي في مسند الشهاب (١١٠٨) عن عيسى بن سبرة المدني قال : حدثني من سمع أنس بن مالك ، يُحدث عن النبي ﷺ قال : « إن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة ، وأبى أن يعطي الآخرة على نية الدنيا » .

ورواه القضاعي (١١٠٩) من طريق أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، عن ابن أبي العنبس ، عن أحمد بن أسد البجلي أبي عاصم ابن بنت مالك بن مغول ، عن عبد الله بن المبارك ، عن ابن =

وَكَيْفَ لاَ يَكُوْنُ كَذَلِكَ ؟ وَنِيَّةُ الآخِرَةِ هِيَ طَاعَةُ اللهِ ، لأَنَّ النِّيَّةَ رُوْحُ العِبَادَاتِ وَذَاتُهَا .

وَإِذَا أَطَعْتَ اللهَ بِزُهْدِكَ فِي الدُّنْيَا أَوْ طَلَبِكَ دَارَ الآخِرَةِ كُنْتَ مِنْ خَوَاصِّ اللهِ عزَّ وجلَّ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، وَحَصَلَتْ لَكَ الآخِرَةُ وَهِيَ الجَنَّةُ وَجِوَارُ اللهِ عزَّ وجلَّ وَخَدَمَتْكَ الدُّنْيَا ، فَيَأْتِيْكَ قَسْمُكَ الَّذِي قُدِّرَ لَكَ مِنْهَا ، إِذِ الكُلُّ تَبَعٌ لِخَالِقِهَا وَمَوْلاَهَا وَهُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وَإِنِ اشْتَغَلْتَ بِالدُّنْيَا وَأَعْرَضْتَ عَنِ الآخِرَةِ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَيْكَ فَفَاتَتْكَ الآخِرَةُ وَتَعَاصَتْ الدُّنْيَا عَلَيْكَ وَتَعَسَّرَتْ وَأَتْعَبَتْكَ فِي إِيْصَالِ قَسْمِكَ إِلَيْكَ لِغَضَبِ اللهِ عزَّ وجلَّ عَلَيْكَ لأَنَّهَا مَمْلُوْكَتُهُ ، تُهِيْنُ مَنْ عَصَاهُ وَتُكْرِمُ مَنْ أَطَاعَهُ ، فَيَتَحَقَّقُ[1] حِيْنَئِذٍ قَوْلُهُ ﷺ : « الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ ضَرَّتَانِ ، إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ عَلَيْكَ الأُخْرَى »[2] .

= سيرين ، عن أنس بن مالك إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ قال : « إن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة ، وأبى أن يعطي الآخرة على نية الدنيا » . وذكره الديلمي في الفردوس (٥٤٦) عن أنس بن مالك .

وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٨ الشعب) : قال قتادة : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا .

ورواه ابن أبي عمر العدني في الإيمان (٦٤) من طريق مرة الهمداني ، أن عبد الله بن مسعود حدّث : أنه سمع نبي الله ﷺ يقول : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يُعطي على نية الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذي نفس محمد بيده ، لا يسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » . قلنا : يا نبي الله ، وما بوائقه ؟ قال : « غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبدٌ مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدّق به فيتقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله عزَّ وجلَّ لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحوه الخبيث » .

(١) في المطبوع : (فيحقق) .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٩٤) ومن طريقه العقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ١١) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٥١) . ورواه أبو نعيم (٤/ ٥١) من طريق عبد الرزاق . كلاهما عن رباح بن زيد ، عن عبد العزيز بن حوران قال : سمعت وهب بن منبه يقول : مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان : إن أرضى أحدهما أسخط الأخرى . أقول : عبد العزيز بن حوران شيخٌ من أهل صنعاء . قال عنه هشام بن يوسف : كان ضعيفاً ، كان يُشبه القصاص .

وروى ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٠٨) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٥١) عن عون بن عبد الله قال : إن الدنيا والآخرة في قلب ابن آدم ككفتي الميزان ، بقدر ما ترجحُ إحداهما تخفُّ الأخرى .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾[آل عمران : ١٥٢] يَعْنِي بِهِ : أَبْنَاءَ الآخِرَةِ .

فَانظُرْ مِنْ أَبْنَاءِ أَيِّهِمَا أَنْتَ ؟ وَمِنْ أَيِّ القَبِيلَتَيْنِ تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ وَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا ؟ .

ثُمَّ إِذَا صِرْتَ إِلَى الآخِرَةِ فَالْخَلْقُ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ (فِي) طَلَبِ الدُّنْيَا ، وَفَرِيقٌ فِي طَلَبِ الآخِرَةِ . وَهُمْ أَيْضاً يَوْمَ القِيَامَةِ فَرِيقَانِ : ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾[الشورى : ٧] .

فَرِيقٌ فِي الْمَوْقِفِ قِيَامٌ فِي طُوْلِ الْحِسَابِ ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾[1] [المعارج : ٤] كَمَا قَالَ تَعَالَى .

وَفَرِيقٌ فِي ظِلِّ العَرْشِ ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِنَّكُمْ تَكُوْنُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّ العَرْشِ عَاكِفُوْنَ عَلَى الْمَوَائِدِ ، عَلَيْهَا أَطَايِبُ الطَّعَامِ وَالفَوَاكِهِ وَالشَّهْدُ أَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ** »[2] .

وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ : « **يَنْظُرُوْنَ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلْقِ دَخَلُوا الْجَنَّةَ ، يَهْتَدُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ كَمَا يَهْتَدِي أَحَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْزِلِهِ** »[3] .

فَهَلْ وَصَلُوا إِلَى هَذِهِ إِلاَّ بِتَرْكِهِمُ الدُّنْيَا وَاشْتِغَالِهِمْ بِطَلَبِ الآخِرَةِ وَالْمَوْلَى ؟! .

وَهَلْ وَقَعَ أُولَئِكَ فِي الْحِسَابِ وَأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ وَالذُّلِّ إِلاَّ لاشْتِغَالِهِمْ بِالدُّنْيَا وَرَغْبَتِهِمْ فِيهَا وَزُهْدِهِمْ فِي الآخِرَةِ وَقِلَّةِ الْمُبَالاَةِ بِأَمْرِهَا وَنِسْيَانِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَمَا سَيَصِيرُوْنَ إِلَيْهِ غَداً مِمَّا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؟! .

فَانظُرْ لِنَفْسِكَ نَظَرَ رَحْمَةٍ وَشَفَقَةٍ ، وَاخْتَرْ لَهَا خَيْرَ القَبِيلَتَيْنِ ، وَأَفْرِدْهَا[4] عَنْ أَقْوَالِ السُّوْءِ مِنْ شَيَاطِيْنِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ .

وَاجْعَلِ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ أَمَامَكَ ، وَانْظُرْ فِيهِمَا وَاعْمَلْ بِهِمَا ، وَلاَ تَغْتَرَّ بِالقَالِ وَالْقِيْلِ وَالْهَوَسِ .

---

(١) وقال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[السجدة : ٥] .

(٢) لم أجده ، وانظر الفردوس للديلمي (٨٨٦٧) .

(٣) لم أجده .

(٤) في المطبوع : (وأفرادها) .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[الحشر : ٧] .

وَلاَ تُخَالِفُوهُ فَتَتْرُكُوا العَمَلَ بِمَا جَاءَ بِهِ وَتَخْتَرِعُوا لأَنْفُسِكُمْ عَمَلاً وَعِبَادَةً كَمَا قَالَ عزَّ وجلَّ فِي حَقِّ قَوْمٍ ضَلُّوا سَوَاءَ السَّبِيْلِ[1] : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[الحديد : ٢٧] .

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ زَكَّى هُوَ عزَّ وجلَّ نَبِيَّهُ ﷺ وَنَزَّهَهُ عَنِ البَاطِلِ وَالزُّوْرِ ، فَقَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم : ٣ـ ٤] . أي : مَا آتَاكُمْ بِهِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِي لاَ مِنْ هَوَاهُ وَنَفْسِهِ ، فَاتَّبِعُوْهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران : ٣١] . فَبَيَّنَ أَنَّ طَرِيْقَ الْمَحَبَّةِ اتِّبَاعُهُ قَوْلاً وَفِعْلاً .

فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قَالَ : « **الاكْتِسَابُ سُنَّتِي ، وَالتَّوَكُّلُ حَالَتِي** » أَوْ كَمَا قَالَ[2] .

فَأَنْتَ بَيْنَ سُنَّتِهِ وَحَالَتِهِ وَإِنْ ضَعُفَ إِيْمَانُكَ ، فَالتَّكَسُّبُ الَّذِي هُوَ سُنَّتُهُ ، وَإِنْ قَوِيَ إِيْمَانُكَ فَحَالَتُهُ الَّتِي هِيَ التَّوَكُّلُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة : ٢٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق: ٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران : ١٥٩] .

فَقَدْ أَمَرَكَ بِالتَّوَكُّلِ وَنَبَّهَكَ عَلَيْهِ كَمَا أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[النساء : ٨١ والأنفال : ٦١ والأحزاب : ٣ و٤٨] .

---

(١) وهم النصارى . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[الحديد : ٢٧] .

(٢) لم أجده .

وروى ابن المبارك في الزهد (٥٥٩) والطيالسي (٥١ و١٣٩) والإمام أحمد (٢٠٥ و٣٧٠ و٣٧٣) وعبد بن حميد (١٠) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجة (٤١٦٤) وابن أبي الدنيا في التوكل (١) وأبو يعلى (٢٤٧) وابن حبان (٧٣٠) والحاكم (٣١٨/٤) وأبو نعيم في الحلية (٦٩/١٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٤٤ و١٤٤٥) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُوْنَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُوْ خِمَاصاً وَتَرُوْحُ بِطَاناً » . وخِماصاً : جياعاً .

فَاتَّبِعْ أَوَامِرَ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي سُؤَالِهِ فِي أَعْمَالِكَ فَهِيَ مَرْدُودَةٌ عَلَيْكَ .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »[1] .

هَذَا يَعُمُّ طَلَبَ الرِّزْقِ وَالأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ ، لَيْسَ لَنَا نَبِيٌّ غَيْرُهُ فَنَتَّبِعُهُ ، وَلاَ كِتَابٌ غَيْرُ القُرْآنِ فَنَعْمَلُ بِهِ ، فَيُضِلُّكَ هَوَاكَ وَالشَّيْطَانُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص : ٢٦] .

فَالسَّلاَمَةُ مَعَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَالْهَلاَكُ مَعَ غَيْرِهِمَا ، وَبِهِمَا يَتَرَقَّى الْعَبْدُ إِلَى حَالَةِ الْوِلاَيَةِ وَالبَدَلِيَّةِ وَالغَوْثِيَّةِ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *



(١) رواه الطيالسي (١٤٢٢) والإمام أحمد (٧٣/٦ و١٤٦ و١٨٠ و٢٤٠ و٢٥٦ و٢٧٠) وابن راهويه في مسنده (٩٧٩) والبخاري (٢٦٩٧) وخلق أفعال العباد (ص٤٣) ومسلم (١٧١٨) وأبو داود (٤٦٠٦) وابن ماجة (١٤) وابن أبي عاصم في السنة (٥٢) وأبو يعلى (٤٥٩٤) وابن حبان (٢٦ و٢٧) وابن عدي في الكامل (٢٤٧/١) والدارقطني (٢٢٤/٤ ٢٢٥ و٢٢٧) وأبو نعيم في الحلية (١٧٣/٣) واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٩٠ و١٩١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

المَقَالَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلاثُوْنَ
فِي ذَمِّ الْحَسَدِ وَالأَمْرِ بِتَرْكِهِ

مَا لِي أَرَاكَ يَا مُؤْمِنُ حَاسِداً لِجَارِكَ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَنْكَحِهِ وَمَسْكَنِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي غِنَاهُ وَنِعَمِ مَوْلَاهُ عزَّ وجلَّ وَقَسْمِهِ الَّذِي قُسِمَ لَهُ ؟ !

أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِمَّا يُضْعِفُ إِيْمَانَكَ وَيُسْقِطُكَ مِنْ عَيْنِ مَوْلَاكَ عزَّ وجلَّ وَيُبْغِضُكَ إِلَيْهِ ؟

أَمَا سَمِعْتَ الْحَدِيْثَ الْمَرْوِيَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ : الْحَسُوْدُ عَدُوُّ نِعْمَتِي** »[1] ؟! .

وَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ : « **إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ** »[2] ؟! .

---

(١) قال الغزالي في الأربعين في أصول الدين (٢٥٨ بتحقيقي) : قَالَ زَكَرِيَّا عليه السلام : قَالَ اللهُ تَعَالَى : الْحَاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي ، مُسْخِطٌ لِقَضَائِي ، غَيْرُ رَاضٍ بِقِسْمَتِي الَّتِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي . اهـ

أقول : رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٦٥ـ ٢٦٦) من طريق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ، عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فيما أعطى الله تعالى موسى في الألواح الأول : في أول ما كتب عشرة أبواب : يا موسى ، . . . » مطوّلاً .

ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٦٨٩) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٢٢) عن وهب بن منبه ، عن موسى عليه السلام . . مطوّلاً .

ورواه البيهقي في الشعب (٦٦٣٧) من طريق أبي يعلى الساجي ، عن الأصمعي بلاغاً .

(٢) رواه عبد بن حميد (١٤٣٠) وأبو داود (٤٩٠٣) والبيهقي في الشعب (٦٦٠٨) من طريق أبي عامر عبد الملك بن عمرو ، ورواه البيهقي (٦٦٠٨) من طريق أبي عامر العقدي ، كلاهما عن سليمان بن بلال ، عن إبراهيم بن أبي أسيد ، عن جده ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه ابن ماجة (٤٢١٠) وأبو يعلى (٣٦٥٦) وابن عدي (٥/ ٢٤٧) والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ١٤٦) والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٤٩) من طريق ابن أبي فديك ، عن عيسى بن أبي عيسى الحناط [ضعيف] ، عن أبي الزناد ، عن أنس رضي الله عنه .

ورواه ابن أبي شيبة (٢٦٥٩٤) وهناد في الزهد (١٣٩١) وابن عدي (٧/ ٩٢) والبيهقي في الشعب (٦٦١١) وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ١٢٤) والخطيب في الكفاية في علم الرواية (ص٢٤٥) من طريقين عن يزيد الرقاشي [ضعيف] ، عن أنس رضي الله عنه .

=

ثُمَّ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَحْسُدُهُ يَا مِسْكِينُ ؟! أَعَلَى قَسْمِهِ ، أَمْ عَلَى قَسْمِكَ ؟ .

فَإِنْ حَسَدْتَهُ عَلَى قَسْمِهِ الَّذِي قَسَمَهُ اللهُ لَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾[الزخرف : ٣٢] ، فَقَدْ ظَلَمْتَهُ ، رَجُلٌ يَتَقَلَّبُ فِي نِعْمَةِ مَوْلَاهُ الَّتِي تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ وَقَدَّرَهَا لَهُ وَلَمْ يَجْعَلْ لأَحَدٍ فِيهَا حَظّاً وَلا نَصِيباً . فَمَنْ يَكُونُ أَظْلَمُ وَأَبْخَلُ وَأَرْعَنُ وَأَنْقَصُ عَقْلاً مِنْكَ ؟ .

وَإِنْ حَسَدْتَهُ عَلَى قَسْمِكَ فَقَدْ جَهِلْتَ غَايَةَ الْجَهْلِ ، فَإِنَّ قَسْمَكَ لاَ يُعْطَى غَيْرَكَ وَلا يَنْتَقِلُ مِنْكَ إِلَيْهِ ، حَاشَا للهِ . قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[ق : ٢٩] . إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لاَ يَظْلِمُكَ فَيَأْخُذُ مَا قَسَمَ وَقَدَّرَ لَكَ غَيْرُكَ ، فَهَذَا جَهْلٌ مِنْكَ وَظُلْمٌ لأَخِيكَ .

ثُمَّ حَسَدُكَ لِلأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَعْدَنُ الْكُنُوزِ وَالذَّخَائِرِ مِنْ أَنْوَاعِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ مِمَّا جَمَعَتْهُ الْمُلُوكُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ أَوْلَى مِنْ حَسَدِكَ لِجَارِكَ الْمُؤْمِنِ أَوِ الْفَاجِرِ ، فَإِنَّ مَا فِي بَيْتِهِ لاَ يَكُونُ جُزْءاً مِنْ أَجْزَاءِ أَلْفِ أَلْفِ جُزْءٍ مِمَّا هُنَاكَ ، فَمَا حَسَدُكَ لِجَارِكَ إِلاَّ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى مَلِكاً مَعَ سُلْطَانِهِ وَجُنُودِهِ وَحَشَمِهِ وَمُلْكِهِ عَلَى أَرَاضِي جُبَاتِهِ[1] خَرَاجُهَا وَارْتِفَاعُهَا لَدَيْهِ وَتَنَعُّمُهُ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَاللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَلَمْ يَحْسُدْهُ عَلَى ذَلِكَ .

ثُمَّ رَأَى كَلْباً يَخْدِمُ كَلْباً مِنْ كِلاَبِ ذَلِكَ الْمَلِكِ يَقُومُ وَيَقْعُدُ وَيَصِيحُ فَيُعْطَى مِنْ مَطْبَخِ الْمَلِكِ بَقَايَا الطَّعَامِ وَرَدَاءَتِهِ فَيَتَقَوَّتُ بِهِ ، (فَأَخَذَ يَحْسُدُهُ وَيُعَادِيهِ وَيَتَمَنَّى مَوْتَهُ وَهَلاَكَهُ وَكَوْنَهُ مَكَانَهُ) ، وَأَنْ يَخْلِفَهُ[2] فِي ذَلِكَ خِسَّةً وَدَنَاءَةً لاَ زُهْداً وَدِيناً وَقَنَاعَةً ، فَهَلْ يَكُونُ فِي الزَّمَانِ رَجُلٌ أَحْمَقُ مِنْهُ وَأَرْعَنُ وَأَجْهَلُ ؟ .

ثُمَّ لَوْ عَلِمْتَ يَا مِسْكِينُ مَا سَيَلْقَى جَارُكَ غَداً مِنْ طُولِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ

= وَرواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٢٢٧) من طريق الحسن بن موسى الأشيب ، عن أبي هلال ، عن قتادة ، عن أنس .

ورواه القضاعي (١٠٤٨) والذهبي في ميزان الاعتدال (٦٢١٧) من طريق عمر بن محمد بن حفصة الخطيب ، محمد بن معاذ ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنه . وقال الذهبي : هذا بهذا الإسناد باطل .

(١) تحرف في المطبوع إلى : (وعلى أراضي واجباته) .

(٢) تحرف في نسخة : (يَخْلُفَهُ) .

أَطَاعَ اللهَ فِيمَا خَوَّلَهُ وَأَدَّى حَقَّهُ فِيهَا ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَانْتِهَاءِ نَهْيِهِ فِيهَا ، وَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَى عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ مَا يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يُعْطَ مِنْ ذَلِكَ ذَرَّةً وَلاَ رَأَى نَعِيماً يَوْماً قَطُّ .

أَمَا سَمِعْتَ مَا قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ تُقْرَضَ لُحُومُهُمْ بِالْمَقَارِيضِ مِمَّا يَرَوْنَ لأَصْحَابِ الْبَلاَءِ مِنَ الثَّوَابِ »[1] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٠٨٢٩ و٣٤٨٨٠) والخطيب في الكفاية في علم الرواية (ص١٤٧) عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن طلحة بن مصرف ، عن الحارث بن عميرة ، عن مسروق قال : يود أهل البلاء يوم القيامة أن أجسادهم كانت في الدنيا تقرض بالمقاريض . في (٣٤٨٨٠) والكفاية : أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض .

ورواه نعيم بن حماد في زوائد زهد ابن المبارك (١٠٢) عن مالك بن مغول ، عن طلحة ، عن مسروق قال : إن أهل البلاء في الدنيا إذا أثيبوا على بلائهم حتى إن أحدهم ليتمنى أن جلده كان قرض في الدنيا بالمقاريض .

ورواه ابن أبي شيبة (٣٥٦٠١) عن حسين بن علي ، عن زائدة ، عن رجل من النخع ، عن ابن مسعود قال : يود أهل البلاء يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض .

ورواه الطبراني في الكبير (٨٧٧٧) عن محمد بن النضر الأزدي ، عن معاوية بن عمرو ، عن زائدة ، عن يزيد بن أبي زياد الهاشمي [صدوقٌ سيء الحفظ] ، عن رجل من النخع ، عن ابن مسعود قال : يود أهل البلاء يوم القيامة حين يُعَايِنُون الثواب لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨١٩) : فيه : رجل لم يسم ، وبقية رجاله ثقات .

ورواه الطبراني في الكبير (٨٧٧٨) عن علي بن عبد العزيز ، عن أبي نعيم ، عن عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن أبي زياد ، حدثني من سمع ابن مسعود يقول : ود أهل البلاء حين يعاينوا الثواب أن أجسادهم كانت قرضت بالمقاريض .

ورواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٠٥) والترمذي (٢٤٠٢) والطبراني في الصغير (٢٤١) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٧٥) والشعب (٩٩٢١) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٤٠٠ و٦/ ١٥٥) والخليلي في الإرشاد (٢/ ٦٦٦ـ ٦٦٧) من طرقٍ عن أبي زهير عبد الرحمن بن مغراء الدوسي ، عن الأعمش ، عن أبي الزبير ، عن جابر رفعه : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض » . ولفظ الطبراني : « يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم قد قرضت بالمقاريض لما يرونه لأهل البلاء من جزيل الثواب » .

وقال الترمذي : هذا حديثٌ غريبٌ ، لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه ، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن الأعمش ، عن طلحة بن مصرف ، عن مسروق قوله شيئاً من هذا . وقال الخليلي : غريبٌ من حديث الأعمش ، لم يروه عنه إلا أبو زهير ، وهو ثقة .

وذكره الديلمي في الفردوس (٥٣٥٦) عن جابر .

=

فَيَتَمَنَّى جَارُكَ غَداً مَكَانَكَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ طُوْلِ حِسَابِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ وَقِيَامِهِ خَمْسِيْنَ (أَلْفَ) سَنَةٍ فِي حَرِّ الشَّمْسِ فِي القِيَامَةِ ، لأَجْلِ مَا يُمَتَّعُ بِهِ مِنَ النَّعِيْمِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ فِي مَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ فِي ظِلِّ العَرْشِ آكِلٌ شَارِبٌ مُتَنَعِّمٌ فَرِحٌ مَسْرُورٌ مُسْتَرِيْحٌ[١] ، لِصَبْرِكَ عَلَى شَدَائِدِ الدُّنْيَا وَضِيقِهَا وَآفَاتِهَا وَبُؤْسِهَا وَفَقْرِهَا ، وَرِضَاكَ وَمُوَافَقَتِكَ لِرَبِّكَ عزَّ وجلَّ فِيمَا دَبَّرَ وَقَضَى مِنْ فَقْرِكَ وَغِنَاءِ غَيْرِكَ ، وَسَقَمِكَ وَعَافِيَةِ غَيْرِكَ ، وَشِدَّتِكَ وَرَخَاءِ غَيْرِكَ ، وَذُلِّكَ وَعِزِّ غَيْرِكَ .

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ مِمَّنْ صَبَرَ عِنْدَ البَلاَءِ ، وَشَكَرَ عَلَى النَّعْمَاءِ ، وَفَوَّضَ الأُمُوْرَ إِلَى رَبِّ السَّمَاءِ .

* * *



= ورواه الطبراني في الكبير (١٢٨٢٩) وعنه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٩١) عن السري بن سهل الجنديسابوري ، عن عبد الله بن رشيد ، عن مجاعة بن الزبير ، عن قتادة ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ، ويؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء ولا [مجمع : فلا] ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر [مجمع : ينصب] لهم ديوانٌ ، فيصب عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله عزَّ وجلَّ لهم » . وقال أبو نعيم : هذا حديثٌ غريبٌ من حديث جابر وقتادة ، تفرّد به عنه : مجاعة . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨١٧) : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه : مجاعة بن الزبير ، وثقه أحمد ، وضعّفه الدارقطني .

(١) في المطبوع : (آكِلاً شَارِباً مُتَنَعِّماً فَرِحاً مَسْرُوراً مُسْتَرِيْحاً) .

الْمَقَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلاثُوْنَ
فِي الصِّدْقِ وَالنَّصِيْحَةِ

مَنْ عَامَلَ مَوْلاَهُ بِالصِّدْقِ وَالنُّصْح(١) ، اسْتَوْحَشَ مِمَّا سِوَاهُ فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ .

يَا قَوْمُ لاَ تَدَّعُوا مَا لَيْسَ لَكُمْ ، وَوَحِّدُوا وَلاَ تُشْرِكُوا .

وَاللهِ إِنَّ سِهَامَ الْقَدَرِ تُصِيْبُكُمْ خَدْشاً لاَ قَتلاً(٢) .

مَنْ كَانَ فِي اللهِ تَلَفُهُ فَعَلَى اللهِ خَلَفُهُ .

* * *



(١) في المطبوع : (والنصاح) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (قتالاً) .

الْمَقَالَةُ التَّاسِعَةُ وَالثَّلاثُوْنَ
فِي تَفْسِيرِ الشِّقَاقِ وَالوِفَاقِ وَالنِّفَاقِ

الأَخذُ مَعَ وُجُوْدِ الْهَوَى مِنْ غَيْرِ الأَمْرِ عِنادٌ وَشِقَاقٌ ، وَالأَخْذُ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وِفَاقٌ وَإِنفَاقٌ ، وَتَرْكُهُ رِيَاءٌ وَنِفَاقٌ .

* * *



المَقَالَةُ الأَرْبَعُوْنَ

مَتَى يَصِحُّ السَّالِكُ أَنْ يَكُوْنَ فِي زُمْرَةِ الرُّوْحَانِيِّيْنَ ؟

لاَ تَطْمَعْ أَنْ تَدْخُلَ فِي زُمْرَةِ الرُّوْحَانِيِّيْنَ حَتَّى تُعَادِي جُمْلَتَكَ ، وَتُبَايِنَ جَمِيْعَ الْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ ، وَتَنْفَرِدَ عَنْ وُجُوْدِكَ وَحَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ وَسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ وَكَلاَمِكَ وَبَطْشِكَ وَسَعْيِكَ وَعَمَلِكَ وَعَقْلِكَ ، وَجَمِيْعِ مَا كَانَ مِنْكَ قَبْلَ وُجُوْدِ الرُّوْحِ فِيْكَ وَمَا أُوْجِدَ فِيْكَ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوْحِ ، لأَنَّ جَمِيْعَ ذَلِكَ حِجَابُكَ عَنْ رَبِّكَ عزَّ وجلَّ ، فَإِذَا صِرْتَ رُوْحاً مُنْفَرِدَةً ، سِرَّ السِّرِّ ، غَيْبَ الغَيْبِ ، مُبَايِناً لِلأَشْيَاءِ فِي سِرِّكَ ، مُتَّخِذاً لِلْكُلِّ عَدُوّاً وَحِجَاباً وَظُلْمَةً ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٧] قَالَ ذَلِكَ لِلأَصْنَامِ ، فَاجْعَلْ أَنْتَ جُمْلَتَكَ وَأَجْزَاءَكَ أَصْنَاماً مَعَ سَائِرِ الْخَلْقِ ، فَلا تُطِعْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ وَلاَ تَتْبَعْهُ جُمْلَةً ، فَحِيْنَئِذٍ تُؤْمَنُ عَلَى الأَسْرَارِ وَالعُلُوْمِ اللَّدُنِّيَّةِ وَغَرَائِبِهَا ، وَيَرِدُ إِلَيْكَ التَّكْوِيْنُ وَخَرْقُ العَادَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ قَبِيْلِ القُدْرَةِ الَّتِي تَكُوْنُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ فِي الْجَنَّةِ ، فَتَكُوْنُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ كَأَنَّكَ أُحْيِيتَ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الآخِرَةِ فَتَكُوْنُ كُلِّيَّتُكَ قُدْرَةً ، وَتَسْمَعُ بِاللهِ ، وَتَنْطِقُ بِاللهِ ، وَتُبْصِرُ بِاللهِ ، وَتَبْطِشُ بِاللهِ ، وَتَسْعَى بِاللهِ ، وَتَعْقِلُ بِاللهِ ، وَتَطْمَئِنُّ وَتَسْكُنُ بِاللهِ ، فَتَعْمَى عَنْ سِوَاهُ وَتَصَمُّ عَنْهُ ، فَلاَ تَرَى لِغَيْرِهِ وُجُوْداً مَعَ حِفْظِ الْحُدُوْدِ وَالأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، فَإِنِ انْخَرَمَ فِيْكَ شَيْءٌ مِنَ الْحُدُوْدِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَفْتُوْنٌ مُتَلاَعِبَةٌ بِكَ الشَّيَاطِيْنُ ، وَارْجِعْ إِلَى حُكْمِ الشَّرْعِ وَدَعْ عَنْكَ رَأْيَ الْهَوَى ، **لأَنَّ كُلَّ حَقِيْقَةٍ لَمْ تَشْهَدْ لَهَا الشَّرِيْعَةُ فَهِيَ زَنْدَقَةٌ** . وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *

الْمَقَالَةُ الْحَادِيَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ

مَثَلٌ فِي الفَنَاءِ(١) وَكَيْفِيَّتِهِ

نَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً فِي الفَنَاءِ(٢) ، فَنَقُوْلُ :

أَلاَ تَرَى أَنَّ الْمَلِكَ يُوَلِّي رَجُلاً مِنَ الْعَوَامِّ وِلاَيَةً عَلَى بَلْدَةٍ مِنَ الْبِلاَدِ ، وَيَخْلَعُ عَلَيْهِ وَيَعْقِدُ لَهُ أَلْوِيَةً وَرَايَاتٍ ، وَيُعْطِيْهِ الكُؤُوْسَ وَالطَّبْلَ وَالْجُنْدَ فَيَكُوْنُ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ ، حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ وَاعْتَقَدَ بَقَاءَهُ وَثَبَاتَهُ ، وَعَجِبَ بِهِ وَنَسِيَ حَالَتَهُ الأُوْلَى وَنُقْصَانَهُ وَذُلَّهُ وَفَقْرَهُ وَخُمُوْلَهُ ، وَدَاخَلَتْهُ النَّخْوَةُ وَالكِبْرِيَاءُ جَاءَهُ الْعَزْلُ مِنَ الْمَلِكِ فِي أَشَرِّ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، ثُمَّ طَالَبَهُ الْمَلِكُ بِجَرَائِمَ صَنَعَهَا وَتَعَدَّى أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ فِيْهَا ، فَحَبَسَهُ فِي أَضْيَقِ الْحُبُوْسِ وَأَشَدِّهَا ، وَطَالَ حَبْسُهُ وَدَامَ ضُرُّهُ وَذُلُّهُ وَفَقْرُهُ ، وَذَابَتْ نَخْوَتُهُ وَكِبْرِيَاؤُهُ ، وَانكَسَرَتْ نَفْسُهُ وَخَمَدَتْ نَارُ هَوَاهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي عَيْنِ الْمَلِكِ (وَعِلْمِهِ) .

ثُمَّ تَعَطَّفَ الْمَلِكُ عَلَيْهِ فَنَظَرَهُ بِعَيْنِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْحَبْسِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَالْخِلْعَةِ عَلَيْهِ وَرَدِّ الْوِلاَيَةِ إِلَيْهِ وَمِثْلِهَا مَعَهَا وَجَعَلَهَا لَهُ مَوْهِبَةً ، فَدَامَتْ لَهُ وَبَقِيَتْ مُصَفَّاةً مُكَفَّاةً مُهَنَّأَةً .

وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ إِذَا قَرَّبَهُ اللهُ وَاجْتَبَاهُ فَتَحَ قُبَالَةَ عَيْنِ قَلْبِهِ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالْمِنَّةِ وَالإِنْعَامِ ، فَيَرَى بِقَلْبِهِ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، مِنْ مُطَالَعَةِ الغُيُوْبِ مِنْ مَلَكُوْتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَتَقْرِيْبٍ وَكَلاَمٍ لَذِيْذٍ لَطِيْفٍ وَوَعْدٍ جَمِيْلٍ ، وَوَفَاءٍ بِهِ ، وَإِجَابَةِ دُعَاءٍ وَكَلِمَاتِ حِكْمَةٍ وَتَصْدِيْقِ وَعْدٍ ، فَإِنَّهَا تُرْمَى(٣) إِلَى قَلْبِهِ قَذْفاً مِنْ مَكَانٍ بَعِيْدٍ فَتَظْهَرُ لِعَلَى لِسَانِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يُسْبِغُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً عَلَى جَسَدِهِ وَجَوَارِحِهِ ، فِي الْمَأْكُوْلِ وَالْمَشْرُوْبِ وَالْمَلْبُوْسِ وَالْمَنْكُوْحِ الحَلاَلِ وَالْمُبَاحِ وَحِفْظِ الْحُدُوْدِ وَالعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ ،

(١) تحرف في المطبوع إلى : (الغنى) .
(٢) تحرف في المطبوع إلى : (الغنى) .
(٣) في المطبوع : (ترمي) .

فَيُدِيْمُ اللهُ عزَّ وجلَّ ذَلِكَ لِعَبْدِهِ الْمُؤمِنِ الْمَجْذُوبِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ ، حَتَّى اطْمَأَنَّ العَبْدُ إِلَى ذَلِكَ وَاغْتَرَّ بِهِ وَاعْتَقَدَ دَوَامَهُ فَتَحَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ البَلاَيَا وَأَنْوَاعَ الْمِحَنِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ وَالقَلْبِ ، فَيَنْقَطِعُ عَنْهُ جَمِيْعُ مَا كَانَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، فَيَبْقَى مُتَحَيِّراً حَسِيْراً مُنْكَسِراً مَقْطُوعاً بِهِ . إِنْ نَظَرَ إِلَى ظَاهِرِهِ رَأَى مَا يَسُوْؤُهُ ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَى قَلْبِهِ وَبَاطِنِهِ رَأَى مَا يُحْزِنُهُ ، وَإِنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى كَشْفَ مَا بِهِ مِنَ الضُّرِّ لَمْ يَرَ إِجَابَتَهُ ، وَإِنْ طَلَبَ وَعْداً جَمِيْلاً لَمْ يَجِدْهُ سَرِيْعاً ، وَإِنْ وُعِدَ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْثُرْ عَلَى الوَفَاءِ بِهِ ، وَإِنْ رَأَى رُؤْيَا لَمْ يَظْفَرْ بِتَعْبِيْرِهَا وَتَصْدِيْقِهَا ، وَإِنْ رَامَ الرُّجُوْعَ إِلَى الخَلْقِ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً ، وَإِنْ ظَهَرَتْ لَهُ (فِي) ذَلِكَ رُخْصَةٌ فَعَمِلَ بِهَا تَسَارَعَتِ العُقُوْبَاتُ نَحْوَهُ وَتَسَلَّطَتْ أَيْدِي الْخَلْقِ عَلَى جِسْمِهِ وَأَلْسِنَتِهِمْ عَلَى عِرْضِهِ ، وَإِنْ طَلَبَ إِقَالَةً مِمَّا قَدْ أُدْخِلَ فِيْهِ مِنَ الْحَالَةِ الأُوْلَى قَبْلَ الاجْتِبَاءِ لَمْ يُقَلْ ، وَإِنْ طَلَبَ الرِّضَا أَوْ الطَّيْبَةَ وَالنَّعِيْمَ بِمَا بِهِ مِنَ البَلاَءِ لَمْ يُعْطَ .

فَحِيْنَئِذٍ تَأْخُذُ النَّفْسُ فِي الذَّوَبَانِ، وَالْهَوَى فِي الزَّوَالِ ، وَالإِرَادَةُ وَالأَمَانِي فِي الرَّحِيْلِ ، وَالأَكْوَانُ فِي التَّلاَشِي ، فَيُدَامُ لَهُ ذَلِكَ بَلْ يَزْدَادُ تَشْدِيْداً وَعُسْراً[1] وَتَأْكِيْداً ، حَتَّى إِذَا فَنِيَ العَبْدُ مِنَ الأَخْلاَقِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالصِّفَاتِ البَشَرِيَّةِ وَبَقِيَ رُوْحاً فَقَطْ يَسْمَعُ نِدَاءً فِي بَاطِنِهِ : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[ص : ٤٢] كَمَا قِيْلَ لِسَيِّدِنَا أَيُّوبَ عليه السلام ، فَيُمْطِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي قَلْبِهِ بِحَارَ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَلُطْفِهِ وَمِنَّتِهِ ، وَيُحْيِيهِ بِرُوْحِهِ وَيُطَيِّبُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَدَقَائِقِ عُلُوْمِهِ ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ وَدَلاَلِه[2] ، وَأَطْلَقَ إِلَيْهِ الأَيْدِيَ بِالبَذْلِ وَالعَطَاءِ وَالْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ ، وَالأَلْسُنَ بِالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ ، وَالذِّكْرِ الطَّيِّبِ فِي جَمِيْعِ الْمَحَالِّ ، وَالأَرْجُلَ بِالتَّرْحَالِ ، وَذَلَّلَ لَهُ وَسَخَّرَ لَهُ الْمُلُوْكَ وَالأَرْبَابَ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، تَرْبِيَةَ ظَاهِرِهِ بِخَلْقِه[3] وَنِعَمِهِ ، وَيَسْتَأْثِرُ تَرْبِيَةَ بَاطِنِهِ بِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ ، وَأَدَامَ لَهُ ذَلِكَ إِلَى اللِّقَاءِ ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ فِيْمَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة : ١٧] .

---

(١) في المطبوع : (وعصراً) .

(٢) في نسخة : (وآلائه) . وفي نسخة : (ولاله) .

(٣) تحرف في نسخة إلى : (بِخُلُقِهِ) .

المَقَالَةُ الثَّانِيَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ
فِي بيَانِ حَالَتَي النَّفْسِ

النَّفْسُ لَهَا حَالَتَانِ لاَ ثَالِثَ لَهُمَا(١) :

١ـ حَالَةُ عَافِيَةٍ ،

٢ـ وَحَالَةُ بَلاَءٍ .

فَإِذَا كَانَتْ فِي بَلاَءٍ فَالْجَزَعُ وَالشَّكْوَى وَالسَّخَطُ وَالاعْتِرَاضُ وَالتُّهْمَةُ لِلْحَقِّ جَلَّ وَعَلاَ لاَ صَبْرٌ وَلاَ رِضاً وَلاَ مُوَافَقَةٌ ، بِلْ سُوْءُ الأَدَبِ وَالشِّرْكُ بِالْحَقِّ وَالأَسْبَابِ وَالكُفْرِ .

وَإِذَا كَانَتْ فِي عَافِيَةٍ فَالشَّرَهُ وَالبَطَرُ وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ ، كُلَّمَا نَالَتْ شَهْوَةً طَلَبَتْ أُخْرَى ، وَاسْتَحقَرَتْ مَا عِنْدَهَا مِنَ النِّعَمِ مِنْ مَأْكُوْلٍ وَمَشْرُوْبٍ وَمَلْبُوْسٍ وَمَنْكُوْحٍ وَمَسْكُوْنٍ وَمَرْكُوْبٍ ، فَتُخْرِجُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ عُيُوباً وَنَقْصاً ، وَتَطْلُبُ أَعْلَى مِنْهَا وَأَسْنَى مِمَّا لَمْ يُقْسَمْ لَهَا ، وَتُعْرِضُ عَمَّا قُسِمَ لَهَا ، فَيَرْتَكِبُ الغَمَرَاتِ وَيَخُوْضُ الْمَهَالِكَ فِي تَعَبٍ طَوِيْلٍ لاَ غَايَةَ لَهُ وَلاَ مُنْتَهَى فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ فِي العُقْبَى ، كَمَا قِيْلَ : إِنَّ مِنْ أَشَدِّ العُقُوْبَاتِ طَلَبُ مَا لاَ يُقْسَمُ .

وَإِذَا كَانَتْ فِي بَلاَءٍ لاَ تَتَمَنَّى سِوَى انْكِشَافِهَا وَتَنْسَى كُلَّ نَعِيْمٍ وَشَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ وَلاَ تَطْلُبُ شَيْئاً مِنْهَا ، فَإِذَا عُوْفِيَتْ مِنْهَا رَجَعَتْ إِلَى رُعُوْنَتِهَا وَشَرَهِهَا وَبَطَرِهَا وَإِعْرَاضِهَا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهَا وَانْهِمَاكِهَا فِي مَعَاصِيْهِ ، وَتَنْسَى مَا كَانَتْ فِيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ البَلاَءِ وَالضُّرِّ وَمَا حَلَّ بِهَا مِنَ الوَيْلِ ، لَمَّا اجْتَرَحَتْ وَرَكِبَتْ مِنَ العَظَائِمِ فَطْماً لَهَا وَكَفّاً عَنِ الْمَعَاصِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، إِذْ لاَ تَصْلُحُ لَهَا العَافِيَةُ وَالنِّعْمَةُ بَلْ حِفْظُهَا فِي البَلاَءِ وَالبُؤْسِ ، فَلَوْ أَحْسَنَتِ الأَدَبَ عِنْدَ انْكِشَافِ البَلِيَّةِ وَلاَزَمَتِ الطَّاعَةَ وَالشُّكْرَ وَالرِّضَا بِالْمَقْسُوْمِ لَكَانَ خَيْراً لَهَا دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَكَانَتْ تَجِدُ زِيَادَةً فِي النَّعِيْمِ وَالعَافِيَةِ وَالرِّضَا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وَالطِّيْبَةِ وَالتَّوْفِيْقِ ، فَمَنْ أَرَادَ السَّلاَمَةَ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَى

(١) في نسخة : (لها) .

فَعَلَيْهِ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا وَتَرْكِ الشَّكْوَى إِلَى الْخَلْقِ وَإِنْزَالِ حَوَائِجِهِ بِرَبِّهِ عزَّ وجلَّ وَلُزُومِ طَاعَتِهِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنْهُ وَالانْقِطَاعِ إِلَيْهِ عزَّ وجلَّ ، إِذْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ وَمِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ : حِرْمَانُهُ عَطَاءٌ ، عُقُوبَتُهُ نَعْمَاءُ ، بَلاؤُهُ دَوَاءٌ ، وَعْدُهُ نَقْدٌ ، قَوْلُهُ فِعْلٌ ، مَشِيئَتُهُ حَالَّةٌ ، إِنَّمَا قَوْلُهُ أَمْرُهُ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

كُلُّ أَفْعَالِهِ حَسَنَةٌ وَحِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ طَوَى عِلْمَ الْمَصَالِحِ مِنْ عِبَادِهِ وَتَفَرَّدَ بِهِ ، فَالأَوْلَى وَاللائِقُ بِحَالَةِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ ، وَاشْتِغَالِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ مِنْ أَدَاءِ الأَوَامِرِ وَانْتِهَاءِ النَّوَاهِي وَالتَّسْلِيمِ فِي الْقَدَرِ ، وَتَرْكِ الاشْتِغَالِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِلَّةُ الأَقْدَارِ وَمُحَارَبَتُهَا ، وَالسُّكُوتِ عَنْ لِمَ وَكَيْفَ وَمَتَى . وَالتُّهْمَةِ لِلْحَقِّ عزَّ وجلَّ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، وَتَسْتَنِدُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِلَى حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ ، وَهُوَ مَا رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ لِي : « **يَا غُلامُ ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَوْ جَهِدَ الْعِبَادُ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْ جَهِدَ الْعِبَادُ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُعَامِلَ اللهَ بِالصِّدْقِ وَالْيَقِينِ فَاعْمَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً ، وَاعْلَمْ أَنَّ النُّصْرَةَ بِالصَّبْرِ ، وَالْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً** »[1] .

---

(١) رواه علي بن الجعد في المسند (٣٤٤٥) ومن طريقه العقيلي في الضعفاء الكبير (٣ / ٥٣) . ورواه الطبراني في الكبير (١١٤١٦) عن محمد بن الفضل السقطي ، عن سعيد بن سليمان ، كلاهما عن عبد الواحد بن سليم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : بينا أنا ردف لرسول [في الضعفاء : رديف رسول] الله ﷺ إذ قال لي : « يا غلام [في الضعفاء : احفظ مني يا غلام] ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جفت الأقلام ورفعت الصحف [في الضعفاء : رفعت الأقلام وجفت الصحف] ، والذي نفسي بيده لو جهدت الأمة لتنفعك [في الضعفاء : ليضروك] بغير ما كتب الله لك ما قدرت عليه أو ما استطاعت » .
ولفظ الطبراني : بينما أنا رديف رسول الله ﷺ قال لي : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .
وقال العقيلي : عبد الواحد بن سليم ، مجهول في النقل محفوظ ولا يتابع عليه . وقال يحيى بن معين : عبد الواحد بن سليم ، بصريٌّ ضعيفٌ . وقال العقيلي : وقد روي هذا الكلام عن ابن عباس من طرق أسانيدها لينة ، وبعضها أصلح من بعض .

. . . .

= ورواه عبد بن حميد (٦٣٦) عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني ، عن المثنى ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يا ابن عباس ، احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، وتعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك ، أو أن يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك ، وأن قد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فإن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

ورواه السهمي في تاريخ جرجان (ص٧٧) من طريق أبي أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ، عن أبي علي أحمد بن إدريس القاضي بجرجان ، عن أحمد بن محمد بن أمية القرشي ، عن أبيه ، عن نوفل بن سليمان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : كنت ردفاً لرسول الله ﷺ إذ ناداني : « يا غلام » . فقلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، واذكره في الرخاء يذكرك في الشدة ، واعلم أن القلم جرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلو أن العباد اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن يعطيك ما قدروا ، ولو جهدوا على أن يمنعوك شيئاً قد قضى الله لك ما قدروا ، فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » .

ورواه الإمام أحمد (٢٦٦٩) وأبو يعلى (٢٥٥٦) من طريق يونس بن محمد ، عن ليث بن سعد ، عن قيس بن الحجاج الكلاعي السُّلفي المصري [صدوق ، ثقة] ، عن حنش بن عبد الله الصنعاني ، عن عبد الله بن عباس أنه حدثه : أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إني معلمك كلماتٍ : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجَفَّتِ الصحف » . ورواه ابن وهب في القدر (٢٨) وابن أبي عاصم في السنة (٣١٦) والترمذي (٢٥١٦) والطبراني في الكبير (١٢٩٨٨) وابن السني في اليوم والليلة (٤٢٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥) المزي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٠) من طرقٍ عن الليث بن سعد ، بهذا الإسناد . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

ورواه الإمام أحمد (٢٧٦٤ و٢٨٠٣) والطبراني (١٢٩٨٩) والبيهقي في الشعب (١٠٧٤) والاعتقاد له (١٢٠) من طرقٍ عن قيس بن الحجاج ، بهذا الإسناد .

ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤) عن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، عن الحسن بن محمد بن بهرام ، عن يحيى بن أيوب ، عن عباد بن عباد ، عن الحجاج بن فرافصة ، عن رجلين سَمّاهما ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال له : « يا غلام ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله

. . . .

= تجده أمامك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن ، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً ، لم يكتبه الله عزَّ وجلَّ لك لم يقدروا عليه ، وعلى أن يمنعوك شيئاً كتبه الله عزَّ وجلَّ لك لم يقدروا عليه ، فاعمل لله تعالى بالرضا في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٣٩٧) والبيهقي في الشعب (١٠٠٠١) من طريق سعيد بن سليمان ، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥) من طريق علي بن عبد العزيز ، عن معلى بن مهدي ، كلاهما عن أبي شهاب الخياط ، عن عيسى بن محمد القرشي [قال العقيلي : مجهول] ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه ، أو يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ، واعلم أن القلم جرى بما هو كائن » . وقال العقيلي : **الأسانيد في هذا ليّنة** .

ورواه الطبراني في الكبير (١١٥٦٠) عن أحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي ، عن غسان بن الربيع ، عن إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن عبد الله مولى غفرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كنت رديف رسول الله ﷺ فقال : « يا غلام ، ألا أعلمك شيئاً ينفعك الله به ؟ » . قلت : بلى ، يا رسول الله . فقال : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك ، ولو جهد الخلائق أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك » . ورواه هناد في الزهد (٥٣٦) والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٠) من طريق عيسى بن يونس ، عن عمر بن عبد الله ، عن ابن عباس بنحوه . ورواه العقيلي (٣/ ١٧٨) من طريق محمد بن كثير العبدي ، عن إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن عبد الله مولى غفرة ، عن ابن عباس بنحوه . وقال العقيلي : وهذا المتن يُرْوَى عن ابن عباس وغيره عن النبي ﷺ بأسانيد لينة .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (شرح الحديث ١٩) : وقد روي هذا الحديث ، عن ابن عبّاس من طرقٍ كثيرةٍ : من رواية ابنه علي ، ومولاه عكرمة ، وعطاء بن أبي رباح ، وعمرو بن دينار ، وعبيد الله بن عبد الله ، وعمر مولى غفرة ، وابن أبي مليكة ، وغيرهم . **وأصح الطرق كلها** : طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي . كذا قال ابن منده وغيره . وقد روي عن النبي ﷺ أنه وصّى ابن عباس بهذه الوصية ، من حديث علي بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وسهل بن سعد ، وعبد الله بن جعفر . وفي أسانيدها كلها ضعف . وذكر

فَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْحَدِيثَ مِرْآةً لِقَلْبِهِ وَشِعَارَهُ وَدِثَارَهُ وَحَدِيثَهُ ، فَيَعْمَلَ بِهِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، حَتَّى يَسْلَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَجِدَ الْعِزَّةَ فِيهِمَا بِرَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

* * *



= العقيلي : أنّ أسانيد الحديث كلها لينة ، وبعضها أصح من بعض . وبكلّ حال : فطريق حنش التي خرّجها الترمذي حسنةٌ جيّدةٌ . وهذا الحديث : يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهمّ أمور الدين ؛ حتى قال بعض العلماء : تَدَبَّرْتُ هَذَا الحديث فَأَدْهَشَنِي وكدتُ أطيشُ ، فوا أسفًا منَ الجهلِ بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه . قلتُ : وقد أفردتُ لشرحه جزءاً كبيراً ونحن نذكر هاهنا مقاصده على وجه الاختصار إن شاء الله تعالى .

الْمَقَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ
فِي ذَمِّ السُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى

مَا سَأَلَ النَّاسَ مَنْ سَأَلَ إلاَّ :

١ـ لِجَهْلِهِ[1] بِاللهِ عزَّ وجلَّ ،

٢ـ وَضَعْفِ إِيْمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِيْنِهِ ،

٣ـ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ .

وَمَا تَعَفَّفَ مَنْ تَعَفَّفَ عَنْ ذَلِكَ إلاَّ :

١ـ لِوُفُوْرِ عِلْمِهِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ ،

٢ـ وَقُوَّةِ إِيْمَانِهِ وَيَقِيْنِهِ ،

٣ـ وَتَزَايُدِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ عزَّ وجلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَحْظَةٍ ،

٤ـ وَحَيَائِهِ مِنْهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

(١) تحرف في المطبوع إلى : (جهله) .

الْمَقَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ

فِي سَبَبِ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ دُعَاءِ الْعَارِفِ بِاللهِ تَعَالَى

إِنَّمَا لَمْ يُسْتَجَبْ لِلْعَارِفِ كُلَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ وَيُوْفِي لَهُ بِكُلِّ وَعْدٍ لِئَلاَّ يَغْلُبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ فَيَهْلِكَ ، لأَنَّ(١) مَا مِنْ حَالَةٍ وَمَقَامٍ إِلاَّ وَلِذَاكَ خَوْفٌ وَرَجَاءٌ هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ لاَ يَتِمُّ الإِيْمَانُ إِلاَّ بِهِمَا ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ وَالْمَقَامُ ، غَيْرَ أَنَّ خَوْفَ كُلِّ حَالَةٍ وَرَجَاءَهَا بِمَا يَلِيْقُ بِهَا ، فَالعَارِفُ مُقَرَّبٌ وَحَالَتُهُ وَمَقَامُهُ أَنْ لاَ يُرِيْدَ شَيْئاً سِوَى مَوْلاَهُ عزَّ وجلَّ وَلاَ يَرْكَنَ وَلاَ يَطْمَئِنَّ إِلَى غَيْرِهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ يَسْتَأْنِسَ بِغَيْرِهِ ، فَطَلَبُهُ لإِجَابَةِ سُؤَالِهِ وَالوَفَاءِ بِعَهْدِهِ غَيْرُ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ وَلاَئِقٌ بِحَالِهِ ، فَفِي ذَلِكَ أَمْرَانِ اثْنَانِ :

أَحَدُهُمَا : لِئَلاَّ يَغْلِبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ وَالعِزَّةُ بِمَكْرِ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ فَيَغْفَلَ عَنِ القِيَامِ بِالأَدَبِ فَيَهْلِكَ .

وَالآخَرُ : شِرْكُهُ بِرَبِّهِ عزَّ وجلَّ بِشَيْءٍ سِوَاهُ ، إِذْ لاَ مَعْصُوْمَ فِي العَالَمِ فِي الظَّاهِرِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ ، فَلاَ يُجِيْبُهُ وَلاَ يُوَفِّي لَهُ كَيْلاَ يَسْأَلَ عَادَةً وَيُرِيْدُهُ طَبْعاً لاَ امْتِثَالاً لِلأَمْرِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالشِّرْكُ كَبِيْرَةٌ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا وَالأَقْدَامِ جَمِيْعِهَا وَالْمَقَامَاتِ بِأَسْرِهَا .

وَأَمَّا إِذَا كَانَ السُّؤَالُ بِأَمْرٍ فَذَلِكَ مِمَّا يَزِيْدُهُ قُرْباً كَالصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ ، لأَنَّهُ يَكُوْنُ فِي ذَلِكَ مُمْتَثِلاً لِلأَمْرِ .

* * *

---

(١) في نسخة : (لأنه) .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ

فِي النِّعْمَةِ وَالابْتِلاَءِ

إنَّ النَّاسَ رَجُلاَنِ :

١ـ مُنْعَمٌ عَلَيْهِ ،

٢ـ وَمُبْتَلًى بِمَا قَضَى رَبُّهُ عزَّ وجلَّ .

فَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِ لاَ يَخْلُو مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّكَدُّرِ فِيْمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ فِي أَنْعَمِ مَا يَكُوْنُ مِنْ ذَلِكَ إِذْ جَاءَ الْقَدَرُ بِمَا يُكَدِّرُهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلاَيَا مِنَ الأَمْرَاضِ وَالأَوْجَاعِ وَالْمَصَائِبِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالأَهْلِ وَالأَوْلاَدِ فَيَتَّعِظُ بِذَلِكَ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُنْعَمْ عَلَيْهِ قَطُّ وَيَنْسَى ذَلِكَ النَّعِيْمَ وَحَلاَوَتَهُ .

وَإِنْ كَانَ الْغَنِيُّ قَائِماً بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْعَبِيْدِ وَالإِمَاءِ وَالأَمْنِ مِنَ الأَعْدَاءِ ، فَهُوَ فِي حَالِ النَّعْمَاءِ كَأَنْ لاَ بَلاَءَ فِي الْوُجُودِ ، كُلُّ ذَلِكَ لِجَهْلِهِ بِمَوْلاَهُ عزَّ وجلَّ وَبِالدُّنْيَا .

فَلَوْ عَلِمَ أَنَّ مَوْلاَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود : ١٠٧ والبروج : ١٦] ، يُبَدِّلُ ، وَيُحَلِّي وَيُمِرُّ ، وَيُغْنِي وَيُفْقِرُ ، وَيَرْفَعُ وَيَخْفِضُ ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ ، وَيُحْيِي وَيُمِيْتُ ، وَيُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ . لَمَا اطْمَأَنَّ إِلَى مَا بِهِ مِنَ النَّعِيْمِ ، وَلَمَا اغْتَرَّ بِهِ ، ولَمَا أَيِسَ مِنَ الفَرَجِ فِي حَالَةِ البَلاَءِ .

وَبِجَهْلِهِ أَيْضاً بِالدُّنْيَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا وَطَلَبَ بِهَا صَفَاءً لاَ يَشُوْبُهُ كَدَرٌ ، وَنَسِيَ أَنَّهَا دَارُ بَلاَءٍ وَتَنْغِيصٍ ، وَتَكَالِيْفِ وَتَكْدِيْرٍ ، وَأَنَّ أَصْلَهَا بَلاَءٌ وَطَارِفَهَا[1] نَعْمَاءٌ ، فَهِيَ كَشَجَرَةِ الصَّبْرِ أَوَّلُ ثَمَرَتِهَا مُرٌّ وَآخِرُهَا شَهْدٌ حُلْوٌ ، لاَ يَصِلُ الْمَرْءُ إِلَى حَلاَوَتِهَا حَتَّى يَتَجَرَّعَ مَرَارَتَهَا ، فَلَنْ يَبْلُغَ إِلَى الشَّهْدِ إِلاَّ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُرِّ ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى بَلاَئِهَا حُلِّيَ لَهُ نَعِيْمُهَا ، إِنَّمَا يُعْطَى الأَجِيْرُ أَجْرَهُ بَعْدَ عَرَقِ جَبِيْنِهِ وَتَعَبِ جَسَدِهِ وَكَرْبِ رُوْحِهِ وَضِيقِ صَدْرِهِ وَذَهَابِ قُوَّتِهِ وَإِذْلاَلِ نَفْسِهِ وَكَسْرِ هَوَاهُ

---

(١) أي : مستحدث .

فِي خِدْمَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ ، فَلَمَّا تَجرَّعَ هَذِهِ الْمَرَائِرَ كُلَّهَا أَعْقَبَتْ لَهُ طِيبَ طَعَامٍ وَإِدَامٍ وَفَاكِهَةٍ وَلِبَاسٍ وَرَاحَةٍ وَسُرُورٍ وَلَوْ أَقَلَّ قَلِيلاً[١] ، فَالدُّنْيَا أَوَّلُهَا مُرَّةٌ كَالصَّفْحَةِ الْعُلْيَا مِنْ عَسَلٍ فِي ظَرْفٍ مَشُوبَةٍ بِمَرَارَةٍ ، فَلاَ يَصِلُ الآكِلُ إِلَى قَرَارِ الظَّرْفِ وَيَتَنَاوَلُ الْخَالِصَ مِنْهُ إِلاَّ بَعْدَ تَنَاوُلِ الصَّفْحَةِ الْعُلْيَا ، فَإِذَا صَبَرَ الْعَبْدُ عَلَى أَدَاءِ أَوَامِرِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وَانْتِهَاءِ نَوَاهِيهِ ، وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيضِ فِيمَا يَجْرِي بِهِ الْقَدَرُ ، وَتَجَرَّعَ مَرَائِرَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَتَحَمَّلَ أَثْقَالَهُ ، وَخَالَفَ هَوَاهُ وَتَرَكَ مُرَادَهُ ، أَعْقَبَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِذَلِكَ طِيبَ الْعَيْشِ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَالدَّلاَلَ وَالرَّاحَةَ وَالْعِزَّةَ ، وَيَتَوَلاَّهُ وَيُغَذِّيهِ كَمَا يُغَذَّى[٢] الطِّفْلُ الرَّضِيعُ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ مِنْهُ وَتَحَمُّلِ مُؤْنَةٍ وَتَبِعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَى كَمَا يَتَلَذَّذُ آكِلُ الْمُرِّ مِنَ الصَّفْحَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْعَسَلِ يَأْكُلُهُ مِنْ قَرَارِ الظَّرْفِ ، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَأْمَنَ (مِنْ) مَكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣] ، فَيَغْتَرَّ بِالنِّعْمَةِ وَيَقْطَعَ بِدَوَامِهَا ، وَيَغْفَلَ عَنْ شُكْرِهَا وَيُرْخِي قَيْدَهَا بِتَرْكِهِ لِشُكْرِهَا .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **النِّعْمَةُ وَحْشِيَّةٌ فَقَيِّدُوهَا بِالشُّكْرِ** »[٤] .

فَشُكْرُ نِعْمَةِ الْمَالِ : الاعْتِرَافُ بِهَا لِلْمُنْعِمِ الْمُتَفَضِّلِ ، وَهُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وَالتَّحَدُّثُ بِهَا لِنَفْسِهِ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ ، وَرُؤْيَةُ فَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ عزَّ وجلَّ ، وَأَنْ لاَ يَتَمَلَّكَ[٥] عَلَيْهِ وَلاَ يَتَجَاوَزَ حَدَّهُ فِيهِ ، وَلاَ يَتْرُكَ أَمْرَهُ فِيهِ ، ثُمَّ بِأَدَاءِ حُقُوقِهِ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْكَفَّارَةِ وَالنَّذْرِ وَالصَّدَقَةِ ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ ، وَافْتِقَادِ أَرْبَابِ الْحَاجَاتِ وَأَهْلِهَا فِي الشَّدَائِدِ عِنْدَ تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ وَتَبَدُّلِ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ ، أَعْنِي : سَاعَاتِ النَّعِيمِ وَالرَّخَاءِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَشُكْرِ نِعْمَةِ الْعَافِيَةِ فِي

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (قليل) .

(٢) في نسخة : (يغذي) .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[الأعراف : ٩٩] .

(٤) ذكره بلفظه المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٥٦) من قول بعض الحكماء .

وروى ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٧) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٢٦) عن عمر بن عبد العزيز قال : قيدوا نعم الله بشكر الله .

ورواه في الشكر (٥٨) والبيهقي في الشعب (٤١٠٦) عن عمر قال : ذكر النعم شكرها .

وروى ابن المبارك في الزهد (١٤٣٤) وابن أبي الدنيا في الشكر (٣٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٠٧) عن المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : أكثروا ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر .

(٥) في المطبوع : (يمتلك) .

الْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ فِي الاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى الطَّاعَاتِ وَالكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَالْمَعَاصِي وَالآثَامِ ، فَذَلِكَ قَيْدُ النِّعَمِ عَنِ الرِّحْلَةِ وَالذَّهَابِ .

وَسَقْيُ شَجَرَتِهَا ، وَتَنْمِيَةُ أَغْصَانِهَا وَأَوْرَاقِهَا ، وَتَحْسِينُ ثَمَرَتِهَا ، وَحَلاَوَةُ طَعْمِهَا ، وَسَلاَمَةُ عَاقِبَتِهَا ، وَلَذَاذَةُ مَضْغِهَا ، وَسُهُوْلَةُ بَلْعِهَا ، وَتَعَقُّبُ عَافِيَتِهَا وَرَيْعِهَا فِي الْجَسَدِ ، ثُمَّ ظُهُوْرُ بَرَكَتِهَا عَلَى الْجَوَارِحِ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالقُرُبَاتِ وَالأَذْكَارِ ، ثُمَّ دُخُولُ العَبْدِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الآخِرَةِ فِي رَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَالْخُلُوْدِ فِي الْجِنَانِ مَعَ ﴿ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء : ٦٩] . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ وَاغْتَرَّ بِمَا ظَهَرَ مِنْ زِيْنَةِ الدُّنْيَا وَبِمَا ذَاقَ مِنْ لَذَّاتِهَا ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى بَرِيْقِ سَرَابِهَا ، وَمَا لاَحَ مِنْ بَرْقِهَا ، وَمَا هَبَّ مِنْ نَسِيْمِ أَوَّلِ نَهَارِ قَيْظِهَا ، وَنُعُوْمَةِ جُلُودِ حَيَّاتِهَا وَعَقَارِبِهَا ، وَغَفَلَ وَعَمِيَ عَنْ سُمُوْمِهَا القَاتِلَةِ الْمُوْدَعَةِ فِي أَعْمَاقِهَا ، وَمَكَامِنِهَا وَمَصَايِدِهَا الْمَنْصُوْبَةِ لأَخْذِهِ وَحَبْسِهِ وَهَلاَكِهِ ، فَلْيَهْنَأْ لِلرَّدَى ، وَلْيَسْتَبْشِرْ بِالعَطَبِ وَالفَقْرِ العَاجِلِ ، مَعَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ فِي الدُّنْيَا وَالعَذَابِ الآجِلِ فِي النَّارِ وَلَظَى .

وَأَمَّا الْمُبْتَلَى : فَتَارَةً يُبْتَلَى عُقُوْبَةً وَمُقَابَلَةً لِجَرِيْمَةٍ ارْتَكَبَهَا وَمَعْصِيَةٍ اقْتَرَفَهَا ، وَأُخْرَى يُبْتَلَى تَكْفِيْراً وَتَمْحِيْصاً ، وَأُخْرَى يُبْتَلَى لارْتِفَاعِ الدَّرَجَاتِ وَتَبْلِيْغِ الْمَنَازِلِ العَالِيَاتِ لِيَلْحَقَ بِأُوْلِي العِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْحَالاَتِ وَالْمَقَامَاتِ ، مِمَّنْ[١] سَبَقَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ مِنْ رَبِّ الْخَلِيْقَةِ وَالبَرِيَّاتِ ، وَسَيَّرَهُمْ مَوْلاَهُمْ مَيَادِيْنَ البَلِيَّاتِ عَلَى مَطَايَا الرِّفْقِ وَالأَلْطَافِ ، وَرَوَّحَهُمْ بِنَسِيْمِ النَّظَرَاتِ وَاللَّحَظَاتِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ابْتِلاَهُمْ لِلإِهْلاَكِ وَالإِهْوَاءِ فِي الدَّرَكَاتِ ، وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِهَا اصْطِفَاءً وَاجْتِبَاءً[٢] ، وَاسْتَخْرَجَ بِهَا مِنْهُمْ حَقِيْقَةَ الإِيْمَانِ وَصَفَّاهَا وَمَيَّزَهَا مِنَ الشِّرْكِ وَالدَّعَاوَى وَالنِّفَاقِ ، وَنَحَلَهُمْ بِهَا أَنْوَاعَ العُلُوْمِ وَالأَسْرَارِ وَالأَنْوَارِ ، فَجَعَلَهُمْ مِنَ الْخُلَّصِ الْخَوَاصِّ ، ائْتَمَنَهُمْ عَلَى أَسْرَارِهِ ، وَارْتَضَاهُمْ لِمُجَالَسَتِهِ .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الْفُقَرَاءُ الصُّبَّرُ : هُمْ جُلَسَاءُ الرَّحْمَنِ يَوْمَ القِيَامَةِ »[٣] .

---

(١) في نسخة : (مما) .

(٢) في المطبوع : (للاصطفاء والاجتباء) .

(٣) قال الغزالي في الإحياء كما في الإتحاف (٩/٢٨٣) وانظر الأربعين في أصول الدين له (٤٢٦ بتحقيقي) : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لكلّ شيءٍ =

دُنْيَا وَأُخْرَى : فِي الدُّنْيَا بِقُلُوبِهِمْ ، وَفِي الآخِرَةِ بِأَجْسَادِهِمْ .

فَكَانَتِ البَلَايَا مُطَهِّرَةً لِقُلُوبِهِمْ مِنْ دَرَنِ[1] الشِّرْكِ ، وَالتَعَلُّقِ بِالْخَلْقِ وَالأَسْبَابِ وَالأَمَانِي وَالإِرَادَاتِ ، وَذَوَّابَةً لَهَا وَسَبَّاكَةً مِنَ الدَّعَاوِي وَالْهَوَسَاتِ ، وَطَلَبِ الأَعْوَاضِ بِالطَّاعَاتِ مِنَ الدَّرَجَاتِ وَالْمَنَازِلِ العَالِيَاتِ فِي الآخِرَةِ فِي الفِرْدَوْسِ وَالْجَنَّاتِ .

فَعَلَامَةُ الابْتِلَاءِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ وَالعُقُوبَاتِ[2] : عَدَمُ الصَّبْرِ عِنْدَ وُجُودِهَا ، وَالْجَزَعُ وَالشَّكْوَى إِلَى الْخَلِيقَةِ وَالبَرِيَّاتِ .

وَعَلَامَةُ الابْتِلَاءِ تَكْفِيراً وَتَمْحِيصاً لِلْخَطِيَّاتِ : وُجُودُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مِنْ غَيْرِ شَكْوَى ، وَإِظْهَارِ الْجَزَعِ إِلَى الأَصْدِقَاءِ وَالْجِيرَانِ وَالتَّضَجُّرِ بِأَدَاءِ الأَوَامِرِ وَالطَّاعَاتِ .

وَعَلَامَةُ الابْتِلَاءِ : ارْتِفَاعُ وُجُودِ الرِّضَا وَالْمُوَافَقَةِ ، وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ وَالسُّكُونِ بِفِعْلِ إِلَهِ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَالفَنَاءِ فِيهَا إِلَى حِينِ الانْكِشَافِ بِمُرُورِ الأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ .

= مفتاحاً ، ومفتاح الجنة حب المساكين ، والفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » . وقال العراقي في تخريجه : رواه الدارقطني في غرائب مالك وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر . اهـ

بل رواه القشيري في رسالته (ص٤٠٨) عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء الفزاري ، عن عبد الله بن محمد بن جعفر بن أحمد بن خشيش البغدادي ، عن عثمان بن سعيد ، عن عمر بن راشد أبي حفص اليمامي ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً . وذكره الديلمي في الفردوس (٤٩٩٣) عن عمر بن الخطاب . أقول : عمر بن راشد : قال الإمام أحمد : لا يسوى حديثه شيءٌ . قال ابن حبان في المجروحين (٢/ ٨٣) : كان ممن يروي الأشياء الموضوعات عن ثقات الأئمة .

ورواه ابن حبان في المجروحين (١/ ١٤٦ـ ١٤٧) عن أبي الليث عبيد الله الدارمي الأنطاكي ، عن أحمد بن داود بن عبد الغفار أبي صالح الحراني المصري [وضّاع كذّاب] ، رواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٣٧٧) عن ابن أبي صالح ، كلاهما عن أبي مصعب مطرف بن عبد الله المدني [قال أبو حاتم : صدوق مضطرب الحديث . وقال ابن عدي : يأتي بمناكير] ، عن مالك بن أنس ، عن نافع ، عن ابن عمر مرفوعاً . وقال ابن عدي : هذا عن مالك بهذا الإسناد منكر جداً . وانظر لسان الميزان (١/ ١٦٨) .

(١) في المطبوع : (دون) .

(٢) في نسخة : (والعقوبة) .

المَقَالَةُ السَّادِسَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ
فِي قَوْلِهِ ﷺ عَنِ الْحَدِيْثِ القُدْسِيِّ :
« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي . . » إلى آخره

فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ عزّ وجلّ : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ[1] مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِيْنَ »[2] .

---

(١) في المطبوع : (من) .

(٢) رواه الدارمي (٣٣٥٦) والترمذي (٢٩٢٦) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٤/٤٨) وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١٢٥) وابن حبان في المجروحين (٢/٢٧٧) والطبراني في الدعاء (١٨٥١) وأبو نعيم في الحلية (٥/١٠٦) والبيهقي في الاعتقاد (٥٤) والأسماء والصفات (٥٠٧) والشعب (٢٠١٥) من طرقٍ عن محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني [ضعيف] ، ورواه ابن حبان (٢/٢٧٧) والبيهقي في الشعب (٢٠١٦) من طريق محمد بن حميد الرازي [قال ابن حبان : قد تبرأنا من عهدته] ، عن الحكم بن بشير ، كلاهما عن عمرو بن قيس الملائي ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وقال الترمذي : حديث حسن غريب . وقال البيهقي في الأسماء : تابعه الحكم بن بشير ومحمد بن مروان ، عن عمرو بن قيس . وقال ابن حجر في فتح الباري (٩/٦٦) : رجال الترمذي ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف . أقول : وسأل عنه ابن أبي حاتم أباه كما في العلل (١٧٣٨) فقال : هذا حديث منكر ، ومحمد بن الحسن ، ليس بالقوي .

ورواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص١٠٩) والتاريخ الكبير (٢/١١٥) والبزار في البحر الزخار (١٣٧) وابن حبان في المجروحين (١/٣٧٦) والطبراني في الدعاء (١٨٥٠) وابن عبد البر في التمهيد (٦/٤٥ـ٤٦) والبيهقي في الشعب (٥٧٢ و٤٠٨٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٥٥) والمزي في تهذيب الكمال (٤/٢٤٨ و١٣/١٩٦) والذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/٩٩٦) من طرقٍ عن صفوان بن أبي الصهباء ، عن بكير بن عتيق ، عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه ، عن جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وفيه : صفوان بن أبي الصهباء ، منكر الحديث . وضرار بن صرد ، صدوقٌ له أوهام . وقال ابن حجر في فتح الباري (١١/١٣٤) : أخرجه الطبراني بسند ليّن .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣١٣) عن حذيفة رضي الله عنه . وذكره الديلمي في الفردوس (٤٤٤٦) عن حذيفة .

ورواه البيهقي في الشعب (٥٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٥٨٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

=

وَذَلِكَ : أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ اللهُ عزَّ وجلَّ اصْطِفَاءَهُ وَاجْتِبَاءَهُ ، سَلَكَ بِهِ الأَحْوَالَ وَامْتَحَنَهُ بِأَنْوَاعِ الْمِحَنِ وَالبَلَايَا فَيُفْقِرُهُ بَعْدَ الغِنَى ، وَيَضْطَرُّهُ إِلَى مَسْأَلَةِ الْخَلْقِ فِي الرِّزْقِ عِنْدَ سَدِّ جِهَاتِهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَصُونُهُ عَنْ[1] مَسْأَلَتِهِمْ وَيَضْطَرُّهُ إِلَى القَرْضِ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَصُونُهُ عَنِ القَرْضِ وَيَضْطَرُّهُ إِلَى الكَسْبِ وَيُسَهِّلُهُ (عَلَيْهِ ، وَيُيَسِّرُهُ) لَهُ فَيَأْكُلُ بِالكَسْبِ الَّذِي هُوَ السُّنَّةُ ، ثُمَّ يُعَسِّرُهُ عَلَيْهِ وَيُلهِمُهُ السُّؤَالَ لِلْخَلْقِ ، وَيَأْمُرُهُ بِهِ بِأَمْرٍ بَاطِنٍ يَعْلَمُهُ وَيَعْرِفُهُ وَيَجْعَلُ عِبَادَتَهُ فِيهِ وَمَعْصِيَتَهُ فِي

= ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢/ ٣٨٢) عن ابن صبيح ، عن عامر بن أسيد ، عن محمد البزار ، عن أبي بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الله بن عصمة ، عن حكيم بن حزام مرفوعاً .

وذكره الديلمي في الفردوس (٨٠٧٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه ابن أبي شيبة (٢٩٢٧٣) عن عمرو بن مرة مرسلاً .

ورواه ابن المبارك في الزهد (٩٢٩) وعبد الرزاق (٣١٩٩ و٤٠٥٧) والإمام أحمد في الزهد (٥٠٢) وابن أبي شيبة (٢٩٢٧١) والبيهقي في الشعب (٥٧٤) من قول مالك بن الحارث .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٣) عن محمد بن أحمد بن إبراهيم من كتابه ، عن موسى بن إسحاق ، عن عبد الله بن عوف ، عن الفرج بن فضالة ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان : أن داود النبي عليه السلام قال : إن الله تعالى يقول : لأعطين المتشاغلين بذكري أفضل ما أعطي السائلين .

وقال ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) : إن الرضا عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة : « استواء الحالات عند العبد ، وسقوط الخصومة مع الخلق ، والخلاص من المسألة والإلحاح » ، فإن الراضي الموافق تستوي عنده الحالات من النعمة والبلية في رضاه بحسن اختيار الله له . وليس المراد استواؤها عنده في مُلاءمته ومنافرته ، فإن هذا خلاف الطبع البشري بل خلاف الطبع الحيواني . وليس المراد أيضاً استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية ، فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه ، وإنما تستوى النعمة والبلية عنده في الرضا بهما لوجوه : ومنها (٢/ ٢١٧) : أن العبد إذا رَضِيَ به وعنه في جميع الحالات ، لم يتخير عليه المسائل ، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك ، وجعل ذكره في محل سؤاله ، بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره ، وبلوغ رضاه . فهذا يُعطَى أفضل ما يعطاه سائل ، كما جاء في الحديث : « من شغله ذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . فإن السائلين سألوه فأعطاهم الفضل الذي سألوه . والراضون رضوا عنه ، فأعطاهم رضاه عنهم ، ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا ، بل أصحابُهُ مُلِحّونَ في سؤاله ذلك .

وانظر الأربعين في أصول الدين للغزالي رقم (٢٨ بتحقيقي) .

(١) في المطبوع : (من) .

تَرْكِهِ ، لِيَزُولَ بِذَلِكَ هَوَاهُ وَتَنْكَسِرَ نَفْسُهُ وَهِيَ حَالَةُ الرِّيَاضَةِ ، فَيَكُونُ سُؤَالُهُ عَلَى وَجْهِ الإِجْبَارِ لاَ عَلَى وَجْهِ الشِّرْكِ بِالْجَبَّارِ ، ثُمَّ يَصُونُهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَأْمُرُهُ بِالقَرْضِ مِنْهُمْ أَمْراً جَزْماً لاَ يُمْكِنُهُ تَرْكُهُ كَالسُّؤَالِ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ يَنْقُلُهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَقْطَعُهُ عَنِ الْخَلْقِ وَمُعَامَلَتِهِمْ ، فَيَجْعَلُ رِزْقَهُ فِي السُّؤَالِ لَهُ عزَّ وجلَّ فَيَسْأَلُهُ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيُعْطِيهِ عزَّ وجلَّ وَلاَ يَقْطَعُهُ إِنْ سَكَتَ وَأَعْرَضَ عَنِ السُّؤَالِ ، ثُمَّ يَنْقُلُهُ مِنَ السُّؤَالِ بِاللِّسَانِ إِلَى السُّؤَالِ بِالقَلْبِ فَيَسْأَلُهُ بِقَلْبِهِ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ فَيُعْطِيهِ حَتَّى إِنَّهُ لَوْ سَأَلَهُ بِلِسَانِهِ لَمْ يُعْطِهِ أَوْ سَأَلَ الْخَلْقَ لَمْ يُعْطُوهُ ، يُغْنِيهِ عَنْهُ وَعَنِ السُّؤَالِ جُمْلَةً ظَاهِراً وَبَاطِناً ، فَيُنَادِيهِ بِجَمِيعِ مَا يُصْلِحُهُ وَيَقُومُ بِهِ أَوَدُهُ مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَلْبُوسِ وَجَمِيعِ مَصَالِحِ البَشَرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُوَ فِيهَا أَو تَخْطُرَ بِبَالِهِ ، فَيَتَوَلاَّهُ عزَّ وجلَّ ، وَهُوَ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[الأعراف : ١٩٦] .

فَيَتَحَقَّقُ حِينَئِذٍ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : « **مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ** » .

وَهِيَ حَالَةُ الفَنَاءِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ أَحْوَالِ الأَوْلِيَاءِ وَالأَبْدَالِ ، ثُمَّ قَدْ يَرِدُ إِلَيْهِ التَّكْوِينُ فَيَكُونُ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِإِذْنِ اللهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلاَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ[1] : « **يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنَا اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ، أَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ ، فَيَكُونُ . أَطِعْنِي أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ ، فَيَكُونُ** »[2] .

* * *

(١) في المطبوع : (كتبه) .
(٢) لم أجده ، ومرَّ في هذا الكتاب (المقالة ١٣ و١٦) .

الْمَقَالَةُ السَّابِعَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ
فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

سَأَلَنِي رَجُلٌ شَيْخٌ فِي الْمَنَامِ ، فَقَال : أَيُّ شَيءٍ يُقَرِّبُ العَبْدَ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ؟
فَقُلْتُ : لِذَلِكَ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ .
فَابْتِدَاؤُهُ : الوَرَعُ ، وَانْتِهَاؤُهُ : الرِّضَا وَالتَّسْلِيْمُ وَالتَّوَكُّلُ .

* * *



المَقَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ
فِيمَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ

يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْتَغِلَ أَوَّلاً بِالفَرَائِضِ ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهَا اشْتَغَلَ بِالسُّنَنِ ، ثُمَّ يَشْتَغِلُ بِالنَّوَافِلِ وَالفَضَائِلِ ، فَمَا لَمْ يَفْرَغْ مِنَ الفَرَائِضِ فَالاشْتِغَالُ بِالسُّنَنِ حُمْقٌ وَرُعُونَةٌ ، فَإِنِ اشْتَغَلَ بِالسُّنَنِ وَالنَّوَافِلِ قَبْلَ الفَرَائِضِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَأُهِينَ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ يَدْعُوهُ المَلِكُ إِلَى خِدْمَتِهِ فَلاَ يَأْتِي إِلَيْهِ ، وَيَقِفُ فِي خِدْمَةِ الأَمِيرِ الَّذِي هُوَ غُلاَمُ المَلِكِ وَخَادِمُهُ وَتَحْتَ يَدِهِ وَوِلاَيَتِهِ .

عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ مَثَلَ مُصَلِّي النَّوَافِلِ قَبْلَ الفَرَائِضِ كَمَثَلِ حُبْلَى حَمَلَتْ فَلَمَّا دَنَا نِفَاسُهَا أَسْقَطَتْ فَلاَ هِيَ ذَاتُ حَمْلٍ وَلاَ هِيَ ذَاتُ وِلاَدَةٍ ، وَكَذَلِكَ المُصَلِّي لاَ يَقْبَلُ اللهُ لَهُ نَافِلَةً حَتَّى يُؤَدِّيَ الفَرِيضَةَ ، وَمَثَلُ المُصَلِّي كَمَثَلِ التَّاجِرِ لاَ يَخْلُصُ لَهُ رِبْحُهُ حَتَّى يَأْخُذَ رَأْسَ المَالِ ، وَكَذَلِكَ المُصَلِّي بِالنَّوَافِلِ لاَ تُقْبَلُ لَهُ نَافِلَةٌ حَتَّى يُؤَدِّيَ الفَرِيضَةَ** »[1]

(١) رواه الرامهرمزي في أمثال الحديث (٥٥) عن شيخ من أهل مدينة السلام ، عن محرز بن سلمة ، عن الدراوردي ، عن موسى بن عبيدة ، عن صالح بن سويد العرجي ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « مثل الذي لا يتم صلاته مثل المرأة حملت حتى إذا دنا نفاسها أسقطت ، فلا حامل ولا ذات رضاع ، ومثل المصلي كمثل التاجر لا يخلص له الربح حتى يخلص له رأس ماله فكذلك المصلي لا يقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة » .

ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٨٧) عن أبي عبد الله الحافظ وأبي سعيد بن أبي عمرو ، عن أبي العباس محمد بن يعقوب ، عن الحسن بن علي بن عفان . ورواه في السنن أيضاً وفي الشعب (٣٢٨٥) عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي طاهر الدقاق المعروف بابن البياض ببغداد ، عن علي بن محمد بن الزبير القرشي ، عن الحسن بن علي بن عفان ، عن زيد بن الحباب ، عن موسى بن عبيدة ، عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ . ورواه في السنن أيضاً عن أبي محمد عبد الله بن يوسف ، عن أبي سعيد ابن الأعرابي ، عن الحسن بن علي الزعفراني ، عن أسباط بن محمد القرشي ، عن موسى بن عبيدة الربذي ، عن ابن حنين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يا علي ، مثل الذي لا يتم صلاته كمثل حبلى حملت فلما دنا نفاسها أسقطت ، فلا هي ذات ولد ، =

وَكَذَلِكَ مَنْ تَرَكَ السُّنَّةَ وَاشْتَغَلَ بِنَافِلَةٍ لَمْ تُرَتَّبْ مَعَ الفَرَائِضِ وَلَمْ يُنَصَّ عَلَيْهَا وَيُؤَكَّدْ أَمْرُهَا .

فَمِنَ الفَرَائِضِ : تَرْكُ الْحَرَامِ ، وَالشِّرْكِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ فِي خَلْقِهِ ، وَالاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ فِي قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ وَإِجَابَةِ الْخَلْقِ وَطَاعَتِهِمْ ، وَالإِعْرَاضِ عَنْ أَمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَطَاعَتِهِ .

قَالَ ﷺ : « لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوْقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ »(١) .

= ولا هي ذات حمل ، ومثل المصلي كمثل التاجر لا يخلص له ربحه حتى يخلص له رأس ماله ، كذلك المصلي لا تقبل نافلته حتى يؤدي الفريضة » .

وقال البيهقي في الشعب : هذا إن صحَّ في المصلي إذا ضيَّع شيئاً من واجباتها . وقال في السنن : موسى بن عبيدة ، لا يحتج به . وقد اختلف عليه في إسناده : فرواه زيد بن الحباب وأسباط بن محمد هكذا ، ورواه سليمان بن بلال ، عن موسى بن عبيدة ، عن صالح بن سويد ، عن علي كذلك مرفوعاً ، وهو إن صح كما أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالوا : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني موسى ، عن صالح بن سويد ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مثل الذي لا يتم صلاته كمثل الحبلى حملت حتى إذا دنا نفاسها أسقطت فلا حمل ولا هي ذات ولد ، ومثل المصلي كمثل التاجر لا يخلص له ربح حتى يخلص له رأس ماله ، كذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة » . فتكون صحتها بصحة الفريضة والأخبار المتقدمة محمولة على نافلة تكون خارجة الفريضة فلا يكون صحتها بصحة الفريضة . والله أعلم . اهـ

أقول : ورواه ابن راهويه (٣٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مختصراً .

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٣٧١٧) والخلال في السنة (٥٨ دار الراية) عن وكيع ، عن مبارك ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

ورواه الطبراني في الكبير (١٨/ رقم ٤٠٧) والأوسط (٤٣٢٢) عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه ، ورواه البزار في البحر الزخار (٣٥١١) عن محمد بن موسى القطان ، كلاهما عن إسماعيل بن إبان [قال البزار : رجل يتشيع] ، عن حفص بن عمران الكوفي ، عن سماك بن حرب ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين رفعه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الله » .

ورواه الطبراني في الكبير (١٨/ رقم ٣٦٧) عن أحمد بن سليمان بن يوسف العقيلي الأصبهاني ، عن أبيع ، عن النعمان بن عبد السلام ، عن الحسن بن دينار ، عن الحسن قال : قال عمران بن حصين للحكم بن عمرو الغفاري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الله » ؟ قال : نعم .

ورواه البزار في البحر الزخار (٣٥٨١) عن محمد بن مرزوق ومحمد بن معمر ، عن حجاج بن المنهال ، عن حماد بن سلمة ، عن يونس ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري مرفوعاً : « لا طاعة في معصية الله » . =

....

= ورواه الطبراني في الكبير (١٨/رقم ٣٨٥) عن علي بن عبد العزيز ، عن حجاج بن المنهال ، عن حماد بن سلمة ، عن حميد ويونس وحبيب ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين رفعه : « لا طاعة في معصية الله » .

ورواه الإمام أحمد (٥/٦٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٠١٧) من طريق حماد بن سلمة ، عن يونس وحميد ، عن الحسن : أن زياداً استعمل الحكم الغفاري على جيش ، فأتاه عمران بن حصين فلقيه بين الناس ، فقال : أتدري لم جئتك ؟ فقال له : لِمَ ؟ قال : هل تذكر قول رسول الله ﷺ للرجل الذي قال له أميرُه : قَعْ في النار ، فأدرك ، فاحتبسَ ، فأُخْبِرَ بذلك النبي ﷺ ، فقال : « لو وقع فيها لدخلا النار جميعاً ، لا طاعة في معصية الله » . قال : نعم . قال : إنما أردت أن أذكرك هذا الحديث .

ورواه الطبراني (٣١٥٩ و١٨/رقم ٣٢٤) والحاكم (٣/٤٤٣) من طريق حجاج بن المنهال ، عن حماد بن سلمة ، عن حميد وحبيب ويونس [عند الحاكم : حميد وحبيب] ، عن الحسن : أن زياداً استعمل الحكم بن عمرو الغفاري على جيش ، فلقيه عمران بن حصين في دار الإمارة بين الناس ، فقال : هل تدري فيما جئتك ، أما تذكر أن رسول الله ﷺ لما بلغه الذي قال له أميره : فقم فقع في النار ، فقام الرجل ليقع ، فأدرك ، فأمسك ، فقال النبي ﷺ : « لو وقع فيها لدخلا النار ، لا طاعة في معصية الله » . قال : أي قال ، وإنما أردت أن أذكرك هذا الحديث .

ورواه الطيالسي (٨٥٠) والإمام أحمد (٤/٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣٥) وابن أبي شيبة (١٢/٥٤٥) والحارث بن أبي أسامة (٦٠٢ زوائد) والبزار في البحر الزخار (٣٥٩٩ و٣٦٠١) والطبراني في الكبير (١٨/رقم ٥٧٠ و٧٥١) من طرق عن قتادة ، عن أبي مُرَاية عبد الله بن عمرو العجلي ، عن عمران بن حصين رفعه : « لا طاعة في معصية الله » .

ورواه الإمام أحمد (٤/٤٣٢) عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، ورواه (٥/٦٦) عن سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، كلاهما عن أيوب السختياني ، عن محمد بن سيرين : أن زياداً [أي : ابن أبي سفيان] استعمل الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان ، قال : فجعل عِمرانُ يتمنّاه ، فلقيه بالباب ، فقال : لقد كان يعجبني أن ألقاك ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة في معصية الله » ؟ . قال الحكم : نعم . قال : فكبّر عمران رضي الله عنه .

ورواه عبد الرزاق (٢٠٧٠٠) وعنه الإمام أحمد (٥/٦٧) عن معمر ، عن غير واحد منهم أيوب، عن ابن سيرين : أن زياداً استعمل الحكم بن عمرو الغفاري ، فقال عمران بن حصين : وددت أنّي ألقاه قبل أن يخرج ، قال : فلقيه ، فقال له عمران : أما علمت ، أوَمَا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة لأحد في معصية الله » ؟ قال : بلى . قال : فذاك الذي أردت أن أقول لك .

ورواه الطيالسي (٨٥٦) عن يزيد بن إبراهيم قال : سألت محمد بن سيرين عن حديث عمران بن حصين ؟ فقال : قال عمران للحكم الغفاري ـ وكلاهما من أصحاب النبي ﷺ ـ : هل تعلم يوماً قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة في معصية الله عزَّ وجلَّ » ؟ قال : نعم . قال عمران : الله أكبر ، الله =

. . . .

= أكبر . ورواه الإمام أحمد (٥/ ٦٦) عن عبد الصمد ، عن يزيد بن إبراهيم قال : سألت محمداً عن حديث عمران بن حصين ؟ فقال : نبئت أن عمران بن حصين قال للحكم الغفاري ـ وكلاهما من أصحاب رسول الله ﷺ ـ : هل تعلم يوم قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة في معصية الله » ؟ قال : نعم . قال عمران : الله أكبر ، الله أكبر .

ورواه الطبراني في الكبير (١٨/ رقم ٤٣٤) من طريق صلة بن سليمان [متروك] ، عن أشعث بن عبد الملك ، عن محمد قال : استعمل الحكم الغفاري على خراسان ، فبلغ ذلك عمران بن الحصين ، فطلب الحكم حتى لقيه في الرحبة ، فقال : ما زلت أطلبك منذ اليوم ، إنك بعثت على أمرٍ عظيمٍ ، أتذكر يوم قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة في معصية الله » . قال : نعم . قال عمران : الله أكبر ، حسبت نسيت .

ورواه الطبراني في الكبير (١٨/ رقم ٤٣٢) عن الحسن بن علي الفسوي ، عن محمد بن عباد بن معاذ العنبري ، عن المعتمر بن سليمان ، عن سلم بن أبي الذيال ، عن محمد بن سيرين : أن الحكم بن عمرو الغفاري وعمران بن حصين ـ أو أحدهما وأحسبه عمران كان يُحدّث ـ : أن رسول الله ﷺ قال : « لا طاعة في معصية الله » ؟ فقال الآخر : الله أكبر ثلاثاً أو كما قال . ورواه البزار في البحر (٣٦١٤) عن عمرو بن علي ، ورواه في الكبير (٣١٦٠) والأوسط (١٣٧٤) من طريق إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، كلاهما عن المعتمر بن سليمان ، عن سلم بن أبي الذيال ، عن محمد بن سيرين ، عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري .

ورواه الطبراني (١٨/ رقم ٤٣٣) عن معاذ بن المثنى ، عن مسدد ، عن بشر بن الفضل ، عن سلمة بن علقمة ، عن محمد بن سيرين ، عن عمران بن الحصين رفعه : « لا طاعة في معصية الله » .

ورواه الطبراني في الكبير (١٨/ رقم ٤٣٥) عن أحمد بن زهير التستري ، عن أبي حفص عمرو بن علي ، عن يزيد بن زريع ، عن ابن عون ، عن محمد بن سيرين : أن الحكم بن عمرو الغفاري وعمران بن حصين التقيا ، فقال أحدهما للآخر : أتذكر يوم قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة لأحد في معصية الله » . قال : الله أكبر .

ورواه الإمام أحمد (٥/ ٦٦) عن يزيد بن هارون ، عن هشام ، عن محمد قال : جاء رجلٌ إلى عمران بن حصين ونحن عنده فقال : استعمل الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان ، فتمناه عمران حتى قال له رجلٌ من القوم : ألا ندعوه لك ؟ فقال له : لا . ثم قام عمران فلقيه بين الناس ، فقال عمران : إنك قد وليت أمراً من أمر المسلمين عظيماً ، ثم أمره ونهاه ووعظه ، ثم قال : هل تذكر يوم قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الله » ؟ . قال الحكم : نعم . قال عمران : الله أكبر . ورواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٠١٨) عن يعقوب بن حميد ، عن يحيى بن سليمان ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين : يذكر عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو . . ورواه الطبراني في الكبير (١٨/رقم ٣٨١) عن محمد بن علي الصائغ المكي ، عن يعقوب بن حميد ، عن يحيى بن سليم ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين =

. . . .

= رفعه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . ورواه الطبراني (١٨/رقم ٤٣٧) عن أحمد بن عمرو الخلال المكي ، عن يعقوب بن حميد ، عن يحيى بن سليم ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عمران بن الحصين رفعه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الله » .

ورواه الطبراني (١٨/رقم ٤٣٨) عن محمد بن عبد الرحمن المسروقي ، عن عمه موسى بن عبد الرحمن ، عن حسين بن علي الجعفي ، عن زائدة ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عمران بن حصين رفعه : « لا طاعة في معصية الله » .

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٧٣) عن أبي مسلم محمد بن أحمد بن علي الكاتب ، عن أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي ، عن محمد بن جعفر الوركاني ، عن حماد بن يحيى أبو بكر الأبح ، عن محمد بن سيرين ، عن عمران بن حصين رفعه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن غالب بن حرب أبو جعفر الضبي التمار المعروف بالتمتام البصري [ثقة مأمون لكنه يخطىء] ، عن محمد بن جعفر الوركاني ، عن حماد بن يحيى الأبح ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن عمران بن حصين رفعه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

ورواه الإمام أحمد (٥/ ٦٦) عن بهز بن أسد العمي ، ورواه الحارث بن أبي أسامة (٦٠٣) عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، ورواه الطبراني في الكبير (٣١٥٠) عن المقدام بن داود ، عن أسد بن موسى ، ثلاثتهم عن سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن عبد الله بن الصامت قال : قال عمران بن الحصين للحكم بن عمرو : أسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة لأحد في معصية الله » ؟ . قال الحكم : نعم . ولفظ أحمد : أراد زيادٌ أن يبعث عمران بن حصين على خراسان ، فأبى عليهم ، فقال له أصحابه : أتركت خراسان أن تكون عليها ؟ قال : فقال : إني والله ما يسرني أن أصلَى بحرِّها وتصلون ببردها ، إني أخاف إذا كنت في نحور العدو أن يأتيني كتابٌ من زياد ، فإن أنا أمضيتُ هلكت ، وإن رجعت ضربت عنقي . قال : فأراد الحكم بن عمرو الغفاري عليها ، قال : فانقاد لأمره ، قال : فقال عمران : ألا أحد يدعو لي الحكم ؟ قال : فانطلق الرسول ، قال : فأقبل الحكم إليه ، قال : فدخل عليه ، قال : فقال عمران للحكم : أسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة لأحد في معصية الله » ؟ قال : نعم . فقال عمران : لله الحمد ، أو الله أكبر . ولفظ الحارث : أراد زياد أن يبعث عمران بن حصين على خراسان ، فأبى عليه ، فبعث الحكم عليها ، فانقاد لأمره ، فقال عمران : ألا أحد يدعو لي الحكم ، فانطلق الرسول ، فاستقبله الحكم ، فجاء إلى عمران ، فقال له عمران : أسمعت النبي ﷺ يقول : « لا طاعة لأحد في معصية الله » . قال : نعم ، فلله الحمد ، أو : الحمد لله ، أو : الله أكبر .

وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (٩١٤٢ـ ٩١٤٤) .

ولـه شواهد :

١ـ رواه الطيالسي (١٠٩) والإمام أحمد (٧٢٤ و١٠٦٥ و١٠٩٥) والبخاري (٧٢٥٧) ومسلم =

. . . .

= (١٨٤٠) وأبو داود (٢٦٢٥) والنسائي (٧/ ١٥٩) وعلي بن الجعد في المسند (٨٩٤) والبزار في البحر الزخار (٥٨٦ و٥٨٩) وأبو يعلى (٢٧٩ و٣٧٧) وابن حبان (٤٥٦٧) وأبو نعيم في الحلية (٣٨/٥) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً ، وأمَّر عليهم رجلاً ، فأوقد ناراً ، فقال : ادخلوها . فأراد ناسٌ أن يدخلوها ، وقال آخرون : إنما فررنا منها . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة » . وقال للآخرين قولاً حسناً ، وقال : « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف » . ورواية بعضهم مختصرة .

٢ـ رواه ابن أبي شيبة (٣٣٧٠٧) والترمذي (١٧٠٧) (باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وابن ماجة (٢٨٦٤) من طريق عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر رفعه : « والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصيةٍ فلا سمع عليه ولا طاعة » . وقال الترمذي : وفي الباب عن علي ، وعمران بن حصين ، والحكم بن عمرو الغفاري ، وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٣ـ رواه الإمام أحمد (٣/ ٢١٣) وأبو يعلى (٤٠٤٦) من طريق عبد الصمد ، عن حرب بن شداد البصري ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن عمرو بن زينب العنبري : أن أنس بن مالك حدثه أن معاذاً قال : يا رسول الله ، أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك ، ولا يأخذون بأمرك ، فما تأمر في أمرهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا طاعة لمن لم يطع الله » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩١٤١) : فيه : عمرو بن زينب ، ولم أعرفه ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٢٢) عن محمد بن عبد الملك القرشي ، عن عمر بن أحمد أبو حفص ابن شاهين الواعظ ، عن عبد الله بن عمر بن سعيد الطالقاني ، عن عمار بن عبد المجيد الطالقاني ، عن محمد بن مقاتل الرازي ، عن أبي العباس جعفر بن هارون الواسطي ، عن سمعان بن المهدي ، عن أنس بن مالك رفعه : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

٤ـ رواه الإمام أحمد وابنه (١/ ٤٠٠) والبيهقي في السنن (٣/ ١٢٧) والدلائل له (٦/ ٣٩٦) عن محمد بن الصباح الدولابي ، عن إسماعيل بن زكريا بن مرّة الخُلقاني الأسدي ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه [لم يسمع من أبيه] ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه سيلي أمركم من بعدي رجالٌ يطفؤون السنة ، ويحدثون بدعة ، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها » . قال ابن مسعود : يا رسول الله ، كيف بي إذا أدركتهم ؟ قال : « ليس يا ابن أم عبد طاعة لمن عصى الله » . قالها ثلاث مرات .

ورواه عبد الرزاق (٣٧٨٨) وعنه الإمام أحمد (١/ ٤٠٩) عن معمر ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم ، عن القاسم بن عبد الرحمن [لم يسمع من جدّه] ، عن ابن مسعود : أن النبي ﷺ قال : « كيف بك يا أبا عبد الرحمن إذا كان عليك أمراء يُضَيِّعُونَ السُّنَّة ، ويُؤَخِّرُون الصلاة عن ميقاتها ؟ » . قال : كيف تأمرني يا رسول الله ؟ قال : « تسألني ابن أم عبد ، كيف تفعل ؟ لا طاعة

. . . .

* * *

= لمخلوق في معصية الله عزَّ وجلَّ » .

ورواه الطبراني في الكبير (١٠٣٦١) عن محمد بن علي الصائغ المكي ، عن إبراهيم بن محمد الشافعي ، عن داود بن عبد الرحمن العطار ، عن ابن خيثم ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن جده : أن النبي ﷺ قال : « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، ويحدثون البدع » . قال : فكيف أصنع إن أدركتهم ؟ قال : « تسألني ابن أم عبد ، كيف تصنع ؟ لا طاعة لمن عصى الله » .

ورواه ابن ماجة (٢٨٦٥) عن سويد بن سعيد ، عن يحيى بن سليم ، ورواه عن هشام بن عمار ، عن إسماعيل بن عياش ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن مسعود : أن النبي ﷺ قال : « سيلي أموركم بعدي رجال : يطفؤون السنة ، ويعملون بالبدعة ، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها » . فقلت : يا رسول الله ، إن أدركتهم كيف أفعل ؟ قال : « تسألني يا ابن أم عبد ، كيف تفعل ؟ لا طاعة لمن عصى الله » .

أقول : وسئل الدارقطني كما في علله (٥/ ١٥٥) عن حديث علقمة ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . فقال : يرويه إبراهيم النخعي ، واختلف عنه : فرواه سماك ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله . قاله هشيم وجرير ، عن مغيرة . ورفعه علي بن قرين وكان ضعيفاً ـ ، عن هشيم . وقال أبو الأحوص : عن مغيرة ، عن سماك ، عن إبراهيم ، عن عبد الله ، ولم يذكر علقمة . وكذلك قال أبو معاوية : عن الأعمش ، عن إبراهيم . ورواه جرير ، عن الأعمش ، وذكر فيه علقة . والصحيح عن علقمة عن ابن مسعود موقوف . وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (١٢٨٠) .

٥ـ رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٢٥) والبزار (٢٧٣١) والطبراني في الأوسط (٢٨٩٤) والحاكم (٣/ ٣٥٦ و٣٥٧) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . وفي إسناده : عبد الله بن عثمان بن خثيم .

الْمَقَالَةُ التَّاسِعَةُ وَالأَرْبَعُوْنَ

فِي ذَمِّ النَّوْمِ

مَنِ اخْتَارَ النَّوْمَ عَلَى الَّذِي هُوَ سَبَبُ اليَقَظَةِ فَقَدِ اخْتَارَ الأَنْقَصَ وَالأَدْنَى وَاللُّحُوْقَ بِالْمَوْتِ وَالغَفْلَةِ عَنْ جَمِيْعِ الْمَصَالِحِ ، لأَنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ .

وَلِهَذَا لاَ يَجُوْزُ النَّوْمُ عَلَى اللهِ لَمَّا انْتَفَى عزَّ وجلَّ عَنِ النَّقَائِصِ أَجْمَعْ[١] .

وَكَذَلِكَ الْمَلاَئِكَةُ لَمَّا قَرُبُوا مِنْهُ عزَّ وجلَّ نَفَى النَّوْمَ عَنْهُمْ .

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَمَّا كَانُوا فِي أَرْفَعِ الْمَوَاضِعِ[٢] وَأَطْهَرِهَا وَأَنْفَسِهَا وَأَكْرَمِهَا نَفَى النَّوْمَ عَنْهُمْ لِكَوْنِهِ نَقْصاً فِي حَالَتِهِمْ .

فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِي اليَقَظَةِ ، وَالشَّرُّ كُلُّ الشَّرِّ فِي النَّوْمِ وَالغَفْلَةِ .

فَمَنْ أَكَلَ بِهَوَاهُ أَكَلَ كَثِيْراً فَشَرِبَ كَثِيْراً فَنَامَ كَثِيْراً فَنَدِمَ كَثِيْراً طَوِيلاً وَفَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيْرٌ .

وَمَنْ أَكَلَ قَلِيلاً مِنَ الْحَرَامِ كَانَ كَمَنْ أَكَلَ كَثِيْراً مِنَ الْمُبَاحِ بِهَوَاهُ ، لأَنَّ الْحَرَامَ يُغَطِّي الإِيْمَانَ وَيُظْلِمُهُ كَالْخَمْرِ يُظْلِمُ العَقْلَ وَيُغَطِّيهِ ، فَإِذَا أَظْلَمَ الإِيْمَانُ فَلاَ صَلاَةَ وَلاَ عِبَادَةَ وَلاَ إِخْلاَصَ .

وَمَنْ أَكَلَ مِنَ الْحَلاَلِ كَثِيْراً بِالأَمْرِ كَانَ كَمَنْ أَكَلَ مِنْهُ قَلِيْلاً فِي النَّشَاطِ وَالعِبَادَةِ وَالقُوَّةِ .

فَالْحَلاَلُ نُوْرٌ فِي نُوْرٍ ، وَالْحَرَامُ ظُلْمَةٌ فِي ظُلْمَةٍ ، لاَ خَيْرَ فِيْهِ .

أَكْلُ الْحَلاَلِ[٣] بِهَوَاهُ بِغَيْرِ الأَمْرِ ، وَأَكْلُ الْحَرَامِ مُسْتَجْلِبَانِ لِلنَّوْمِ ، فَلاَ خَيْرَ فِيْهِ .

* * *

(١) في نسخة : (لَمّا انتفت النقائص أجمع عن الله عزَّ وجلَّ) .

(٢) في المطبوع : (المواضيع) .

(٣) في المطبوع : (الحرام) .

المَقَالَةُ الْخَمْسُوْنَ

فِي عِلاَجِ دَفْعِ الْبُعْدِ[١] عَنِ اللهِ تَعَالَى ، وَبَيَانُ كَيْفِيَّةِ التَّقَرُّبِ مِنْهُ تَعَالَى

لاَ يَخْلُو أَمْرُكَ مِنْ قِسْمَيْنِ :

إِمَّا أَنْ تَكُوْنَ غَائِباً عَنِ القُرْبِ مِنَ اللهِ ؛

أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَاصِلاً إِلَيْهِ .

فَإِنْ كُنْتَ غَائِباً عَنْهُ فَمَا قُعُوْدُكَ وَتَوَانِيْكَ عَنِ الْحَظِّ الأَوْفَرِ وَالنَّعِيْمِ وَالعِزِّ الدَّائِمِ وَالكِفَايَةِ الكُبْرَى وَالسَّلاَمَةِ وَالغِنَى وَالدَّلاَلِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ[٢] ؟

فَقُمْ وَأَسْرِعْ فِي الطَّيَرَانِ إِلَيْهِ عزَّ وجلَّ بِجَنَاحَيْنِ :

أَحدهمَا : تَرْكُ اللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْحَرَامِ مِنْهَا وَالْمُبَاحِ وَالرَّاحَاتِ أَجْمَعُ .

وَالآخر : احْتِمَالُ الأَذَى وَالْمَكَارِهِ وَرُكُوبُ العَزِيمَةِ وَالأَشَدِّ ، وَالْخُرُوجُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالإِرَادَاتِ وَالْمُنَى دُنْيَا وَأُخرَى[٣] حَتَّى تَظْفَرَ بِالوُصُوْلِ وَالقُرْبِ ، فَتَجِدُ عِنْدَ ذَلِكَ جَمِيْعَ مَا تَتَمَنَّى ، وَتَحْصُلُ لَكَ الكَرَامَةُ العُظْمَى وَالعِزَّةُ الكُبْرَى ، فَإِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ الوَاصِلِيْنَ إِلَيْهِ عزَّ وجلَّ مِمَّنْ أَدْرَكَتْهُمُ العِنَايَةُ وَشَمِلَتْهُمُ الرِّعَايَةُ وَجَذَبَتْهُمُ الْمَحَبَّةُ وَنَالَتْهُ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ ، فَأَحْسِنِ الأَدَبَ وَلاَ تَغْتَرَّ بِمَا أَنْتَ فِيْهِ ، فَتُقَصِّرَ فِي الْخِدْمَةِ ، وَتَخْلُدَ إِلَى الرُّعُوْنَةِ الأَصْلِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ وَالعَجَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب : ٧٢] . وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾[الإسراء : ١١] .

وَاحْفَظْ قَلْبَكَ مِنَ الالتِفَاتِ إِلَى مَا تَرَكْتَهُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالإِرَادَةِ وَالتَّخَيُّرِ وَتَرْكِ الصَّبْرِ وَالْمُوَافَقَةِ وَالرِّضَا عِنْدَ نُزُولِ البَلاَءِ .

---

(١) في المطبوع : (في علامة دفع العبد) . وفي نسخة : (في علاج دفع العبد) .
(٢) في المطبوع : (والأخرى) .
(٣) في نسخة : (وآخرة) .

وَاسْتَطْرِحْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ كَالكُرَةِ بَيْنَ يَدَيِ الفَارِسِ يُقَلِّبُهَا بِصَوْلَجَانِهِ ، وَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدَيِ الغَاسِلِ ، وَالطِّفْلِ الرَّضِيعِ فِي حُجْرِ أُمِّهِ وَظِئْرِهِ .

تَعَامَى عَمَّنْ سِوَاهُ عزَّ وجلَّ فَلاَ تَرَى لِغَيْرِهِ وُجُوداً وَلا ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ عَطَاءً وَلاَ مَنْعاً .

اجْعَلِ الْخَلِيقَةَ وَالأَسْبَابَ عِنْدَ الأَذِيَّةِ وَالبَلِيَّةِ كَسَوْطِهِ عزَّ وجلَّ يَضْرِبُكَ بِهِ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَالعَطِيَّةِ كَيَدِهِ يُلَقِّمُكَ بِهَا .

* * *



المَقَالَةُ الحَادِيَةُ وَالخَمْسُونَ
فِي الزُّهْدِ

الزَّاهِدُ يُثَابُ بِسَبَبِ الأَقْسَامِ مَرَّتَيْنِ : يُثَابُ فِي تَرْكِهَا أَوَّلاً ، فَلاَ يَأْخُذُهَا بِهَوَاهُ وَمُوَافَقَةِ النَّفْسِ ، بَلْ يَأْخُذُهَا بِمُجَرَّدِ الأَمْرِ ، فَإِذَا تَحَقَّقَتْ عَدَاوَتُهُ لِنَفْسِهِ وَمُخَالَفَتُهُ لِهَوَاهُ عُدَّ مِنَ المُحَقِّقِينَ[1] وَأَهْلِ الوِلاَيَةِ وَأُدْخِلَ فِي زُمْرَةِ الأَبْدَالِ وَالعَارِفِينَ فَأُمِرَ[2] حِينَئِذٍ بِتَنَاوُلِهَا وَالتَّلَبُّسِ بِهَا ، إِذْ هِيَ قِسْمَةٌ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْهَا لَمْ تُخْلَقْ لِغَيْرِهِ ، جَفَّ بِهَا القَلَمُ وَسَبَقَ بِهَا العِلْمُ ، فَإِذَا امْتَثَلَ الأَمْرَ فَتَنَاوَلَ أَوِ اطَّلَعَ بِالعِلْمِ فَتَلَبَّسَ بِهَا بِجَرَيَانِ القَدَرِ وَالفِعْلِ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُوَ فِيهِ ، لاَ هَوًى وَلاَ إِرَادَةَ وَلاَ هِمَّةَ أُثِيبَ بِذَلِكَ ثَانِياً ، هُوَ مُمْتَثِلٌ لِلأَمْرِ بِذَلِكَ أَوْ مُوَافِقٌ لِفِعْلِ الحَقِّ عزَّ وجلَّ فِيهِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ أَطْلَقْتَ القَوْلَ بِالثَّوَابِ لِمَنْ هُوَ فِي المَقَامِ الأَخِيرِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ مِنْ أَنَّهُ أُدْخِلَ فِي زُمْرَةِ الأَبْدَالِ وَالعَارِفِينَ المَفْعُولِ فِيهِمْ ، الفَانِينَ عَنِ الخَلْقِ وَالأَنْفُسِ وَالأَهْوِيَةِ وَالإِرَادَاتِ وَالحُظُوظِ وَالأَمَانِيِّ وَالأَعْوَاضِ عَلَى الأَعْمَالِ الَّذِينَ يَرَوْنَ جَمِيعَ طَاعَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ فَضْلاً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وَنِعْمَةً وَرَحْمَةً وَتَوْفِيقاً وَتَيْسِيراً مِنْهُ عزَّ وجلَّ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَالعَبْدُ لاَ يَسْتَحِقُّ عَلَى مَوْلاَهُ حَقّاً ، إِذْ هُوَ بِرُمَّتِهِ مَعَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَأَكْسَابِهِ مُلْكٌ لِمَوْلاَهُ ، فَكَيْفَ يُقَالُ فِي حَقِّهِ : يُثَابُ ، وَهُوَ لاَ يَطْلُبُ ثَوَاباً وَلاَ عِوَضاً عَلَى فِعْلِهِ وَلاَ يَرَى لَهُ عَمَلاً ، بَلْ يَرَى نَفْسَهُ مِنَ البَطَّالِينَ وَأَفْلَسِ المُفْلِسِينَ مِنَ الأَعْمَالِ ؟ .

فَنَقُولُ : صَدَقْتَ ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُوَاصِلُهُ بِفَضْلِهِ وَيُدَلِّلُهُ بِنِعَمِهِ وَيُرَبِّيهِ بِلُطْفِهِ وَرَأْفَتِهِ وَبِرِّهِ وَرَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ ، إِذْ كَفَّ يَدَهُ عَنْ مَصَالِحِ نَفْسِهِ وَطَلَبِ الحُظُوظِ لَهَا وَجَلْبِ النَّفْعِ إِلَيْهَا وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْهَا ، فَهُوَ كَالطِّفْلِ الرَّضِيعِ الَّذِي لاَ حَرَاكَ لَهُ فِي مَصَالِحِ نَفْسِهِ ، وَهُوَ مُدَلَّلٌ

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (المحقين) .

(٢) في المطبوع : (أمر) .

بِفَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَرَزَقَهُ الدَّارَ عَلَى يَدَي وَالِدَيْهِ الوَكِيلَيْنِ الكَفِيلَيْنِ ، فَلَمَّا سَلَبَ عَنْهُ مَصَالِحَ نَفْسِهِ عَطَّفَ قُلُوبَ الخَلْقِ عَلَيْهِ وَأَوْجَدَ رَحْمَةً وَشَفَقَةً لَهُ فِي القُلُوبِ حَتَّى كُلّ وَاحِدٍ يَرْحَمُهُ وَيَتَعَطَّفُ عَلَيْهِ وَيُبِرُّهُ ، فَهَكَذَا الكُلُّ فَانٍ عَنْ سِوَى اللهِ الَّذِي لاَ يُحَرِّكُهُ غَيْرُ أَمْرِهِ أَوْ فِعْلِهِ ، مُوَاصِلٌ بِفَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ دُنْيَا وَأُخرَى[1] ، مُدَلَّلٌ فِيهِمَا ، مَدْفُوعٌ عَنْهُ الأَذَى ، مُتَوَلًّى . قال تَعَالَى : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

* * *



(١) في نسخة : (وآخرة) .

الْمَقَالَةُ الثَّانِيَةُ وَالْخَمْسُوْنَ
فِي سَبَبِ ابْتِلاَءِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ

إِنَّمَا يَبْتَلِي اللهُ طَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ الأَحْبَابِ مِنْ أَهْلِ الوِلاَيَةِ لِيَرُدَّهُمْ بِالبَلاَءِ إِلَى السُّؤَالِ فَيُحِبُّ سُؤَالَهُمْ ، فَإِذَا سَأَلُوا يُحِبُّ إِجَابَتَهُمْ فَيُعْطِي الكَرَمَ وَالْجُوْدَ حَقَّهُمَا لأَنَّهُمَا يُطَالِبَانِ ؛ لأَنَّهُ عزَّ وجلَّ عِنْدَ سُؤَالِ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنَ الإِجَابَةِ ، وَقَدْ تَحْصُلُ الإِجَابَةُ وَلاَ يَحْصُلُ النَّقْدُ وَالنَّقَادُ لِتَعْوِيْقِ القَدَرِ لاَ عَلَى وَجْهِ عَدَمِ الإِجَابَةِ وَالْحِرْمَانِ ، فَلْيَتَأَدَّبِ العَبْدُ عِنْدَ نُزُوْلِ البَلاَءِ ، وَلْيُفَتِّشْ عَنْ ذُنُوْبِهِ فِي تَرْكِ الأَوَامِرِ وَارْتِكَابِ الْمَنَاهِي مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْمُنَازَعَةِ فِي القَدَرِ إِذَا[1] تَعَاقَبَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا يُبْتَلَى بِذَلِكَ مُقَابَلَةً ، فَإِنِ انْكَشَفَ البَلاَءُ وَإِلاَّ فَلْيَلْتَجِىءْ[2] إِلَى الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالاعْتِذَارِ فَيُدِيْمُ السُّؤَالَ لِجَوَازِ أَنْ يَكُوْنَ ابْتِلاَهُ لِيَسْأَلَهُ ، وَلاَ يَتَّهِمهُ لِتَأْخِيْرِ الإِجَابَةِ لِمَا بَيَّنَّاهُ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *

(١) تحرف في المطبوع إلى : (إذ) .

(٢) في المطبوع : (فليتخذ) .

المَقَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالْخَمْسُوْنَ
فِي الأَمْرِ بِطَلَبِ الرِّضَا مِنَ[١] اللهِ وَالفَنَاءِ بِهِ تَعَالَى

اطْلُبُوا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ الرِّضَا أَوِ الفَنَاءَ ، لأَنَّهُ هُوَ الرَّاحَةُ الكُبْرَى وَالْجَنَّةُ العَالِيَةُ الْمُنْفَرِدَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ بَابُ اللهِ الأَكْبَرُ وَعِلَّةُ مَحَبَّةِ اللهِ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ ، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ لَمْ يُعَذِّبْهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فِيهِ اللُّحُوقُ بِاللهِ عزَّ وجلَّ وَالوُصُوْلُ إِلَيْهِ .

وَلاَ تَشْتَغِلُوا بِطَلَبِ الْحُظُوْظِ وَأَقْسَامٍ لَمْ تُقْسَمْ أَوْ قُسِمَتْ ، فَإِنْ كَانَتْ لَم تُقْسَمْ فَالاشْتِغَالُ بِطَلَبِهَا حُمْقٌ وَرُعُوْنَةٌ وَجَهَالَةٌ ، وَهُوَ أَشَدُّ العُقُوْبَاتِ ، كَمَا قِيْلَ : مِنْ أَشَدِّ العُقُوْبَاتِ طَلَبُ مَا لاَ يُقْسَمُ .

وَإِنْ كَانَتْ مَقْسُوْمَةً فَالاشْتِغَالُ بِهَا شَرَهٌ وَحِرْصٌ وَشِرْكٌ مِنْ بَابِ العُبُوْدِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ الْحَقِيْقِيَّةِ ، لأَنَّ الاشْتِغَالَ بِغَيْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ شِرْكٌ ، وَطَالِبُ الْحَظِّ لَيْسَ بِصَادِقٍ فِي مَحَبَّتِهِ وَوِلاَيَتِهِ فَمَنِ احْتَاجَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ فَهُوَ كَذَّابٌ ، وَطَالِبُ العِوَضِ عَلَى عَمَلِهِ غَيْرُ مُخْلِصٍ ، وَإِنَّمَا الْمُخْلِصُ مَنْ عَبَدَ اللهَ لِيُعْطِيَ الرُّبُوْبِيَّةَ حَقَّهَا وَتَعَبُّدَهُ لِلْمَالِكِيَّةِ وَالْحَقِّيَّةِ[٢] ، لأَنَّ الْحَقَّ عزَّ وجلَّ يَمْلِكُهُ وَيَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْعَمَلَ وَالطَّاعَةَ لَهُ بِحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَسَائِرِ أَكْسَابِهِ ، وَالعَبْدُ وَمَا فِي يَدِهِ مُلْكٌ لِمَوْلاَهُ ، كَيْفَ وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ العِبَادَاتِ بِأَسْرِهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ وَفَضْلٌ مِنْهُ عَلَى عَبْدِهِ إِذْ وَفَّقَهُ لَهَا وَأَقْدَرَهُ عَلَيْهَا ، فَالاشْتِغَالُ بِالشُّكْرِ لِرَبِّهِ خَيْرٌ وَأَوْلَى مِنْ طَلَبِهِ مِنَ الأَعْوَاضِ أَوِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا .

ثُمَّ كَيْفَ تَشْتَغِلُ بِطَلَبِ الْحُظُوظِ وَقَدْ تَرَى خَلْقاً كَثِيراً كُلَّمَا كَثُرَتِ الْحُظُوظُ عِنْدَهُمْ وَتَوَاتَرَتْ وَتَتَابَعَتِ اللَّذَّاتُ وَالنِّعَمُ وَالأَقْسَامُ إِلَيْهِمْ زَادَ سُخْطُهُمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَتَضَجُّرُهُمْ وَكُفْرُهُمُ النِّعْمَةِ وَكَثْرَةُ هُمُومِهِمْ وَغُمُوْمِهِمْ ، وَفَقْرُهُمْ إِلَى أَقْسَامٍ لَمْ تُقْسَمْ غَيْرَ مَا عِنْدَهُمْ وَحَقُرَتْ

---

(١) في نسخة : (عن) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (والحقيقة) .

وَصَغُرَتْ وَقَبُحَتْ أَقْسَامُهُمْ عِنْدَهُمْ وَعَظُمَتْ وَكَبُرَتْ وَحَسُنَتْ أَقْسَامُ غَيْرِهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَعْيُنِهِمْ فَشَرَعُوا فِي طَلَبِهَا ، فَذَهَبَتْ أَعْمَارُهُمْ وَانْحَلَّتْ قِوَاهُمْ ، وَكَبُرَتْ سِنُّهُمْ وَشُتِّتَتْ أَحْوَالُهُمْ وَتَعِبَتْ أَجْسَادُهُمْ وَعَرِقَتْ جِبَاهُهُمْ وَسُوِّدَتْ صَحَائِفُهُمْ بِكَثْرَةِ آثَامِهِمْ وَارْتِكَابِ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ فِي طَلَبِهَا وَتَرْكِ أَوَامِرِ رَبِّهِمْ ، فَلَمْ يَنَالُوهَا وَخَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا مَفَالِيسَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ، لاَ شَكَرُوا رَبَّهُمْ فِيمَا قَسَمَ لَهُمْ مِنْ أَقْسَامِهِمْ فَاسْتَعَانُوا عَلَى طَاعَتِهِ ، وَمَا نَالُوا بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ ، وَمَا نَالُوا مَا طَلَبُوا مِنْ أَقْسَامِ غَيْرِهِمْ ، بَلْ ضَيَّعُوا دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتَهُمْ ، فَهُمْ أَشَرُّ الْخَلِيقَةِ وَأَجْهَلُهُمْ وَأَحْمَقُهُمْ وَأَخَسُّهُمْ عُقُولاً وَبَصِيرَةً ، فَلَو أَنَّهُمْ رَضُوا بِالْقَضَاءِ وَقَنِعُوا بِالعَطَاءِ وَأَحْسَنُوا طَاعَةَ الْمَوْلَى لأَتَتْهُمْ أَقْسَامُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلاَ عَنَاءٍ ، ثُمَّ نُقِلُوا إِلَى جِوَارِ العَلِيِّ الأَعْلَى فَوَجَدُوا عِنْدَهُ كُلَّ مُرَادٍ وَمُنَى .

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ رَضِيَ بِالقَضَاءِ ، وَجَعَلَ سُؤَالَهُ ذَلِكَ وَالفَنَاءَ وَحِفْظَ الْحَالِ وَالتَّوفِيقَ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَى .

* * *

الْمَقَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالْخَمْسُوْنَ
فِيْمَنْ أَرَادَ الوُصُولَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَبَيَانُ كَيْفِيَّةِ الوُصُوْلِ إِلَيْهِ تَعَالَى

مَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ فَعَلَيْهِ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا

وَمَنْ أَرَادَ اللهَ فَعَلَيْهِ بِالزُّهْدِ فِي الآخِرَةِ ؛ فَيَتْرُكُ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ وَآخِرَتَهُ لِرَبِّهِ .

فَمَا دَامَ فِي قَلْبِهِ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، وَلَذَّةٌ مِنْ لَذَّاتِهَا ، وَطَلَبَ رَاحَةٍ مِنْ رَاحَتِهَا مِنْ سَائِرِ الأَشْيَاءِ مِنْ مَأْكُوْلٍ أَوْ مَشْرُوبٍ وَمَلْبُوسٍ وَمَنْكُوحٍ وَمَسْكُوْنٍ وَمَرْكُوبٍ ، وَوِلاَيَةٍ وَرِيَاسَةٍ وَطَبَقَةٍ فِي عِلْمٍ مِنْ فُنُونِ العِلْمِ مِنَ الفِقْهِ فَوْقَ العِبَادَاتِ الْخَمْسِ ، وَرِوَايَةِ الْحَدِيْثِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ بِرِوَايَتِهِ ، وَالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالفَصَاحَةِ وَالبَلاَغَةِ ، وَزَوَالِ الفَقْرِ وَوُجُودِ الغِنَى وَذَهَابِ البَلِيَّةِ وَمَجِيءِ العَافِيَةِ .

وَفِي الْجُمْلَةِ : انْكِشَافُ الضُّرِّ ، وَمَجِيءُ النَّفْعِ ، فَلَيْسَ بِزَاهِدٍ حَقّاً لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ فِيْهِ : لَذَّةُ النَّفْسِ ، وَمُوَافَقَةُ الْهَوَى ، وَرَاحَةُ الطَّبْعِ ، وحُبٌّ لَهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمِمَّا يُحَبِّبُ البَقَاءَ فِيْهَا وَيُحَصِّلُ السُّكُوْنَ وَالطُّمَأْنِيْنَةَ إِلَيْهَا ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُجَاهِدَ فِي إِخْرَاجِ جَمِيْعِ ذَلِكَ عَنِ القَلْبِ ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِإِزَالَةِ ذَلِكَ وَقَلْعِهِ وَالرِّضَا بِالعَدَمِ وَالإِفْلاَسِ وَالفَقْرِ الدَّائِمِ ، فَلاَ يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ مِقْدَارُ مَصِّ نُوَاةٍ لِيُخْلِصَ زُهْدَهُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ زَالَتِ الغُمُوْمُ وَالأَحْزَانُ مِنَ القَلْبِ وَالكُرَبُ مِنَ الحَشَا ، وَجَاءَتِ الرَّاحَاتُ وَالطِّيْبُ وَالأُنْسُ بِاللهِ كَمَا قَالَ ﷺ :

« الزُّهْدُ[1] فِي الدُّنْيَا يُرِيْحُ القَلْبَ وَالْجَسَدَ »[2] .

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (الزاهد) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٢٨٨) عن أبي بكر بن مالك ، عن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : حدثني علي بن مسلم ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا مالك قال : قال عبد الله الداري ، يا مالك ، أبى علينا أهل العلم بالله والقبول عنه : أن يقبلوا من أهل الدنيا التقشف ، وزعموا أن ذلك لا يليق بهم ، ولا يحسن عليهم . قال : وسمعت عبد الله الداري يقول : كان أهل العلم بالله والقبول=

= منه يقولون : إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، وإن الشبع يُقَسّي القلب ويفتر البدن .

ورواه الإمام أحمد في الزهد (٥٠) . ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٧٦) ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٣٦) عن الهيثم بن خالد البصري ، كلاهما عن الهيثم بن جميل ، عن محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن ميسرة ، عن طاووس قال : قال رسول الله ﷺ : « (إن) [من الزهد] الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، و(إن) الرغبة في الدنيا تطيل [في شعب : يطيل] الهم والحزن » . وقال البيهقي : هذا مرسل .

ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٠٥) عن محمد بن علي بن الحسن ، عن إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يذكر عن النبي ﷺ قال : « الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تُكْثِرُ الهمَّ والْحَزَنَ » . وقال البيهقي في الشعب (١٠٥٣٧) : ورواه أيضاً فضيل بن عياض عن النبي ﷺ منقطعاً ، وقد رُوِيَ موصولاً من وجهٍ آخر .

ورواه ابن عدي في الكامل (١/ ٣٦٧) ومن طريقه البيهقي في الشعب (١٠٥٣٨) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٤٣) عن موسى بن عيسى الجزري ، عن صهيب بن محمد بن عبّاد ، عن يحيى بن محمد العبدي ، ورواه البيهقي (١٠٥٣٨) عن أبي عبد الله الحاكم ، عن أبي الفضل محمد بن إبراهيم بن الفضل ، عن أبي زيد أحمد بن صالح الجوهري النيسابوري ، عن إسحاق بن منصور ، عن يحيى بن بسطام ، كلاهما عن الأشعث بن براز ، عن علي بن زيد بن الجدعان ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن » . وقال ابن الجوزي : هذا حديثٌ لا يصح عن رسول الله ﷺ ، قال أحمد : علي بن زيد ، ليس بشيء . قال يحيى : علي وأشعث ليسا بشيء .

ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ٣٩٤) عن محمد بن زكريا الغلابي ، عن يحيى بن بسطام المصفر ، عن أشعث بن براز ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رفعه : « الزهادة تريح القلب والبدن » . ورواه الطبراني في الأوسط (٦١١٦) عن محمد بن زكريا الغلابي ، عن يحيى بن بسطام الأصفر قال : حدثنا أشعث بن بُرَاز الْهُجَيْمِيّ البصري ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رفعه : « الزهد في الدنيا يريح القلب والجسد » . وقال الطبراني : تفرد به يحيى بن بسطام . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠٥٨) : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه : أشعث بن بُرَاز [في المطبوع : نزار ، خطأ] ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم .

أقول : أشعث بن بُرَاز ، قال عنه ابن معين : ليس بشيء . وقال البخاري : منكر الحديث . وقال عمرو بن علي : ضعيفٌ جداً . وقال أبو حاتم الرازي وأبو زرعة : ضعيف الحديث . وقال النسائي : متروك الحديث . **ويحيى بن بسطام** الأصفر أو المصفر ، وهو ابن بسطام بن حريث الزهراني البصري : قال البخاري : كان يذكر بالقدر . وقال ابن حيان : لا تحل الرواية عنه لأنه داعية

فَمَا دَامَ فِي قَلْبِهِ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ فَالْهُمُومُ وَالْخَوْفُ وَالوَجَلُ قَائِمٌ فِي القَلْبِ وَالْخُذْلاَنُ لاَزِمٌ لَهُ ، وَالْحِجَابُ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَعَنْ قُرْبِهِ مُتَكَاثِفٌ مُتَرَاكِمٌ فَلاَ يَنْكَشِفُ جَمِيعُ ذَلِكَ إلاَّ بِزَوَالِ حُبِّ الدُّنْيَا عَلَى الكَمَالِ وَقَطْعِ العَلاَئِقِ بِإِثْرِهَا ، ثُمَّ يَزْهَدُ فِي الآخِرَةِ ، فَلاَ يَطْلُبُ الدَّرَجَاتِ وَالْمَنَازِلَ العَالِيَاتِ الْحُورُ وَالوِلْدَانُ وَالقُصُورُ وَالبَسَاتِينُ وَالْمَرَاكِبُ وَالْخَيْلُ وَالْحِلِيُّ وَالْمَآكِلُ وَالْمَشَارِبُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا أَعَدَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلاَ يَطْلُبُ عَلَى عَمَلِهِ جَزَاءً أَوْ أَجْراً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أَلْبَتَّةَ وَلاَ دُنْيَا وَلاَ أُخْرَى ، فَحِينَئِذٍ يَجِدُ اللهَ عزَّ وجلَّ فَيُؤْتِيهِ حِسَابَهُ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً ، فَيُقَرِّبُهُ مِنْهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْطُفُ بِهِ وَيَتَعَرَّفُ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ أَلْطَافِهِ وَبِرِّهِ كَمَا هُوَ دَأْبُهُ عزَّ وجلَّ مَعَ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَوَاصِّهِ وَأَحْبَابِهِ أُولِي العِلْمِ بِهِ عزَّ وجلَّ فَيَكُونُ العَبْدُ كُلَّ يَوْمٍ فِي مَزِيدِ أَمْرِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ، ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى دَارِ الآخِرَةِ إِلَى مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، مِمَّا تَضِيقُ عَنْهُ الأَفْهَامُ وَتَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهِ العِبَارَاتُ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

= إلى القدر ، ولأن في روايته مناكير . وسأل ابن أبي حاتم أباه في الجرح والتعديل (٩/ ١٣٢) فقال : شيخ صدوق ، ما بحديثه بأس ، قدري ، أدخله البخاري في كتاب الضعفاء . فسمعت أبي يقول : يُحول من هناك . وقال ابن حجر في لسان الميزان (٦/ ٢٤٣) : قال أبو داود : تركوا حديثه ، قال له المعتمر بن سليمان : أنت قدري ؟ قال : نعم .

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٢٧٨) من طريق أبي عتبة أحمد بن الفرج الحمصي ، عن بقية بن الوليد ، عن بكر بن خنيس ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو رفعه : « الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والبطالة تقسي القلب » .

ورواه ابن المبارك في الزهد (٥٩٣) ومن طريقه ابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين (٥٢) عن بقية بن الوليد ، أن عمر بن الخطاب قال : الزهادة راحة للقلب والجسد .

ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣١) ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٦٠٩) عن محمد بن ناصح [في الشعب : ناجح] ، عن بقية بن الوليد ، عن محمد بن مرّة [شعب : مسره] التستري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الزُّهدُ في الدنيا راحةُ القلب [شعب : للقلب] والبدن .

ورواه البيهقي في الزهد الكبير (٢٦) عن أبي عبد الله الحافظ ، عن إبراهيم بن عصمة بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن يحيى بن يحيى ، عن ابن السماك قال : بلغني أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري : أن عظني وأوجز ، قال : فكتب إليه الحسن : أما بعد ، فإن الدنيا مشغلة للقلب والبدن ، وإن الزهد راحةٌ للقلب والبدن ، وإن الله سائلنا عن الذي نعمنا في حلاله ، فكيف بما نعمنا في حرامه ؟! » . وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (٢٤٣٦) : قال الحسن : الزُّهْدُ في الدُّنْيا يُرِيحُ القَلْبَ وَالبَدَنَ .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةُ وَالْخَمْسُوْنَ
فِي تَرْكِ الْحُظُوْظِ

تَرْكُ الْحُظُوْظِ ثَلاَثُ مَرَّاتٍ :

الأُوْلَى : يَكُوْنُ العَبْدُ مَارّاً فِي عَشْوَاهُ مُتَخَبِّطاً فِيْهِ مُنْصَرِفاً بِطَبْعِهِ فِي جَمِيْعِ أَحْوَالِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبُّدٍ لِرَبِّهِ وَلاَ زِمَامٍ[١] فِي الشَّرْعِ يَرُدُّهُ ، وَلاَ حَدٌّ مِنَ الْحُدُوْدِ[٢] يَنْتَهِي إِلَيْهِ عَنْ حُكْمِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ - يَعْنِي : يَرْحَمُهُ - ، فَيَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ وَاعِظاً مِنْ خَلْقِهِ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِيْنَ فَيُنَبِّهُهُ وَيُثَنِّيْهِ بِوَاعِظٍ مِنْ نَفْسِهِ ، فَيَتَضَافَرُ الوَاعِظَانِ عَلَى نَفْسِهِ وَطَبْعِهِ ، فَتَعْمَلُ الْمَوْعِظَةُ عَمَلَهَا ، فَتَبِيْنُ[٣] عِنْدَهَا عَيْبُ مَا هِيَ فِيْهِ مِنْ رُكُوبِ مَطِيَّةِ الطَّبْعِ وَالْمُخَالَفَةِ ، فَتَمِيْلُ إِلَى الشَّرْعِ فِي جَمِيْعِ تَصَرُّفَاتِهَا فَيَصِيْرُ العَبْدُ مُسْلِماً قَائِماً مَعَ الشَّرْعِ فَانِياً عَنِ الطَّبْعِ ، فَيَتْرُكُ حَرَامَ الدُّنْيَا وَشُبُهَاتِهَا وَمِنَنَ الْخَلْقِ ، فَيَأْخُذُ مُبَاحَ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ وَحَلاَلَ الشَّرْعِ فِي مَآكِلِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَنْكَحِهِ وَمَسْكَنِهِ وَجَمِيْعِ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ ، لِتُحْفَظَ[٤] البُنْيَةُ وَيَتَقَوَّى عَلَى طَاعَةِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ، وَلِيَسْتَوْفِيَ قِسْمَهُ الْمَقْسُومَ لَهُ الَّذِي لاَ يَتَجَاوَزُهُ وَلاَ سَبِيْلَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَ تَنَاوُلِهِ وَالتَّلَبُّسِ بِهِ وَاسْتِيْفَائِهِ فَيَسِيْرُ عَلَى مَطِيَّةِ الْمُبَاحِ وَالْحَلاَلِ بِالشَّرْعِ فِي جَمِيْعِ أَحْوَالِهِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِي بِهِ هَذِهِ الْمَطِيَّةُ إِلَى عَتَبَةِ الوِلاَيَةِ وَالدُّخُوْلِ فِي زُمْرَةِ الْمُحَقِّقِيْنَ وَالْخَوَاصِّ أَهْلِ العَزِيْمَةِ مُرِيْدِي الْحَقِّ ، فَيَأْكُلُ بِالأَمْرِ ، فَحِيْنَئِذٍ يَسْمَعُ نِدَاءً مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ مِنْ بَاطِنِهِ : اتْرُكْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ ، اتْرُكِ الْحُظُوظَ وَالْخَلْقَ إِنْ أَرَدْتَ الْخَالِقَ ، وَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ : دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَتَجَرَّدْ عَنِ الأَكْوَانِ وَالْمَوْجُوْدَاتِ وَمَا سَيُوْجَدُ وَالأَمَانِي بِأَسْرِهَا ، وَتَعَرَّ عَنِ الْجَمِيْعِ ، وَافْنَ عَنِ الكُلِّ وَتَطَيَّبْ بِالتَّوْحِيْدِ ، وَاتْرُكِ الشِّرْكَ وَاصْدُقِ الإِرَادَةَ ، ثُمَّ ادْخُلْ وَطَأْ

(١) تحرف في المطبوع إلى : (ولازم) .
(٢) تحرف في المطبوع إلى : (جده من جدود) .
(٣) في نسخة : (فيتبين) .
(٤) في نسخة : (ليحفظ) .

البِسَاطَ بِالأَدَبِ مُطْرِقاً ، لاَ تَنْظُرْ يَمِيناً إِلَى الآخِرَةِ وَشِمَالاً إِلَى الدُّنْيَا وَلاَ إِلَى الْخَلْقِ وَلاَ إِلَى الْحُظُوظِ ، فَإِذَا دَخَلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَتَحَقَّقَ الوُصُولُ جَاءَتِ الخِلْعَةُ مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ ، وَغَشِيَتْهُ أَنْوَاعُ الْمَعَارِفِ وَالعُلُوْمِ وَأَنْوَاعُ الفَضْلِ ، فَيُقَالُ لَهُ : تَلَبَّسْ بِالنِّعَمِ وَالفَضْلِ وَلاَ تُسِيءِ الأَدَبَ بِالرَّدِّ وَتَرْكِ التَّلَبُّسِ ، لأَنَّ رَدَّ نِعَمِ الْمَلِكِ افْتِيَاتٌ عَلَى الْمَلِكِ وَاسْتِخْفَافٌ[١] بِحَضْرَتِهِ ، وَحِينَئِذٍ يَتَلَبَّسُ بِالفَضْلِ وَالقِسْمَةِ بِاللهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُوْنَ هُوَ فِيْهِ ، وَمِنْ قَبْلُ كَانَ يَتَلَبَّسُ بِهَوَاهُ وَنَفْسِهِ ، فَلَهُ أَرْبَعُ حَالاَتٍ فِي تَنَاوُلِ الْحُظُوظِ وَالأَقْسَامِ :

الأُوْلَى بِالطَّبْعِ ، وَهُوَ الْحَرَامُ .

وَالثَّانِيَةُ بِالشَّرْعِ ، وَهُوَ الْمُبَاحُ الحَلاَلُ .

وَالثَّالِثَةُ بِالأَمْرِ ، وَهِيَ حَالَةُ الوِلاَيَةِ وَتَرْكُ الْهَوَى .

وَالرَّابِعَةُ بِالفَضْلِ ، وَهِيَ حَالَةُ زَوَالِ الإِرَادَةِ وَحُصُوْلُ البَدَلِيَّةِ وَكَوْنِهِ مُرَاداً قَائِماً مَعَ القَدَرِ الَّذِي هُوَ فِعْلُ الْحَقِّ وَهِيَ حَالَةُ العِلْمِ وَالإِتِّصَافِ بِالصَّلاَحِ ، فَلاَ يُسَمَّى صَالِحاً عَلَى الْحَقِيْقَةِ إِلاَّ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٦] . فَهُوَ العَبْدُ الَّذِي كُفَّتْ يَدُهُ عَنْ جَلْبِ مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ وَعَنْ رَدِّ مَضَارِّهِ وَمَفَاسِدِهِ ، كَالرَّضِيْعِ مَعَ الظِّئْرِ ، وَالْمَيْتِ الغَسِيْلِ مَعَ الغَاسِلِ ، فَتَتَوَلَّى يَدُ القَدَرِ تَرْبِيَتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ اخْتِيَارٌ وَتَدْبِيْرٌ ، فَانٍ عَنْ جَمِيْعِ ذَلِكَ لاَ حَالاً وَلاَ مَقَاماً وَلاَ إِرَادَةَ ، بَلِ القِيَامُ مَعَ القُدْرَةِ ، تَارَةً يَبْسِطُ[٢] ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ، وَتَارَةً يُغْنِي ، وَتَارَةً يُفْقِرُ ، وَلاَ يَخْتَارُ وَلاَ يَتَمَنَّى زَوَالَ ذَلِكَ وَتَغْيِيْرَهُ[٣] ، بَلِ الرِّضَا الدَّائِمُ وَالْمُوَافَقَةُ الأَبَدِيَّةُ ، فَهُوَ آخِرُ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ أَحْوَالُ الأَوْلِيَاءِ قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُمْ .

* * *

---

(١) في المطبوع : (افتياتاً على الملك واستخفافاً) .

(٢) في نسخة : (تارة يبسط ، وتارة يغني) .

(٣) في نسخة : (وتغيره) .

الْمَقَالَةُ السَّادِسَةُ وَالْخَمْسُوْنَ

فِي فَنَاءِ العَبْدِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالإِرَادَةِ وَالأَمَانِي

إِذَا فَنِيَ العَبْدُ عَنِ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالإِرَادَةِ وَالأَمَانِي دُنْيَاً وَأُخْرَى وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَخَرَجَ الكُلُّ عَنْ قَلْبِهِ وَصَلَ إِلَى الْحَقِّ وَاصْطَفَاهُ وَاجْتَبَاهُ وَأَحَبَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ ، وجَعَلَهُ يُحِبُّهُ وَيُحِبُّ قُرْبَهُ ، وَيَتَنَعَّمُ بِفَضْلِهِ وَيَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِهِ ، وَفَتَحَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَوَعَدَهُ أَنْ لاَ يُغْلِقَهَا عَنْهُ أَبَداً ، فَيَخْتَارُ العَبْدُ حِينَئِذٍ اللهَ ، وَيُدَبِّرُ بِتَدْبِيرِهِ ، وَيَشَاءُ بِمَشِيئَتِهِ ، وَيَرْضَى بِرِضَاهُ ، وَيَمْتَثِلُ أَمْرَهُ دُوْنَ غَيْرِهِ ، وَلاَ يَرَى لِغَيْرِهِ عزَّ وجلَّ وُجُوداً وَلاَ فِعْلاً ، فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ أَنْ يَعِدَهُ اللهُ بِوَعْدٍ ثُمَّ لاَ يَظْهَرُ لِلْعَبْدِ وَفَاءٌ بِذَلِكَ ، وَلاَ يُغَيِّرُ مَا قَدْ تَوَهَّمَهُ مِنْ ذَلِكَ ، لأَنَّ الغَيْرِيَّةَ قَدْ زَالَتْ بِزَوَالِ الْهَوَى وَالإِرَادَةِ فَصَارَ فِي فِعْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَإِرَادَتِهِ فَيَصِيرُ الوَعْدُ حِينَئِذٍ فِي حَقِّهِ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ كَرَجُلٍ عَزَمَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ وَنَوَاهُ ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ كَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِيمَا أَوْحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ قَوْلَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة : ١٠٦] . لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْزُوعَ الْهَوَى وَالإِرَادَةِ سِوَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ فِي القُرْآنِ مِنَ الأَسْرِ يَوْمَ بَدْرٍ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال : ٦٧ـ٦٨] كَذَا قَالُوا ، وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ مُرَادُ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ لَمْ يُتْرَكْ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ نَقَلَهُ إِلَى القَدَرِ إِلَيْهِ فَصَرَّفَهُ فِي القَدَرِ وَقَلَّبَهُ مِنْهَا ، نَبَّهَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة : ١٠٦] . يَعْنِي : أَنَّكَ فِي بَحْرِ القَدَرِ تُقَلِّبُكَ أَمْوَاجُهُ تَارَةً كَذَا وَتَارَةً كَذَا ، فَمُنْتَهَى أَمْرُ الوَلِيِّ أَمْرُ النَّبِيِّ ، مَا بَعْدَ الوِلاَيَةِ وَالبَدَلِيَّةِ إِلاَّ النُّبُوَّةُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *

الْمَقَالَةُ السَّابِعَةُ وَالْخَمْسُوْنَ

فِي عَدَمِ الْمُنَازَعَةِ فِي الْقَدَرِ وَالأَمْرِ بِحِفْظِ الرِّضَا بِهِ

الأَحْوَالُ قَبْضٌ كُلُّهَا ، لأَنَّهُ يُؤْمَرُ الوَلِيُّ بِحِفْظِهَا وَكُلُّ مَا يُؤْمَرُ بِحِفْظِهِ فَهُوَ قَبْضٌ ، وَالقِيَامُ مَعَ القَدَرِ بَسْطٌ كُلُّهُ ، لأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شَيءٌ يُؤْمَرُ بِحِفْظِهِ سِوَى كَوْنِهِ مَوْجُوداً فِي القَدَرِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ لاَ يُنَازِعَ فِي القَدَرِ بَلْ يُوَافِقُ وَلاَ يُنَازِعُ فِي جَمِيْعِ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِمَّا يَحْلُو وَيَمُرُّ ، الأَحْوَالُ مَعْدُوْدَةٌ فَأَمَرَ بِحِفْظِ حُدُوْدِهَا ، وَالفَضْلُ الَّذِي هُوَ القَدَرُ غَيْرُ مَحْدُوْدٍ فَيُحْفَظُ .

وَعَلاَمَةُ أَنَّ العَبْدَ دَخَلَ مَقَامَ القَدَرِ وَالفِعْلِ وَالبَسْطِ أَنَّهُ يُؤْمَرُ بِالسُّؤَالِ فِي الْحُظُوظِ بَعْدَ أَنْ أُمِرَ بِتَرْكِهَا وَالزُّهْدِ فِيهَا ، لأَنَّهُ لَمَّا خَلاَ بَاطِنُهُ مِنَ الْحُظُوْظِ وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ غَيْرُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ بُوسِطَ ، فَأُمِرَ بِالسُّؤَالِ وَالتَّشَهِّي وَطَلَبِ الأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ قِسْمَةٌ ، وَلاَ بُدَّ مِنْ تَنَاوُلِهَا وَالتَّوَصُّلِ إِلَيْهِ بِسُؤَالِهِ ، لِيَتَحَقَّقَ كَرَامَتُهُ عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ وَمَنْزِلَتُهُ ، وَامْتِنَانُ الحَقِّ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِ بِإِجَابَتِهِ إِلَى ذَلِكَ . وَالإِطْلاَقُ بِالسُّؤَالِ فِي عَطَاءِ الْحُظُوظِ مِنْ أَكْثَرِ عَلاَمَاتِ البَسْطِ بَعْدَ القَبْضِ ، وَالإِخْرَاجُ مِنَ الأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ وَالتَّكْلِيفِ فِي حِفْظِ الْحُدُودِ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى زَوَالِ التَّكْلِيفِ وَالقَوْلِ بِالزَّنْدَقَةِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الإِسْلاَمِ ، وَرَدُّ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر : ٩٩] . قِيلَ : لاَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَلاَ يُؤَدِّي إِلَيْهِ ، بَلِ اللهُ أَكْرَمُ وَوَلِيُّهُ أَعَزُّ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْخِلَهُ فِي مَقَامِ النَّقْصِ وَالقَبِيحِ فِي شَرْعِهِ وَدِينِهِ ، بَلْ يَعْصِمُهُ مِنْ جَمِيعِ مَا ذُكِرَ وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ وَيَحْفَظُهُ وَيُنَبِّهُهُ وَيُسَدِّدُهُ لِحِفْظِ الْحُدُوْدِ ، فَتَحْصُلُ العِصْمَةُ وَتَتَحَفَّظُ الْحُدُوْدُ مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفٍ مِنْهُ وَمَشَقَّةٍ ، وَهُوَ عَنْ[1] ذَلِكَ فِي غَيْبَةٍ فِي القُرْبِ . قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] . وَقَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر : ٤٢ والإسراء : ٦٥] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الصافات : ٤٠ و٧٤ و١٢٨ و١٦٠] .

---

(١) في المطبوع : (على) .

يَا مِسْكِيْنُ!! هُوَ مَحْمُولُ الرَّبِّ وَهُوَ مُرَادُهُ ، وَهُوَ يُرَبِّيْهِ فِي حِجْرِ قُرْبِهِ وَلُطْفِهِ ، أَنَّى يَصِلُ الشَّيْطَانُ إِلَيْهِ وَتَتَطَرَّقُ القَبَائِحُ وَالْمَكَارِهُ فِي الشَّرْعِ نَحْوَهُ ؟! أَبْعَدْتَ النُّجْعَةَ ، وَأَعْظَمْتَ الفِرْيَةَ وَقُلْتَ قَوْلاً فَظِيْعاً ، تَبّاً لِهَذِهِ الْهِمَمِ الْخَسِيْسَةِ الدَّنِيَّةِ وَالعُقُوْلِ النَّاقِصَةِ البَعِيْدَةِ وَالآرَاءِ الفَاسِدَةِ الْمُتَخَلْخِلَةِ .

أَعَاذَنَا اللهُ وَالإِخْوَانَ مِنَ الضَّلاَلَةِ الْمُخْتَلِفَةِ بِقُدْرَتِهِ الشَّامِلَةِ وَرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ ، وَسَتَرَنَا بِأَسْتَارِهِ التَّامَّةِ الْمَانِعَةِ الْحَامِيَةِ ، وَرَبَّانَا بِنِعَمِهِ السَّابِغَةِ وَفَضَائِلِهِ الدَّائِمَةِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ تَعَالَى شَأْنُهُ .

* * *



الْمَقَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالْخَمْسُوْنَ

فِي صَرْفِ النَّظَرِ عَنْ كُلِّ الْجِهَاتِ وَطَلَبِ جِهَةِ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى

تُقَامُ عَنِ الْجِهَاتِ كُلِّهَا وَلاَ تُبَصْبِصُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، فَمَا دُمْتَ تَنْظُرُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهَا لاَ يُفْتَحُ[1] لَكَ جِهَةُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَقُرْبِهِ ، فَسُدَّ الْجِهَاتِ جَمِيْعاً بِتَوْحِيْدِهِ ، وَامْحَاءِ نَفْسِكَ ثُمَّ فَنَائِكَ وَمَحْوِكَ وَعِلْمِكَ ، فَحِيْنَئِذٍ تَنْفَتِحُ لِعَيْنِ[2] قَلْبِكَ جِهَةُ فَضْلِ اللهِ الْعَظِيْمِ ، فَتَرَاهَا بِعَيْنَي رَأْسِكَ إِذْ ذَاكَ بِشُعَاعِ[3] نُوْرِ قَلْبِكَ وَإِيْمَانِكَ وَيَقِيْنِكَ فَيَظْهَرُ عِنْدَ ذَلِكَ النُّوْرُ مِنْ بَاطِنِكَ عَلَى ظَاهِرِكَ كَنُوْرِ الشَّمْعَةِ الَّتِي فِي الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ ، يَظْهَرُ مِنْ كُوَى الْبَيْتِ وَمَنَافِذِهِ فَيُشْرِقُ ظَاهِرُ الْبَيْتِ بِنُوْرِ بَاطِنِهِ ، فَتَسْكُنُ النَّفْسُ وَالْجَوَارِحُ إِلَى وَعْدِ اللهِ وَعَطَائِهِ عَنْ عَطَاءِ غَيْرِهِ وَوَعْدِ غَيْرِهِ عزَّ وجلَّ .

وَارْحَمْ نَفْسَكَ وَلاَ تَظْلِمْهَا وَلاَ تُلْقِهَا فِي ظُلُمَاتِ جَهْلِكَ وَرُعُوْنَتِكَ ، فَتَنْظُرُ إِلَى الْجِهَاتِ وَإِلَى الْخَلْقِ وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ وَالْكَسْبِ وَالأَسْبَابِ فَتُوْكَلَ إِلَيْهَا ، فَتَسُدُّ عَنْكَ الْجِهَاتُ وَلَمْ تُفْتَحْ لَكَ جِهَةُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ عُقُوْبَةً وَمُقَابَلَةً لِشِرْكِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِهِ عزَّ وجلَّ ، فَإِذَا وَحَّدْتَهُ وَنَظَرْتَ إِلَى فَضْلِهِ وَرَجَوْتَهُ دُوْنَ غَيْرِهِ وَتَعَامَيْتَ عَمَّا سِوَاهُ ، قَرَّبَكَ وَأَدْنَاكَ ، وَرَحِمَكَ وَرَبَّاكَ ، وَأَطْعَمَكَ وَسَقَاكَ ، وَدَاوَاكَ وَعَافَاكَ ، وَأَعْطَاكَ وَأَغْنَاكَ ، فَلاَ تَرَى بَعْدَ ذَلِكَ لاَ فَقْرَكَ وَلاَ غِنَاكَ .

* * *

---

(١) في نسخة : (تفتح) .

(٢) في المطبوع : (يفتح عين) .

(٣) في المطبوع : (شعاع) .

الْمَقَالَةُ التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُوْنَ
فِي الرِّضَا عَلَى البَلِيَّةِ وَالشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ

لاَ تَخلُو حَالَتُكَ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ بَلِيَّةً أَو نِعْمَةً .

فَإِنْ كَانَتْ بَلِيَّةً فَتُطَالَبُ فِيهَا بِالتَّصَبُّرِ ، وَهُوَ الأَدْنَى ، وَالصَّبْرُ وَهُوَ أَعْلَى مِنْهُ ، ثُمَّ الرِّضَا وَالْمُوَافَقَةُ ، ثُمَّ الفَنَاءُ ، وَهُوَ لِلأَبْدَالِ .

وَإِنْ كَانَتْ نِعْمَةً فَتُطَالَبُ فِيهَا بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا ، وَالشُّكْرُ بِاللِّسَانِ وَالقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ :

أَمَّا بِاللِّسَانِ : فَالاعْتِرَافُ بِالنِّعْمَةِ أَنَّهَا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَتَرْكُ الإِضَافَةِ إِلَى الْخَلْقِ لاَ إِلَى نَفْسِكَ وَحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَكَسْبِكَ وَلاَ إِلَى غَيْرِكَ مِنَ الَّذِينَ جَرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، لأَنَّكَ وَإِيَّاهُمْ أَسْبَابٌ وَآلاَتٌ وَأَدَاةٌ لَهَا ، وَإِنَّ قَاسِمَهَا وَمُجْرِيَهَا وَمُوجِدَهَا وَالشَّاغِلَ فِيهَا وَالْمُسَبِّبَ لَهَا هُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وَالقَاسِمُ هُوَ اللهُ ، وَالْمُجْرِي هُوَ ، وَالْمُوجِدُ هُوَ ، فَهُوَ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ مِنْ غَيْرِهِ .

لاَ نَظَرَ إِلَى الغُلاَمِ (الْحَمَّالِ) لِلهَدِيَّةِ إِنَّمَا النَّظَرُ إِلَى الأُسْتَاذِ الْمُنَفِّذِ الْمُنْعِمِ بِهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مَنْ عُدِمَ هَذَا الْمَنْظَرَ[1] : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الروم : ٧] . فَمَنْ نَظَرَ إِلَى الظَّاهِرِ وَالسَّبَبِ وَلَمْ يُجَاوِزْ عِلْمَهُ وَمَعْرِفَتَهُ فَهُوَ الْجَاهِلُ النَّاقِصُ قَاصِرُ العَقْلِ ، إِنَّمَا سُمِّيَ العَاقِلُ عَاقِلاً لِنَظَرِهِ فِي العَوَاقِبِ .

وَأَمَّا الشُّكْرُ بِالقَلْبِ : فَبِالاعْتِقَادِ الدَّائِمِ ، وَالعَقْدِ الوَثِيقِ الشَّدِيدِ الْمُبْرَمِ .

إِنَّ جَمِيعَ مَا بِكَ مِنَ النِّعَمِ وَالْمَنَافِعِ وَاللَّذَّاتِ فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ فِي حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لاَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَيَكُونُ شُكْرُكَ بِلِسَانِكَ مُعَبِّراً عَمَّا فِي قَلْبِكَ ، وَقَدْ قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل : ٥٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان : ٢٠] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ عَلَيْكُم ﴿ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[إبراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨] . فَمَعَ هَذَا لاَ يَبْقَى لِمُؤْمِنٍ مُنْعِمٌ سِوَى اللهِ تَعَالَى .

---

(١) في نسخة : (النظر) .

وَأَمَّا الشُّكْرُ بِالْجَوَارِحِ : فَبِأَنْ تُحَرِّكَهَا وَتَسْتَعْمِلَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ دُوْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ ، فَلاَ تُجِيْبُ أَحَداً مِنَ الْخَلْقِ ، فِيْمَا فِيْهِ[1] إِعْرَاضٌ عَنِ (اللهِ تَعَالَى ، وَهَذَا يَعُمُّ النَّفْسَ وَالْهَوَى وَالإِرَادَةَ وَالأَمَانِي وَسَائِرَ) الْخَلِيْقَةِ ، كَجَعْلِ طَاعَةِ اللهِ أَصْلاً وَمَتْبُوعاً وَإِمَاماً وَمَا سِوَاهَا فَرْعاً وَتَابِعاً وَمَأْمُوناً ، فَإِنْ فَعَلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ كُنْتَ جَائِراً ظَالِماً حَاكِماً بِغَيْرِ حُكْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ الْمَوْضُوعِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَسَالِكاً غَيْرَ سَبِيْلِ الصَّالِحِيْنَ ، قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة : ٤٤] . وَفِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[المائدة : ٤٥] . وَفِي أُخْرَى : ﴿ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة : ٤٧] .

فَيَكُوْنُ انْتِهَاؤُكَ إِلَى النَّارِ الَّتِي وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ[2] ، وَأَنْتَ لاَ تَصْبِرُ عَلَى حُمَّى سَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَأَقَلِّ بَصَّةٍ[3] وَشَرَارَةٍ مِنَ النَّارِ فِيْهَا ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ عَلَى الْخُلُوْدِ فِي الْهَاوِيَةِ مَعَ أَهْلِهَا ؟ .

النَّجَا النَّجَا ، وَالوَحَا الوَحَا ، اللهَ اللهَ ، احْفَظِ الْحَالَتَيْنِ وَشُرُوطَهُمَا ، فَإِنَّكَ لاَ تَخْلُو فِي جَمِيْعِ عُمُرِكَ مِنْ أَحَدِهِمَا[4] : إِمَّا الْبَلِيَّةُ ، وَإِمَّا النِّعْمَةُ ، فَأَعْطِ كُلَّ حَالَةٍ حَظَّهَا وَحَقَّهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ عَلَى مَا بَيَّنْتُ لَكَ ، فَلاَ تَشْكُوَنَّ فِي حَالَةِ الْبَلِيَّةِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تُظْهِرَنَّ الضَّجَرَ لأَحَدٍ وَلاَ تَتَّهِمَنَّ رَبَّكَ فِي بَاطِنِكَ .

وَلاَ تَشُكَّنَّ فِي حِكْمَتِهِ وَاخْتِرِ الأَصْلَحَ لَكَ فِي دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ ، فَلاَ تَذْهَبَنَّ بِهِمَّتِكَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فِي مُعَافَاتِكَ فَذَاكَ إِشْرَاكٌ مِنْكَ بِهِ عزَّ وجلَّ ، لاَ يَمْلِكُ مَعَهُ عزَّ وجلَّ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ شَيْئاً لاَ ضَارٌّ وَلاَ نَافِعٌ وَلاَ دَافِعٌ ، وَلاَ جَالِبٌ وَلاَ مُسْقِمٌ وَلاَ مُبْلِيٌّ[5] ، وَلاَ مُعَافٍ وَلاَ مُبْرِئٌ

(١) في المطبوع : (منه) .
(٢) قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم : ٦] .
(٣) في المطبوع : (بسطة) .
(٤) في المطبوع : (أحديهما) .
(٥) في نسخة : (مُبْلٍ) .

غَيْرُهُ عزَّ وجلَّ ، فَلاَ تَشْتَغِلْ بِالْخَلْقِ لاَ فِي الظَّاهِرِ وَلاَ فِي البَاطِنِ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، بَلِ الزَمِ الصَّبْرَ وَالرِّضَا وَالْمُوَافَقَةَ وَالفَنَاءَ فِي فِعْلِهِ عزَّ وجلَّ ، فَإِنْ حُرِمْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَعَلَيْكَ بِالاسْتِغَاثَةِ إِلَيْهِ عزَّ وجلَّ وَالتَّضَرُّعِ وَالتَّظَلُّمِ مِنْ شُؤْمِ النَّفْسِ ، وَنَزَاهَةِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ وَالاعْتِرَافِ لَهُ بِالتَّوحِيدِ بِالنَّعِيمِ ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ ، وَطَلَبِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالْمُوَافَقَةِ إِلَى حِينِ ﴿ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[البقرة : ٢٣٥] ، فَتَزُولُ البَلِيَّةُ وَتَنْكَشِفُ الكُرْبَةُ ، وَتَأْتِي النِّعْمَةُ وَالسَّعَةُ وَالفَرْحَةُ وَالسُّرُورُ ، كَمَا كَانَ فِي حَقِّ نَبِيِّ اللهِ أَيُّوبَ ـ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَأَشْرَفُ السَّلاَمِ ـ ، كَمَا يَذْهَبُ سَوَادُ اللَّيْلِ وَيَأْتِي بَيَاضُ النَّهَارِ ، وَيَذْهَبُ بَرْدُ الشِّتَاءِ وَيَأْتِي نَسِيمُ الصَّيْفِ وَطِيبُهُ ، لأَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ ضِدّاً وَخِلاَفاً وَغَايَةً وَبَدْءاً وَمُنْتَهَى ، فَالصَّبْرُ مِفْتَاحُهُ وَابْتِدَاؤُهُ (وَانْتِهَاؤُهُ) وَجَمَالُهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « الصَّبْرُ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ »(١) .

وَفِي لَفْظٍ : « الصَّبْرُ الإِيمَانُ كُلُّهُ »(٢) .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) رواه ابن الأعرابي في معجمه (٢/ ٥٦) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧١٦) والقضاعي في مسند الشهاب (١٥٨) والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٢٢٦) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٦٤) ابن حجر في تغليق التعلق (٢/ ٢٢ و٢٣) من طرقٍ عن يعقوب بن حميد بن كاسب [ضعيف] ، عن محمد بن خالد المخزومي ، عن سفيان الثوري ، عن زبيد اليامي ، عن أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود رفعه : « الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » . وقال البيهقي : المحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع . وقال الخطيب : تفرد بروايته محمد بن خالد عن الثوري . وقال ابن الجوزي : ومحمد بن خالد مجروح ، قال يحيى والنسائي : يعقوب بن حميد ليس بشيء . وقال ابن حجر في لسان الميزان (٥/ ١٥٢) : قال أبو علي النيسابوري : هذا حديث منكر ، لا أصل له من حديث زبيد ، ولا من حديث الثوري . وقال ابن حجر في تغليق التعلق (٢/ ٢٤) : وفي الجملة : رفع الحديث خطأ ، والله أعلم .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٨١٧) عن أبيه ، وروى عبد الرحمن بن رستة في كتاب الإيمان كما في تغليق التعليق لابن حجر (٢/ ٢٢) ، كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان حصين بن جندب ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الايمان كله .

ورواه الطبراني في الكبير (٨٥٤٤) من طريق سعيد بن منصور ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كلّه . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٨) : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

=

وَقَدْ يَكُوْنُ الشُّكْرُ هُوَ التَّلَبُّسُ بِالنِّعَمِ وَهِيَ أَقْسَامُهُ الْمَقْسُومَةُ لَكَ ، فَشُكْرُكَ التَّلَبُّسُ بِهَا فِي حَالِ فَنَائِكَ ، وَزَوَالُ الْهَوَى وَالْحَمِيَّةِ وَالْحِفْظِ . هَذِهِ حَالَةُ الأَبْدَالِ وَهِيَ الْمُنْتَهى .

اعْتَبِرْ مَا ذَكَرْتُ لَكَ تَرْشَدْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

* * *

= ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٨ و٩٧١٧) عن أبي الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي ، عن عبد الله بن محمد بن الحسن النصرآبادي ، عن عبد الله بن هاشم ، عن وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن علقمة : قال عبد الله بن مسعود : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله . وقال البيهقي : وقد روي هذا من وجه قويٍّ مرفوعاً .

ورواه الحاكم (٢/ ٤٤٦) عن أبي زكريا العنبري ، عن محمد بن عبد السلام ، عن إسحاق ، عن جرير ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان قال : كنا نعرض المصاحف عند علقمة ، فقرأ هذه الآية : « إن في ذلك لآيات للموقنين » . قال : فقال عبد الله : اليقين الإيمان كله ، وقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥ ولقمان : ٣١ وسبأ : ١٩ والشورى : ٣٣] . قال : فقال عبد الله : الصبر نصف الإيمان . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

ورواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٢١/ ٨٤) عن ابن حميد ، عن جرير ، عن مغيرة قال : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥ ولقمان : ٣١ وسبأ : ١٩ والشورى : ٣٣] ، إن في ذلك لآيات للموقنين ، إن في ذلك لآيات للمؤمنين .

ورواه ابن جرير في جامع البيان (٢١/ ٨٤) عن محمد بن بشار ، عن أبي عاصم ، عن سفيان ، عن مغيرة ، عن الشعبي ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله .

وقال العراقي في تخريج الإحياء كما في إتحاف السادة المتقين (٤/ ١٨٧) : رواه أبو نعيم في الحلية والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسندٍ حسن .

الْمَقَالَةُ السِّتُّوْنَ
فِي الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ

الْبِدَايَةُ هِيَ الْخُرُوْجُ مِنَ الْمَعْهُوْدِ إِلَى الْمَشْرُوعِ ، ثُمَّ الْمَقْدُورِ ، ثُمَّ الرُّجُوعِ إِلَى الْمَعْهُوْدِ ، وَيُشْتَرَطُ حِفْظُ الْحُدُوْدِ ، فَتَخرُجَ مِنْ مَعْهُوْدِكَ مِنَ الْمَأْكُوْلِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَلْبُوْسِ وَالْمَنْكُوْحِ وَالْمَسْكُوْنِ وَالطَّبْعِ وَالعَادَةِ إِلَى أَمْرِ الشَّرْعِ وَنَهْيِهِ ، فَتَتْبَعَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُوْلِهِ ﷺ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[الحشر : ٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران : ٣١] .

فَتَفْنَى عَنْ هَوَاكَ وَنَفْسِكَ وَرُعُونَتِهَا فِي ظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ ، فَلاَ يَكُوْنُ فِي بَاطِنِكَ غَيْرُ تَوْحِيْدِكَ لَهُ ، وَفِي ظَاهِرِكَ (غَيْرُ طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ مِمَّا أَمَرَ وَنَهَى ، فَيَكُوْنُ هَذَا دَأْبَكَ وَشِعَارَكَ) وَدِثَارَكَ ، فِي حَرَكَتِكَ وَسُكُوْنِكَ ، فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَسَفَرِكَ وَحَضَرِكَ ، وَشِدَّتِكَ وَرَخَائِكَ ، وَصِحَّتِكَ وَسَقَمِكَ ، وَأَحْوَالِكَ كُلِّهَا ، ثُمَّ تُحْمَلُ إِلَى وَادِي القَدرِ فَيَتَصَرَّفُ[1] فِيْكَ القَدَرُ ، فَتَفْنَى عَنْ جِدِّكَ وَاجْتِهَادِكَ وَحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، فَتُسَاقُ إِلَيْكَ الأَقْسَامُ[2] الَّتِي جَفَّ بِهَا القَلَمُ وَسَبَقَ بِهَا العِلْمُ ، فَتَلَبَّسُ بِهَا وَتُعْطَى مِنْهَا الْحِفْظَ وَالسَّلاَمَةَ ، فَتُحْفَظُ فِيْهَا الْحُدُوْدُ ، وَيَحْصُلُ فِيْهَا الْمُوَافَقَةُ لِفِعْلِ الْمَوْلَى ، وَلاَ تَنْخَرِقُ[3] قَاعِدَةُ الشَّرْعِ إِلَى الزَّنْدَقَةِ وَإِبَاحَةِ الْمُحَرَّمِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر : ٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] . فَتَصْحَبُ الحِفْظَ وَالْحَمِيَّةَ .

وَإِنَّمَا هِيَ أَقْسَامُكَ مُعَدَّةٌ لَكَ ، فَحَبَسَهَا عَنْكَ فِي حَالِ سَيْرِكَ وَطَرِيْقِكَ وَسُلُوْكِكَ فَيَافِي الطَّبْعِ وَمَفَاوِزَ الْهَوَى الْمَعْهُوْدِ ، لأَنَّهَا أَثْقَالُ أَحْمَالٍ مَا زِيحَتْ عَنْكَ ، لِئَلاَّ يُثْقِلَكَ فَتُضْعِفُكَ إِلَى

(١) تحرف في المطبوع إلى : (فينصرف) .
(٢) في نسخة : (أقسامك) .
(٣) في المطبوع : (تتخرق) .

حِيْنِ الوُصُوْلِ إِلَى عَتَبَةِ الفَنَاءِ ، وَهُوَ الوُصُولُ إِلَى قُرْبِ الْحَقِّ عزَّ وجلَّ وَالْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَالاخْتِصَاصِ بِالأَسْرَارِ وَالعُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَالدُّخُوْلِ فِي بِحَارِ الأَنْوَارِ ، حَيْثُ لاَ تَضُرُّ ظُلْمَةُ الطَّبَائِعِ الأَنْوَارَ ، فَالطَّبْعُ بَاقٍ إِلَى أَنْ تُفَارِقَ الرُّوْحُ الْجَسَدَ لاسْتِيْفَاءِ الأَقْسَام ، إِذْ لَوْ زَالَ الطَّبْعُ مِنَ الآدَمِيِّ لالتَحَقَ بِالْمَلاَئِكَةِ وَبَطُلَتِ الْحِكْمَةُ ، فَبَقِيَ الطَّبْعُ يَسْتَوْفِي الأَقْسَامَ وَالْحُظُوْظَ ، فَيَكُوْنُ ذَلِكَ وَظَائِفَ[1] لاَ أَصْلِيّاً ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ**[2] : **الطِّيْبُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ** »[3] .

فَلَمَّا فَنِيَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا رُدَّتْ إِلَيْهِ أَقْسَامُهُ الْمَحْبُوْسَةُ عَنْهُ فِي حَالِ سَيْرِهِ إِلَى رَبِّهِ عزَّ وجلَّ ، فَاسْتَوْفَاهَا مُوَافَقَةً لِرَبِّهِ تعَالَى وَالرِّضَا بِفِعْلِهِ مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ ، فَقُدِّسَتْ أَسْمَاؤُهُ وَعَمَّتْ رَحْمَتُهُ ، شَمِلَ فَضْلُهُ لأَوْلِيَائِهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ، فَهَكَذَا الوَلِيُّ فِي هَذَا البَابِ تَرِدُ إِلَيْهِ أَقْسَامُهُ وَحُظُوْظُهُ مَعَ حِفْظِ الْحُدُوْدِ ، فَهُوَ الرُّجُوْعُ مِنَ النِّهَايَةِ إِلَى البِدَايَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *

(١) في المطبوع : (وظائفاً) .

(٢) زاد في المطبوع : (ثلاث) . وتقدّم التنبيه : أن لفظ ثلاث لَمْ يرد في شيء من الكتب المسندة .

(٣) تقدّم تخريجه في المقالة (٦) .

الْمَقَالَةُ الْحَادِيَةُ وَالسِّتُّوْنَ
فِي التَّوَقُّفِ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ إِبَاحَةُ فِعْلِهِ

كُلُّ مُؤْمِنٍ مُكَلَّفٌ بِالتَّوَقُّفِ وَالتَّفْتِيشِ عِنْدَ حُضُوْرِ الأَقْسَامِ عَنِ التَّنَاوُلِ وَالأَخْذِ ، حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ الْحُكْمُ بِالإِجَابَةِ ، وَالعِلْمُ بِالقِسْمَةِ ، وَالْمُؤْمِنُ فَتَّاشٌ ، وَالْمُنَافِقُ لَقَّافٌ .

وَقَالَ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ وَقَّافٌ »(١) .

وَقَالَ ﷺ : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ »(٢) .

فَالْمُؤْمِنُ يَقِفُ عِنْدَ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ مَأْكُوْلٍ وَمَشْرُوبٍ وَمَلْبُوسٍ وَمَنْكُوْحٍ وَسَائِرِ الأَشْيَاءِ الَّتِي تُفْتَحُ لَهُ فَلاَ يَأْخُذُ حَتَّى يَحْكُمَ لَهُ بِجَوَازِ الأَخْذِ وَالتَّنَاوُلِ كَحُكْمِهِ إِذَا كَانَ فِي حَالَةِ التَّقْوَى ، أَوْ حَتَّى يُحْكَمَ لَهُ بِذَلِكَ الأَمْرِ إِذَا كَانَ فِي حَالَةِ الوِلاَيَةِ ، أَوْ حَتَّى يَحْكُمَ بِحُكْمِ العِلْمِ فِي حَالَةِ البَدَلِيَّةِ وَالغَوْثِيَّةِ ، وَالفِعْلِ الَّذِي هُوَ القَدَرُ المَحْضُ وَهِيَ حَالَةُ الفَنَاءِ ، ثُمَّ يَأْتِيْهِ حَالَةٌ أُخْرَى

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٩٣٠) عن أبي عبد الله الحافظ ، عن أبي عمرو ابن السماك ، عن الحسن بن عمرو قال : سمعت بشر بن الحارث يقول : قال عمر بن عبد العزيز : المؤمن وقاف يمضي عند الخير ويقف عند الشر .

ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٧٠٣) عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ ، حَذِرٌ ، وَقَّافٌ ، مُتَثَبِّتٌ ، لاَ يَعْجَلُ ، عَالِمٌ وَرِعٌ ، وَالْمُنَافِقُ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ ، حُطَمَةٌ ، كَحَاطِبِ لَيْلٍ لاَ يُبَالِي مِنْ أَيْنَ كَسَبَ وَفِيْمَ أَنْفَقَ » . وانظر الفردوس للديلمي (٦٥٤٤) .

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١٢٨) من طريق محمد بن الحسين السلمي ، عن علي بن بندار ، عن الحسن بن الحسين البخاري ، عن عيسى بن عمرو بن ميمون ، عن المسيب بن إسحاق ، عن عيسى بن موسى غنجار ، عن سليمان بن عمرو النخعي ، عن أبان بن أبي عياش [متروك] ، عن أنس رفعه : « المؤمن كيس فطن حذر » . فيه : سليمان بن عمرو : كان يضع الحديث . وقال الذهبي في الميزان : كان أكذب الناس .

(٢) تقدّم تخريجه في المقالة (٢٠) .

تَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَأْتِيهِ وَيَفْتَحُ لَهُ مَا لَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ وَالأَمْرُ وَالعِلْمُ ، فَإِذَا اعْتَرَضَ أَحَدُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ امْتَنَعَ مِنَ التَّنَاوُلِ ، فَهِيَ ضِدُّ الأُوْلَى .

فَفِي الأُوْلَى الغَالِبُ عَلَيْهِ التَّوَقُّفُ وَالتَّثْبِيتُ ، وَفِي الثَّانِيَةِ الغَالِبُ عَلَيْهِ التَّنَاوُلُ وَالأَخْذُ وَالتَّلَبُّسُ بِالْمَفْتُوحِ ، ثُمَّ تَأتِي(١) الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ .

فَالتَّنَاوُلُ الْمَحْضُ وَالتَّلَبُّسُ بِما يُفْتَحُ مِنَ النِّعَمِ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضِ أَحَدِ الأَشْيَاءِ الثَّلاثَةِ وَهِيَ حَقِيقَةُ الفَنَاءِ ، فَيَكُوْنُ الْمُؤْمِنُ فِيْهَا مَحْفُوظاً مِنَ الآفَاتِ وَخَرْقِ حُدُوْدِ الشَّرْعِ مُصَاناً مَصْرُوفاً عَنْهُ الأَسْوَاءُ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] .

فَيَصِيْرُ العَبْدُ مَعَ الْحِفْظِ عَنْ خَرْقِ الْحُدُوْدِ كَالْمُفَوَّضِ لَهُ (الْمَأْذُوْنِ لَهُ) ، وَالْمُطْلَقِ لَهُ فِي الإِبَاحَاتِ الْمُيَسَّرِ لَهُ الْخَيْرَ ، مَا يَأْتِيهِ قِسْمُهُ الْمُصَفَّى لَهُ مِنَ الآفَاتِ وَالتَّبِعَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالْمُوَافِقِ لإِرَادَةِ الْحَقِّ وَرِضَاهُ وَفِعْلِهِ ، وَلاَ حَالَةَ فَوْقَهَا وَهِيَ الغَايَةُ ، وَهِيَ لِلسَّادَةِ(٢) الأَوْلِيَاءِ الكِبَارِ الْخُلَّصِ أَصْحَابِ الأَسْرَارِ ، الَّذِيْنَ أَشْرَفُوا عَلَى عَتَبَةِ أَحْوَالِ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ .

* * *

(١) في المطبوع : (يأتي) .
(٢) في المطبوع : (السادة) .

الْمَقَالَةُ الثَّانِيَةُ وَالسِّتُّوْنَ
فِي الْمَحَبَّةِ وَالْمَحْبُوبِ وَمَا يَجِبُ فِي حَقِّهِمَا

مَا أَكْثَرَ مَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ : قُرِّبَ فُلاَنٌ وَبُعِّدْتُ ، وَأُعْطِيَ فُلاَنٌ وَحُرِمْتُ ، وَأُغْنِيَ فُلاَنٌ وَأُفْقِرْتُ ، وَعُوفِيَ فُلاَنٌ وَأُسْقِمْتُ ، وَعُظِّمَ فُلاَنٌ وَحُقِّرْتُ ، وَحُمِدَ فُلاَنٌ وَذُمِمْتُ ، وَصُدِّقَ فُلاَنٌ وَكُذِّبْتُ .

أَمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ الوَاحِدُ ، وَأَنَّ الوَاحِدَ يُحِبُّ الوَحْدَانِيَّةَ فِي الْمَحَبَّةِ ، وَيُحِبُّ الوَاحِدَ فِي مَحَبَّتِهِ .

إِذَا قَرَّبَكَ بِطَرِيْقِ غَيْرِهِ نَقَصَتْ مَحَبَّتُكَ لَهُ عزَّ وجلَّ وَشَعُبَتْ ، فَرُبَّمَا دَخَلَكَ الْمَيْلُ إِلَى مَنْ ظَهَرَتِ الْمُوَاصَلَةُ وَالنِّعْمَةُ عَلَى يَدَيْهِ ، فَتَنْقُصُ مَحَبَّةُ اللهِ فِي قَلْبِكَ ، وَهُوَ عزَّ وجلَّ غَيُورٌ لاَ يُحِبُّ شَرِيْكاً فَكَفَّ أَيْدِيَ الغَيْرِ عَنْكَ بِالْمُوَاصَلَةِ ، وَلِسَانَهُ عَنْ حَمْدِكَ وَثَنَائِكَ ، وَرِجْلَيْهِ عَنِ السَّعْيِ إِلَيْكَ ، كَيْلاَ تَشْتَغِلَ بِهِ عَنْهُ .

أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ : « جُبِلَتِ الْقُلُوْبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا »[1] .

فَهُوَ عزَّ وجلَّ يَكُفُّ الْخَلْقَ عَنِ الإِحْسَانِ إِلَيْكَ مِنْ قِبَلِ وَجْهٍ وَسَبَبٍ حَتَّى تُوَحِّدَهُ وَتُحِبَّهُ ،

---

(١) رواه ابن حبان في روضة العقلاء (٨٤٢ بتحقيقي) وأبو الشيخ في الأمثال (١٦٠) وابن عدي في الكامل (١/الورقة ٢٤٣) وابن الأعرابي في معجمه (١٩١) وأبو نعيم في الحلية (٤/١٢١) والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٨٤) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٦١) والقضاعي في مسند الشهاب (٦٠٠) والخطيب في تاريخ بغداد (٧/٣٤٧ـ٣٤٨) وابن النقطة في التقييد (ص ٢٩٨) والمزي في تهذيب الكمال (٦/ ٢٧٤ و٢٧٥) عن ابن مسعود مرفوعاً .

ورواه ابن عدي (٢/ ٢٨٦ـ٢٨٧) وابن أبي حاتم في العلل (٢٥٢٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٨٣) والمزي في تهذيب الكمال (٦/ ٢٧٥) عن ابن مسعود موقوفاً . وقال أبو حاتم كما في العلل : هذا حديث منكر . وقال ابن عدي : هذا هو المحفوظ موقوف .

وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٣٦٥) : وهو باطلٌ مرفوعاً وموقوفاً .

وَتَصِيرَ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ فِي حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ ، فَلاَ تَرَى الْخَيْرَ إلاَّ مِنْهُ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ الشَّرَّ إلاَّ مِنْكَ[١] .

وَتَفْنَى عَنِ الْخَلْقِ وَعَنِ النَّفْسِ وَعَنِ الْهَوَى وَالإِرَادَةِ وَالْمُنَى ، وَعَنْ جَمِيعِ مَا سِوَى الْمَوْلَى ، ثُمَّ يُطْلِقُ الأَيْدِيَ إِلَيْكَ بِالْبَسْطِ وَالْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ ، وَالأَلْسُنَ بِالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ فَيُدَلِّلُكَ أَبَداً فِي الدُّنْيَا ثُمَّ فِي الْعُقْبَى ، فَلاَ تُسِيءِ الأَدَبَ ، انْظُرْ إِلَى مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، وَأَقْبِلْ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْكَ ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، وَاسْتَجِبْ مَنْ يَدْعُوكَ ، وَأَعْطِ يَدَكَ مَنْ يُثَبِّتُكَ مِنْ سَقَطِكَ ، وَيُخْرِجُكَ مِنْ ظُلُمَاتِ جَهْلِكَ ، وَيُنَجِّيكَ مِنْ هَلَكِكَ ، وَيَغْسِلُكَ مِنْ أَنْجَاسِكَ ، وَيُنَظِّفُكَ مِنْ أَوْسَاخِكَ ، وَيُخَلِّصُكَ مِنْ جِيَفِكَ وَنَتَنِكَ ، وَمِنْ أَوْهَامِكَ الرَّدِيئَةِ ، وَمِنْ نَفْسِكَ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، وَأَقْرَانِكَ الضُّلاَّلِ الْمُضِلِّينَ شَيَاطِينِكَ ، وَأَخِلاَّئِكَ الْجُهَّالِ قُطَّاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ الْحَائِلِينَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُلِّ نَفِيسٍ وَثَمِينٍ وَعَزِيزٍ .

إِلَى مَتَى الْمَعَادُ ، إِلَى مَتَى الْخُلْفُ[٢] ، إِلَى مَتَى الْهَوَى ، إِلَى مَتَى الرُّعُونَةُ ، إِلَى مَتَى الدُّنْيَا ، إِلَى مَتَى الآخِرَةُ ، إِلَى مَتَى سِوَى الْمَوْلَى ؟ .

أَيْنَ أَنْتَ مِنْ خَالِقِكَ وَالأَشْيَاءِ ، الْمُكَوِّنِ الأَوَّلِ الآخِرِ الظَّاهِرِ الْبَاطِنِ ، وَالْمَرْجِعُ وَالْمَصْدَرُ إِلَيْهِ ، وَلَهُ الْقُلُوبُ وَطُمَأْنِينَةُ الأَرْوَاحِ وَمَحَطُّ الأَثْقَالِ وَالْعَطَاءِ وَالامْتِنَانِ ، عَزَّ شَأْنُهُ ؟! .

* * *

(١) تحرف في المطبوع إلى : (فلا ترى الخير إلا منه ، ولا الشر إلا منه عزَّ وجلَّ) .
(٢) تحرف في المطبوع إلى : (الحق) .

الْمَقَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالسِّتُّوْنَ
فِي نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ

رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي أَقُولُ :

يَا مُشْرِكٌ بِرَبِّهِ فِي بَاطِنِهِ بِنَفْسِهِ ، وَفِي ظَاهِرِهِ بِخَلْقِهِ ، وَفِي عَمَلِهِ بِإِرَادَتِهِ .

فَقَالَ رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي : مَا هَذَا الكَلامُ ؟

فَقُلْتُ : هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

* * *



الْمَقَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالسِّتُّوْنَ

فِي الْمَوْتِ الَّذِي لاَ حَيَاةَ فِيْهِ ، وَالْحَيَاةِ الَّتِي لاَ مَوْتَ فِيْهَا

ضَاقَ بِي الأَمْرُ يَوْماً فَتَحَرَّكَ فِيَّ النَّفْسُ ، فَقِيْلَ لِي : مَاذَا تُرِيْدُ ؟ . فَقُلْتُ : أُرِيْدُ مَوْتاً لاَ حَيَاةَ فِيْهِ وَحَيَاةً لاَ مَوْتَ فِيْهَا .

فَقِيْلَ لِي : مَا الْمَوْتُ الَّذِي لاَ حَيَاةَ فِيْهِ ، وَمَا الْحَيَاةُ الَّتِي لاَ مَوْتَ فِيْهَا ؟ .

قُلْتُ : **الْمَوْتُ الَّذِي لاَ حَيَاةَ فِيْهِ** : مَوتِي عَنْ جِنْسِي مِنَ الْخَلْقِ ، فَلاَ أَرَاهُمْ فِي الضُّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَمَوْتِي عَنْ نَفْسِي وَهَوَايَ وَإِرَادَتِي وَمُنَايَ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَى ، فَلاَ أُحسُّ[1] فِي جَمِيْعِ ذَلِكَ وَلاَ أُوْجَدُ[2] .

وَأَمَّا **الْحَيَاةُ الَّتِي لاَ مَوْتَ فِيْهَا** : فَحَيَاتِي بِفِعْلِ رَبِّي عزَّ وجلَّ بِلا وُجُوْدِي فِيْهِ ، وَالْمَوْتُ فِي ذَلِكَ وُجُودِي مَعَهُ عزَّ وجلَّ .

فَكَانَتْ هَذِهِ الإِرَادَةُ أَنْفَسَ إِرَادَةٍ أَرَدْتُهَا مِنْذُ عَقَلْتُ .

* * *

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (أحسن) .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (أجد) .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةُ وَالسِّتُّوْنَ

فِي النَّهْيِ عَنِ التَّسَخُّطِ عَلَى اللهِ فِي تَأْخِيرِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ

مَا هَذَا التَّسَخُّطُ عَلَى رَبِّكَ عزَّ وجلَّ مِنْ تَأْخِيرِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ ؟ ![1]

تَقُولُ : حَرَّمَ عَلَيَّ السُّؤَالَ لِلْخَلْقِ ، وَأَوْجَبَ[2] عَلَيَّ السُّؤَالَ ، وَأَنَا أَدْعُوهُ وَهُوَ لاَ يُجِيبُنِي .

فَيُقَالُ لَكَ : أَحُرٌّ أَنْتَ ، أَمْ عَبْدٌ ؟ فَإِنْ قُلْتَ : أَنَا حُرٌّ فَأَنْتَ كَافِرٌ ، وَإِنْ قُلْتَ : أَنَا عَبْدُ اللهِ ، فَيُقَالُ لَكَ : أَمُتَّهِمٌ أَنْتَ لِوَلِيِّكَ فِي تَأْخِيرِ إِجَابَةِ دُعَائِكَ وَشَاكٌّ فِي حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِكَ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ وَعِلْمِهِ بِأَحْوَالِهِمْ ، أَوْ غَيْرُ مُتَّهِمٍ لَهُ عزَّ وجلَّ ؟ فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ مُتَّهِمٍ لَهُ وَمُقِرٌّ بِحِكْمَتِهِ وإِرَادَتِهِ[3] وَمَصْلَحَتِهِ لَكَ وَتَأْخِيرِ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِالشُّكْرِ لَهُ عزَّ وجلَّ ، لأَنَّهُ اخْتَارَ لَكَ الأَصْلَحَ وَالنِّعْمَةَ وَدَفْعَ الفَسَادِ ، وَإِنْ كُنْتَ مُتَّهِماً لَهُ فِي ذَلِكَ فَأَنْتَ كَافِرٌ بِتُهَمِكَ لَهُ ، لأَنَّكَ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن قيّم الجوزية في الجواب الكافي في سؤال الدواء الشافي عقب رقم (١٧ . بتحقيقي) : وَمِنَ الآفَاتِ الَّتِي تَمْنَعُ تَرَتُّبَ أَثَرِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ : أَنْ يَسْتَعْجِلَ الْعَبْدُ ، وَيَسْتَبْطِىءَ الإِجَابَةَ ، فَيَسْتَحْسِرُ [أي : يعيا وينقطع] وَيَدَعُ الدُّعَاءَ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ بَذَرَ بِذْراً أَوْ غَرَسَ غَرْساً ، فَجَعَلَ يَتَعَاهَدُهُ وَيَسْقِيهِ ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأَ كَمَالَهُ وَإِدْرَاكَهُ تَرَكَهُ وَأَهْمَلَهُ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ [(٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥) (٩٠ و٩١)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ ، يَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي » .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ [٢٧٣٥] عَنْهُ : « لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ » . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا الاسْتِعْجَالُ ؟ قَالَ : « يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ ، وَقَدْ دَعَوْتُ ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي ، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ » .

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ [(٣/ ١٩٣ و٢١٠) والزهد له (٢٥١)] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ ؟ قَالَ : « يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي » .

(٢) تحرف في المطبوع إلى : (ووجب) .

(٣) تحرف في المطبوع إلى : (وإرادة) .

بِذَلِكَ نَسَبْتَ لَهُ الظُّلْمَ وَهُوَ ﴿ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[آل عمران : ١٨٢ والأنفال : ٥١ والحج : ١٠] ، لاَ يَقْبَلُ الظُّلْمَ وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَظْلِمَ إِذْ هُوَ مَالِكُكَ وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلاَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الظُّلْمِ ، وَإِنَّمَا الظَّالِمُ مَنْ يَتَصَرَّفُ فِي مُلْكِ غَيْرِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَانْسَدَّ عَلَيْكَ سَبِيلُ التَّسَخُّطِ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ فِيْكَ بِمَا يُخَالِفُ طَبْعَكَ وَشَهْوَةَ نَفْسِكَ وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَفْسَدَةٌ لَكَ .

فَعَلَيْكَ بِالشُّكْرِ وَالصَّبْرِ وَالْمُوَافَقَةِ ، وَتَرْكِ التَّسَخُّطِ وَالتُّهْمَةِ وَالقِيَامِ مَعَ رُعُونَةِ النَّفْسِ وَهَوَاهَا الَّذِي يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ .

وَعَلَيْكَ بِدَوَامِ الدُّعَاءِ وَصِدْقِ الالْتِجَاءِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِرَبِّكَ عزَّ وجلَّ ، وَانْتِظَارِ الفَرَجِ مِنْهُ ، وَالتَّصْدِيْقِ بِوَعْدِهِ ، وَالْحَيَاءِ مِنْهُ ، وَالْمُوَافَقَةِ لأَمْرِهِ ، وَحِفْظِ تَوْحِيْدِهِ ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى أَدَاءِ أَوَامِرِهِ ، وَالتَّمَاوُتِ عَنْ نُزُولِ قَدَرِهِ بِكَ وَبِفِعْلِهِ فِيْكَ ، وَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ أَنْ تَتَّهِمَ وَتُسِيءَ الظَّنَّ فَنَفْسُكَ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ العَاصِيَةُ لِرَبِّهَا عزَّ وجلَّ أَوْلَى بِهِمَا ، وَنِسْبَتُكَ الظُّلْمَ إِلَيْهَا أَحْرَى مِنْ مَوْلاَكَ ، فَاحْذَرْ مُوَافَقَتَهَا وَمُوَالاَتَهَا ، وَالرِّضَا بِفِعْلِهَا وَكَلاَمِهَا فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا ، لأَنَّهَا عَدُوَّةُ اللهِ وَعَدُوَّتُكَ ، وَمُوَالِيَةٌ لِعَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ ، هِيَ خَلِيْلَتُهُ وَجَاسُوسَتُهُ وَمُصَافِيَتُهُ ، اللهَ اللهَ ثُمَّ اللهَ ، الحَذَرَ الحَذَرَ ، النَّجَا النَّجَا ، اتَّهِمْهَا وَانْسُبِ الظُّلْمَ إِلَيْهَا وَاقْرَأْ عَلَيْهَا قَوْلَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[النساء : ١٤٧] . وَقَوْلَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[يونس : ٤٤] ، وَغَيْرَهَا مِنَ الآيَاتِ وَالأَخْبَارِ .

كُنْ مُخْلِصاً للهِ عَلَى نَفْسِكَ مُجَادِلاً لَهَا عَنْهُ عزَّ وجلَّ ، وَمُحَارِباً وَسَيَّافاً وَصَاحِبَ جُنْدِهِ وَعَسْكَرِهِ ، فَإِنَّهَا أَعْدَى عَدُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : « يَا دَاوُدُ ، اهْجُرْ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ لاَ مُنَازِعَ يُنَازِعُنِي فِي مُلْكِي غَيْرُ الْهَوَى »(١) .

* * *

(١) لم أجده . وروى مسلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلاَ تَظَالَمُوا . يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ . =

الْمَقَالَةُ السَّادِسَةُ وَالسِّتُّوْنَ
فِي الأَمْرِ بِالدُّعَاءِ وَالنَّهْيِ عَنْ تَرْكِهِ

لاَ تَقُلْ : لاَ أَدْعُو اللهَ ، فَإِنْ كَانَ مَا أَسْأَلُهُ مَقْسُوماً فَسَيَأْتِي إِنْ سَأَلْتُهُ أَمْ لَمْ أَسْأَلْهُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَقْسُوْمٍ فَلاَ يُعْطِيْنِي بِسُؤَالٍ ، بَلْ اسْأَلْهُ عزَّ وجلَّ جَمِيْعَ مَا تُرِيْدُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيْهِ مُحَرَّمٌ وَمَفْسَدَةٌ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالسُّؤَالِ لَهُ وَحَثَّ عَلَيْهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . وَقَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(١) [النساء : ٣٢] .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اسْأَلُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوْقِنُوْنَ بِالإِجَابَةِ »(٢) .

= يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ تُخْطِئُوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعاً ، فَاسْتَغْفِرُوْنِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَمْ تَبْلُغُوْا ضَرِّي فَتَضُرُّوْنِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوْا نَفْعِي فَتَنْفَعُوْنِي . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوْا فِي صَعِيْدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُوْنِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي شَيْئاً ، إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيْهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُوْمَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » .

(١) في المطبوع : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ . . . وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٧٩) وابن حبان في المجروحين (١/ ٣٧٢) والطبراني في الأوسط (٥١٠٥) والدعاء له (٦٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٨٠) وابن أبي حاتم في التفسير كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٧٥) والحاكم (١/ ٤٩٣) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٥٥ و١٤/ ٢٣٧) من طرق عن صالح المري ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رفعه : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ » . وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، سمعت عباساً العنبري يقول : اكتبوا عن عبد الله بن معاوية الجمحي فإنه ثقة . وقال الحاكم : هذا حديث مستقيم الإسناد ، تفرّد به صالح المري ، وهو أحد =

وَقَالَ ﷺ : « اسْأَلُوا اللهَ بِبُطُونِ أَكُفِّكُمْ »(١) . وَغَيْر ذَلِكَ مِنَ الأَخْبَارِ .

= زُهَّاد أهل البصرة ، ولم يخرجاه .

أقول : صالح بن بشير المري ، ضعّفه ابن معين والدارقطني ، وقال الإمام أحمد : هو صاحبُ قصص وليس هو صاحب حديث . وقال البخاري : منكر الحديث . وقال النسائي : متروك .

ورواه الإمام أحمد (٦٦٥٥) عن حسن بن موسى الأشيب ، عن عبد الله بن لهيعة [سيء الحفظ] ، عن بكر بن عمرو المعافري المصري ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي عبد الله بن يزيد المعافري ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن رسول الله ﷺ قال : « القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله عزَّ وجلَّ أيها الناس ، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهر قلبٍ غافلٍ » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧٢٠٣) : رواه أحمد وإسناده حسن .

ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (١٧٢٠٥) عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فإذا سألتم الله فسلوه وأنتم واثقون بالإجابة ، فإن الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب دُعاءً من دعا عن ظهر قلبٍ غافل » . وقال الهيثمي : فيه : بشير بن ميمون الواسطي ، وهو مجمعٌ على ضعفه .

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ١٣٨) (٢٩٤٠٥) عن حفص بن غياث ، عن خالد ، عن أبي قلابة ، عن ابن محيريز قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورها » .

ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (١٧٣٤٦) عن أبي بكرة : أن رسول الله ﷺ قال : « سلوا الله ببطون أكفكم ، ولا تَسَلُوه بظهورها » . وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عمّار بن خالد الواسطي ، وهو ثقة .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٢/ ٢٧٢) (٢٢٢٧) : حدثني أبي قال : حدثنا هشيم ، قال خالد الحذاء أخبرنا ، عن أبي قلابة ، عن عبد الرحمن بن محيريز قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فسلوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورها » . سمعت أبي يقول : عبد الرحمن بن عبد الله بن محيريز ، روى عنه الصغار : إسماعيل بن عياش ، وإنما يروي أبو قلابة ، عن عبد الله بن محيريز ، ولكن كذا قال خالد .

وقال ابن أبي حاتم في علل الحديث (٢١١٠) : سمعت أبي يقول : وذكر حديثاً رواه بشر بن المفضل ، عن خالد الحذاء ، عن أبي قلابة ، عن عبد الرحمن بن محيريز قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فسلوه ببطون أكفكم . . وذكر الحديث » . قال أبي : يُقال هو عبد الله بن محيريز الصحيح ، وكذلك قال خالد : عن أبي قلابة .

وسئل الدارقطني كما في العلل (٧/ ١٥٧) عن حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم ربكم فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورها » ؟ . فقال : يرويه =

وَلاَ تَقُلْ : إِنِّي أَسْأَلُهُ فَلاَ يُعْطِينِي فَإِذاً لاَ أَسْأَلُهُ . بَلْ دُمْ عَلَى دُعَائِهِ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَقْسُوماً سَاقَهُ إِلَيْكَ بَعْدَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، فَيَزِيدُ ذَلِكَ إِيمَاناً وَيَقِيناً وَتَوْحِيداً ، وَتَرْكَ سُؤَالِ الْخَلْقِ ، وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ وَإِنْزَالِ حَوَائِجِكَ بِهِ عزَّ وجلَّ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْسُوماً لَكَ أَعْطَاكَ الغِنَاءَ عَنْهُ وَالرِّضَاءَ عَنْهُ عزَّ وجلَّ بِالقَصَصِ ، فَإِنْ كَانَ فَقْراً أَوْ مَرَضاً أَرْضَاكَ بِهِمَا وَإِنْ كَانَ دَيْناً قَلَبَ الدَّائِنَ مِنْ سُوءِ الْمُطَالَبَةِ إِلَى الرِّفْقِ وَالتَّأَخُّرِ وَالتَّسْهِيلِ إِلَى حِينِ مَيْسَرَتِكَ أَوْ إِسْقَاطِهِ عَنْكَ أَوْ

= القاسم بن مالك المزني ، عن خالد الحذاء ، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه ، وهم فيه على خالد ، والمحفوظ عن خالد ، عن أبي قلابة ، عن ابن محيريز مرسلاً عن النبي ﷺ ، وكذلك رواه أيوب ، عن أبي قلابة ، عن ابن سيرين مرسلاً .

ورواه أبو داود (١٤٨٥) عن عبد الله بن مسلمة ، عن عبد الملك بن محمد بن أيمن الحجازي ، عن عبد الله ابن يعقوب بن إسحاق المدني ، عمن حدثه ، عن محمد بن كعب القرظي ، حدثني عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تستروا الجدر ، من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار ، سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها ، فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم » .

وقال أبو داود : رُوِيَ هذا الحديث من غير وجهٍ عن محمد بن كعب كلها واهيةٌ ، وهذا الطريق أمثلها وهو ضعيفٌ أيضاً .

ورواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٥١) عن أبي يعلى ، عن أبي معمر ، عن سعيد بن محمد ، ورواه الطبراني في الكبير (١٠٧٧٩) عن المنتصر بن محمد بن المنتصر ، عن الحسن بن حماد الحضرمي ، عن سعيد بن محمد الثقفي الوراق ، ورواه الحاكم (١/ ٥٣٦) عن أبي بكر بن أبي نصر المروزي ، عن أبي الموجه ، عن سعيد بن هبيرة ، عن وهيب بن خالد ، كلاهما عن صالح بن حسان ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورها ، وامسحوا بها وجوهكم » . وقال ابن أبي حاتم في العلل (٢٥٧٢) : سألت أبي عن حديثٍ رواه سعيد بن محمد الوراق ، عن صالح بن حسان ، عن محمد بن كعب ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « إذا سألتم الله فسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورها ، وامسحوا بها وجوهكم » . فقال : هذا حديث منكر .

ورواه أبو داود (١٤٨٦) عن سليمان بن عبد الحميد البهراني ، ورواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٥٩) والطبراني في الشاميين (١٦٣٩) من طريق محمد بن إسماعيل بن عياش . كلاهما عن إسماعيل بن عياش [روايته عن غير أهل بلده صحيحة] ، عن ضمضم بن زرعة الحضرمي الشامي [وثقه ابن معين] ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي ظبية ، أن أبا بحرية عبد الله بن قيس السكوني حدّثه عن مالك بن يسار السكوني العوفي ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورها » . وقال أبو داود : قال سليمان بن عبد الحميد : له عندنا صحبة يعني : مالك بن يسار .

نَقْصِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْقُطْ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا أَعْطَاكَ عزَّ وجلَّ ثَوَاباً جَزِيلاً مَا لَمْ يُعْطِكَ بِسُؤَالِكَ فِي الدُّنْيَا لأَنَّهُ كَرِيمٌ غَنِيٌّ رَحِيمٌ ، فَلاَ يَخِيبُ سَائِلُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلاَ بُدَّ مِنْ فَائِدَةٍ وَنَائِلَةٍ ، إِمَّا عَاجِلاً وَإِمَّا آجِلاً .

فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **الْمُؤْمِنُ يَرَى فِي صَحِيفَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسَنَاتٍ لَمْ يَعْمَلْهَا وَلَمْ يَدْرِ بِهَا ، فَيُقَالُ لَهُ : أَتَعْرِفُهَا ؟ فَيَقُولُ : مَا أَعْرِفُهَا ؟ مِنْ أَيْنَ لِي هَذِهِ ؟! فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّهَا بَدَلُ مَسْأَلَتِكَ الَّتِي سَأَلْتَهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا** »[1] .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بِسُؤَالِ اللهِ عزَّ وجلَّ يَكُونُ ذَاكِراً للهِ وَمُوَحِّداً وَوَاضِعَ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ ، وَمُعْطِي الْحَقِّ أَهْلَهُ ، وَمُتَبَرِّئاً مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَتَارِكاً التَّكَبُّرَ وَالتَّعَظُّمَ وَالأَنَفَةَ ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ ثَوَابُهَا عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

* * *



(١) مرّ في المقالة (٣٤) .

المَقَالَةُ السَّابِعَةُ وَالسِّتُّوْنَ
فِي جِهَادِ النَّفْسِ وَتَفْصِيْلِ كَيْفِيَّتِهِ

كُلَّمَا جَاهَدْتَ نَفْسَكَ وَغَلَبْتَهَا وَقَتَلْتَهَا بِسَيْفِ الْمُخَالَفَةِ أَحْيَاهَا اللهُ ، وَنَازَعَتْكَ وَطَلَبَتْ مِنْكَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ الْجُنَاحُ مِنْهَا وَالْمُبَاحُ ، لِتَعُوْدَ إِلَى الْمُجَاهَدَةِ وَالْمُسَابَقَةِ لِيَكْتُبَ لَكَ ثَوَاباً دَائِماً ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ »(١) .

أَرَادَ مُجَاهَدَةَ النَّفْسِ لِدَوَامِهَا وَاسْتِمْرَارِهَا عَلَى الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ ، وَانْهِمَاكِهَا فِي الْمَعَاصِي ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر : ٩٩] . أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَبِيِّهِ(٢) ﷺ بِالعِبَادَةِ وَهِيَ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ ، لأَنَّ العِبَادَةَ كُلَّهَا تَأْبَاهَا النَّفْسُ

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٣٧٣) عن علي بن أحمد بن عبدان ، عن أحمد بن عبيد ، عن تمام ، عن عيسى بن إبراهيم ، عن يحيى بن يعلى ، عن ليث ، عن عطاء ، عن جابر قال : قدم على رسول الله ﷺ قومٌ غُزاة ، فقال ﷺ : « قدمتم خير مقدم من جهاد الأصغر إلى جهادٍ أكبر » . قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ . قال : « مجاهدة العبد هواه » . وقال البيهقي : هذا فيه ضعف .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/٤٩٣) عن واصل بن حمزة بن علي بن أحمد بن نصر أبي القاسم الصوفي البخاري ، عن أبي سهل عبد الكريم بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن سليمان البخاري ، عن خلف بن محمد بن إسماعيل الخيام ، عن أبي عبد الله محمد بن حاتم بن نعيم ، عن أبيه ، عن عيسى بن موسى ، عن الحسن بن هاشم ، عن يحيى بن أبي العلاء قال : حدثنا ليث ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر قال : قدم النبي ﷺ من غزاة له ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟! قال : « مجاهدة العبد هواه » . قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١٥٧٢) : إسناد ضعيف .

وقال المزي في تهذيب الكمال (٢/١٤٤) : قال النسائي : أخبرني صفوان بن عمرو قال : حدثنا محمد بن زياد أبو مسعود من أهل بيت المقدس قال : سمعت إبراهيم بن أبي عبلة وهو يقول لمن جاء من الغزو : قد جئتم من الجهاد الأصغر ، فما فعلتم في الجهاد الأكبر ؟ قالوا : يا أبا إسماعيل ، وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد القلب . وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٣٢٥) وجامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب (١٥٧١) .

(٢) في نسخة : (بنبيه) .

وَتُرِيدُ ضِدَّهَا إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُ اليَقِينُ يَعْنِي : الْمَوْتَ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ تَأْبَى نَفْسُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ العِبَادَةَ ، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لاَ هَوَى لَهُ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم : ٣ـ ٤] . فَيُقَالُ : إِنَّهُ عزَّ وجلَّ خَاطَبَ نَبِيَّهُ ﷺ لِيَتَقَرَّرَ بِهِ الشَّرْعُ فَيَكُوْنَ عَامّاً بَيْنَ أُمَّتِهِ إِلَى أَنْ تَقُوْمَ السَّاعَةُ ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَعْطَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ القُوَّةَ عَلَى النَّفْسِ وَالْهَوَى ، كَيْلاَ يَضُرَّاهُ وَيُحْوِجَاهُ إِلَى الْمُجَاهَدَةِ ، بِخِلاَفِ أُمَّتِهِ ، فَإِذَا دَامَ الْمُؤْمِنُ عَلَى هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ وَيَلْحَقَ بِرَبِّهِ عزَّ وجلَّ بِسَيْفٍ مَسْلُوْلٍ مُلَطَّخٍ[1] بِدَمِ النَّفْسِ وَالْهَوَى أَعْطَاهُ مَا ضَمِنَ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، لِقَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات : ٤٠ـ ٤١] . فَإِذَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ وَجَعَلَهَا دَارَهُ وَمَقَرَّهُ وَمَصِيْرَهُ ، أَمِنَ مِنَ التَّحْوِيْلِ عَنْهَا وَالانْتِقَالِ إِلَى غَيْرِهَا وَالعَوْدِ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا جَدَّدَ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيْمِ وَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ أَنْوَاعُ الْحَالِ وَالْحُلِيِّ إِلَى مَا لاَ نِهَايَةَ لَهُ وَلاَ غَايَةَ وَلاَ نَفَادَ ، كَمَا جَدَّدَ هُوَ فِي الدُّنْيَا كُلَّ يَوْمٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ مُجَاهَدَةَ النَّفْسِ وَالْهَوَى .

وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ وَالعَاصِي لَمَّا تَرَكُوا مُجَاهَدَةَ النَّفْسِ وَالْهَوَى فِي الدُّنْيَا وَتَابَعُوْهَا ، وَوَافَقُوا الشَّيْطَانَ ، تَمَرَّغُوا[2] فِي أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي مِنَ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَمَا دُوْنَهُمَا حَتَّى أَتَاهُمُ الْمَوْتُ مِنْ غَيْرِ الإِسْلاَمِ وَالتَّوْبَةِ ، أَدْخَلَهُمُ اللهُ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ فِي قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[آل عمران : ١٣١] . فَإِذَا أَدْخَلَهُمْ بِهَا وَجَعَلَهَا مَقَرَّهُمْ وَمَصِيْرَهُمْ وَأُمَّهُمْ ، فَأَحْرَقَتْ جُلُوْدَهُمْ وَلُحُوْمَهُمْ جَدَّدَ لَهُمْ عزَّ وجلَّ جُلُوداً وَلُحُوماً كَمَا قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[النساء : ٥٦] . يَفْعَلُ عزَّ وجلَّ بِهِمْ ذَلِكَ كَمَا وَافَقُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي مَعَاصِيهِ عزَّ وجلَّ ، فَأَهْلُ النَّارِ تُجَدَّدُ لَهُمْ كُلَّ وَقْتٍ جُلُودٌ وَلُحُومٌ لإِيْصَالِ العَذَابِ وَالآلاَمِ إِلَيْهِمْ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يُجَدَّدُ لَهُمْ كُلَّ وَقْتٍ نَعِيْمٌ لِتَتَضَاعَفَ الشَّهَوَاتُ وَاللَّذَّاتُ لَدَيْهِمْ .

---

(١) في نسخة : (مطلخ) .
(٢) تحرف في المطبوع إلى : (تمرجوا) وهو المُتَمَرِّغُ في الرذائل .

وَسَبَبُ ذَلِكَ : مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَعَدَمُ مُوَافَقَتِهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ »(١) .

* * *

(١) ذكره الغزالي في الأربعين في أصول الدين (٢٧٢ بتحقيقي) مرفوعاً . وكثيراً ما يذكره في الإحياء له .

وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٩٧) : لم أقف عليه مع إيراد الغزالي له في الإحياء ، وفي الفردوس بلا سند عن ابن عمر مرفوعاً : « الدنيا قنطرة الآخرة ، فاعبروها ولا تعمروها » . وفي الضعفاء للعقيلي [(٣/ ٨٩) وقال العقيلي : هذا يروى عن علي من قوله] ومكارم الأخلاق لابن لال من حديث طارق بن أشيم رفعه : « نعمة الدار الدنيا لمن تزوَّدَ منها لآخرته . . الحديث » . وهو عند الحاكم في مستدركه [(٤/ ٣١٢ـ ٣١٣) والرامهرمزي في الأمثال (٢٤ و١٠٩) وابن عدي (٣/ ١٠٩٩)] وصححه ، لكن تعقَّبَهُ الذهبي بأنه منكر قال : وعبد الجبار ـ يعني : راويه ـ لا يُعْرَف . اهـ

أقول : روى أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٥) عن أبيه وأبي محمد ابن حيان ، عن إبراهيم بن محمد بن الحسن ، عن عمران بن موسى الطرسوسي ، عن موسى بن أيوب ، عن عقبة بن علقمة ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : الدنيا غنيمة الآخرة .

وروى أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٥٣ـ ٥٤) عن يحيى بن معاذ قال : الدنيا أميرٌ من طلبها ، وخادمٌ من تركها . الدنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ ، فمن طلبها رفضته ، ومن رفضها طلبته . الدنيا قنطرة الآخرة ، فاعبروها ولا تعمروها ، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور . الدنيا عروسٌ ، وطالبها ماشطتها فنافس ينتف شعرها ، ويسود وجهها ، ويمزق ثيابها ، ومن طلق الدنيا فالآخرة زوجته ، فالدنيا مطلقة الأكياس لا تنقضي عدتها أبداً ، فخل الدنيا ولا تذكرها ، واذكر الآخرة ولا تنسها ، وخذ من الدنيا ما يبلغك الآخرة ، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة .

وذكره الديلمي في الفردوس (٣١٠٢) عن ابن عمر : « الدنيا قنطرة الآخرة ، فاعبروها ولا تعمروها ، وإن الله عزَّ وجلَّ خلق الدنيا للعمل والخراب والآخرة للبقاء والجزاء والعقاب » .

وروى البيهقي في الزهد الكبير (٢٦٧) عن أبي عبد الله الحافظ ، عن جعفر بن محمد ، عن أبي العباس بن مسروق قال : سمعت سري يقول : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : الدنيا مزرعة إبليس وأنتم عُمَّارُهَا .

المَقَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالسِّتُّوْنَ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

إِذَا أَجَابَ اللهُ عَبْداً مَا سَأَلَهُ وَأَعْطَاهُ مَا طَلَبَهُ لَمْ تَنْخَرِمْ إِرَادَتُهُ وَلاَ مَا جَفَّ بِهِ القَلَمُ وَسَبَقَ بِهِ العِلْمُ ، لَكِنَّهُ يُوَافِقُ سُؤَالَهُ مُرَادَ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ فِي وَقْتِهِ ، فَتَحْصُلُ الإِجَابَةُ وَقَضَاءُ الحَاجَةِ فِي الوَقْتِ المُقَدَّرِ الَّذِي قَدَّرَهُ لَهُ فِي السَّابِقَةِ لِبُلُوْغِ القَدَرِ وَقْتَهُ كَمَا قَالَ أَهْلُ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ . أي : يَسُوْقُ المَقَادِيْرَ إِلَى المَوَاقِيْتِ ، فَلاَ يُعْطِي اللهُ أَحَداً فِي الدُّنْيَا بِمُجَرَّدِ دُعَائِهِ ، وَكَذَلِكَ لاَ يَصْرِفُ عَنْهُ شَيْئاً بِدُعَائِهِ المُجَرَّدِ ، وَالَّذِي وَرَدَ فِي الحَدِيْثِ : « لاَ يَرُدُّ القَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ »(١) .

---

(١) رواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٢١٢) عن عيسى بن علي ، عن عبد الله بن محمد البغوي ، عن شيبان بن فروخ ، عن أبان ، عن يعلى بن عطاء ، عن أبي علقمة أو عن علي بن أبي طالب قال : إن القدر لا يرد القضاء ، ولكن الدعاء يرد القضاء ، قال الله لقوم يونس : ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[يونس : ٩٨] .

ورواه أبو نعيم في ذكر أخبار أصبهان (٢/ ١٠) عن محمد بن جعفر بن يوسف ، عن علي بن الصباح بن علي ، عن محمد بن عصام ، عن أبيه عصام بن يزيد ، عن سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ موقوفاً : لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

ورواه وكيع في الزهد (٤٠٧) ومن طريقه الإمام أحمد (٥/ ٢٧٧ و٢٨٢) وابن أبي شيبة (٢٩٨٦٧) وهناد في الزهد (١٠٠٩) وابن ماجة (٩٠ و٤٠٢٢) وابن حبان (٨٧٢) (١٠٩٠ موارد) والمزي في تهذيب الكمال (١٤/ ٣٦٦) عن سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري ، عن عبد الله بن أبي الجعد الكوفي [أخو سالم لم يوثقه غير ابن حبان ، وهو مجهول] ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » . وزاد ابن أبي شيبة مع وكيع : الفضل بن دكين ولم يذكر الفقرة الأخيرة في الرزق . وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٥) : سألت شيخنا أبا الفضل العراقي رحمه الله عن هذا الحديث ؟ فقال : هذا حديث حسن .

ورواه الإمام أحمد (٥/ ٢٨٠) عن عبد الرزاق ، عن سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد الأشجعي ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ مرفوعاً : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، =

....

= ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ورواه الطبراني في الكبير (١٤٤٢) عن أبي زرعة الدمشقي ، ورواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠٦٩) عن فهد ، كلاهما عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، عن سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان مرفوعاً : « لا يرد القدر [في مشكل : القضاء] إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ورواه الطبراني في الدعاء (٣١) عن فضيل بن محمد الملطي [ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل] ، عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، عن سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يحيى بن الحارث الذماري ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن ثوبان مرفوعاً : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بذنبٍ يذنبه » . وقال ابن الجوزي كما في تهذيب التهذيب (٤/ ٣٢٠) : روايته عن ثوبان منقطعة .

ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٣١) عن الحسن بن خلف الواسطي ، عن عبد الله بن إبراهيم بن أيوب المتوثي ، عن القاضي أبي بكر موسى بن إسحاق الأنصاري ، عن خالد بن يزيد العمري ، عن سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان مرفوعاً : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » .

ورواه الحاكم (١/ ٤٩٣) عن عبد الرحمن بن حمدان الجلاب بهمدان ، عن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي ، عن قبيصة بن عقبة ، ورواه عن أبي بكر بن أبي نصر الدرابردي بمرو ، عن محمد بن غالب ، عن أبي حذيفة ، كلاهما عن سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان مرفوعاً : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

ورواه الحاكم (٣/ ٤٨١) عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ، عن عمران بن عبد الرحيم ، عن علي بن قرين الباهلي ، عن سعيد بن راشد ، عن الخليل بن مرة ، عن حميد الأعرج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن ثوبان ، أن النبي ﷺ قال : « إن الدعاء يرد القضاء ، وإن البر يزيد في الرزق ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » . وقال الذهبي : ابن قرين كذّاب ، وسعيد واهٍ ، وشيخه ضعّفه ابن معين .

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٣٣) عن أبي عبد الله الحاكم ، عن أبي بكر أحمد بن سليمان الموصلي ، عن علي بن حرب الموصلي ، عن قاسم بن يزيد ، عن سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان مرفوعاً : « لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ورواه عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء (١٢) والروياني في مسنده كما في الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله (١/١٦٢) من طريق عمر بن شبيب ، عن عبد الله بن عيسى ، عن جعفر [في مسند الروياني : حفص] وعبيد الله ابنا أخي سالم بن أبي الجعد ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن=

= ثوبان مرفوعاً : « لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصنعه ، وإن في التوراة مكتوبٌ : يا ابن آدم ، اتق ربك ، وبر والديك ، وصل رحمك ، أمدد لك في عُمرك ، وأيسر لك يسرك ، وأصرف عنك عُسرك » . وقال ابن أبي حاتم في علل الحديث (١٩٨٨) وانظر (٢١١٣) : سألت أبي وأبا زرعة عن حديثٍ رواه عمر بن شبيب ، عن عبد الله بن عيسى ، عن حفص وعبيد الله ابنا أخي سالم بن أبي الجعد ، عن سالم ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ قال : « لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » ؟ . فقالا : هذا خطأ ، رواه سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ ، وهو الصحيح . قلت لهما : ليس لسالم ابن أبي الجعد ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ هاهنا معنى ؟ قالا : لا .

ورواه ابن عدي (٢/٤٤٨) عن أحمد بن محمد بن عبد الكريم ، عن مالك بن الخليل أبو غسان ، عن أبي علي بشر بن عبيد الدارسي [منكر الحديث] ، عن طلحة بن زيد [متروك] ، عن ثور ، عن راشد بن سعد [لم يسمع من ثوبان] ، عن ثوبان مرفوعاً : « لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ورواه الترمذي (٢١٣٩) عن محمد بن حميد الرازي وسعيد بن يعقوب ، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٣٣) من طريق محمد بن حميد ، ورواه البزار في البحر الزخار (٢٥٤٠) عن أحمد بن النعمان بن زياد الرازي ، عن سعيد بن يعقوب الطالقاني ، ورواه الطبراني في الكبير (٦١٢٨) والدعاء له (٣٠) ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ٢٦٧) عن محمد بن العباس المؤدب وموسى بن هارون ـ وزاد في الدعاء : معاذ بن المثنى ـ ، عن سعيد بن يعقوب الطالقاني ، ورواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠٦٨) عن إبراهيم بن أبي داود ، عن سعيد بن يعقوب الطالقاني ، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٣٢) من طريق إسماعيل بن قريش ، ثلاثتهم عن يحيى بن الضُّرَيس ، عن أبي مودود ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » .

وقال الترمذي : وفي الباب عن أبي أسيد ، وهذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من حديث سلمان ، لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن الضريس ، وأبو مودود ، اثنان : أحدهما يقال له : فِضّة ، وهو الذي روى هذا الحديث ، اسمه : فضة بصري ، والآخر : عبد العزيز بن أبي سليمان ، أحدهما : بصري ، والآخر : مدني ، وكانا في عصرٍ واحد .

أقول : أبو مودود فِضّة البصري ضعيف كما قال أبو حاتم الرازي في الجرح والتعديل (٧/ ٩٣) .

وقال ابن حجر : فيه لين .

ووهم الطحاوي في شرح المشكل فقال : أبو مودود هو عبد العزيز بن أبي سليمان مولى هُذيل ، وهو عند أهل الحديث ثقة ، وهو من أهل البصرة ، وهو خلاف أبي مودود المديني .

قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ بِهِ : لاَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ إلاَّ الدُّعَاءُ الَّذِي قَضَى أَنْ يُرَدَّ لِقَضَائِهِ ، وَكَذَلِكَ لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ فِي الآخِرَةِ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لَكِنَّهُ يُعْطِي العِبَادَ فِي الْجَنَّةِ الدَّرَجَاتِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ : أَنَّهَا سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ : « هَلْ يَدْخُلُ أَحَدٌ

= ورواه ابن عدي (٣/ ٤٣) عن محمد بن منير ، عن سعدان بن نصر ، خالد بن إسماعيل المخزومي [يضع الحديث على الثقات] ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، عن أبي سهيل وهو نافع بن مالك ، عن أبيه ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « بر الوالدين يزيد في العمر ، والدعاء يرد القضاء ، والكذب ينقص الرزق ، ولله في خلقه قضاء بين قضاء نافذ وقضاء محدث ، وللأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضل درجة » . وقال ابن عدي : وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر .

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥) ومن طريقه الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٤/ ١٣٣) عن أبي محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، ورواه عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء (٤) من طريق أبي علي الحسن بن طلحة النعالي ، كلاهما عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي .

ورواه الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٣/ ١٨١) عن الحافظ أبي محمد عبد الصمد بن أحمد السليطي في الأحاديث السباعية ، عن محمد بن علي الكامخي بمدينة السلام ، عن عمر بن أحمد المروذي ، عن زيد بن محمد الكوفي .

كلاهما عن يعقوب بن يوسف القزويني ، عن موسى بن محمد أبو هارون البكّاء القزويني [ليس بثقة] ، عن كثير بن عبد الله أبو هاشم [منكر الحديث ومتروك] قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « يا بني ، أكثر من الدعاء ، فإن الدعاء يرد القضاء الْمُبْرَمَ » .

ورواه الطبراني في الدعاء (٢٩) عن عثمان بن عمر الضبي ، عن عبد الله بن رجاء ، عن إسرائيل بن يونس [روى عن أبي إسحاق بعدما اختلط] ، عن أبي إسحاق السبيعي [ثقة اختلط بأخرة مشهور بالتدليس وقد عنعنه] ، عن بريد بن أبي مريم ، عن أنس مرفوعاً : « ادعوا ، فإن الدعاء يرد القضاء » .

ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨٧ـ ١٨٨) عن أبي محمد ابن حيان ، عن إبراهيم بن محمد بن الحسن ، عن علي بن محمد بن الحسن ، عن علي بن محمد بن أبي الخصيب ، عن إسماعيل بن أبان المزني ، عن أبي حمزة ، عن أبي جعفر محمد بن علي قال : ما من شيء أحب الى الله عزَّ وجلَّ من أن يُسأل ، وما يدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثواباً : البر ، وأسرع الشر عقوبةً : البغي ، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه .

الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » . فَقَالَ : « إِلاَّ بِرَحْمَةِ اللهِ » . فَقَالَتْ : وَلاَ أَنْتَ ؟ . فَقَال : « وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى هَامَتِهِ[1] .

وَذَلِكَ لأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لاَ يَجِبُ[2] عَلَيْهِ لأَحَدٍ حَقٌّ وَلاَ يَلْزَمُهُ الوَفَاءُ بِالعَهْدِ ، بَلْ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ : يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[هود : ١٠٧ والبروج : ١٦] ، وَ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[الأنبياء : ٢٣] ، ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[البقرة : ٢١٢ وآل عمران : ٣٧ والنور : ٣٨] بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ وَمِنَّتِهِ ، وَيَمْنَعُ مَنْ شَاءَ بِعَدْلِهِ .

وكَيْفَ لاَ يَكُوْنُ كَذَلِكَ وَالْخَلْقُ مِنْ لَدُنِ العَرْشِ إِلَى الثَّرَى الَّتِي هِيَ الأَرْضُ السَّابِعَةُ السُّفْلَى مُلْكُهُ وَصُنْعُهُ ، لاَ مَالِكَ لَهُمْ غَيْرُهُ وَلاَ صَانِعَ لَهُمْ غَيْرُهُ .

قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[فاطر : ٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[النمل : ٦٠ و٦١ و٦٢ و٦٣ و٦٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم : ٦٥] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران : ٢٦ـ٢٧] .

* * *

---

(١) تقدَّمَ تخريجه في المقالة رقم (٢٧) .

(٢) في المطبوع : (يحب) .

المَقَالَةُ التَّاسِعَةُ وَالسِّتُّوْنَ
فِي الأَمْرِ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ وَالعِصْمَةِ وَالتَّوْفِيْقِ وَالرِّضَا وَالصَّبْرِ مِنَ اللهِ تَعَالَى

لاَ تَطْلُبَنَّ مِنَ اللهِ شَيْئاً سِوَى الْمَغْفِرَةِ لِلْذُّنُوْبِ السَّابِقَةِ وَالعِصْمَةِ مِنْهَا فِي الأَيَّامِ الآتِيَةِ اللاَّحِقَةِ ، وَالتَّوْفِيْقِ لِحُسْنِ الطَّاعَةِ ، وَامْتِثَالِ الأَمْرِ وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى شَدَائِدِ البَلاَءِ ، وَالشُّكْرِ عَلَى جَزِيْلِ النَّعْمَاءِ وَالعَطَاءِ ، ثُمَّ الوَفَاة بِخَاتِمَةِ الْخَيْرِ ، وَاللُّحُوْقِ بِالأَنْبِيَاءِ ﴿ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء : ٦٩] ، وَلاَ تَطْلُبْ مِنْهُ الدُّنْيَا ، وَلاَ كَشْفَ الفَقْرِ وَالبَلاَءِ إِلَى الغِنَاءِ وَالعَافِيَةِ ، بَلِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ وَدَبَّرَ ، وَاسْأَلْهُ الْحِفْظَ الدَّائِمَ عَلَى مَا أَقَامَكَ فِيْهِ وَأَحَلَّكَ وَابْتَلاَكَ ، إِلَى أَنْ يَنْقُلَكَ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَضِدِّهِ ، لأَنَّكَ لاَ تَعْلَمُ الْخَيْرَ فِي أَيِّهِمَا ، فِي الفَقْرِ أَوْ فِي الغِنَاءِ ، فِي البَلاَءِ أَوْ فِي العَافِيَةِ ، طَوَى عَنْكَ عِلْمَ [حَقِيْقَةِ] الأَشْيَاءِ وَتَفَرَّدَ هُوَ عزَّ وجلَّ بِمَصَالِحِهَا وَمَفَاسِدِهَا .

وَقَدْ وَرَدَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [أَنَّهُ قَالَ] : لاَ أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أُصْبِحُ ، عَلَى مَا أَكْرَهُ أَوْ عَلَى مَا أُحِبُّ ، لأَنِّي لاَ أَدْرِي الْخَيْرَ فِي أَيِّهِمَا[1] .

قَالَ ذَلِكَ لِحُسْنِ رِضَاهُ بِتَدْبِيْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَالطُّمَأْنِيْنَةِ عَلَى اخْتِيَارِهِ وَقَضَائِهِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة : ٢١٦] .

كُنْ عَلَى هَذَا الْحَالِ إِلَى أَنْ يَزُوْلَ هَوَاكَ وَتَنْكَسِرَ نَفْسُكَ فَتَكُوْنَ ذَلِيْلَةً مَغْلُوْبَةً تَابِعَةً ثُمَّ تَزُوْلُ

---

(١) لم أجده .

وروى الطبراني في الكبير (٩١٧٠) عن علي بن عبد العزيز ، عن أبي نعيم ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي ، عن أبي حصين ، عن عبد الله بن باباه قال : قال عبد الله بن مسعود : ما يهزأ امرؤ مسلم على أي حال أصبح عليها من الدنيا وأمسى أن لا يكون حزازة في نفسه . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٧٨) : فيه المسعودي ، وقد اختلط .

إِرَادَتُكَ وَأَمَانِيكَ ، وَتَخْرُجُ الأَكْوَانُ مِنْ قَلْبِكَ وَلاَ يَبْقَى فِي قَلْبِكَ شَيْءٌ سِوَى اللهِ تَعَالَى ، فَيَمْتَلِيءُ قَلْبُكَ بِحُبِّ اللهِ تَعَالَى ، وَتَصْدُقُ إِرَادَتُكَ فِي طَلَبِهِ عزَّ وجلَّ فَيَرُدُّ إِلَيْكَ الإِرَادَةَ بِأَمْرِهِ بِطَلَبِ حَظٍّ مِنَ الْحُظُوظِ دُنْيَوِيَّةً وَأُخْرَوِيَّةً ، فَحِينَئِذٍ تَسْأَلُهُ عزَّ وجلَّ بِذَلِكَ وَتَطْلُبُهُ مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ إِنْ أَعْطَاكَ شَكَرْتَهُ وَتَلَبَّسْتَ بِهِ ، وَإِنْ مَنَعَكَ لَمْ تَتَسَخَّطْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ فِي بَاطِنِكَ وَلاَ تَتَّهِمْهُ فِي ذَلِكَ بِبُخْلٍ ، لأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ طَلَبْتَهُ بِهَوَاكَ وَإِرَادَتِكَ ، لأَنَّكَ فَارِغُ القَلْبِ عَنْ ذَلِكَ غَيْرُ مُرِيْدٍ لَهُ ، بَلْ مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ بِالسُّؤَالِ . وَالسَّلاَمُ .





المَقَالَةُ السَّبْعُوْنَ
فِي الشُّكْرِ وَالاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيْرِ

كَيْفَ يَحْسُنُ مِنْكَ العُجْبُ فِي أَعْمَالِكَ وَرُؤْيَةُ نَفْسِكَ فِيْهَا، وَطَلَبُ الأَعْوَاضِ عَلَيْهَا، وَجَمِيعُ ذَلِكَ بِتَوْفِيْقِ اللهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَإِنْ كَانَ تَرْكَ مَعْصِيَةٍ فَبِعِصْمَتِهِ وَحِفْظِهِ وَحَمِيَّتِهِ.

أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ وَالاعْتِرَافِ بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَوْلاَكَهَا، مَا هَذِهِ الرُّعُوْنَةُ وَالْجَهْلُ، تُعْجَبُ بِشَجَاعَةِ غَيْرِكَ وَسَخَائِهِ وَبَذْلِ مَالِهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ قَاتِلاً لِعَدُوِّكَ[1] إِلاَّ بَعْدَ مُعَاوَنَةِ شُجَاعٍ ضَرَبَ فِي عَدُوِّكَ ثُمَّ تَمَّمْتَ[2] قَتْلَهُ، لَوْلاَهُ كُنْتَ مَصْرُوعاً مَكَانَهُ وَبَدَلَهُ، وَلاَ بَاذِلاً لِبَعْضِ مَالِكَ إِلاَّ بَعْدَ ضَمَانِ صَادِقٍ كَرِيْمٍ أَمِيْنٍ ضَمِنَ لَكَ عِوَضَهُ وَخَلَفَهُ، لَوْلاَ قَوْلُهُ وَطَمَعُكَ فِيْمَا وَعَدَ ذَلِكَ وَضَمِنَ لَكَ مَا بَذَلْتَ حَبَّةً مِنْهُ، كَيْفَ تَعَجُّبُكَ بِمُجَرَّدِ فِعْلِكَ.

أَحْسَنُ حَالِكَ الشُّكْرُ وَالثَّنَاءُ عَلَى الْمُعِيْنِ وَالْحَمْدُ للهِ الدَّائِمِ، وَإِضَافَةُ ذَلِكَ إِلَيْهِ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا إِلاَّ الشَّرَّ وَالْمَعَاصِي وَاللَّوْمَ، فَإِنَّكَ تُضِيْفُهَا[3] إِلَى نَفْسِكَ وَتَنْسِبُهَا إِلَى الظُّلْمِ وَسُوءِ الأَدَبِ وَتَتَّهِمُهَا بِهِ، فَهِيَ أَحَقُّ بِذَلِكَ لأَنَّهَا مَأْوَى لِكُلِّ شَرٍّ وَأَمَّارَةٌ بِكُلِّ سُوءٍ وَدَاهِيَةٍ، وَإِنْ كَانَ هُوَ عزَّ وجلَّ خَالِقُكَ وَخَالِقُ أَفْعَالِكَ مَعَ كَسْبِكَ، أَنْتَ الكَاسِبُ وَهُوَ الْخَالِقُ كَمَا قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ، تَجِيءُ وَلاَ بُدَّ مِنْكَ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «اعْمَلُوا وَقَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[4].

---

(١) في المطبوع: (بعدوك).

(٢) في المطبوع: (تمنيت).

(٣) تحرف المطبوع إلى: (تتضيفها).

(٤) رواه مسلم (٢٨١٦) عن زهير بن حرب، عن جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس أحد ينجيه عمله؟». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتداركني الله منه برحمة».

الْمَقَالَةُ الْحَادِيَةُ وَالسَّبْعُوْنَ
فِي الْمُرِيْدِ وَالْمُرَادِ

لاَ يَخْلُو إِمَّا أَنْ تَكُوْنَ مُرِيْداً أَوْ مُرَاداً .

فَإِنْ كُنْتَ مُرِيْداً فَأَنْتَ مُحَمَّلٌ وَحَمَّالٌ يَحْمِلُ كُلَّ شَدِيْدٍ وَثَقِيْلٍ ، لأَنَّكَ طَالِبٌ ، وَالطَّالِبُ مَشْقُوقٌ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَطْلُوْبِهِ وَيَظْفَرَ بِمَحْبُوْبِهِ وَيُدْرِكَ مَرَامَهُ ، وَلاَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْفِرَ مِنْ بَلاَءٍ يَنْزِلُ بِكَ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ ، إِلَى أَنْ تُحَطَّ[1] عَنْكَ الأَعْمَالُ ، وَتُزَالَ[2] عَنْكَ الأَثْقَالُ ، وَتُرْفَعَ[3] عَنْكَ الآلاَمُ ، وَيُزَالُ عَنْكَ الأَذَى وَالإِذْلاَلُ ، فَتُصَانُ عَنْ جَمِيْعِ الرَّذَائِلِ وَالأَدْرَانِ وَالأَوْسَاخِ وَالْمَهَانَاتِ وَالافْتِقَارِ إِلَى الْخَلِيْقَةِ وَالبَرِيَّاتِ ، فَتَدْخُلَ فِي زُمْرَةِ الْمَحْبُوْبِيْنَ الْمُدَلَّلِيْنَ الْمُرَادِيْنَ .

وَإِنْ كُنْتَ مُرَاداً فَلاَ تَتَّهِمَنَّ الْحَقَّ عزَّ وجلَّ فِي إِنْزَالِ الْبَلِيَّةِ بِكَ أَيْضاً ، وَلاَ تَشُكَّنَّ فِي مَنْزِلَتِكَ

= ورواه سعيد بن منصور (٦٩٤) وابن أبي شيبة (١٠٨٠٣) والحميدي (١١٤٨) ومسلم (٢٥٧٤) والترمذي (٣٠٣٨) والنسائي في الكبرى (١١١٢٢) والبيهقي (٣/ ٣٧٣) من طرق عن سفيان بن عيينة ، عن عمر بن عبد الرحمن بن محيصن المكي ، عن محمد بن قيس بن مخرمة ، عن أبي هريرة قال : لما نزلت : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[النساء : ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ : « قاربوا وسددوا ، ففي كل ما يُصاب به المسلم كفَّارةٌ حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يُشاكها » .

وحديث : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[الليل : ٥ ـ ١٠] » . رواه الإمام أحمد (٦٢١ و١٣٤٨) والبخاري (٤٩٤٦ و٤٩٤٩ و٦٢١٧ و٦٦٠٥ و٧٥٥٢) والأدب المفرد (٩٠٣) ومسلم (٢٦٤٧) والترمذي (٢١٣٦) وابن ماجة (٧٨) وابن حبان (٣٣٤ و٣٣٥) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(١) في المطبوع : (يحط) .

(٢) في المطبوع : (ويزال) .

(٣) في المطبوع : (ويرفع) .

وَقَدْرِكَ عِنْدَهُ عزَّ وجلَّ ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَبْتَلِيكَ لِيُبَلِّغَكَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ ، وَيَرْفَعَ مَنْزِلَتَكَ إِلَى مَنَازِلِ الأَوْلِيَاءِ وَالأَبْدَالِ .

أَتُحِبُّ مَا يَحُطُّ مَنْزِلَتَكَ عَنْ مَنَازِلِهِمْ ؟ وَدَرَجَاتِكَ عَنْ دَرَجَاتِهِمْ ؟ وَأَنْ تَكُونَ خِلْعَتُكَ وَأَنْوَارُكَ وَنَعِيمُكَ دُونَ مَا لَهُمْ ؟ فَإِنْ رَضِيتَ أَنْتَ بِالدُّونِ فَالْحَقُّ عزَّ وجلَّ لاَ يَرْضَى لَكَ بِذَلِكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ٢١٦] . يَخْتَارُ لَكَ الأَعْلَى وَالأَسْنَى وَالأَرْفَعَ وَالأَصْلَحَ وَأَنْتَ تَأْبَى .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ يَصْلُحُ ابْتِلاَءُ الْمُرَادِ مَعَ هَذَا النَّعِيمِ وَالبَيَانِ ، مَعَ أَنَّ الابْتِلاَءَ إِنَّمَا هُوَ لِلْمُحِبِّ ، وَالْمُدَلَّلُ إِنَّمَا هُوَ الْمَحْبُوبُ .

يُقَالُ لَكَ : ذِكْرُنَا الأَغْلَبُ أَوَّلاً ، وَسَمَرْنَا بِالنَّادِرِ الْمُمْكِنِ ثَانِياً .

لاَ خِلاَفَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ سَيِّدَ الْمَحْبُوبِينَ ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بَلاَءً .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « لَقَدْ خِفْتُ فِي اللهِ مَا لاَ يَخَافُهُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ مَا لَمْ يُؤْذَهُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ ثَلاَثُونَ يَوْماً وَلَيْلَةً وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلاَلٍ »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ١٢٠) عن عبد الصمد بن عبد الوارث بن سعيد ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « لقد أوذيت في الله وما يُؤذَى أحدٌ ، وأُخِفْتُ في الله وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بَيْنِ يومٍ وليلةٍ ، وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ ، إلا ما يواري إبطُ بلالٍ » .

ورواه الإمام أحمد (٣/ ٢٨٦) عن عفان بن مسلم ، عن حماد ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك مرفوعاً : « لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحدٌ ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بَيْنِ يوم وليلةٍ ، وما لي ولا لِبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ ، إلا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ » . ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٥٠ و٦/ ٢٥٢) عن أبي بكر بن خلاّد ، عن الحارث بن أبي أسامة ، عن عفان به .

ورواه عبد بن حميد (١٣١٧) عن محمد بن الفضل ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً : « لقد أخفت في الله وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحدٌ ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بَيْنِ يومٍ وليلةٍ ، وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ ، إلا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ » .

ورواه الترمذي (٢٤٧٢) والشمائل له (١٣٧) عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، عن روح بن أسلم أبو حاتم البصري ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً : « لقد أخفت =

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « إِنَّا مَعْشَرَ[1] الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ »[2] .

وَقَالَ ﷺ : « أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ مِنْهُ خَوْفاً »[3] .

فَكَيْفَ يَبْتَلِي الْمَحْبُوبَ وَيُخَوِّفُ الْمُدَلَّلَ الْمُرَادَ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلاَّ بِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ بُلُوغِ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ فِي الْجَنَّةِ لأَنَّ الْمَنَازِلَ فِي الْجَنَّةِ تُشَيَّدُ وَتُرْفَعُ[4] بِالأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا .

= في الله وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحدٌ ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بَيْنِ يومٍ وليلةٍ ، وَما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ ، إلا ما يواريه إبطُ بلالٍ » . وقال الترمذي في السنن : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، ومعنى هذا الحديث : حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكّة ومعه بلال ، إنما كان مع بلال من الطعام ما يحمله تحت إبطه .

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٣٢) عن محمد بن موسى بن الفضل ، عن عبد الله بن الصفار ، عن أحمد بن محمد البرني القاضي ، عن محمد بن كثير العبدي ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً : « لقد أخفت في الله عزَّ وجلَّ وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أوذيت في الله عزَّ وجلَّ وما يُؤْذَى أحدٌ ، ولقد أتى عليّ وعلى بلال ثلاثون ما بَيْنِ يومٍ وليلةٍ ، وَما لي من طعام يأكله ذو كبدٍ ، إلا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ » .

ورواه الضياء المقدسي في المختارة (١٦٣٣) من طريق عبد الله بن محمد البغوي ، عن عبيد الله بن محمد العيشي ، عن حماد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً : « لقد أخفت في الله وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحدٌ ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بَيْنِ يومٍ وليلةٍ ، وَما لنا طعام نأكله إلا شيئاً يواريه إبطُ بلالٍ » . وقال الضياء عقب (١٦٣٤) : ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي ، عن حجاج بن المنهال ، عن حماد .

ورواه الإمام أحمد (٣/ ١٢٠) ومن طريقه الضياء المقدسي في المختارة (١٦٣٤) وابن أبي شيبة (١١/ ٤٦٤) (٣١٧٠٤) و(١٤/ ٣٠٠) (٣٦٥٦٦) وعنه أبو يعلى (٣٤٢٣) وعنه ابن حبان (٦٥٦٠) وابن ماجة (١٥١) عن علي بن محمد ، ثلاثتهم عن وكيع بن الجرّاح ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً : « لقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحدٌ ، ولقد أخفت في الله وما يُخَافُ أحدٌ ، ولقد أتت عليّ ثلاثةٌ [عند بعضهم : ثالثة . و : ثلاث] من بَيْنِ يومٍ وليلةٍ ، وَما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ ، إلا ما واراه [في أحمد : يواري] إبطُ بلالٍ » .

(١) في المطبوع : (معاشر) .

(٢) تقدم تخريجه في المقالة (٢٢) ومرّ أيضاً في المقالة (٢٧) .

(٣) تقدم تخريجه في المقالة (٢٧) .

(٤) تحرف في المطبوع إلى : (لا تُشَيَّدُ ولا ترفع) .

الدُّنْيا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ ، وَأَعْمَالُ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ بَعْدَ أَدَاءِ الأَوَامِرِ وَانْتِهَاءِ النَّوَاهِي : الصَّبْرُ وَالرِّضَا وَالْمُوَافَقَةُ فِي حَالَةِ البَلاَءِ ، يُكْشَفُ عَنْهُمُ البَلاَءُ ، وَيُوَاصَلُونَ بِالنَّعِيمِ وَالفَضْلِ وَالدَّلاَلِ وَاللِّقَاءِ أَبَدَ الآبَادِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

* * *

الْمَقَالَةُ الثَّانِيَةُ وَالسَّبْعُوْنَ

فِيْمَنْ إِذَا دَخَلَ الأَسْوَاقَ وَمَالَ إِلَى مَا فِيْهَا وَمَنْ إِذَا دَخَلَهَا وَصَبَرَ

الَّذِيْنَ يَدْخُلُوْنَ الأَسْوَاقَ مِنْ أَهْلِ الدِّيْنِ وَالنُّسْكِ فِي خُرُوجِهِمْ إِلَى أَدَاءِ مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ صَلاَةِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِ تَسْنَحُ لَهُمْ عَلَى أَضْرُبٍ :

مِنْهُمْ مَنْ إِذَا دَخَلَ السُّوْقَ وَرَأَى فِيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ تَقَيَّدَ بِهِمَا وَعَلِقَتْ بِقَلْبِهِ فِتَنٌ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَلاَكِهِ وَتَرْكِهِ دِيْنَهُ وَنُسُكَهُ وَرُجُوعِهِ إِلَى مُوَافَقَةِ طَبْعِهِ وَاتِّبَاعِ هَوَاهُ إِلاَّ أَنْ يَتَدَارَكَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِرَحْمَتِهِ وَعِصْمَتِهِ وَإِصْبَارِهِ إِيَّاهُ عَنْهَا فَيَسْلَمُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا رَأَى ذَلِكَ كَادَ أَنْ يَهْلَكَ بِهَا رَجَعَ إِلَى عَقْلِهِ وَدِيْنِهِ وَتَصَبَّرَ وَتَجَرَّعَ مَرَارَةَ تَرْكِهَا ، فَهُوَ كَالْمُجَاهِدِ يَنْصُرُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ وَطَبْعِهِ وَهَوَاهُ ، وَيَكْتُبُ لَهُ الثَّوَابَ الْجَزِيْلَ فِي الآخِرَةِ .

كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **يُكْتَبُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ بِتَرْكِ شَهْوَةٍ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْهَا أَوْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ سَبْعُوْنَ حَسَنَةً** » أَوْ كَمَا قَالَ[1] .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَاوَلُهُ وَيَتَلَبَّسُ بِهَا وَيُحَصِّلُهَا بِفَضْلِ نِعْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ الَّتِي عِنْدَهُ مِنْ سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ ، وَيَشْكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ عَلَيْهَا .

وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يَرَاهَا وَلاَ يَشْعُرُ بِهَا ، فَهُوَ أَعْمَى عَنْ مَا سِوَى اللهِ عزَّ وجلَّ فَلاَ يَرَى غَيْرَهُ ، وَأَصَمُّ عَمَّا سِوَاهُ فَلاَ يَسْمَعُ مِنْ غَيْرِهِ ، عِنْدَهُ شُغْلٌ عَنِ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ مَحْبُوْبِهِ وَاشْتِهَائِهِ ، فَهُوَ فِي

---

(١) لم أجده .

وروى مسلم (١٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « قال الله عزَّ وجلَّ : إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً » . ورواه (١٢٨) بلفظ : « قال الله عزَّ وجلَّ : إذا همَّ عبدي بحسنةٍ ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبع مئة ضعفٍ ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » .

مَعْزِلٍ عَمَّا العَالِمُ فِيْهِ ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ وَقَدْ دخَلَ السُّوْقَ فَسَأَلْتَهُ عَمَّا رَأَى فِي السُّوْقِ ؟ يَقُولُ : مَا رَأَيْتُ شَيْئاً ، نَعَمْ قَدْ رَأَى الأَشْيَاءَ لَكِنْ قَدْ رَآهَا بِبَصَرِ رَأْسِهِ لاَ بِبَصَرِ قَلْبِهِ ، وَنَظْرَةَ فُجَاءَةٍ لاَ نَظْرَةَ[١] شَهْوَةٍ ، نَظَرَ صُوْرَةٍ لاَ نَظَرَ مَعْنًى ، نَظَرَ الظَّاهِرِ لاَ نَظَرَ البَاطِنِ ، فَبِظَاهِرِهِ يَنْظُرُ إِلَى مَا فِي السُّوْقِ ، وَبِقَلْبِهِ يَنْظُرُ إِلَى رَبِّهِ عزَّ وجلَّ إِلَى جَلاَلِهِ تَارَةً وَإِلَى جَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى .

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا دَخَلَ السُّوْقَ امْتَلأَ قَلْبُهُ بِاللهِ عزَّ وجلَّ رَحْمَةً لَهُمْ[٢] ، فَتَشْغَلُهُ الرَّحْمَةُ لَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَهُمْ وَبَيْنَ[٣] أَيْدِيْهِمْ ، فَهُوَ مِنْ حِيْنِ دُخُوْلِهِ إِلَى حِيْنِ خُرُوْجِهِ فِي الدُّعَاءِ وَالاسْتِغْفَارِ ، وَالشَّفَاعَةِ لأَهْلِهِ ، وَالشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ[٤] ، (فَقَلْبُهُ مُحْتَرِقٌ) عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ ، وَعَيْنُهُ مَغْرُوْقَةٌ[٥] (لأَجْلِهِمْ) ، وَلِسَانُهُ فِي ثَنَاءٍ وَحَمْدٍ للهِ عزَّ وجلَّ بِمَا أَوْلَى الكَافَّةَ مِنْ نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ .

فَهَذَا يُسَمَّى : شُحْنَةَ البِلاَدِ وَالعِبَادِ ، وَإِنْ شِئْتَ سَمَّيْتَهُ : عَارِفاً وَبَدَلاً وَزَاهِداً وَعَالِماً غَوْثاً[٦] وَبَدَلاً مَحْبُوباً مُرَاداً ، وَنَائِباً فِي الأَرْضِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَسَفِيْراً وَجِهْبِذاً وَنَقَّاذاً وَهَادِياً وَمَهْدِيّاً وَدَالاًّ وَمُرْشِداً فَهَذَا هُوَ الكِبْرِيْتُ الأَحْمَرُ وَبَيْضَةُ العَقْعَقِ[٧] . رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مُرِيْدٍ للهِ وَصَلَ إِلَى انْتِهَاءِ المَقَامِ ، وَاللهُ الهَادِي

* * *

(١) في نسخة (ونظر فجاءة لا نظر) .
(٢) في نسخة (امتلأ قلبه بالله لأهله) .
(٣) في نسخة : (ما لهم بين) .
(٤) في نسخة : (حين خروجه في دعاء واستغفار ، وشفاعة لأهله ، وشفقة ورحمة) .
(٥) في المطبوع : (مغزورة) .
(٦) تحرف في المطبوع إلي : (غيباً) .
(٧) العَقْعَقُ : طَائِرٌ أَبْلَقُ بِسَوَادٍ وبياض ، يُشْبِهُ صَوتُهُ العَيْنَ وَالقَافَ .

المَقَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُوْنَ

فِي قِسْمٍ مِنَ الأَوْلِيَاءِ قَدْ يُطْلِعُهُ اللهُ عَلَى عُيُوبِ غَيْرِهِمْ

قَدْ يُطْلِعُ اللهُ تَعَالَى وَلِيَّهُ عَلَى عُيُوبِ غَيْرِهِ وَكَذِبِهِ وَدَعْوَتِهِ وَشِرْكِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِضْمَارِهِ وَنِيَّتِهِ ، فَيَغَارُ وَلِيُّ اللهِ لِرَبِّهِ وَلِرَسُوْلِهِ وَدِيْنِهِ فَيَشْتَدُّ غَضَبُ بَاطِنِهِ ثُمَّ ظَاهِرِهِ حَاضِراً وَغَائِباً .

كَيْفَ يَدَّعِي السَّلاَمَةَ مَعَ العِلَلِ وَالأَوْجَاعِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ؟ وَكَيْفَ يَدَّعِي التَّوْحِيْدَ مَعَ الشِّرْكِ ؟ وَالشِّرْكُ كُفْرٌ وَبُعْدٌ عَنْ قُرْبِ اللهِ وَهُوَ صِفَةُ العَدُوِّ وَالشَّيْطَانِ اللَّعِيْنِ ، وَالْمُنَافِقِيْنَ الْمَقْطُوْعِ لَهُمْ بِالدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَالْخُلُوْدِ فِيْهَا ، فَيَجْرِي عَلَى لِسَانِ الوَلِيِّ ذِكْرُ عُيُوبِهِ وَأَفْعَالِهِ الْخَبِيْثَةِ وَوَقَاحَتِهِ بِعَرِيْضِ دَعَاوِيْهِ أَحْوَالَ الصِّدِّيْقِيْنَ ، وَمُزَاحَمَتُهُ لِلْفَانِيْنَ فِي قَدَرِ اللهِ وَفِعْلِهِ وَالْمُرَادِ ، مَرَّةً[1] عَلَى وَجْهِ الغَيْرَةِ للهِ عزَّ وجلَّ ، وَمَرَّةً[2] عَلَى وَجْهِ الإِنْكَارِ لَهُ وَالْمَوْعِظَةِ لَهُ أُخْرَى ، وَعَلَى وَجْهِ الغَلَبَةِ بِفِعْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وَإِرَادَتِهِ وَشِدَّةِ غَضَبِهِ عَلَى الكَذِبِ أُخْرَى ، فَيُضَافُ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ غِيْبَةً ، فَيُقَالُ : أَيَغْتَابُ الوَلِيُّ وَهُوَ يَمْنَعُ مِنْهَا أَوْ يَذْكُرُ الغَائِبَ وَالْحَاضِرَ بِمَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْخَوَاصِّ وَالعَوَامِّ ؟ فَيَصِيْرُ ذَلِكَ الإِنْكَارُ فِي حَقِّهِمْ كَمَا قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[البقرة : ٢١٩] . فِي الظَّاهِرِ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ وَفِي البَاطِنِ إِسْخَاطُ الرَّبِّ وَالاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ فَيَصِيْرُ حَالُهُ الْحِيْرَةَ[3] ، فَيَكُوْنُ فَرْضُهُ فِيْهَا السُّكُوْتَ وَالتَّسْلِيْمَ وَطَلَبَ الْمَسَاعِي لِذَلِكَ فِي الشَّرْعِ ، وَالْجَوَازَ لاَ الاعْتِرَاضَ عَلَى [أَنَّ] الرَّبَّ وَالوَلِيَّ يَطْعَنَانِ لافْتِرَائِهِ وَكَذِبِهِ ، وَقَدْ يَكُوْنُ ذَلِكَ سَبَباً لإِقْلاَعِهِ وَتَوْبَتِهِ وَرُجُوْعِهِ عَنْ جَهْلِهِ وَحِيْرَتِهِ ، فَيَكُوْنُ كُرْهاً لِلْوَلِيِّ نَفْعاً لِلْمَغْرُورِ الْهَالِكِ بِغُرُورِهِ وَرُعُوْنَتِهِ . ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة : ٢١٣ والنور : ٤٦] .

* * *

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (من) .

(٢) في المطبوع : (مرة) .

(٣) في نسخة : (الخيرة) .

الْمَقَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالسَّبْعُوْنَ

فِيْمَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى وِحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى

أَوَّلُ مَا يَنْظُرُ العَاقِلُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ وَتَرْكِيْبِهِ ، ثُمَّ فِي جَمِيْعِ الْمَخْلُوْقَاتِ وَالْمُبْدَعَاتِ فَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا ، لأَنَّ فِيْهِ دَلاَلَةً عَلَى الصَّانِعِ وَفِي الْقُدْرَةِ الْمُحْكَمَةِ آيَةً عَلَى الْحَكِيْمِ ، فَإِنَّ الأَشْيَاءَ كُلَّهَا مَوْجُوْدَةٌ بِهِ .

وَفِي مَعْنَاهُ مَا ذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيْرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية : ١٣] . فَقَالَ : فِي كُلِّ شَيْءٍ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ ، وَاسْمُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ اسْمِهِ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ بَيْنَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، بَاطِنٌ بِقُدْرَتِهِ وَظَاهِرٌ بِحِكْمَتِهِ ، ظَهَرَ بِصِفَاتِهِ وَبَطَنَ بِذَاتِهِ ، حَجَبَ الذَّاتَ بِالصِّفَاتِ ، وَحَجَبَ الصِّفَاتِ بِالأَفْعَالِ ، وَكَشَفَ العِلْمَ بِالإِرَادَةِ ، وَأَظْهَرَ الإِرَادَةَ بِالْحَرَكَاتِ ، وَأَخْفَى الصُّنْعَ وَالصَّنِيْعَةَ ، وَأَظْهَرَ الصَّنِيْعَةَ بِالإِرَادَةِ ، فَهُوَ بَاطِنٌ فِي غَيْبِهِ وَظَاهِرٌ فِي حِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(١) [الشورى : ١١] .

وَلَقَدْ أَظْهَرَ فِي هَذَا الكَلاَمِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعْرِفَةِ مَا لاَ يَظْهَرُ إِلاَّ مِنْ ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور : ٣٥] ، أَمَرَهُ بِرَفْعِ يَدِ العِصْمَةِ : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيْلَ »(٢) .

---

(١) رواه ابن جرير في جامع البيان (٢٥/ ١٤٣) عن محمد بن سعد قال : حدثني أبي قال : حدثني عمي قال : حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ . يقول : كل شيء هو من الله ، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه ، فذلك جميعاً منه ، ولا ينازعه فيه المنازعون ، واستيقن أنه كذلك . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٤) لابن جرير .

وقال ابن قيِّم الجوزية في الفوائد (الفصل ١٤٥ بتحقيقي) : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حَجَبَ الذَّاتَ بِالصِّفَاتِ ، وَحَجَبَ الصِّفَاتَ بِالأَفْعَالِ . فَمَا ظَنُّكَ بِجَمَالٍ حُجِبَ بِأَوْصَافِ الْكَمَالِ ، وَسُتِرَ بِنُعُوْتِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلاَلِ ؟ .

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٣٩٧ و٢٨٧٩ و٣٠٣٢ و٣١٠٢) وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه بهذا اللفظ . =

أَنالَنَا اللهُ تَعَالَى بَرَكَاتِهِمْ وَحَشَرَنَا فِي زُمْرَتِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ ، آمِيْن

* * *



= ورواه الإمام أحمد (٣٠٢٢) ومسلم (١٤٣) بلفظ : « اللهم فقّهه » .

ورواه البخاري (٢٤٧٧) بلفظ : « اللهم فقهه في الدين » .

الْمَقَالَةُ الْخَامِسَةُ وَالسَّبْعُوْنَ
فِي التَّصَوُّفِ وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَبْنَاهُ

أُوْصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَ(حِفْظِ) طَاعَتِهِ ، وَلُزُوْمِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ ، وَسَلاَمَةِ الصَّدْرِ ، وَسَخَاءِ النَّفْسِ ، وَبَشَاشَةِ الوَجْهِ ، وَبَذْلِ النَّدَى ، وَكَفِّ الأَذَى ، وَتَحَمُّلِ الأَذَى وَالفَقْرِ ، وَحِفْظِ حُرُمَاتِ الْمَشَايِخِ ، وَالعِشْرَةِ مَعَ الإِخْوَانِ ، وَالنَّصِيحَةِ للأَصَاغِرِ وَالأَكَابِرِ ، وَتَرْكِ الْخُصُوْمَةِ وَحَمْلِ الأَذَى[١] وَالإِرْفَاقِ ، وَمُلاَزَمَةِ الإِيْثَارِ ، وَمُجَانَبَةِ الادِّخَارِ ، وَتَرْكِ صُحْبَةِ مَنْ لَيْسَ مِنْ طَبَقَتِهِمْ ، وَالْمُعَاوَنَةِ فِي أَمْرِ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا .

وَحَقِيْقَةُ الفَقْرِ : أَنْ لاَ تَفْتَقِرَ عَلَى مَنْ هُوَ مِثْلُكَ . وَحَقِيْقَةُ الغِنَى : أَنْ تَسْتَغْنِي عَمَّنْ هُوَ مِثْلُكَ .

وَالتَّصَوُّفُ لَيْسَ أَخْذٌ عَنِ القِيْلِ وَالقَالِ ، وَلَكِنْ أَخْذٌ عَنِ الْجُوْعِ وَقَطْعِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْمُسْتَحْسَنَاتِ ، وَلاَ تَبْدَأْ الفَقِيْرَ بِالعِلْمِ وَابْدَأْهُ بِالرِّفْقِ[٢] ، فَإِنَّ العِلْمَ يُوْحِشُهُ وَالرِّفْقَ يُؤْنِسُهُ .

وَالتَّصَوُّفُ مَبْنِيٌّ عَلَى ثَمَانِ خِصَالٍ :

السَّخَاءُ لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ، وَالرِّضَا[٣] لإِسْحَاقَ عليه السلام ، وَالصَّبْرُ لأَيُّوبَ عليه السلام ، وَالإِشَارَةُ لِزَكَرِيَّا عليه السلام ، وَالغُرْبَةُ لِيَحْيَى عليه السلام ، وَالتَّصَوُّفُ لِمُوْسَى عليه السلام ، وَالسِّيَاحَةُ لِعِيْسَى عليه السلام ، وَالفَقْرُ لِسَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّيْنَ وَالْمُرْسَلِيْنَ وَآلِ كُلٍّ وَصَحْبِ كُلٍّ وَسَلَّمَ أَجْمَعِيْنَ .

* * *

(١) (وحمل الاذى) ناقصة من نسخة .

(٢) في نسخة : (ولابتداء الفقير بالعلم وإبدائه بالرفق) .

(٣) إن كان قصد الشيخ رحمه الله أن سيدنا إسحاق هو الذبيح برضائه بالذبح ، فهو خاطئٌ ، ومن منّا ليس بخطّاء .

المَقَالَةُ السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُوْنَ

فِي الوَصِيَّةِ

أُوصِيْكَ أَنْ تَصْحَبَ الأَغْنِيَاءَ بِالتَّعَزُّزِ ، وَالفُقَرَاءَ بِالتَّذَلُّلِ ، وَعَلَيْكَ بِالتَّذَلُّلِ وَالإِخْلَاصِ ، وَهُوَ دَوَامُ رُؤْيَةِ الْخَالِقِ ، وَلاَ تَتَّهِمْ اللهَ فِي الأَسْبَابِ ، وَاسْتَكِنْ إِلَيْهِ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ ، وَلاَ تُضِعْ حَقَّ أَخِيْكَ اتِّكَالاً على مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ .

وَعَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الفُقَرَاءِ بِالتَّوَاضُعِ وَحُسْنِ الأَدَبِ وَالسَّخَاءِ ، وَأَمِتْ نَفْسَكَ حَتَّى تَحْيَى .

وَأَقْرَبُ الْخَلْقِ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَوْسَعُهُمْ خُلُقاً ، وَأَفْضَلُ الأَعْمَالِ : رِعَايَةُ السِّرِّ عَنِ الالْتِفَاتِ إِلَى مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى .

وَعَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَبِالصَّبْرِ ، وَحَسْبُكَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئَانِ : صُحْبَةُ فَقِيْرٍ ، وَخِدْمَةُ وَلِيٍّ . وَالفَقِيْرُ هُوَ الَّذِي لاَ يَسْتَغْنِي بِشَيْءٍ دُوْنَ اللهِ تَعَالَى .

وَالصَّوْلَةُ عَلَى مَنْ هُوَ دُوْنَكَ ضَعْفٌ ، وَعَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَخْرٌ ، وَعَلَى مَنْ هُوَ مِثْلُكَ سُوْءُ خُلُقٍ .

وَالفَقْرُ وَالتَّصَوُّفُ جِدَّانِ فَلاَ تَخْلُطْهُمَا بِشَيْءٍ مِنَ الْهَزْلِ ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ وَالْمُسْلِمِيْنَ آمِيْنَ .

يَا وَلِيّ ، عَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ لِلْخَيْرِ جَامِعٌ ، وَعَلَيْكَ بِالاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ فَإِنَّهُ لِلْمِضْمَارِ دَافِعٌ ، وَعَلَيْكَ بِالتَّأَهُّبِ لِتَلَقِّي مَوَارِدَ القَضَاءِ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّكَ مَسْؤُولٌ عَنْ حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ ، فَاشْتَغِلْ بِمَا هُوَ أَوْلَى فِي الوَقْتِ ، وَإِيَّاكَ وَفُضُولَ تَصَرُّفَاتِ الْجَوَارِحِ .

وَعَلَيْكَ بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ وَمَنْ وَالاَهُ ، وَأَدِّ إِلَيْهِ حَقَّهُ ، وَلاَ تُطَالِبْهُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ ، وَادْعُ فِي كُلِّ حَالٍ .

وَعَلَيْكَ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي الْمُسْلِمِيْنَ ، وَإِصْلاَحِ النِّيَّةِ لَهُمْ ، وَتَسْعَى بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَأَنْ لاَ تَبِيْتَ وَلأَحَدٍ فِي قَلْبِكَ شَرٌّ وَلاَ شَحْنَاءٌ وَلاَ بُغْضٌ ، وَأَنْ تَدْعُو لِمَنْ ظَلَمَكَ ، وَرَاقِبِ اللهَ عَزَّ وجلَّ .

وَعَلَيْكَ بِأَكْلِ الْحَلاَلِ ، وَالسُّؤَالِ لأَهْلِ الْعِلْمِ بِاللهِ فِيْمَا لاَ تَعْلَمُ .

وَعَلَيْكَ بِالْحَيَاءِ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى .

وَاجْعَلْ صُحْبَتَكَ مَعَ مَنِ اللهُ مَعَهُ(١) ، وَاصْحَبْ مَنْ سِوَى اللهَ بِصُحْبَتِهِ ، وَتَصَدَّقْ فِي كُلِّ صَبَاحٍ بِقُرْصِكَ(٢) ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَصَلِّ صَلاَةَ الْجَنَازَةِ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَإِذَا صَلَّيْتَ الْمَغْرِبَ فَصَلاَةُ الاسْتِخَارَةِ ، وَتَقُوْلُ بُكْرَةً وَعَشِيّاً سَبْعَ مَرَّاتٍ : « اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ »(٣) ، وَحَافِظْ عَلَى قَوْلِ : « أَعُوْذُ بِاللهِ السَّمِيْعِ العَلِيْمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ »(٤) .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الحشر : ٢٢] إِلَى آخِرِ سُوْرَةِ الْحَشْرِ .

وَاللهُ الْمُوَفِّقُ الْمُعِيْنُ ، إِذْ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ .

* * *

---

(١) في نسخة : (واجعل صحبتك مع الله) .

(٢) في نسخة : (بغرضك) .

(٣) رواه أبو داود (٥٠٧٩) عن مسلم بن الحارث التميمي .

(٤) قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[النحل : ٩٨] .

الْمَقَالَةُ السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُوْنَ
فِي الوُقُوفِ مَعَ اللهِ وَالفَنَاءِ عَنِ الْخَلْقِ

كُنْ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ كَأَنْ لاَ خَلْقَ ، وَمَعَ الْخَلْقِ كَأَنْ لاَ نَفْسَ ، فَإِنْ كُنْتَ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ بِلاَ خَلْقٍ وُجِدْتَ ، وَعَنِ الْكُلِّ فَنِيْتَ ، وَإِذَا كُنْتَ مَعَ الْخَلْقِ بِلاَ نَفْسٍ عَدَلْتَ وَاتَّقَيْتَ[1] ، وَمِنَ التَّبِعَاتِ سَلِمْتَ ، وَاتْرُكِ الكُلَّ عَلَى بَابِ خِلْوَتِكَ ، وَادْخُلْ وَحْدَكَ تَرَ مُؤْنِسَكَ فِي خَلْوَتِكَ بِعَيْنِ سِرِّكَ ، وَتُشَاهِدُ مَا وَرَاءَ العِيَانِ ، وَتَزُولُ النَّفْسُ وَيَأْتِي مَكَانَهَا أَمْرُ اللهِ وَقُرْبُهُ ، فَإِذَا جَهْلُكَ عِلْمٌ ، وَبُعْدُكَ قُرْبٌ ، وَصَمْتُكَ ذِكْرٌ ، وَوَحْشَتُكَ أُنْسٌ .

يَا هَذَا ، مَا ثَمَّ إِلاَّ خَلْقٌ وَخَالِقٌ ، فَإِنِ اخْتَرْتَ الْخَالِقَ فَقُلْ لَهُمْ : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٧] .

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ[2] : مَنْ ذَاقَ عَرَفَ ! فَقِيْلَ لَهُ : مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ مَرَارَةُ صُفْرَتِهِ كَيْفَ يَجِدُ حَلاَوَةَ الذَّوْقِ ؟ فَقَالَ : يَتَعَمَّلُ فِي الشَّهَوَاتِ مِنْ قِبَلِهِ بِقَصْدٍ وَتَكَلُّفٍ .

يَا هَذَا ، الْمُؤْمِنُ إِذَا عَمِلَ صَالِحاً انْقَلَبَتْ نَفْسُهُ قَلْباً وَأَدْرَكَ مُدْرَكَاتِ قَلْبٍ ، ثُمَّ انْقَلَبَ قَلْبُهُ سِرّاً ثُمَّ انْقَلَبَ الْفَنَاءُ فَصَارَ وُجُوداً وَبَقَاءً .

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ :

الأَحْبَابُ يَسَعُهُمْ كُلُّ بَابٍ .

يَا هَذَا ، الفَنَاءُ إِعْدَامُ الْخَلاَئِقِ ، وَانْقِلاَبُ طَبْعِكَ عَنْ طَبْعِ الْمَلاَئِكَةِ ، ثُمَّ الفَنَاءُ عَنْ طَبْعِ الْمَلاَئِكَةِ ، ثُمَّ لُحُوقُكَ بِالْمِنْهَاجِ الأَوَّلِ ، وَحِيْنَئِذٍ يُسْقِيْكَ رَبُّكَ مَا يُسْقِيْكَ ، وَيَزْرَعُ فِيْكَ مَا يَزْرَعُ .

---

(١) في المطبوع : (وبقيت) .

(٢) أي : الشيخ عبد القادر ـ رحمه الله ـ .

إنْ أَرَدْتَ هَذَا فَعَلَيْكَ بِالإِسْلاَمِ ثُمَّ الاسْتِسْلاَم ، ثُمَّ العِلْم بِاللهِ ، ثُمَّ الْمَعْرِفَة ، ثُمَّ الوُجُود ، وَإِذَا كَانَ وُجُودُكَ لَهُ كَانَ كُلُّكَ لَهُ .

الزُّهْدُ عَمَلُ سَاعَةٍ ، وَالوَرَعُ عَمَلُ سَاعَتَيْنِ ، وَالْمَعْرِفَةُ عَمَلُ الأَبَدِ .

* * *



الْمَقَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالسَّبْعُوْنَ

فِي أَهْلِ الْمُجَاهَدَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَأُوْلِي العَزْمِ وَبَيَانِ خِصَالِهِم

لأَهْلِ الْمُجَاهَدَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَأُوْلِي العَزْمِ عَشْرُ خِصَالٍ جَرَّبُوهَا ، فَإِذَا أَقَامُوهَا وَأَحْكَمُوها بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى وَصَلُوا إِلَى اللهِ وَالْمَنَازِلِ الشَّرِيفَةِ :

الأُولَى : أَنْ لاَ يَحْلِفَ بِاللهِ عزَّ وجلَّ صَادِقاً وَلاَ كَاذِباً ، عَامِداً وَلاَ سَاهِياً ، لأَنَّهُ إِذَا أَحْكَمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وَعَوَّدَ لِسَانَهُ رَفَعَهُ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ الْحَلِفِ سَاهِياً وَعَامِداً ، فَإِذَا اعْتَادَ ذَلِكَ فَتَحَ اللهُ بَاباً مِنْ أَنْوَارِهِ يَعْرِفُ مَنْفَعَةَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ ، وَرَفَعَهُ فِي دَرَجَةٍ وَقُوَّةٍ فِي عَزْمِهِ وَفِي صَبْرِهِ وَالثَّنَاءِ عِنْدَ الإِخْوَانِ ، وَالكَرَامَةِ عِنْدَ الْجِيْرَانِ حَتَّى يَأْتَمَّ بِهِ مَنْ يَعْرِفُهُ وَيَهَابُهُ مَنْ يَرَاهُ .

وَالثَّانِيَةُ : يَجْتَنِبُ الكَذِبَ لاَ هَازِلاً وَلاَ جَادّاً ، لأَنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَأَحْكَمَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْتَادَهُ لِسَانُهُ شَرَحَ اللهُ تَعَالَى بِهِ صَدْرَهُ وَصَفَا بِهِ عِلْمُهُ ، كَأَنَّهُ لاَ يَعْرِفُ الكَذِبَ ، وَإِذَا سَمِعَهُ مِنْ غَيْرِهِ عَابَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَعَيَّرَهُ بِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنْ دَعَا لَهُ بِزَوَالِ ذَلِكَ كَانَ لَهُ ثَوَابٌ .

الثَّالِثَةُ : أَنْ يَحْذَرَ أَنْ يَعِدَ أَحَداً شَيْئاً فَيُخْلِفَهُ ، وَيَقْطَعَ العِدَةَ أَلْبَتَّةَ فَإِنَّهُ أَقْوَى لأَمْرِهِ وَأَقْصَدُ بِطَرِيقِهِ ، لأَنَّ الْخُلْفَ مِنَ الكَذِبِ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فُتِحَ لَهُ بَابُ السَّخَاءِ وَدَرَجَةُ الْحَيَاءِ ، وَأُعْطِيَ مَوَدَّةً فِي الصَّادِقِيْنَ ، وَرِفْعَةً عِنْدَ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ .

الرَّابِعَةُ : أَنْ يَجْتَنِبَ أَنْ يَلْعَنَ شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ ، أَوْ يُؤْذِيَ ذَرَّةً فَمَا فَوْقَهَا ، لأَنَّهَا مِنْ أَخْلاَقِ الأَبْرَارِ وَالصِّدِّيقِينَ ، وَلَهُ عَاقِبَةٌ حَسَنَةٌ فِي حِفْظِ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ ، وَيَسْتَنْقِذُهُ مِنْ مَصَارِعِ الْهَلاَكِ ، وَيُسَلِّمُهُ مِنَ الْخَلْقِ ، وَيَرْزُقُهُ رَحْمَةَ العِبَادِ ، وَيُقَرِّبُهُ مِنْهُ عزَّ وجلَّ .

الْخَامِسَةُ : أَنْ يَجْتَنِبَ الدُّعَاءَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ وَإِنْ ظَلَمَهُ فَلاَ يَقْطَعُهُ بِلِسَانِهِ ، وَلاَ يُكَافِئُهُ بِقَوْلٍ وَلاَ فِعْلٍ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْخِصْلَةَ تَرْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَى الدَّرَجَاتِ العُلَى ، وَإِذَا تَأَدَّبَ بِهَا يَنَالُ مَنْزِلَةً شَرِيفَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالْمَحَبَّةَ وَالْمَوَدَّةَ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ مِنْ قَرِيْبٍ

وَبَعِيدٍ ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ وَالعُلُوَّةِ(١) فِي الْخَلْقِ ، وَعِزٌّ فِي الدُّنْيَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِيْنَ .

السَّادِسَةُ : أَنْ لاَ يَقْطَعَ الشَّهَادَةَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِشِرْكٍ وَلاَ كُفْرٍ وَلاَ نِفَاقٍ ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ لِلرَّحْمَةِ ، وَأَعْلَى فِي الدَّرَجَةِ وَهِيَ تَمَامُ السُّنَّةِ ، وَأَبْعَدُ عَنِ الدُّخُوْلِ فِي عِلْمِ اللهِ ، وَأَبْعَدُ مِنْ مَقْتِ اللهِ ، وَأَقْرَبُ إِلَى رِضَاءِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ ، فَإِنَّهُ بَابٌ شَرِيْفٌ كَرِيْمٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى يُوْرِثُ العَبْدَ الرَّحْمَةَ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ .

السَّابِعَةُ : أَنْ يَجْتَنِبَ النَّظَرَ إِلَى الْمَعَاصِي ، وَيَكُفَّ عَنْهَا جَوَارِحَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْرَعِ الأَعْمَالِ ثَوَاباً فِي القَلْبِ وَالْجَوَارِحِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ اللهُ مِنْ خَيْرِ الآخِرَةِ .

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا أَجْمَعِيْنَ ، وَيُعَلِّمَنَا بِهَذِهِ الْخِصَالِ ، وَأَنْ يُخْرِجَ شَهَوَاتِنَا عَنْ قُلُوْبِنَا .

الثَّامِنَةُ : يَجْتَنِبُ أَنْ يَجْعَلَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ مِنْهُ مُؤْنَةً صَغِيْرَةً وَلاَ كَبِيْرَةً ، بَلْ يَرْفَعُ مُؤْنَتَهُ عَنِ الْخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ مِمَّا احْتَاجَ إِلَيْهِ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَمَامُ عِزَّةِ العَابِدِيْنَ وَشَرَفُ الْمُتَّقِيْنَ ، وَبِهِ يَقْوَى عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَكُوْنُ الْخَلْقُ عِنْدَهُ أَجْمَعِيْنَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ نَقَلَهُ اللهُ إِلَى الغِنَاءِ وَاليَقِيْنِ وَالثِّقَةِ بِهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ يَرْفَعُ أَحَداً(٢) سِوَاهُ ، وَيَكُوْنُ(٣) الْخَلْقُ عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، وَيَقْطَعُ بِأَنَّ هَذِهِ أَسْبَابُ عِزِّ الْمُؤْمِنِيْنَ وَشَرَفِ الْمُتَّقِيْنَ ، وَهُوَ أَقْرَبُ بَابِ الإِخْلاَصِ .

التَّاسِعَةُ : يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْطَعَ طَمَعَهُ مِنَ الآدَمِيِّيْنَ ، وَلاَ يُطْمِعُ نَفْسَهُ فِيْمَا فِي أَيْدِيْهِمْ ، فَإِنَّهُ العِزُّ الأَكْبَرُ ، وَالغِنَى الْخَاصُّ ، والْمُلْكُ العَظِيْمُ ، وَالفَخْرُ الْجَلِيْلُ ، وَاليَقِيْنُ الصَّافِي ، وَالتَّوَكُّلُ الشَّافِي الصَّرِيْحُ ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الثِّقَةِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الزُّهْدِ ، وَبِهِ يُنَالُ الوَرَعُ وَيَكْمُلُ نُسُكُهُ ، وَهُوَ مِنْ عَلاَمَاتِ الْمُنْقَطِعِيْنَ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ .

العَاشِرَةُ : التَّوَاضُعُ ، لأَنَّ بِهِ يُشَيَّدُ مَحَلُّ العَابِدِ وَتَعْلُو مَنْزِلَتُهُ ، وَيَسْتَكْمِلُ العِزَّ وَالرِّفْعَةَ

---

(١) تحرف في المطبوع إلى : (والغلوة) وفي نسخة : (والغلو) .

(٢) في نسخة : (أحدٌ) .

(٣) في نسخة : (وتكون) .

عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَعِنْدَ الْخَلْقِ ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَا يُرِيْدُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَهَذِهِ الْخِصْلَةُ أَصْلُ الْخَطَايَا كُلِّهَا وَفَرْعُهَا وَكَمَالُهَا ، وَبِهَا يُدْرِكُ الْعَبْدُ مَنَازِلَ الصَّالِحِيْنَ الرَّاضِيْنَ عَنِ اللهِ تَعَالَى فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَهِيَ كَمَالُ التَّقْوَى .

وَالتَّوَاضُعُ : وَهُوَ أَنْ لاَ يَلْقَى الْعَبْدُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ إِلاَّ رَأَى لَهُ الْفَضْلَ عَلَيْهِ ، وَيَقُوْلُ : عَسَى أَنْ يَكُوْنَ عِنْدَ اللهِ خَيْراً مِنِّي وَأَرْفَعَ دَرَجَةً .

فَإِنْ كَانَ صَغِيْراً ، قَالَ : هَذَا لَمْ يَعْصِ اللهَ تَعَالَى ، وَأَنَا قَدْ عَصَيْتُ ، فَلاَ شَكَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنِّي .

وَإِنْ كَانَ كَبِيْراً ، قَالَ : هَذَا عَبَدَ اللهَ قَبْلِي .

وَإِنْ كَانَ عَالِماً ، قَالَ : هَذَا أُعْطِيَ مَا لَمْ أَبْلُغْ ، وَنَالَ مَا لَمْ أَنَلْ ، وَعَلِمَ مَا جَهِلْتُ ، وَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ .

وَإِنْ كَانَ جَاهِلاً ، قَالَ : هَذَا عَصَى اللهَ بِجَهْلٍ وَأَنَا عَصَيْتُهُ بِعِلْمٍ ، وَلاَ أَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لِي وَبِمَ يُخْتَمُ لَهُ .

وَإِنْ كَانَ كَافِراً ، قَالَ : لاَ أَدْرِي عَسَى أَنْ يُسْلِمَ فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ الْعَمَلِ ، وَعَسَى [أَنْ] أَكْفُرَ فَيُخْتَمَ لِي بِسُوءِ الْعَمَلِ .

وَهَذَا بَابُ الشَّفَقَةِ وَالْوَجَلِ ، وَأَوْلَى مَا يُصْحَبُ ، وَآخِرُ مَا يَبْقَى عَلَى الْعِبَادِ .

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ سَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْغَوَائِلِ[1] ، وَبَلَغَ بِهِ مَنَازِلَ النَّصِيْحَةِ للهِ عزَّ وجلَّ ، وَكَانَ مِنْ أَصْفِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَحِبَّائِهِ ، وَكَانَ مِنْ أَعْدَاءِ إِبْلِيْسَ عَدُوِّ اللهِ لَعَنَهُ اللهُ ، وَهُوَ بَابُ الرَّحْمَةِ ، وَمعَ ذَلِكَ يَكُوْنُ قَطَعَ بَابَ الْكِبْرِ وَحِبَالَ الْعُجْبِ ، وَرَفَضَ دَرَجَةَ الْعُلُوِّ فِي نَفْسِهِ فِي الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَهُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ ، وَغَايَةُ شَرَفِ الزَّاهِدِيْنَ ، وَسِيْمَاءُ النَّاسِكِيْنَ ، فَلاَ شَيءَ مِنْهُ أَفْضَلُ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقْطَعُ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِ الْعَالَمِيْنَ وَمَا لاَ يَعْنِي ، فَلاَ يَتِمُّ لَهُ عَمَلٌ إِلاَّ بِهِ ، وَيُخْرِجُ الْغِلَّ وَالْكِبْرَ وَالْبَغْيَ مِنْ قَلْبِهِ فِي جَمِيْعِ أَحْوَالِهِ ، وَكَانَ لِسَانُهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ

(١) أي : المهالك .

وَاحِداً ، وَمَشِيئَتُهُ فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ وَاحِدَةً ، وَكَلاَمُهُ كَذَلِكَ ، وَالْخَلْقُ عِنْدَهُ فِي النَّصِيحَةِ وَاحِدٌ ، وَلاَ يَكُونُ مِنَ النَّاصِحِينَ وَهُوَ يَذْكُرُ أَحَداً مِنْ خَلْقِ اللهِ بِسُوءٍ ، أَو يُعَيِّرُهُ بِفِعْلٍ ، أَوْ يُحِبُّ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ وَاحِدٌ[1] بِسُوءٍ .

وَهَذَا آفَةُ العَابِدِيْنَ ، وَعَطَبُ النُّسَّاكِ ، وَهَلاَكُ الزَّاهِدِيْنَ ، إِلاَّ مَنْ أَعَانَهُ اللهُ تَعَالَى وَحَفِظَ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ .

* * *



(١) في نسخة : (أن يذكر عنه أحد) .

تَكْمِلَةٌ
فِي ذِكْرِ وَصَايَا لأَوْلاَدِهِ قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُمْ وَبَعْضُ مَقَالاَتٍ نَافِعَةٌ أَوْرَدَهَا ، وَمَرَضُهُ وَوَفَاتُهُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ

إِنَّهُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ لَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ ، وَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الوَهَّابِ قُدِّسَ سِرُّهُ : أَوْصِنِي يَا سَيِّدِي بِمَا أَعْمَلُ بِهِ بَعْدَكَ ؟ . فَقَالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ تَخَفْ أَحَداً سِوَى اللهَ ، وَلاَ تَرْجُ أَحَداً سِوَى اللهَ ، وَكُلِ الْحَوَائِجَ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وَلاَ تَعْتَمِدْ إِلاَّ عَلَيْهِ ، وَاطْلُبْهَا جَمِيْعاً مِنْهُ تَعَالَى ، وَلاَ تَتَكِلْ عَلَى أَحَدٍ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ[١] . التَّوْحِيْدُ التَّوْحِيْدُ جِمَاعُ الكُلِّ .

وَقَالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : إِذَا صَحَّ القَلْبُ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ لاَ يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَقَالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : أَنَا لُبٌّ بِلاَ قِشْرٍ[٢] .

وَقَالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ لأَوْلاَدِهِ : أَبْعِدُوا مَنْ حَوْلِي ، فَإِنِّي مَعَكُمْ بِالظَّاهِرِ ، وَمَعَ غَيْرِكُمْ بِالبَاطِنِ .

وَقَالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ : قَدْ حَضَرَ عِنْدِي غَيْرُكُمْ فَأَوْسِعُوا لَهُمْ ، وَتَأَدَّبُوا مَعَهُمْ ، هَاهُنَا رَحْمَةٌ عَظِيْمَةٌ ، وَلاَ تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْمَكَانَ .

وَكَانَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : وَعَلَيْكُمْ[٣] السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ، وَتَابَ[٤] اللهُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، بِسْمِ اللهِ غَيْرُ مُوَدِّعِيْنَ . قَالَ ذَلِكَ يَوْماً وَلَيْلَةً .

---

(١) في نسخة : (ولا تثق بأحد غير الله عزّ وجلّ) .

(٢) في نسخة : (قشور) .

(٣) في المطبوع : (عليكم) .

(٤) في المطبوع : (تاب) .

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وَيْلَكُمْ! أَنَا لاَ أُبَالِي بِشَيْءٍ ، لاَ بِمَلِكٍ وَلاَ بِمَلَكِ الْمَوْتِ[١] . (يَا مَلَكَ الْمَوْتِ) ، مَنَحَ لَنَا مَنْ يَتَوَلاَّنَا سِوَاكَ . وَصَاحَ صَيْحَةً عَظِيمَةً ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِي عَشِيَّتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَأَخْبَرَنِي[٢] وَلَدَاهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَالشَّيْخُ مُوسَى ـ قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُمَا ـ : أَنَّ حَضْرَةَ الْغَوْثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيَمُدُّهُمَا وَيَقُولُ : وَعَلَيْكُمُ[٣] السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، تُوبُوا وَادْخُلُوا فِي الصَّفِّ إِذَا جِيءَ إِلَيْكُمْ[٤] .

وَكَانَ[٥] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : ارْفِقُوا[٦] ، ثُمَّ أَتَاهُ الْحَقُّ وَسَكْرَةُ الْمَوْتِ .

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ بُعْدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلاَ تُقِيسُونِي بِأَحَدٍ ، وَلاَ تُقِيسُونَا عَلَى أَحَدٍ[٧] . ثُمَّ سَأَلَهُ وَلَدُهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ ـ قُدِّسَ سِرُّهُ ـ عَنْ أَلَمِهِ وَحَالِهِ ؟ . فَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : لاَ يَسْأَلْنِي أَحَدٌ عَنْ شَيْءٍ ، (هَا) أَنَا أَتَقَلَّبُ فِي عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وَقَدْ سَأَلَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ ـ قُدِّسَ سِرُّهُ ـ أَيْضاً عَنْ مَرَضِهِ ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (لَهُ) : إِنَّ مَرَضِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ وَلاَ يَعْقِلُهُ أَحَدٌ : إِنْسِيٌّ ، وَلاَ جِنِّيٌّ[٨] ، وَلاَ مَلَكٌ ، وَمَا يُنْقِصُ[٩] عِلْمُ اللهِ بِحُكْمِ اللهِ ، الْحُكْمُ يَتَغَيَّرُ وَالعِلْمُ لاَ يَتَغَيَّرُ ، (الْحُكْمُ يُنْسَخُ وَالعِلْمُ لاَ يُنْسَخُ) : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾[الرعد : ٣٩] . وَ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء : ٢٣] . أَخْبَارُ الصِّفَاتِ تُمَرُّ كَمَا جَاءَتْ .

---

(١) في نسخة : (ولا بملك ، وبملك الموت) .
(٢) في المطبوع : (وخبر) .
(٣) في المطبوع : (عليكم) .
(٤) في نسخة : (هو ذا أجيءُ إليكم) .
(٥) في المطبوع : (وقال) .
(٦) في المطبوع : (أوقفوا) .
(٧) في نسخة : (ولا تقيسوا عليَّ أحداً) .
(٨) في المطبوع : (إنسٌ ولا جن) .
(٩) في المطبوع : (ما ينقص) .

وَسَأَلَهُ وَلَدُهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْجَبَّارِ ـ قُدِّسَ سِرُّهُ ـ : مَاذَا يُؤْلِمُكَ مِنْ جِسْمِكَ ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : جَمِيعُ أَعْضَائِي تُؤْلِمُنِي إِلاَّ قَلْبِي ، فَمَا بِهِ أَلَمٌ ، وَهُوَ (صَحِيحٌ) مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثُمَّ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : اسْتَعَنْتُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ سبحانه وتعالى ، (وَهُوَ) الْحَيُّ الَّذِي لاَ (يَمُوتُ ، وَلاَ) يَخْشَى الفَوْتَ .

سُبْحَانَ مَنْ تَعَزَّزَ بِالقُدْرَةِ وَقَهَرَ عِبَادَهُ[1] بِالْمَوْتِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ .

وَأَخْبَرَنِي[2] وَلَدُهُ الشَّيْخُ مُوسَى ـ قُدِّسَ سِرُّهُ ـ أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا قَرُبَتْ وَفَاةُ حَضْرَةِ الشَّيْخِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ كَانَ يَقُولُ : تَعَزَّزَ وَلَمْ يُؤَدِّهَا عَلَى الصِّحَّةِ ، فَمَا زَال يُكَرِّرُهَا حَتَّى إِذَا قَالَ تَعَزَّزَ وَمَدَّ بِهَا صَوْتَهُ وَشَدَّهَا حَتَّى صَاحَ لِسَانُهُ ، ثُمَّ قَالَ : الله الله الله ، ثُمَّ خَفِيَ صَوْتُهُ وَلِسَانُهُ مُلْتَصِقٌ بِسَقْفِ حَلْقِهِ ، ثُمَّ خَرَجَتْ رُوحُهُ الكَرِيمَةُ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ .

* * *



(١) في نسخة : (العباد) .
(٢) في المطبوع : (وأخيراً) .

فهرس موضوعات الكتاب

* * *

الإصدارات الجديدة

١ـ جواهر القرآن ودرره. (قياس: ١٧× ٢٤/ غلاف كرتونيه)
لحجة الإسلام الإمام الغزالي/ تحقيق: د. محمد نجدت المحمد، مدرس الفقه الإسلامي وأصوله في كلية الشريعة ـ جامعة دمشق.

٢ـ وثيقة نصرةٍ ووفاء، (لوحة قياس: ٢٥× ٣٥/ ٤ لون)
للرسول الكريم محمد (ﷺ).

٣ـ تاج القرآن الكريم/ للأطفال/ ذكور ـ إناث.

٤ـ الأربعين في أصول الدين. (قياس: ١٧× ٢٤/ غلاف كرتونيه)
لحجة الإسلام الإمام الغزالي/ تحقيق: د. محمد نجدت المحمد، مدرس الفقه الإسلامي وأصوله في كلية الشريعة ـ جامعة دمشق.

٥ـ تذكرة الراحلين، بلقاء رب العالمين. (قياس: ١٤× ٢٠/ غلاف كرتونية)
وقصة وفاة سيد المرسلين ﷺ والخلفاء الراشدين.
تأليف: راتب عبد الواحد ومأمون محمد البني

٦ـ مختصر شعب الإيمان. (قياس: ١٤× ٢٠/ غلاف سلفان)
للحافظ البيهقي/ اختصره الإمام أبو المعالي عمر بن عبد الرحمن القزويني / تحقيق: عبد الحميد الدرويش.

٧ـ العلمانية الإيمانية في الإسلام. (قياس: ١٤× ٢٠/ غلاف سلفان)
تأليف: محمد بشير نويلاتي.

٨ـ رفاق هذا الكون، (قياس: ١٤× ٢٠/ غلاف سلفان)
ستجتمع بهم إن شاء الله / تأليف: محمد بشر نويلاتي.

٩ـ رسالة جلية، في شرح المقدمة (قياس: ١٢× ١٧ غلاف سلفان)
الجزرية، في علم التجويد/ شرحتها: المربية ابتسام محمد البني، إجازة في الشريعة من جامعة دمشق،
ويليه: هداية الرحمن في تجويد القرآن/ للشيخ عبد الوهاب دبس وزيت

١٠ـ رحلة عائلية في آفاق (قياس: ١٧× ٢٤/ ٤ لون مصور/ غلاف كرتونيه)
الأربعين النووية/ تأليف: محمد نزار حمصي

١١ـ الناشئة تسأل... (قياس: ١٧×٢٤/ ٢ لون/ غلاف سلفان)
والرسول ﷺ يجيب...
تأليف: عبد الرحمن خلاَّف ـ فكرة: محمد نزار حمصي